

الشعر العراقي

في القرن السادس الهجري

مؤلفه عبد السوادي

دار
الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام - الجمهورية العراقية

سلسلة دراسات

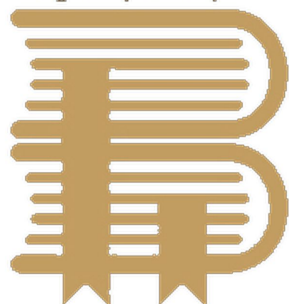
١٩٨٠

(٢١٥)

الشعر العراقي في القرن السادس الهجري

منقول عن عبد الوهاب

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه يديل < mktba.net

المقدمة

على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت الادب العباسي، فإن الباحث يجد ان الاكثريّة المطلقة من الباحثين انصرفوا الى الفترات المتقدمة من العصر العباسي كالقرن الثاني والثالث والرابع، حتى اذا وصلنا الى اواخر القرن الخامس وما بعده فسوف تشج الاباحث وتندر، وهذا القليل النادر منها لا يتناول سوى بعض اعلام النحاة كابن السجري وابن الخشاب.

ان صعوبة الوصول الى بعض مصادر الفترة الاخيرة من الدولة العباسية، وكذلك المستوى المتواضع الذي يغلب على شعرها، لا يبرران هذا الاهمال الذي لقّيته من جمهور الدارسين والباحثين.

لقد حاولت في رسالتي هذه ان اصل ما انقطع من دراسات عباسية، فبذلت ما استطيع كي اعرف الناس على حال الشعر العربي العراقي قبل سقوط دولة بني العباس سنة ٦٥٦ هـ.

ان حدود العراق في القرن السادس تختلف عن حدوده في العصر الحديث وخاصة من ناحيتي الشمال والجنوب، فياقوت الحموي (المتوفى ٦٢٦ هـ) يحدد العراق في ايامه قائلا: «... اول العراق في شرقي دجلة العلت^(١)... وفي غربي دجلة حَرَب^(٢)» ثم تمتد الى آخر اعمال البصرة من جزيرة عبادان... ومن العُذْب بالقادسية^(٣) الى حلوان^(٤)... «^(٥)، وابن الاثير (المتوفى ٦٣٠ هـ) يشير الى أن العراق هو المسافة الممتدة بين البصرة وتكريت^(٦)، وهذا التحديد للعراق من الناحية الجغرافية يفهم ايضا من

(١) موقعها بين عُكْبَرَا وسامراء. معجم البلدان ٦/٢٠٩.

(٢) موقعها بين بغداد وتكريت.

(٣) أي قادسية الكوفة لا قادسية سامراء. معجم البلدان ٧/٦.

(٤) موقعها في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد.

(٥) معجم البلدان ٥/١٥٩.

(٦) الكامل في التاريخ ٨/٣٠٥ (ط). الاستقامة، وانظر ايضا حول هذا الموضوع: نصرة الفترة ٢٦١،

الفخري ص ٣١٢ (ط). دار صادر.

تقسيمات العماد الكاتب (المتوفى ٥٩٧ هـ) في الخريدة، لأن القسم العراقي منها لا يحتوي على شعراء الموصل ونواحيها.

وبعد تحديد العراق لا بد من تحديد المراد بالشعر العراقي .

ان اعدادا غفيرة من الناس في الفترة التي ادرسها قضت فترات طوالا تطلب العلم في العراق، واستقر بعضها فيه بعد انتهاء مرحلة الدراسة، كذلك هجرت العراق، لاسباب كثيرة، طوائف من العلماء والادباء الى الاقطار المجاورة واستقرت فيها، فكيف نعرف الشاعر العراقي؟

لقد اخترت في هذا الموضوع المبدأ الذي التزم به العماد الاصفهاني في خريدته، وهو ان العراقي كل من ولد في العراق، وان ترك العراق بعد ذلك ومات في بلاد اخرى .

ان القرن السادس الهجري يبدأ من الناحية التاريخية سنة ٥٠٠ هـ، وينتهي سنة ٥٩٩ هـ. أما من الناحية الادبية فان الامر يختلف والآراء تتباين، على الرغم من الاجماع على ان الظواهر الادبية لا يمكن اخضاعها لاحداث التاريخ وسنواته . وقد اخترت مذهباً وسطاً فبدأت سنة ٥١٦ هـ حتى اواخر سنة ٦١٦ هـ، ولم تتجاوز هذين التاريخين الا نادراً حين اجد ان التاريخ يكاد يخلق الفن .

اما منهج الدراسة فقد ساهمت في اختياره عدة اعتبارات منها طبيعة المادة الشعرية وتنوعها، ومنها ان الرسالة كتبت عن فترة تكاد تكون مجهولة المعالم غير واضحة السمات، ولذلك حاولت ان اجمع بين دراسة شخصيات الشعراء المختلفة والتيارات أو الاتجاهات الشعرية البارزة.

ومن اصول البحث العلمي ان تدرس الناحية التاريخية التي احاطت بنتاج الادباء . وقد يختصر بعضهم هذه المقدمة التاريخية اختصاراً، وربما مال بعضهم الى اسقاطها وحذفها اذا كان العصر واضحاً بينما قد كثرت الدراسات التي تناولته، وهو امر لا ينطبق بأية حال من الاحوال على القرن السادس .

فالفصل الأول - وهو ثلاثة اقسام - دراسة تاريخية للفترة ومحاولة لفهم الاحداث والظروف التي كانت سائدة يومذاك .

لقد درست في الناحية السياسية كيف استقل العراق عن السلطة السلجوقية بعد سنة ٥٤٧ هـ، بفضل جهود الخليفة المقتفي لامر الله (المتوفى ٥٥٥ هـ) ومساعدة وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة (المتوفى ٥٦٠ هـ).

وفي الناحية الاجتماعية درست اثر السياسة السلجوقية في افقار العراق، ومدى الدور الذي لعبه العيارون في نشر الفوضى بين صفوف الناس، وصلة القبائل العراقية بالخراب والدمار الذي اصاب المدن العراقية في تلك الفترة. وفي ختام هذا القسم اشترت الى ما عرف به بعض القادة العباسيين من ظلم وجبروت كان له اثره في قصائد الشعراء ونفوس الناس.

وفي القسم الثقافي من الناحية التاريخية هذه درست اهم الظواهر الثقافية في القرن السادس، فدرست التعصب المذهبي والعلمي، وأوضحت التطور الكبير الذي اصاب حركة التأليف، ثم عرجت على انشاء المساجد والمدارس والدور الكبير الذي كان لها في الجانب الثقافي، على الرغم من التعصب المذهبي الذي وافق ذلك. وختم الفصل الاول بالاشارة الى الربط ومكانتها في الناحية الثقافية.

اما الفصل الثاني فهو استعراض عام لاشهر شعراء القرن السادس مع بيان الاتجاه العام لكل منهم.

ففي القسم الاول منه درست اشهر المحافظين من شعراء القرن السادس وهو الحيص بيص (المتوفى ٥٧٤ هـ) الذي يمثل رافدا شعريا فريدا في تلك الفترة.

وفي القسم الثاني درست شعراء «المحافظة الجديدة» كالابله البغدادي (المتوفى ٥٧٩ هـ) وابن المعلم الواسطي (المتوفى ٥٩٢ هـ).

وفي القسم الثالث من هذا الفصل حاولت الالمام باشهر من نظم الشعر من رجال الطبقة العليا العباسية كالخلفاء والوزراء وامراء بني مزيد وآل ابي الجبر.

اما القسم الرابع والآخر من الفصل الثاني فقد درست فيه شعر العلماء كالنحاة والمؤرخين والاطباء وعلماء الفلك، وقد وقفت عند المبالغات التي ردها المؤرخون عن شعر بعض العلماء من ناحيتي الجودة والكثرة.

ولا يخفى ان كبار القادة وكذلك العلماء ليسوا من الشعراء المحترفين ولكن اسقاطهم من بين شعراء الفترة يخل بالصورة العامة التي احاول ان ارسمها للحركة الشعرية في القرن السادس وفنونها المتباينة المختلفة.

وفي الفصل الثالث درست اشهر اغراض الشعر المحافظ وهي المدح والهجاء والغزل والثناء.

ففي المدح وقفت عند العوامل التي أثرت في هذا الفن، ثم درست تطور هذا النوع

من الشعر في القرن السادس من ناحيتي الشكل والمضمون، وبينت اهم عيوب المدح في هذه المرحلة.

وحين درست الهجاء، نظرت في اقسام المهجوين وضروبهم اعتمادا على النصوص المتوفرة، ودرست اساليب الهجاء ومعانيه.

وفي دراسة الغزل وجدته على ضريين: الاول الغزل الذي اعتاد الشعراء ان يبدأوا به قصائد المدح، والثاني هو الغزل الذي ينظم ليغنى به. ومن خصائص الغزل التي وقفت عندها غلبة التقليد عليه وندرة التجديد.

وقد ختم هذا الفصل بدراسة الرثاء وهو فن قصر شعراء القرن السادس فيه عن اسلافهم تقصيرا بيئا.

وفي الفصلين الرابع والخامس درست اهم تيارين في الشعر المحافظ وهما التيار الديني والتيار المضاد له اعني شعر الخمر والمجون.

اما الاتجاه الديني فقد درسته من ثلاث نقاط هي السياسة، والفكر، والدين المجرد، وهذا القسم الاخير يشمل مدح الرسول ﷺ والتصوف.

وعندما درست شعر الخمر في الفصل الخامس اشرت الى دور التقليد والمحاكاة في احتلال بنت الحان لرقعة واسعة من ادب الفترة، ثم درست الخمر وكذلك الغزل بالمدح من ناحيتين اثنتين هما مقدمات قصائد المدح، وتلك المقطوعات المستقلة عن المدح.

وفي خاتمة الفصل الخامس درست المجون واشرت الى ان المؤرخين ربما وصفوا بعض الشعراء بالمجون او السخف وغيرهم احق منهم بهذه الصفة، ثم لاحظت ان كثرة الشعراء الماجنين تقابلها شحة في النصوص المتوفرة.

اما الفصل السادس والآخر من الرسالة فهو الدراسة الفنية.

ولا بد من الاشارة الى انني افردت هذا الفصل الاخير للجوانب الفنية العامة التي لا تخص فنا او شعرا بذاته، وبعبارة اخرى ان الجوانب الفنية للفنون الشعرية مثل المدح والهجاء والغزل ذكرت عند دراسة هذه الفنون فلا موجب لتكرارها في نهاية الرسالة. وفي اعتقادي ان تأجيل الدراسة الفنية كلها الى نهاية الرسالة يساعد على تفكيك الموضوعات المتصلة ويجعل الموضوع الواحد اشلاء مبعثرة.

الفصل الأول
دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية
في العراق في القرن السادس

(الحياة السياسية)

قبل دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العراق طوال القرن السادس الهجري، لا بد من الاشارة الى ان هذه الدراسة ستكون موجزة، سريعة، لا تستهدف التفاصيل، ولا تنشئد الاحاطة والشمول، فلست من رجال التاريخ، وانما سأحاول الوقوف عند النواحي التاريخية التي كان لها اثر مباشر أو غير مباشر على الجوانب الأدبية، اذ لا يمكن ان نفهم الأدب بعيدا عن الحياة المحيطة به .

يمكن أن نلاحظ فترتين مختلفتين في التاريخ السياسي العباسي في المائة السادسة، هما الفترتان اللتان تفصل بينهما وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة ٥٤٧ هـ، لقد كان خليفة بغداد قبل هذه السنة لا حول له ولا قوة، وانما كل شيء بيد السلطان السلجوقي . وقد حكم خلال فترة الضعف والتبعية هذه: المستظهر بالله «٤٨٧-٥١٢ هـ»، وابنه المسترشد بالله «٥١٢-٥٢٩»، والراشد بالله «٥٢٩-٥٣٢»، ابن المسترشد بالله، ثم المقتفي لامر الله «٥٣٢-٥٥٥». الذي نهض العباسيون في اواخر عهده، واستطاعوا التخلص من السيطرة السلجوقية . اما فترة القوة والاستقلال، فقد تولى الخلافة فيها- باستثناء المقتفي لامر الله- ابنه المستنجد بالله «٥٥٥-٥٦٦»، والمستضيء بأمر الله «٥٦٦-٥٧٥»، ابن المستنجد بالله، ثم الناصر لدين الله «٥٧٥-٦٢٢»، ابن المستضيء وقد بلغت السلطة العباسية غاية قوتها ايام الناصر، وبه ختم خلفاء بني العباس العظام .

وسأبدأ بدراسة الفترة الاولى «٤٨٧ - ٥٤٧» :

كان العراق طوال هذه الفترة اقلها تابعا للامبراطورية السلجوقية، وكان الخليفة العباسي موظفا يتلقى الأوامر من رئيسه الاعلى سلطان السلاجقة في ايران، وكان في بغداد سلطتان : سلطة الخليفة، وهي ضعيفة واهية، وسلطة نائب السلطان، وهي القوة الحقيقية المؤثرة .

اما العلاقة بين الخليفة والسلطان، فيمكن تصورها من قول العماد الإصفهاني : «وكان اهون ما عندهم - سلاطين السلاجقة - خلاف الخليفة وعناده، وتمردهم عليه بأن

يحصل مرادهم لمراده... ولهم مطالب من الديوان العزيز، لا يفي بها خواصه، ومغارم تلحقها منهم، يتعسر منها خلاصه، والحرم من جنائياتهم خائف... والرعية مروعة، والسعاية مسموعة، فلا الدين يزعهم، ولا العقل يردعهم، ولا الحياء يمنعهم، ولا القليل يقنعهم، ولا الكثير يشبعهم^(١).

وكان الخليفة لا يتخرج من الخطبة ببغداد لسلطانين سلجوقيين في وقت واحد^(٢)، وعلى وزير الخليفة أن ينال رضى السلطان والاعزل، كما حدث لظهير الدين، ابي شجاع، محمد بن الحسين الهمداني، وزير المقتدي. فقد طلب السلطان من الخليفة عزله، فخرج توقيع الخليفة بذلك، وانصرف الى داره، وهو ينشد:

تولاهما، وليس له عدو وفارقها، وليس له صديق^(٣)

وكما يعزل السلطان وزراء الخليفة متى شاء، كذلك له ان يأمر الخليفة باسناد وزارته الى من يحب، كما حدث في استيزار احمد^(٤) بن نظام الملك^(٥).

ونتيجة لهذا كله، صار اصحاب السلطان هم المتنفذون، وليس لأحد أن يقف في وجوههم، وصارت اوامر الخلفاء حبرا على ورق، حتى قال أحد الحجاب:

خليفة الله، قد وقعت لي كرما بذلك الرسم^(٦)، لكن من يسلمه؟
وكل من جئته بالصك، ينبذه نبذ الحصاة، كأن الصك يشتمه
فأه، ان كان هذا قد علمت به وآه، ان كان هذا لست تعلمه^(٧)

ولكن رغم هذا كله، ظلت سلطة الخليفة المعنوية كبيرة، وخاصة على اولئك البعيدين عن بغداد، الذين لا زالوا ينظرون الى الخليفة باعتباره الرئيس الديني الاعلى^(٨).

واذا تركنا بغداد الى منطقة الحلة، وجدنا اميرها صدقة بن منصور المزيدي المعروف

(١) نصرة الفترة: ٢٥٩

(٢) المنتظم ٢١٦/٩، شذرات الذهب ٨٧/٤

(٣) الفخري ص ٢٩٨ (ط. دار صادر).

(٤) وزير للمسترشد، فشكوت سيرته، ولم تطل ايامه فتوفي سنة ٥٤٤ هـ.

ابن الاثير: ٦٠/١١، الفخري ص ٢٧٣ (ط. الموسوعات).

(٥) المنتظم ٢٣٤/٩ - ٢٣٥

(٦) يشبه المرتب، ولكنه يدفع في كل سنة عادة.

(٧) الحريدة/نسخة ايران ١٨٤

(٨) المصدر السابق، وانظر الفخري ص ٣٢ (ط. دار صادر).

بسیف الدولة، قد عظم شأنه وعلا قدره، واستجار به كل خائف من خليفة او سلطان، وكان كثير العناية بأمور السلطان محمد والتقوية ليدنه ضد اخيه برکیارق، حتى انه جاهر هذا الاخير بالعداوة، فزاده السلطان محمد اقطاعا من جملته مدينة واسط، واذن له في أخذ البصرة. ولكن هذه العلاقة المتينة بين السلطان والامير ما لبثت ان تكدرت، فقامت الحرب بينهما بسبب ايواء صدقة لسرخاب الديلمي صاحب ساوه^(١) وآبه، الذي استجار بالامير المزيدي، وقد قتل في تلك الحرب اكثر من ثلاثة آلاف، منهم الامير صدقة نفسه^(٢). وكان من اثر هذه الحرب ان وزعت بلاد بني مزید على الاكراد والأتراك، حتى اقطعوا اكثر مما يستحقونه، فقال خال^(٣) مهذب الدولة ساخرًا:

فقد كثر الاقطاع، حتى اظنه سيقطع كلب بالجزيرة أو هر
سلام على مال العراق، فانه مضى حيث لا نفع لذاك ولا خسر
فشطر لا تراك، ومن دونها النهر وشطر لاكراد، ومن شأنها الغدر
وشطر لكتاب، وما فيهم صدر وشطر لحجاب، وما بهم فخر
وشطر لصبيان اليتامى، ونسوة أيامی^(٤)، وما في بر اكثرهم أجر^(٥)

وقد عفا السلطان محمد عن دبیس بن صدقة، بعد ان وعده بالمحافظة على الهدوء وعدم الفساد. ولكن الامير المزيدي ما لبث ان هدد الخليفة المسترشد بالله انه سيخرب بغداد. فسار الخليفة لقتاله، ودارت الدائرة سنة ٥١٧هـ. على دبیس، ففر، بعد ان وقع عدد كبير من جنوده في الاسر^(٦). ولم تطل فرحة الخليفة بانتصاره على دبیس، اذ وجد نفسه يتجهز لقتال السلطان مسعود. بعد ان قطع الخطبة له على منابر بغداد. لان هذا السلطان قد آوى دبیساً، عدو الخليفة اللدود، فالتقى الجيشان سنة ٥٢٩هـ في معركة خسر فيها الخليفة، فحمل أسيراً مع السلطان الى مراغة^(٧)، حيث قتل، واشاع السلطان ان دبیساً هو

(١) قال ياقوت في معجم البلدان ٢١/٥: «ساوه مدينة حسنة بين الري وهمدان. . وبقرها مدينة يقال لها آوه، فساهو سنية

شافعية وآوه اهلها شيعة امامية، وبينها نحو فرسخين. . ومن نص ياقوت هذا لعل «آبه» مصحفة عن «آوه».

(٢) المنتظم ١٥٦/٩ - ١٥٧

(٣) هو الصارم مرتجى بن بنه البطاحي، قال العماد بصفه: من فحول الشعراء، واعيان الفضلاء، غير انه كان هجاء. . الخريدة ٥٣٢/٤. اما مهذب الدولة فهو احمد بن محمد بن ابي الجبر، ملك البطيحة - وتقع بين واسط والبصرة - ترجم

له العماد بايجاز شديد، ولم يذكر سنة وفاته. الخريدة ٥٢٥/٤ - ٥٢٨.

(٤) أيامي: لا أزواج لمن.

(٥) نصرة الفترة ١٠١ - ١٠٢، وانظر الخريدة ٥٣٤/٤ - ٥٣٥

(٦) المنتظم ٢٤٢/٩ - ٢٤٣، الكامل: ٢٣١/١٠

(٧) مراغة (وقد تعرف بال): اعظم بلاد اذربيجان وأشهرها. . (معجم البلدان. . مراغة).

الذي قتله، ولكي يؤكد السلطان التهمة على دبيس، امر بقتله^(١).

ولم يكتف السلطان مسعود بقتل الخليفة، بل «... بعث فأخذ جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغال واثاث وذهب وفضة... ولم يترك في اصطبل^(٢) الخاص سوى أربعة رؤس من الخيل، وثلاثة من البغال يرسم الماء^(٣)».

وبعد مقتل المسترشد، بويع ابنه الراشد بالله سنة ٥٢٩ هـ، فحاول الأخذ بثأر أبيه، وجهز جيشا لمحاربة السلطان مسعود، فتوجه هذا الأخير الى بغداد - حين علم بنية الخليفة - فدخلها دون مقاومة، لان الخليفة تركها متوجها الى الموصل، فاحضر السلطان الفقهاء والقضاة وخوفهم وهددهم ان لم يخلعوا الراشد بالله، وكتب محضرا فيه: ان ابا جعفر بن المسترشد بدا من افعاله وقبح سيرته وسفكه الدماء المعصومة وفعل ما لا يجوز ان يكون معه اماما، فبويع المقتفي لامر الله سنة ٥٣٠ هـ^(٤).

وهكذا وجد خليفان في آن واحد: احدهما الراشد بالله في الموصل، والآخر المقتفي لامر الله في بغداد. ولكن الاول ما لبث ان قتل في اصفهان سنة ٥٣٢ هـ، باشارة من السلطان مسعود، فخلا الجو للمقتفي لامر الله^(٥).

وحين توفي السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ، بدأت المرحلة الجديدة في تاريخ الفترة التي ادرسها، وهي مرحلة الاستقلال عن السلطة السلجوقية. لقد نجح المقتفي لامر الله، بتأييد ومساندة من وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة، ان يتمرد على سلطان السلاجقة، فحكم العراق - لأول مرة - من اقصى الكوفة الى حلوان^(٦)، ومن حد تكرت الى عبادان^(٧).

وفي اواخر سنة ٥٤٩ هـ، انتصر جيش الخليفة - لأول مرة - على جيش السلاجقة في موقعة «باجزي»، على مرحلتين من بغداد، فاكتشف العراقيون ان الجيش السلجوقي يكرس أن يدحر^(٨)، ولم تمض ايام حتى اجبر سليمان شاه السلجوقي على تقبيل عتبة «باب

(١) نصرة الفترة ٢٠٤ - ٢٠٥، وانظر الخريدة ٢٩/١ - ٣٠، المنتظم ٤٥/١٠.

(٢) كذا بالاصل، ولعل الصواب (الاصطبل الخاص).

(٣) المنتظم ٦٧/١٠.

(٤) المنتظم ٦٠/١٠، ابن الاثير: ١٧/١١.

(٥) وفيات الاعيان ٢٨٨/٤.

(٦) موقعها في آخر حدود السواد بما يلي الجبال من بغداد. (معجم البلدان... حلون).

(٧) نصرة الفترة ٢٦١، الفخري ص ٣١٢ (ط. دار صادر).

(٨) نصرة الفترة ٢٦٥ - ٢٦٧، ابن الاثير: ٧٩/١١.

النوي»^(١) بدار الخلافة، فكان بذلك اول سلطان سلجوقي يفعل ذلك^(٢).

وفي سنة ٥٥٢ هـ زحفت جيوش السلطان محمد على بغداد، تؤيدها جيوش امير الموصل، في محاولة لارجاع العراق الى السلطة السلجوقية، واستمر الحصار مدة طويلة، حتى أن صلاة الجمعة لم تقم في جوامع بغداد - باستثناء جامع القصر - لمدة سبع جمع، وكان للوزير عون الدين بن هبيرة يد طولى في دفع المحاصرين عن بغداد، وتشجيع اهلها على القتال والصمود، حتى تفرقت الجموع وعاد السلطان خائبا^(٣).

وبعد وفاة المفتي لأمر الله سنة ٥٥٥ هـ، بويع ابنه المستنجد بالله.

وكان الخليفة الجديد من احسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلا فيهم، كثير الرفق بهم، ازال كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيئا، وكان شديدا على اهل العبث والفساد^(٤).

وقد التفت المستنجد الى خطر قريب من بغداد طالما اقلق السلطة العباسية، وهم المزيديون اصحاب الحلة، الذين كانوا يستفيدون من ضعف الخليفة العباسي واعتماده على السلاجقة في الحصول على بعض المكاسب، فسار الجيش العباسي الى الحلة سنة ٥٥٨ هـ، واستطاع القضاء على المزيدين واجلاءهم، بعد ان قتل منهم نحو من أربعة آلاف رجل، فما قامت لهم بعدها قائمة^(٥).

وفي سنة ٥٦٦ هـ قتل الخليفة المستنجد بالله، بسبب الصراع على السلطة بين المتنفذين في بلاط الخليفة، فبويع المستضيء بأمر الله^(٦).

ولم يختلف المستضيء عن والده في حسن السيرة والحلم وقلة المعاقبة على الذنوب والصفح عن المذنبين^(٧).

ولعل الخطبة للعباسيين وانتهاء خلافة الفاطميين في مصر سنة ٥٦٧ هـ هي ابرز الاحداث السياسية ايام المستضيء. فقد قطع صلاح الدين الايوبي الخطبة للعاضد^(٨)

(١) نسبة الى الحاجب سعيد النوي المتوفى سنة ٣١٤ هـ. المنتظم ٢٠٣/٦

(٢) نصرة الفترة ٢٦٩

(٣) المصدر المتقدم ٣٠٨، المنتظم ١٠ / ١٦٨ - ١٧٥

(٤) ابن الاثير: ١١ / ١٤٦، الفخري ص ٣١٦ (ط . دار صادر).

(٥) ابن الاثير: ١١ / ١١٩ - ١٢٠، شذرات الذهب ٤ / ١٨١

(٦) ابن الاثير: ١١ / ١٤٥، الفخري ص ٣١٨ (ط . دار صادر).

(٧) ابن الاثير: ١١ / ١٨٧

(٨) هو آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، والعاضد لقبه، واسمه عبد الله، توفي سنة ٥٦٧ هـ. وفيات الاعيان ٢ / ٢٩٤

الفاطمي وخطب للخليفة العباسي، فعمت البشائر بغداد، وغلقت اسواقها، وارسل الخليفة بالخلع الفاتكة الرائقة لنور^(١) الدين محمود بن زنكي ولناثبه صلاح الدين الايوبي^(٢).

ومن البدييات ان يشارك المؤلفون والادباء في المناسبات المهمة، ولذلك الف ابن الجوزي في تلك المناسبة كتابه (النصر على مصر)⁽³⁾، ونظم ابن التعاوذي قصيدة طويلة:

قل للسحاب اذا مرتـــــــــــــــه^(٤) يد الجنايب فارجح^(٥)
عج باللوى فاسمح بدمـــــــــــــــــــــــــــــــــ
يامنزّل الانس الجميـــــــــــــــــــــــــــــــــ
سكنت بك الارام^(٨) من
اين استقلت بالحبيـــــــــــــــــــــــــــــــــ
. . الخ^(٩)

وبعد وفاة المستضيء سنة ٥٧٥، بويع ابنه الناصر لدين الله.

وخلال فترة حكم الناصر لدين الله، كانت الدولة العباسية قد بلغت الغاية في القوة وسعة الرقعة، حتى ان الخليفة لم يقف عند حدود العراق المعروفة بل راحت جيوشه تستولي على مناطق جديدة، كما حدث خلال السنوات ٥٧٩هـ^(١٠)، ٥٨٥هـ^(١١)، ٥٨٩هـ^(١٢).

وفي الوقت الذي كان العراقيون فيه يوسعون رقعة مملكتهم ، كانت جيوش الايوبيين بقيادة صلاح الدين الايوبي تكيل الضربات للصليبيين وتتزعزع منهم القلاع والمدن الواحدة بعد الاخرى ، حتى كانت معركة «حطين» الفاصلة سنة ٥٨٣ ، فلم تقم للصليبيين بعدها

(١) هو ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، توفي سنة ٥٦٩ بمشق، واخباره كثيرة في كتب التاريخ وخاصة كتاب الروستين لابن شامة.

(٢) ابن الاثير: ١١/ ١٤٩ - ١٥٠

(٣) فوات الوفيات ١ / ٢٧٠

(۴) مرتبه: استدرته.

(٥) ارجحن: مال. (٦) الدمن: آثار الديار.

(٧) الحى الاغن: العامر. (٨) الارام: الظاء البض.

(٩) وفيات الاعيان ٦ / ١٥٩ - ١٦٠ ، والقصيدة غير موجودة في الديوان المطبوع.

(١٠) كامل ابن الاثر: ١١/٢٠٣

(۱۱) نفسه: ۱۸/۱۲ (۱۲) نفسه: ۴۳/۱۲

قائمة، وبدأ ظلهم ينحسر عن الشرق تدريجياً^(١)، وكان الخطيب الايوبي يدعو للخليفة الناصر لدين الله، ثم يتلوه باسم السلطان صلاح الدين، كلما اقيمت الصلاة في المناطق التي تم تحريرها^(٢).

وقد اختلف المؤرخون في الحكم على الناصر لدين الله، وهو اختلاف ساهمت فيه مذاهب هؤلاء المؤرخين الدينية، فالمؤرخون من السنة قالوا عنه: «كان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية بخلاف آبائه»^(٣)، وقال مؤرخ سني آخر: «كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً، فخرّب في ايامه العراق، وتفرّق اهله في البلاد، وأخذ املاكهم واموالهم، كان يفعل الشيء وضده»^(٤).

على حين نجد صاحب الفخري، وهو شيعي، يقول عن الناصر: «... كان من افاضل الخلفاء واعيانهم، بصيراً بالامور، مجرباً، سائساً، مهيباً، مقداماً... متوقد الذكاء والفتنة، بليغاً، غير مدافع عن فضيلة علم، ولا نادرة فهم»^(٥).

وهكذا، بعد هذا العرض الموجز للحياة السياسية، يمكن أن يقال بأن عدم الاستقرار هو الطابع لتلك الحياة، فالمعارك لا تكاد تهدأ بين العباسيين والسلاجقة من جانب، حتى تستأنف بين العباسيين والمزيديين من جانب آخر، او بين المتنفذين من السلاجقة انفسهم، كذلك لم يتوقف الصراع من اجل السلطة بين رجال البلاط العباسي بعد أن رحل السلاجقة عن بغداد

(١) نفسه: ٢١٧/١١، وفيات الاعيان ١٧٤/٦

(٢) انظر: عند تحرير بيت المقدس، وفيات الاعيان ٣/٣٧٠

(٣) شذرات الذهب ٩٨/٥

(٤) كامل ابن الاثير: ١٨١/١٢

(٥) الفخري ص ٣٢٢ (ط. دار صادر).

(الحياة الاجتماعية)

ان الجانب الاجتماعي من حياة الناس شديد الصلة والتأثر بما يدور حولهم من احداث سياسية، ولذلك سنجد ان دراسة الحياة الاجتماعية ليست سوى انعكاسات السياسة ورجاها على حياة الناس اليومية. والجوانب التي تستحق الدراسة في هذا الموضوع هي:

١ - اثر السلاجقة:

ادرك السلاجقة ان الخليفة يتحين الفرص لاستعادة سلطاته والانتقام لكرامته، كما عرفوا ان العراقيين يبغضونهم بغضهم لكل محتل مستبد، يعتمد في تسلطه وجبروته على القوة العسكرية. ومن هذا الاساس عمل السلاجقة على نهب خيرات العراق، لتجوع الناس وبث الرعب في نفوسهم وحملهم على الاستسلام والخضوع، فوزير السلطان محمود ابو طالب السميرمي^(١)، اعاد المكوس بعد عشر سنين من ازلتها، وكان يقول: لقد سننت على اهل بغداد السنن الجائرة، وقد فرشت حصيرا في جهنم^(٢). وفي سنة ٥٣١ هـ، وبعد مقتل المسترشد واستيلاء السلاجقة على جميع ما معه من مال، ورد وزير السلطان مسعود يطلب مائة الف دينار، على الخليفة والناس جمعها بالتعاون فيما بينهم، فغضب الخليفة وكتب للسلطان: من اي وجه نقيم لك هذا المال؟، وما بقي الا ان نخرج من دار الخلافة ونسلمها لك..^(٣).

وامعانا في الظلم واستهانة بكل حق، اخذ السلاجقة يبنون قصورهم عن طريق تخريب بيوت الناس وتشريد الابرياء من السكان، ولم يفرقوا في ذلك بين كبير وصغير ولا بين غني وفقير، فمن لم تهدم داره عليه ان يحمل انقراض دور ابنائه جلده كمن يستعان بها على بناء دور اصحاب السلطان، وهكذا يشترك الناس جميعا في المصيبة.

فحين بنى ابو طالب السميرمي، الوزير السالف الذكر، دارا ببغداد، أخرب المحلة المعروفة بالتوتة^(٤)، ونقل آلاتها الى عمارة داره، فاستغاث اليه اهل التوتة، فحبسهم ولم

(١) هو الكمال نظام الدين ابو طالب، علي بن احمد، منسوب الى سميرم، بلدة بين اصبهان وشيراز، قتل ببغداد سنة

٥١٦. المتظم ٢٣٩/٩، وفيات الاعيان ٤٤٢/١.

(٢) المتظم ٢٣٩/٩ - ٢٤١

(٣) نفسه ٦٦/١٠

(٤) كانت تقع في غربي بغداد. قال باقوت انها: عامرة الى الآن، لكنها مفردة شبيهة بالقرية. (معجم البلدان.. توتة).

يخرجهم الا بغرم^(١). وكان السلاطين عندما يزورون بغداد، يسكنون دارا انشئت لهذا الغرض في محلة المخرم^(٢) تدعى «دار السلطنة»، بناها بهروز^(٣) من انقاض بيوت الناس، واستعمل في عمارتها اهل بغداد حتى القضاة والاشراف والاعيان^(٤). اما جنود السلاجقة فليس لهم دور، ولذلك كانوا يتزلون في دور الناس كلما دخل السلطان بغداد^(٥).

وعلى الرغم من كثرة خيرات العراق، فقد كانت الطبقات الفقيرة تشكو من غلاء اسعار المواد الغذائية وصعوبة الحصول عليها. واسباب ذلك عديدة: منها الفيضانات المتكررة التي اغرقت المحاصيل الشتوية والصيفية، دون ان يستطيع السلاجقة التحكم في مياه دجلة والفرات ووضع نظام للري دقيق، حتى غرقت بغداد فتعرض الناس للمجاعة، وخربت البيوت والمحال سبع مرات في القرن السادس^(٦).

ومن اسباب شحة المواد الغذائية وارتفاع اسعارها، الحروب الكثيرة بين السلاجقة انفسهم او بينهم وبين الخليفة، فتزحف الجيوش وتحاصر بغداد وتمنع عنها الغذاء، وكلما امتد اجل الحصار ازداد امل الغزاة بالنصر وازداد جشع التجار في الحصول على ما يريدون، وتعالّت صيحات الناس مطالبة بالقوت. فاذا علمنا ان بغداد حوصرت اربع مرات في النصف الاول من القرن السادس، وان الحصار الاخير سنة «٥٥١ هـ» استمر حوالي شهرين، ادركنا الحالة السيئة التي كان عليها الناس^(٧).

وكان لمركز بغداد الخاص ووجود الخليفة فيها أثره في حرص السلطان وأقاربه على الاحتفال بافراحهم ومسراتهم فيها، فكانت الاسواق تغلق ويجبر الناس على الانشغال باظهار معالم الفرح والزينة، ويكثر في هذه المناسبات العزف والقصف والزمهرير وشرب الخمر، مما يضايق الناس وخاصة المحافظين منهم. ففي سنة ٥٣٢ هـ نفذ السلطان مسعود الى البقش^(٨) كاسا ليشربها، فامتنع خمسة اشهر ثم عزم على شربها، فتقدم الى الولاة بالمحال

(١) المنتظم ٢٣٩/٩

(٢) من محلات بغداد الشرقية. قال ياقوت: وفيها كانت الدار التي يسكنها السلاطين البويهية والسلجوقية.. (معجم البلدان.. مخرم).

(٣) هو بهروز بن عبد الله، ابو الحسن الخادم الابيض الغياثي، كان يلقب بمجاهد الدين، ولي العراق نيفا وثلاثين سنة..

توفي سنة ٥٤٠. المنتظم ١٠/١١٧، ابن الاثير: ٤٣/١١، المختصر المحتاج اليه ٢٦٥/١

(٤) مرآة الزمان ٩٧/٨

(٥) المنتظم ٢٥٩/٩، ١٠/١٠٥

(٦) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٤١٠ - ٤١١

(٧) نفسه ص ٤٢١

(٨) لعله والبقش كون خرم المتوفي في رمضان سنة ٥٤٩ هـ، وكان من بين الذين حاربوا الخليفة المقتفي في موقعة باجزي.

المنتظم ١٠/١٥٩، وابن الاثير: ٧٩/٨٠ - ٨٠

والاسواق ان يشعلوا الشموع والقناديل والسرج في جميع المحال ليلا ونهارا ثلاثة أيام، وظهرت القينات والمعازف والنساء عليهن الثياب الملونات والمخانيث، الى ان شرب الكأس^(١).

وفي التاسع من ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ نفذ السلطان مسعود كأسا لبهرورزليشربه، فشربه، وغلقت بغداد وعمل سماعا عظيما في دار البرسقي^(٢) وحضر عنده جميع القيان واطهر الناس الطبول والزمور والفساد والخمور^(٣). وحين كان السلطان يتزوج أو يرزق بولد، فلا بد ان تغلق اسواق بغداد ويكلف العراقيون باظهار فرحهم، وربما استغللت امثال هذه المناسبات من قبل انصار السلطان فيبالغون في اظهار فرحهم فيفلت زمام الامور وتعم الفوضى^(٤).

٢ - العيارون :

من نتائج ضعف الادارة السلجوقية وعدم قدرتها على حفظ الامن، تزايد نشاط العيارين بصورة ملحوظة خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري، حتى ان الباحث لا يكاد يجد لهم ذكرا حين اصبح زمام الامور بيد الخلفاء بعد سنة ٥٤٧ هـ.

ولم يكتف السلاجقة بالتسليم انهم غير قادرين على كبح جماح العيارين وتخليص الناس من عبثهم بالامن واستهانتهم بالارواح، وانما كبار رجالات الحكم يحمون العيارين في بيوتهم حين يشتد عليهم الطلب، او يشفعون لهم اذا ارادت السلطة معاقبتهم. قال ابن الجوزي عن العيارين: «وكانوا يجتمعون في دور الذين يحمونهم، في دار وزير السلطان ودار يرنقش^{(٥)(٦)}. وزادت الحالة سوءا، ولم يستطع رجال الامن ان يفعلوا شيئا، حين اكتشفوا ان ابن الوزير واخا زوجة السلطان يحتل مرتبة سامية بين صفوف العيارين^(٧).

ولعل اشتراك كبار الشخصيات مع العيارين هو الذي جعل السلطان يصم اذنيه ولا

(١) المتظم ٧٢/١٠

(٢) لعله ابو سعيد آق سقر البرسقي، نسبة الى برسق من ممالك السلطان طغرل بك، ولاء السلطان محمد شحنة بغداد سنة ٤٩٨ هـ، قتل في الموصل سنة ٥٢٠ هـ. ابن الاثير: ١٠/٢٠١، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١، وفيات الاعيان ١/٢١٨

(٣) المتظم ٨٩/١٠

(٤) نفسه ٧٢/١٠، ٨٤-٨٥، ١٠٣

(٥) يغلب على الظن أنه ويرنقش الزكوي والمتوفي سنة ٥٤٠ هـ. قال ابن الاثير ١١/٤٣ - ٤٤: «صاحب اصفهان، وكان ايضا شحنة بالعراق، وهو خادم ارمني لبعض التجاره». وانظر: اخبار الدولة السلجوقية، فهرست الاعلام.

(٦) المتظم ١٠٦/١٠

(٧) ابن الاثير: ١١/٣٩

يعباً باستغاثة الناس من شرور العيارين، ففي سنة ٥٣٨ هـ ضرب العيارون رجلاً بالسيف واخذوا دابة كان قد اشتراها بخمسة وعشرين ديناراً، وعلى اثر ذلك نفر الناس وغلقوا دكاكينهم وغلقوا باب الجامع، وتلقوا السلطان في الميدان فاستغاثوا اليه فلم يجبههم، فعادوا مراراً وهو لا يلتفت^(١).

وكان المفروض ان يرتدع العيارون، او تقل كبساتهم على الاقل، حين يكون السلطان في بغداد، ولكن النصوص التاريخية تؤكد العكس، ففي سنة ٥٣١ هـ جاء العيارون ليلاً الى سفينة قد ملئت رجلاً واموالاً كثيرة لتتجسس الى واسط، فحلوا رباطها من تحت التاج^(٢) واحدروها واخذوا ما فيها، وكان السلطان في بغداد^(٣).

ويبدو ان البغض المتبادل وسوء الظن بين العراقيين وحكامهم من السلاجقة قد لعب دوراً في تعقيد مشكلة العيارين وجعلها تدور في حلقة مفرغة، فحين يطلب شحنة^(٤) بغداد العيارين لمعاقبتهم، يرفض السكان التعاون معه لانه لا يأخذ العيارين وانما يأخذ المستورين بحجة العيارين^(٥). وربما نهب اصحاب الشحنة اموال الناس، وهم يبحثون عن العيارين^(٦).

ولست اشايح الذين يذهبون الى ان العيارين انما يمثلون ثورة الفقراء على الاغنياء، بدعوى ان كبساتهم وهجماتهم كانت موجهة ضد الطبقة العليا وحدها لانها استأثرت بكل شيء^(٧). فلم يكن العيارون يفرقون بين غني وفقير ولا بين نبيل وعامي، وشملت كبساتهم سكان المدينة وأهل الارياف. ففي سنة ٥٣٠ هـ دخل العيارون الى دكاكين البزازين يطالبونهم بالذهب ويتهددونهم بالقتل^(٨). وفي السنة ذاتها صلب اثنان من العيارين في درب^(٩) الدواب لانها جبا الدرب^(١٠). وفي سنة ٥٣٦ هـ أخذ العيارون يكبسون الدور

(١) المنتظم ١٠/١٠٦

(٢) اسم لدار مشهورة، جليلة المقدار، واسعة الاقطار ببغداد من دور اخلافة... (معجم البلدان... التاج).

(٣) المنتظم ١٠/٦٨

(٤) الشحنة: وظيفة جديدة في العهد السلجوقي، ويشرف صاحبها على ولاية بغداد، فهو يشبه المحافظ. تاريخ العراق في

العصر السلجوقي ص ٧٠

(٥) ابن الاثير: ١١/٢٥

(٦) نفسه: ١١/١٩

(٧) العامة في بغداد ص ٣٠٩

(٨) المنتظم ١٠/٥٨

(٩) لم يذكره ياقوت في «مادة درب» من معجم البلدان، على الرغم من ذكره لبعض دروب بغداد كدرب الزعفران.

(١٠) المنتظم ١٠/٥٨

بالشموع ويدخلون الحمامات وقت السحر فيأخذون الاثواب، وكان ابن الدجاجي^(١) الواعظ جالساً ليلته بالحرية^(٢)، فكبسوها وأخذوا عمامته، ودخلوا الى خان بسوق^(٣) الثلاثاء بالنهار وقالوا: ان لم تعطونا احرقنا الخان، وليس الناس السلاح لما زاد النهب. وصاروا لا يظهرون من المغرب^(٤).

٣ - القبائل العراقية :

تكون القبائل العربية والكردية الغالبة العظمى من سكان العراق، وهذه القبائل لم تتعود على الحكم المركزي ولم تعرف الخضوع لخليفة أو سلطان، وكان قسم منهم يمتنع الزراعة حيناً، فاذا شح المطر ونزر المحصول وضعفت سيطرة الحكومة، عادت تلك القبائل الى السلب والنهب وقطع الطرق واغارت على اطراف المدن، وخاصة تلك المدن الواقعة على اطراف الصحاري والبعيدة عن مراكز قوة الحكومة كالكوفة والانبار والبصرة وواسط. وكان في مقدمة الاسباب التي تشجع رجال القبائل على اشاعة الاضطراب وبث الفوضى والرعب عاملان اساسيان :

الاول : انشغال السلطان عنهم بالحروب الكثيرة المتصلة بين السلاجقة والخلفاء او بين السلاجقة انفسهم، وقد مرت الاشارة الى هذا العامل عند دراسة الحياة السياسية .
الثاني : وجود الصحراء المترامية الاطراف، وهي ملجأ الهاربين من الخليفة والسلطان معا .

اما اهم القبائل التي كان لها دور في الناحية الاجتماعية فهي :

أ - المزيديون :

وهم في مقدمة القبائل العربية ذات الاثر الكبير في حياة العراق الاجتماعية . والمزيديون من بني أسد، وكانت مناطق سكنهم تمتد بين بغداد والبصرة ونجد^(٥). وكانت لبني مزيد امارة شغلت البويهيين والسلاجقة وخلفاء بني العباس، ولعبت دورا كبيرا في حياة

(١) هو سعد الله بن نصر... ابو الحسن الواعظ... توفي في شعبان سنة ٥٦٤ هـ. المختصر المحتاج اليه ٧٧/٢، وانظر

هامش المحقق رقم ١٥٤

(٢) محلة كبيرة مشهورة ببغداد... تنسب الى حرب بن عبد الله، احد فواد المنصور. (معجم البلدان... الحرية).

(٣) من اسواق بغداد، وسمي بذلك لانه كان يقوم عليه سوق... كل شهر مرة يوم الثلاثاء. (معجم البلدان... سوق

الثلاثاء)، وانظر: دليل خارطة بغداد ص ٣٤

(٤) المنتظم ٩٥/١٠

(٥) تاريخ ابن خلدون ٥٩٠/٤، معجم قبائل العرب ١٠٨٢/٣

الناس الاجتماعية في النصف الاول من القرن السادس.

ان الامير ابا الاغر ديبس بن صدقة المزيدي من زعماء القرن السادس الذين يشير المؤرخون الى دورهم الكبير في اشاعة الفوضى ونشر الخراب والدمار في ارجاء واسعة من العراق. لقد اشرت في دراسة^(١) الحياة السياسية الى مقتل صدقة المزيدي، والد الامير ديبس، سنة ٥٠١ هـ في معركة مع السلطان السلجوقي ومنذ ذلك الحين كثرت غارات ديبس وهجماته على المدن والقرى.

ففي سنة ٥١٤ هـ ورد أهل نهر عيسى^(٢) ونهر الملك^(٣) مجفلين الى بغداد بأهاليهم ومواسيهم فرعا من ديبس لأنه بدأ بالنهب في أطرافهم^(٤). وفي سنة ٥١٧ هـ اتفق ديبس مع قبائل المنتفق^(٥) على قصد البصرة وأخذها، فسار اليها، وكبس مشهد طلحة والزبير، وعزم على قطع النخل، فسانعه اصحابها عن كل رأس شيئا معلوماً^(٦).

ان الصورة التي يخرج بها الباحث من النصوص المتقدمة تختلف اختلافا كبيرا عن صورة الامير المزيدي ديبس كما رسمتها اقلام مؤرخين آخرين منهم ابن خلكان الذي قال عن ديبس: «... كان جوادا كريما... وهو الذي عناه الحريري صاحب المقامات في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله: «او الاسدي ديبس» لانه كان معاصره فرام التقرب اليه بذكره في مقاماته، ولجلالة قدره ايضا»^(٧).

فأي الصورتين نصدق؟

وللإجابة عن هذا السؤال، لا بد من الإشارة الى أن الصورة القبيحة للامير المزيدي انما نقلها وصورها ابن الجوزي، صاحب المنتظم، كما يتضح من مراجعة مصدرها في هوامش هذه الرسالة. وابن الجوزي ليس محايدا أبدا في الصراع بين العباسيين والمزيديين، بل هو عباسي الهوى دون شك. فاذا عرفنا ان ابن الجوزي كان حنبلي^(٨) المذهب، وان

(١) انظر: الحياة السياسية.

(٢) هو عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس، ونهر عيسى كورة وقرى كثيرة وعمل واسع في غربي بغداد... (معجم البلدان... نهر عيسى).

(٣) كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى، يقال انه يشتمل على ٣٦٠ قرية على عدد ايام السنة... (معجم البلدان... نهر الملك).

(٤) المنتظم ٢١٧/٩

(٥) من القبائل العراقية، وسترده بعد المزيديين.

(٦) المنتظم: ٢٤٥/٩

(٧) وفيات الاعيان ٣١/٢ - ٣٢

(٨) وفيات الاعيان ٣٢١/٢

المزيديين كانوا يعتقدون المذهب الشيعي^(١)، ادركنا الى اي حد سيكون صاحب المنتظم منصفاً في روايته لآخبار الامارة المزيديّة.

ان اختلاف المزيديين عن العباسيين في المذهب الديني كان من بين العوامل المهمة التي استغلها كل من العباسيين والسلاجقة في حربهم ضد بني مزيد، فقد أخذ المسؤول السلجوقي ببغداد «فتاوى فيما يجب على من سب الصحابة، وكتب المحاضر فيما يجري في بلد ابن مزيد من ترك الصلوات، وانهم لا يعرفون الجمعة والجماعات، ويتظاهرون^(٢) بالمحرمات. فاجاب الفقهاء بانه: لا يجوز الاعضاء عنهم، وان من قاتلهم فله اجر عظيم^(٣)». وحين رجع الخليفة الى بغداد سنة ٥١٧ هـ، بعد انتصاره على ديبس، ارادت العامة الانتقام من الشيعة البغداديين، فنبهوا مشهد «باب التين»^(٤) وقلعوا ابوابه فأنكر الخليفة ذلك، وأمر نظراً^(٥) امير الحاج بالركوب الى المشهد وتأديب من فعل ذلك وأخذ ما نهب، ففعل، واعاد البعض، وخفي الباقي عليه^(٦). وليس من المستبعد ان يكون السلاجقة الاثراك هم السبب الاول في اشاعة الفتن الطائفية بين سكان بغداد انفسهم او بين البغداديين وسكان الحلة، كي يضعفوا العرب من الجانبين، ويشغلوهم عن التفكير في الرابطة القومية، وهي قوة يحسب لها الدخلاء الف حساب.

ب - المتفق:

وهذه القبائل كانت تسكن بين البصرة والكوفة^(٧)، وقد مر بنا انها ساعدت ديبسا على غزو البصرة سنة ٥١٧ هـ، وكانت هي نفسها التي ساعدت الجيش العباسي سنة ٥٥٨ هـ في القضاء على المزيديين وابادتهم تحت قيادة زعيمهم ابن معروف، ولذلك سلمت بطائعهم^(٨) وبلادهم اليه^(٩)، وفي سنة ٥٨٨ هـ هاجم بنو عامر البصرة ونهبوا الخانات

(١) المنتظم ١٥٩/٩

(٢) يتظاهرون بالمحرمات: يظهرونها.

(٥) المنتظم ٢٣٦/٩ - ٢٣٧

(٤) باب التين: اسم محلة كبيرة كانت ببغداد. وهي الآن خراب. . ويلصق هذا الموضع في مقابر قريش التي فيها قبر موسى الكاظم. . ويعرف قبره بمشهد باب التين. . وهو الآن محلة عامرة ذات سور مفردة (معجم البلدان. . باب التين).

(٥) هو نظربن عبد الله الجيوشي، ابوالحسن، الخادم، له معروف كثير، وصدقات وافرة. توفي سنة ٥٤٤ هـ. المنتظم ١٠/

١٤١، ابن الاثير: ١١/ ٦٠.

(٦) ابن الاثير: ١٠/ ٢٣٢

(٧) معجم قبائل العرب ٣/ ١١٤٤

(٨) البطائح: مفردها بطيحة، ومنها بطائح واسط، وهي ارض واسعة بين واسط والبصرة، ولعلها المرادة هنا. انظر: معجم

البلدان. . البطيحة.

(٩) ابن الاثير: ١١/ ١١٩ - ١٢٠

بالشاطيء وبعض محال البصرة، ولكن المهاجرين فارقوا البلد بسرعة حين بلغهم ان قبائل خفاجة والمتنقى قد قاربوهم، فسار بنو عامر لقتال هاتين القبيلتين واستطاعوا الانتصار عليهما وغنموا اموال خفاجة والمتنقى، ثم عادوا ثانية الى البصرة فنهبوها ولم يستطع اهلها - ومن اجتمع معهم من اهل السواد^(١) - الدفاع عن المدينة^(٢).

وفي سنة ٦١٦ هـ كثر فساد عشائر المتنقى هذه واذا هم لما يقاربهم من القرى، وقطعوا الطريق وعاثوا في النواحي المقاربة لبطيحة الغراف^(٣)، فشكا أهل تلك البلاد الى الديوان منهم، فأمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معداً، متولي بلاد واسط، ان يسير اليهم، فتجهز وجمع معه من الرجال من تكريت وهيت والحديثة والانبار والحالة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقا كثيراً، وسار اليهم، فكثر فيهم القتل والأسر والغرق وأخذت اموالهم، وحملت رؤوس كثيرة من القتلى الى بغداد في ذي الحجة^(٤).

ج - خفاجة :

وقد كان لهذه القبيلة دور بارز في تهديد ارواح الناس وبث الرعب ونشر الفوضى بسبب النزاع بينهم وبين المزيديين في بعض الاحيان^(٥)، وفي احيان اخرى نجد الصراع بين بطون القبيلة نفسها على السلطة والزعامة يؤدي الى اراقة الدماء والاغارة على أهل السواد^(٦) وتشريدهم، كما حدث سنة ٥٦٨ هـ حين اغار بنو حزن، من خفاجة، على سواد العراق لان الحماية كانت لهم عليه، ولكن صاحب الحلة اخذها منهم وجعلها لبني كعب، وهم من خفاجة ايضاً^(٧).

وقد يختلف المؤرخون في ذكر الاسباب التي تحمل خفاجة على السلب والنهب وقطع الطرق، فابن الجوزي يقول: ان خفاجة امتنعت سنة ٥٥٦ هـ عن دفع الاعشار ولذلك ارسل العسكر اليهم فنهب اموالهم^(٨). على حين يقول ابن الاثير: ان خفاجة طالبوا برسومهم من الطعام والتمر فمنعهم مقطع^(٩) الكوفة ووافقه الامير قيصر شحنة الحلة،

(١) اراد سواد البصرة، وهو القرى والارياف المحيطة بالمدينة.

(٢) ابن الاثير ١٢ / ٣٤

(٣) نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة... وعلى هذا النهر كورة فيها قرى كثيرة. (معجم البلدان... الغراف).

(٤) ابن الاثير ١٢ / ١٤٧

(٥) معجم قبائل العرب ١ / ٣٥١ - ٣٥٢

(٦) السواد: يراد به رستاق العراق وضواحيها... سمي بذلك لسواده بالزرزوع والنخيل والاشجار... (معجم البلدان).

السواد).

(٧) ابن الاثير ١١ / ١٥٩

(٨) المتنظم ١٠ / ٢٠٠

(٩) اي ان الكوفة من اقطاعه، وقد مر في هامش ص ١٦ - ١٧ شرح معنى الشحنة.

وعندئذ افسدت خفاجة ونهبت سواد الكوفة والحلة، فاسرعت اليها العساكر من هاتين المدينتين، ولم ينفع القبيلة اعتذارها وطلبها الصلح، فدارت معركة ضارية ربحتها خفاجة، فقتل الامير قيصر وجرح صاحبه، مقطوع الكوفة، واسرت جماعة اخرى، ومن نجا مات عطشا في البرية، وكثر النوح والبكاء على القتلى ببغداد، وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة في طلب خفاجة، فدخلوا البرية، ثم ارسلوا يعتدرون ويسألون العفو عنهم، فأجيبوا الى ذلك^(١).

ولعل الابله البغدادي اراد هذه الحادثة، حين قال يمدح الوزير عون الدين، من قصيدة مطلعها:

بَعُودُكَ عَادَتْ دَوْلَةَ الْكَرَمِ: الْغَمْرُ^(٢) واصبح طيُّ الجود يؤذن بالنَّشْرِ
قال فيها:

واقسُمْ لو باكرت حي خفاجة لما صبحوا الابراغية^(٣) البِكرِ
ولكن حَمَتهم عن رماحِ والظبي^(٤) وان يهلكوا، ارجاء مهلكةٍ قَفَرِ
مضوا، فطليق القوم منك كأنه يسير أسيراً للمخافة والذعر^(٥)

أما في السنوات التي تكاد تنعدم فيها سلطة الحكومة المركزية، فكانت خفاجة تأخذ القوافل في اطراف بغداد، وفي محلة الحرية مثلا، ولذلك لانعجب اذا سمعنا الابله البغدادي يطلب من احد ممدوحيه سيفاً يحمي نفسه به، لان خفاجة في طريقه، قال من قصيدة:

وفي طرقي خفاجة وهو بطن حلال عندها أكل الحرام
فقلدني - مع الاحسان - غضبا^(٦) يُجلي^(٧) صبحه ليل القتّام^(٨)
كما اضطربت مياه في غدير او اضطربت بروق في غمام
وها أنا اعزل، لولا لسان كعزمك، غير مفلول كَهَام^(٩)
... الخ^(١٠)

وربما كان ابن جبير على حق، حين اشار الى أن من اسباب استيلاء الخراب

(١) الكامل ١١٢/١١

(٢) الكرم الغمر: الكثير.

(٣) الراغية: الابل. البكر: الفتي. أراد: الضوضاء والاصوات الكثيرة لان الفتي من الابل يكون كثير الرغاء.

(٤) الظبي: السيوف.

(٥) ديوان الابله ٥٠ - ٥١

(٦) غضبا: سيفاً قاطعاً.

(٨) القتّام: غبار الحرب.

(٧) يجلي: بالاصل تجلى.

(١٠) ديوان الابله ٤٦ و

(٩) كهام: قليل، ضعيف.

على اكثر الكوفة اواخر القرن السادس، قبيلة خفاجة المجاورة لها^(١).

٤ - فساد الجهاز الاداري:

كان الناس يتوقعون ان تزول متاعهم وآلامهم بزوال السيطرة السلجوقية، لان هؤلاء اجانب تحكموا في رقاب الناس بقوة السلاح. ولم يكن العراقيون يتوقعون ان تزداد الامور سوءا حين استعاد الخلفاء سيطرتهم، فقد ضج الناس بالشكوى وفقدوا الامن على ارواحهم واموالهم، ولعبت الوساطات والرشى دورا كبيرا في افساد الذمم وشراء الضمائر، حتى صار الفرد لا يدري متى تنهب داره، او تصادر امواله، او يلقي به في غياهب السجون، يستوي في ذلك الوزراء وعامة الناس.

لقد عرف بالظلم والتجبر من الوزراء ابو جعفر بن البلدي، وزير المستنجد بالله، فقتل سنة ٥٦٦ هـ، ثم القى في دجلة، بعد ان قطع^(٢). وفي هذا الوزير قال ابن التعاويذي:

يا قاصدا بغداد، جز^(٣) عن بلدةٍ للجور فيها زخرة^(٤) وعباب^(٥)
ليست - وما بعد الزمان - كعهدا ايام يعمر ربعها الطلابُ
الى ان يقول:
والناس قد قامت قيامتهم، فلا انسابُ بينهم ولا اسبابُ
والمرء يُسلمه أبوه وعريسه^(٦) ويخونه القرباء والأحبابُ
لا شافعاً تغني شفاعته، ولا جانٍ له مما جناهُ متابُ
شهدوا معاذهم، فعاد مُصدّقاً من كان قبْل بيعته يرتابُ
... الخ^(٧)

كذلك عرف بالظلم وزير الناصر لدين الله، ناصر بن مهدي، حتى اضطر مظفر الدين سنقر، وهو من اكابر مماليك الخليفة، الى الهرب منه الى الشام سنة ٦٠٣، فلما قبض على الوزير سنة ٦٠٤ هـ، عاد الى بغداد^(٨).

ومن هؤلاء قطب الدين قايماز، قائد جيش المستضيء، حتى اضطر الخليفة أن يستنجد بالعامّة عليه قائلا: «مال قطب الدين لكم ودمه لي»^(٩).

(٢) ابن الاثير ١١/ ١٤٦

(٤) زخرة: امتلاء.

(٦) عريسه: زوجته.

(٩) ابن الاثير: ١١/ ١٧٣

(١) رحلة ابن جبير ص ١٨٧ (ط. دار صادر).

(٣) لعلها «حده» كما في وفيات الاعيان ٩٣/ ٤

(٥) العباب: ارتفاع السيل.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٧ - ٤٨

فاذا تركنا الوزراء ومن في منزلتهم الى الطبقة التي تلي هؤلاء، وجدنا الامرا لا يختلف. فالقاضي يحيى بن سعيد بن المُرْخَم البغدادي، كان شديد البطش، ظالما، حتى عد ابن الاثير من حسنات المستجد بالله، القبض على هذا القاضي واسترداد اموال الناس منه^(١).

وفي ابن المُرْخَم هذا، قال هبة الله بن الفضل:

يا ابن المُرْخَم، صِرْتَ فِينَا قَاضِيًا خَرِفَ الزَّمانُ تَراهُ أَم جُنَّ الْفَلَكُ؟
ان كنت تحكم بالنجوم، فربما اما بشرع محمد، من اين لك^(٢)؟

وفي سنة ٥٩٦ هـ مات في حبس الناصر لدين الله نائب الشرطة بباب النوبي^(٣)، ويعرف بابن المرأة، لانه كان ظالما جبارا، وقد تولى التحقيق معه من خلفه في نيابة الشرطة بباب النوبي. وهذا الاخير كان مثل سابقه سيء الطريقة عاتيا، محبا للظلم، مؤثرا للأذى، وقد مات سنة ٦٠٠ هـ^(٤).

وهكذا ضاعت حقوق الرعية بين مظلوم في الحبس وظالم يتولى التحقيق. وكما عرف بعض المسؤولين الكبار بالظلم والقسوة، عرف آخرون بالسرقة وأخذ اموال الناس دون وجه حق، قال ابن الساعي عن افلح بن أفلح: «كان فيه جلادة وجرأة على اخذ الاموال لنفسه، وكان يؤخذ ويحبس ثم يخرج فيعود الى ما كان عليه اذا رتب في شغل». وحين سئل ابن افلح هذا عن عشرة آلاف دينار أخذها دون حق، قال للسائل: «هذا المال لي ولك وللكتاب وللمشرف والبراطيل^(٥) ونفقة الحبس^(٦)».

ولعل عيوب الطبقة المتنفذة التي ذكرت نماذج منها في الفقرات المتقدمة هي التي حملت أحد شعراء القرن السادس على ان يقول حين سقط الثلج فابيضت الأرض:

يَا صَدُورَ الزَّمانِ لَيْسَ بَوَفَرٍ^(٧) ما رأيناه في نواحي العراق
انما عم ظَلْمُكُمْ سائِرَ الأر ض، فشابَتْ ذَوَائِبُ الْأَفاقِ^(٨)

(١) نفسه ١٤٦/١١

(٢) وفيات الاعيان ٣٠٩/٢

(٣) من ابواب دار الخلافة، وقد مرت الاشارة الى صاحب هذه النسبة ص ٧

(٤) الجامع المختصر ٤٠/٩، ١٣٢

(٥) واحدها برطيل، وهو الرشوة (فارسية). الالفاظ الفارسية ص ٢٠

(٦) الوفور: الثلج المتساقط شتاء. (٧) الجامع المختصر ١٦/٩

(٨) المنتظم ٢٢٦/٩ - ٢٢٧، معجم الادباء ٢٤٢/٧ ط. ماركيبوت الاولى.

(الحياة الثقافية)

على الرغم من سوء الاحوال الاجتماعية والاضطراب السياسي ، فقد كان العراق في القرن السادس يموج بحركة ثقافية لا حدود لها شغلت الجميع على اختلاف مذاهبهم واجناسهم واعمارهم ودياناتهم . لقد كانت المدارس والجموع والمكتبات البغدادية تغص بطلاب العلم وعشاق المعرفة من الاقطار المجاورة والبعيدة على السواء ، حتى ليندر ان نجد عالما اشتهر وذاع صيته في العالم الاسلامي يومذاك دون ان تكون بغداد صاحبة فضل عليه . ويكفي العراقيين فخرا أن المدرسة النظامية ببغداد كانت المعهد الذي يطمح كل عالم ان يدرس فيه^(١) ، وحسبك ان من بين مدرسيها كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الانباري المتوفى سنة ٥٧٧هـ^(٢) ، ومن طلابها الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ^(٣) .

وكم وددت لو سلمت ثقافة القرن السادس من هنات لا تليق بهذا الطود الشامخ ، ولست ادري كيف استطاع العراقيون الجمع بين سعة المعرفة ودقتها وهذا التعصب المقيت؟

ان الحيرة لتعقد لسان الباحث ، وهو يجد خليفة كالمستجد بالله ، ازدهرت جنان المعارف في ايامه ، ومع ذلك يأمر بازهاق نفس اديب لامع كابن حمدون^(٤) ، لانه وجد في كتاب له حكايات توهم غضاضة من الدولة^(٥) . وكاد الشيخ عبد القادر^(٦) الكيلاني يلقي مصرعه ، لولا شعبية الشيخ وخوف الخليفة من الرأي العام ، ولذلك اكتفى بلفت النظر^(٧) . ان هاتين الحادتين تدلان على ان جبروت بعض خلفاء القرن السادس قد اسكت اصواتا لو سمعناها لتغيرت صورة القرن كله .

وكان التعصب المذهبي هو الآخر مما يعكر على الباحث متعته ، وهو يطوف بين

(١) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٨

(٢) وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٠

(٣) معجم الادباء ٥ / ١٤٠ ط . ماركليوث الثانية .

(٤) هو ابو المعالي محمد بن ابي سعد الحسن . . بن حمدون ، الكاتب البغدادي كان فاضلا ذا معرفة تامة بالادب والكتابة ،

والف كتاب التذكرة . توفي بحمص سنة ٥٦٢ هـ . المنتظم ١٠ / ٢٢١ ، الخريدة ١ / ١٨٤ ، وفيات الاعيان ٤ / ١٥

(٥) الخريدة ١ / ١٨٤

(٦) هو مؤسس الطريقة القادرية ومن كبار الزهاد . توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ . المنتظم ١٠ / ٢١٩ ، فوات الوفيات ٢ / ٤ ،

النجوم الزاهرة ٥ / ٣٧١

(٧) ذيل طبقات الخنابلة ١ / ٢٩٢

حقول المعرفة. ان رجلا خطير المكانة كعبد الرحمن بن الجوزي يكتفي بالاشارة العابرة حين يترجم لغير الحنابلة في المنتظم^(١)، ولكنه يقف «وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه» حين يذكر الحنابلة. ومع ذلك يتهم ابن الجوزي معاصره عبد الكريم بن السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ بالتعصب، ويستعيز بالله منه^(٢).

وفي سنة ٥٤٦ هـ سأل ابن^(٣) العبادي ان يجلس في جامع المنصور، فقيل له: لا تفعل، فان اهل الجانب الغربي لا يمكنون الا الحنابلة، فلم يقبل.. فلما شرع في الكلام اخذته الصيحات من الجوانب، ونفر الناس وضربوا بالأجر، ففرق الناس منهزمين كل قوم يطلبون جهة، واخذت عمائم الناس.. وتكلم ساعة ونزل، وارباب الدولة يحفظونه حتى انحدر، وقد طار له^(٤).

ومن المآخذ على التيار الثقافي ايضا أن المنطق والفلسفة - او ما سمي بعلوم الاوائل - كانت من العلوم المحرمة التي اذا اتهم احد بالاطلاع عليها أو اقتناء كتبها، فلا بد أن يرمى برقة الدين ويؤدب ويضرب على يديه بشدة. فقد قيل: أن صدقة بن الحّدّاد، الناسخ الحنبلي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، حفظ القرآن وتفقه وافتى وناظر، لكنه قرأ الشفاء لابن سينا وكتب الفلاسفة، فغير اعتقاده، وكان ييدر من فلتات لسانه ما يدل على سوء عقيدته^(٥).

وفي سنة ٦٠٣ هـ كبست دار عبد السلام^(٦) بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر، وأخرج منها كتب منها الشفاء لابن سينا والنجاة ورسائل اخوان^(٧) الصفا وكتب الفلاسفة والمنطق، فاحرق امام الناس ولعن عبد السلام وتعدى اللعن الى الشيخ عبد القادر واحمد بن حنبل^(٨)، وحين قبض على ابن المرخم القاضي.. اخذت كتبه، فاحرق منها

(١) انظر - مثلا - عند ذكره ابن عساكر في وفيات سنة ٥٧١

(٢) المنتظم ١٠/١٦٣

(٣) هو المظفر بن اردشير، ابو منصور العبادي، كانت له فصاحة وحسن عبارة، وكان يترسل بين السلطان والخليفة، توفي بعسكر مكرم سنة ٥٤٧ هـ، ثم حل الى بغداد. المنتظم ١٠/١٥٠، المختصر المحتاج اليه ١٠/١٥٨، والمستدرك عليه ص ٩-١٠

(٤) المنتظم ١٠/١٤٥

(٥) ذيل الروضتين ص ١٢، النجوم الزاهرة ٦/٨١

(٦) فقيه حنبلي من علماء بغداد، ولي عدة ولايات. توفي ببغداد سنة ٦١١ هـ الكامل ١٢/١٢٦، مرة الزمان ٨/٥٧١، فوات الوفيات ١/٥٧١.

(٧) جماعة تألفت في القرن الرابع الهجري، ولم يعرف من اشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك، انظر مقدمة

(رسائل اخوان الصفا) ١/٥ - ٢٠

(٨) ذيل الروضتين ص ٥٦

ما كان من علوم الفلاسفة، فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب^(١) اخوان الصفا وما يشاكلهما^(٢).

ولعل من المضحك ان يتهم اديب ضرير يدعى كامل بن الفتح توفي سنة ٥٩٦ هـ بأنه كان يدخل على الخليفة الناصر لدين الله ويخلو معه، وانه علمه علم الاوائل وهون عليه علم الشرائع، وقد ادرك ياقوت الحموي سذاجة هذه الحكاية فرواها بتحفظ^(٣)، وكذلك رواها ابن شاکر^(٤).

وعندي ان منع جمهور المثقفين من الاطلاع على المنطق والفلسفة، قد أضر بالعقلية العربية الاسلامية، وجعل اولئك الذين لا يريدون ان تظل عقولهم تدور في فلك الدراسات البدينية وما يتصل بها من علوم اللغة العربية، يبالغون في هجومهم على رجال الدين قائلين: انهم جهال لا يعرفون العلوم العقلية ولا معاني الحديث الحقيقية بل هم مع اللفظ الظاهر^(٥)، وذهب فريق آخر الى القول: بان قسما من علوم الاوائل هذه - والتي يبغضها رجال الدين - تساعد على الايمان وتخدم الدين^(٦).

حركة التأليف:

من ابرز مظاهر الحركة الثقافية الكبرى في القرن السادس الاقبال على التأليف والتصنيف، وهذا الغرام بالكتب والتسابق لاقتنائها، وبذل الاموال الطائلة في سبيل ذلك. فأبو محمد عبد الله بن احمد، المعروف بابن الخشاب والمتوفى سنة ٥٦٧ هـ، كان مولعا بالكتب حتى انه لم يمت احد من اهل العلم وأصحاب الحديث الا وكان يشتري كتبه كلها، بل انه باع داره ليشتري بثمانها كتابا حين وجد ان ما معه من نقود لا يكفي^(٧). وحين غرقت كتب ابي محمد سعيد بن المبارك، المعروف بابن الدهان المتوفى سنة ٥٦٩ هـ، اشاروا عليه ان ييخرها ويصلح ما يمكن منها، فبخرها باكثر من ثلاثين رطلا، فطلع الى رأسه وعينه، فأحدث له العمى وكف بصره^(٨). اما الطبيب النصراني مسيحي بن ابي البقاء المتوفى سنة ٦٠٨ هـ، فبلغ به حبه للكتب انه كان اذا وقعت في يده نسخة من كتاب، وخشى المزايدة

(١) كذا بالاصل، ولعل المراد: وكتب

(٢) ابن الاثير ١١/ ١٠٤

(٣) معجم الادباء ٦/ ٢٠٨ ط. ماركليوث الثانية.

(٤) فوات الوفيات ٢/ ٢٨٢

(٥) شذرات الذهب ٥/ ٤١

(٦) تاريخ الحكماء ص ١٥٤

(٧) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣١٩

(٨) وفيات الاعيان ٢/ ١٢٥

فيه، يخزمه لينقص قيمته ويبتاعه، واشتهر هذا عنه، ورموه بقلعة الدين لاجل ذلك، وبهذه الطريقة استطاع ان يجمع كتباً ليس الى حصرها من سبيل^(١).

وكان بيع الكتب وشراؤها ونسخها وتجليدها، يشغل حيزاً كبيراً من حياة الناس الاقتصادية والمعاشية، فقد كان للكتب سوق تباع فيه كما تباع بقية البضائع، ويقع سوق الكتب هذا بباب بدر^(٢) ببغداد الشرقية^(٣). وعرف ابو المعالي سعد بن علي الخطيري^(٤) المتوفى سنة ٥٦٨ هـ بانه دلال الكتب في بغداد^(٥)، وكان معاشه من الكتب^(٦).

وقد اشتهر جماعة بجودة الخط والنسخ، وكان قسم من هؤلاء ممن يحرص الناس ان يحصلوا على كتب بخطوطهم لما عرفت به من الدقة والجمال، فقد عرف ابو الحسن علي بن عبد الرحيم المعروف بابن القَصَّار اللغوي المتوفى سنة ٥٧٦ هـ بأنه: كتب بخطه الكثير من كتب الادب وشعر العرب. . . والناس يتنافسون في خطه ويغالوا به^(٧). . . وكذلك اشتهر مَوْهُوب بن أحمد المعروف بابن الجواليقي المتوفى سنة ٥٤٠ هـ بأنه: مليح الخط كثير الضبط، صنف التصانيف وانتشرت عنه وشاع ذكره، ونقل بخطه الكثير^(٨). وكان صدقة ابن الحسين المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، يعرف بالناسخ، لانه كان يعيش من نسخ الكتب، وقد نسخ بخطه كثيراً للناس من سائر الفنون^(٩). ومن هؤلاء محدث بغداد عبد الوهاب بن المبارك الانطاقي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ، قال عنه ابن السمعاني: «لعله ما بقي جزء مروي الا وقد قرأه وحصل نسخته، ونسخ الكتب الكبار مثل الطبقات لابن سعد وتاريخ الخطيب^(١٠)».

ولست ارى فائدة في المزيد من الشواهد لانها كثيرة جداً، عرض الاستاذ الفاضل كوركيس عواد في كتابه «خزائن الكتب القديمة في العراق» جملة صالحة منها، فليرجع اليه من شاء.

(١) تاريخ الحكماء ص ٢١٨

(٢) ويسمى ايضا باب البدرية، نسبة الى بدر مملوك الخليفة المعتضد ٢٧٩ - ٢٨٩، انظر: دليل خارطة بغداد ص ١٥٨

(٣) الخريدة ٢ / ٣٤٤، الوافي بالوفيات ٢ / ١١٩، وانظر: دليل خارطة بغداد ص ٨٦

(٤) نسبة الى الخطيرة، وهي قرية كبيرة كانت من اعمال بغداد، من جهة تكريت، من ناحية دُجَيل. . . (معجم البلدان. . . الخطيرة).

(٥) المنتظم ١٠ / ٢٤١، وفيات الاعيان ٢ / ١٠٩

(٦) المختصر المحتاج اليه ٢ / ٨١

(٧) وفيات الاعيان ٣ / ٢٥

(٨) ذيل طبقات الختابة ١ / ٢٠٥

(٩) نفسه ١ / ٣٣٩. ٣٤٠

(١٠) نفسه ١ / ٢٠٢

ويبدو ان مفكري القرن السادس ومثقفيه من مؤرخين ونحاة ولغويين وشعراء كانوا معجبين اشد الاعجاب باسلافهم من مفكري الفترات العباسية السابقة، وخاصة رجال القرنين الرابع والخامس، ولذلك نجدهم يكتون على آثارهم، يذبلون عليها ويشرحونها، وربما نقدوها وبينوا عيوبها وماآخذها، كما يفعل الطالب الذكي حين يشعر ان بإمكانه الوقوف على قدميه، فيبدأ بمناقشة استاذة مناقشة فيها غرور الشباب واندفاعه وحكمة الشيوخ وخبرتهم. فقد دخل رجل على ابن الخشاب، وهو مريض، وعلى صدره كتاب ينظر فيه، فسأله عن الكتاب، فقال ابن الخشاب: ذكر ابن^(١) جني مسألة في النحو، واجتهد ان يستشهد عليها بيت من الشعر فلم يحضره، واني لاعرف على هذه المسألة سبعين بيتا من الشعر كل بيت من قصيدة تصلح ان يستشهد به عليها^(٢). وابن الخشاب هذا الف كتابا سماه «اغلاط الحريري في مقاماته»^(٣).

وكما يحدث دائما، نجد بعض الشباب يستبد بهم الغرور، فلا يكتفون بنقد آراء الشيوخ ولا يحاولون ايجاد الاعذار لهم بل ينكرون جهود اسلافهم، مدعين انهم وحدهم العباقرة العلماء. ومن هذا الصنف في القرن السادس علي بن الحسن المعروف بشميم الحلي المتوفى سنة ٦٠١ هـ، قال: ان الاوائل جمعوا اقوال غيرهم واشعارهم وبوبوها، أما أنا فكل ما عندي من نتائج افكاري، وكنت كلما رأيت الناس مجمعين على استحسان كتاب في نوع من الاداب استعملت فكري وانشأت من جنسه ما ادحض به المتقدم^(٤).

ويعتبر كتاب «اللمع» لابن جني من اشهر الكتب التي اهتم بشرحها نحاة القرن السادس. فقد شرحه ابن الدهان، سعيد بن المبارك، في كتاب سماه «الغرة»، قال عنه ابن خلكان انه: «لم ير مثله مع كثرة شروح هذا الكتاب»^(٥)، شرحه ايضا ابو البقاء العكبري^(٦) المتوفى سنة ٦١٦ هـ^(٧)، وابو محمد بن الخشاب^(٨)، وشميم الحلي^(٩)، وهبة الله بن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ^(١٠)، ومحمد بن علي المعروف بابن حميدة النحوي المتوفى سنة ٥٥٠ هـ^(١١).

(١) العالم اللغوي المشهور المتوفى سنة ٣٩٢ هـ.

(٢) ذيل طبقات الخنابلة ١/ ٣١٧

(٣) معجم الادباء ٥/ ١٣٠ ط. ماركليوث الثانية.

(٤) وفیات الاعيان ٢/ ١٢٤

(٥) نسبة الى عكبرا، قال باقوت انها: بليدة من نواحي دجيل.. بينها وبين بغداد عشرة فراسخ.. (معجم البلدان.. عكبرا).

(٦) وفیات الاعيان ٢/ ٢٨٦

(٧) معجم الادباء ٥/ ١٣٨ ط. ماركليوث الثانية.

(٨) نفسه ٢/ ٢٨٨

(٩) معجم الادباء ٧/ ٤٠ ط. ماركليوث الاولى

(١٠) وفیات الاعيان ٥/ ٩٦

وشرح ابن الجواليقي «ادب الكاتب» لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ^(١)،
وشرح ابو البقاء العكبري كتاب «الايضاح» لأبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ^(٢)،
وشرح ابن الخشاب كتاب «الجميل» لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ^(٣).

اما التذييل على مؤلفات السابقين فمنه: ذيل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي من
تأليف هبة الله بن المبارك، المحدث الرحال المتوفى سنة ٥٠٩ هـ^(٤)، وذيل «دمية القصر»
للبارخزي^(٥) من تأليف سعد بن علي الحظيري، المسمى «زينة الدهر»^(٦).

أما مؤلفات رجال القرن السادس - غير ما تقدم - فكثيرة جدا شملت جميع فروع
المعرفة، حتى لا يدري الباحث كيف يختار امثلة قليلة من هذا الحشد الهائل؟ وماذا كان
يفعل هؤلاء الاسلاف لو قدر لهم ان يعيشوا في غير الظروف السيئة التي احاطت بهم؟

يعتبر ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، من اكثر الناس تأليفا
في القرن السادس، حتى قال ابن خلكان عنه: ان كتبه اكثر من ان تعد^(٧). ومعظم كتب
ابن الجوزي في القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ. ولأبي البقاء عبد الله بن الحسين
العكبري: «اعراب القرآن» و«اعراب الحديث» و«اعراب شعر الحماسة» وغيرها^(٨). ولهبة
الله بن الشجري: «شرح التصريف الملوكي» وكتاب «ما اتفق لفظه واختلف معناه»^(٩).

وفي البلاغة كتب سعد الحظيري «لمح الملح»، قال عنه صلاح الدين الصفدي انه:
قد هذبه ونقحه وسماه «حرم المدح في تهذيب لمح الملح»^(١٠). ولشميم الخلي «انس الجليس
في التجنيس» وكتاب «انواع الرقاع في الاسجاع»^(١١).

اما في الادب فقد الف ابن الشجري «الامالي» و«الحماسة»، وهذا الكتاب الثاني
ضاهى به حماسة ابي تمام الطائي^(١٢)؛ ولابن الدهان «الرسالة السعيدية»^(١٣) في المآخذ
الكِنْدِيَّة^(١٤)، وهو يشتمل على سرقات المتنبي^(١٥)؛ ولابي البركات عبد الرحمن بن محمد

(٢) وفيات الاعيان ٢٨٦/٢

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢٠٥/١

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: ١١٤/١

(٣) نفسه ٢٨٨/٢

(٥) هو ابو الحسن علي بن الحسن، ينسب الى باخرز، احدى نواحي نيسابور، عرف بالفقه والحديث فكان الادب غلب

عليه. قتل سنة ٤٦٧ هـ. معجم الادباء ١٣/٣٣ (ط). دار المأمون، وفيات الاعيان ٣٦٦/٣، شذرات الذهب ٣٢٧/٣

(٦) وفيات الاعيان ١٠٩/٢

(٨) نفسه ٢٨٦/٢

(٧) وفيات الاعيان ٣٢١/٢

(٩) نفسه ٩٦/٥

(١٠) الوافي بالوفيات ١٢٤/٨ مصور.

(١١) معجم الادباء ٥/١٣٨ ط. ماركليوت الثانية. (١٢) وفيات الاعيان ٩٦/٥

(١٣) نسبة الى سعيد بن المبارك، وهو ابن الدهان. (١٤) نسبة الى كندة، حلة في الكوفة، منها ابو الطيب المتنبي.

(١٥) وفيات الاعيان ١٢٤/٢

الانباري كتاب في «طبقات الادباء» جمع فيه المتقدمين والمتأخرين مع صغر حجمه^(١). ولعل هذا الكتاب هو المطبوع باسم «نزهة الالباء».

المدارس :

ان كثرة المدارس والانفاق عليها بسخاء وميل الناس - وخاصة الاثرياء - الى بناء مدارس جديدة او وقف دورهم وقصورهم لتكون مدارس، كل هذا يدل على نهضة ثقافية ووعي علمي لا شك فيهما.

ولا بد من الاشارة هنا الى ان معلوماتنا عن المدارس العراقية خارج بغداد قليلة بسبب عدم الاشارة اليها في المصادر القديمة الا نادرا. فنحن - على سبيل المثال - لا نعرف من مدارس البصرة التي كانت قائمة في القرن السادس سوى مدرستين هما: مدرسة باتكين للحنابلة^(٢)، والمدرسة النظامية^(٣). ولا نعرف من مدارس واسط سوى اربع مدارس هي: مدرسة ابي الفضل الغزنوي، محمود بن احمد المتوفى سنة ٥٦٣ هـ^(٤)، ومدرسة ابن الكيال، نصر الله بن علي الواسطي المتوفى سنة ٥٨٦ هـ^(٥)، ومدرسة خطلبرس^(٦)، ومدرسة شرف الدولة، محمد بن يوام^(٧). ولكن معلوماتنا عن المدارس البغدادية كافية لاعطاء فكرة عن الجانب المدرسي من الحياة الثقافية، وهو ما سأحاوله في الصفحات الآتية.

يمكن أن نجد نوعين من المدارس - من حيث القدم - في القرن السادس وهما:

١ - المدارس التي اسست قبل هذا القرن واستمرت تؤدي رسالتها الى القرن السادس، بل واستمرت بعده فترة طويلة، واشهر هذه المدارس اثنتان هما: المدرسة النظامية المشهورة التي اسسها الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، وافتتحت رسميا سنة ٤٥٩ هـ^(٨)، والمدرسة الثانية هي مدرسة الامام ابي حنيفة، وقد افتتحت هي الاخرى سنة ٤٥٩ هـ^(٩).

(١) نفسه ٢ / ٣٢٠

(٢) نشأة المدارس المستقلة ص ١١، ناجي معروف.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٧٥ / ٦

(٤) الجواهر المضية ١٥٤ / ٢

(٥) نفسه ٢ / ١٩٨

(٦) مدارس واسط ص ١٦، وفي ابن الاثير ١١ / ١٣٠: يشير الى مقتل خطلبرس مقطع واسط سنة ٥٦١ هـ. فلعله هو

مؤسس المدرسة.

(٧) مدارس واسط ص ١٩

(٨) وفيات الاعيان ١ / ٣٩٦

(٩) ابن الاثير ١٠ / ٢٠، وانظر: اخبار الدولة السلجوقية ص ٦٩

٢ - المدارس التي اسست في القرن السادس ومن اشهرها المدرسة الثقتية التي بناها ثقة الدولة، علي^(١) بن محمد الانباري، وافتتحت للدراسة سنة ٥٤٠ هـ^(٢)، وكانت للشافعية. ومن الذين درسوا فيها الكاتب المؤرخ عماد الدين الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ^(٣). ومدرسة الوزير عون الدين، يحيى بن محمد بن هبيرة المتوفى سنة ٥٦٠ هـ للحنبلة، وكانت بباب البصرة في الجانب الغربي من بغداد^(٤). ويبدو ان هذه المدرسة قد زالت من الوجود قبل سنة ٥٨٠ هـ، حين زار الرحالة ابن جبير بغداد^(٥).

ويظهر الصراع المذهبي واضحا في تأسيس المدارس وفي الدراسة والتدريس بها. فلكل مذهب مدارس التي يحاول عن طريقها نشر تعاليمه وتشجيع كبار العلماء على اعتناقها ليستطيعوا التدريس في مدارس المذهب الخاصة. فقد كانت المدارس النظامية - ومنها نظامية بغداد - من اسباب انتشار المذهب الشافعي، لان كل طالب لا يقبل فيها الا اذا كان شافعيًا، وكذلك المدرس^(٦). قال ابو البقاء العكبري - وكان حنبلي المذهب -: جاء الي جماعة من الشافعية، فقالوا: انتقل الى مذهبنا ونعطيك تدريس النحو واللغة بالنظامية، فأقسمت وقلت: لو اقمتموني وصيبتم علي الذهب حتى اتوازي، ما رجعت عن مذهبي^(٧).

ولكن العلماء ليسوا كلهم في صلابة ابي البقاء، فقد انتقل ابوبكر المبارك بن المبارك الملقب بالوجهي النحوي المتوفى سنة ٦١٢ هـ. من مذهب ابي حنيفة الى المذهب الشافعي ليتولى تدريس النحو بالمدرسة النظامية، فقال فيه المؤيد بن زيد التكريتي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ:

ومن مبلغ عني الوجية رسالةً وان كان لا تجدي اليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما أعوزتك المآكل
اخترت قول الشافعي تدينا ولكنها تهوى الذي منه حاصل
وعما قليل انت - لا شك - صائر الى مالك^(٨)، فافطن لما انا قائل^(٩)

وكذلك انتقل عماد الدين ابوبكر محمد بن يحيى السلامي، المعروف بابن الحبير،

(١) هو المعروف بابن الدريني، زوج فخر النساء الكاتبة العالمة شهدة بنت الابري، توفي ثقة الدولة سنة ٥٤٩ هـ. المنتظم

١٦٠/١٠، الخريدة ١/١٤٤، وفيات الاعيان ٢/١٧٣

(٣) الخريدة ١/١٤٤ - ١٤٥

(٢) المنتظم ١٠/١١٥ - ١١٦

(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥ (ط. دار صادر).

(٤) ذيل طبقات الحنبلة ١/٣٦٦

(٦) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٢٧

(٧) ذيل طبقات الحنبلة ٢/١١١

(٨) اراد مالكا خازن النار، لا الامام مالكا، وهو من التورية.

(٩) وفيات الاعيان ٣/٢٩٩

وكان من اعيان الفقهاء علما ودينا وصلاحا وعدالة وورعا، انتقل عن مذهب احمد الى مذهب الشافعي، وسلمت اليه المدرسة الاسبابية^(١) بين الدريين تدريسا ونظرا^(٢).

ان الاختلاف المذهبي بين اهل بغداد، هو الذي جعل مدارسها على ثلاثة أقسام:

١ - المدارس الشافعية: ومنها مدرستان سبقت الاشارة اليهما هما: المدرسة النظامية ببغداد، والمدرسة الثقتية.

٢ - المدارس الحنبلية: ومنها مدرسة ابن هبيرة، وقد اشرنا اليها. ومن مدارس الحنابلة ايضا: مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني بباب الأرج في بغداد الشرقية، وقد بناها القاضي ابو سعد المخرمي، قاضي باب الازج المتوفى سنة ٥١٣ هـ، ولكن الشيخ عبد القادر وسعها وسكن بها، فعرفت به^(٣).

ومن مدارس الحنابلة ايضا مدرسة ابن بكروس، و هو احمد بن محمد بن المبارك الدينوري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، وكانت بدرب^(٤) القيار ببغداد الشرقية^(٥).

٣ - مدارس الحنفية: وأشهرها مدرسة ابي حنيفة بباب الطاق من بغداد الشرقية، وقد سبقت الاشارة اليها. ومن مدارس الحنفية الاخرى: المدرسة التاجية^(٦) التي انشاها تاج الملك ابو الغنائم وزير السلطان ملكشاه سنة ٤٨٢ هـ^(٧).

وحين زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ هـ، قال: «... والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها... ولهذه المدارس اوقاف عظيمة وعقارات محبة تنصير الى الفقهاء والمدرسين فيها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذا البلاد في امر هذه المدارس، والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلص^(٨)». المساجد والجوامع:

المسجد مدرسة المسلمين الاولى، وقد بقي كذلك في العصور العباسية المتعاقبة ومنها المائة السادسة، على الرغم من كثرة المدارس المستقلة عن المساجد.

(١) كانت في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٤٧

(٢) الجامع المختصر ٢١٩/٩ (٣) ذيل طبقات الحنابلة ١/١٦٦ - ١٦٧

(٤) من محلات بغداد التي لم تكن موجودة قبل العهد السلجوقي. تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٤٠٨

(٥) ذيل طبقات الحنابلة ١/٣٣٨

(٦) ثلثت في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٤٧

(٧) الجواهر المضية ١/٣٤١، وانظر تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٣٨١

(٨) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥ (ط. دار صادر).

وكان الاثرياء يتنافسون لانشاء المساجد ووقفها على الناس طلبا للثواب في اليوم الآخر، ولم تدخر الدولة في تشييد المساجد ومنافسة الافراد في هذا المجال.

ولعل اهتمام الدولة الشديد بالجوامع يبدو واضحا في بناء جامع^(١) السلطان، فقد بدأ به السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ تحت اشراف قاضي القضاة، وجلبت اخشابها من سامراء، ولكن بناءه لم يتم الا سنة ٥٢٤ هـ على يدي بهروز الخادم^(٢)

اما الافراد الذين عرفوا بتشيد الجوامع فمنهم السيدة زمرد أم الخليفة الناصر المتوفاة سنة ٥٩٩ هـ، وقد شيدت مسجدا في الحظائر ببغداد الشرقية^(٣). وكذلك شيدت بنت السيدة بنفشة مولاة المستضيء بأمر الله المتوفاة سنة ٥٩٨ هـ مسجدا كبيرا بسوق الخبازين في الجانب الشرقي من بغداد^(٤). واشترى ابو الحسن علي بن احمد العلوي الزيدي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ دارا بدارب^(٥) دينار ببغداد الشرقية وبنائها مسجدا، واشترى كتبا كثيرة اوقفها في المسجد ليتنفع بها الناس^(٦). وفي مسجد الزيدي هذا اوقف ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ كتبه. وعندي ان حرمة المساجد وقديسيتها تتيح للدارسين وتوفر لهم جوا خاصا منعزلا عن صخب الحياة وضجيجها، ولذلك امتاز نتاج المسجدين بالكثرة والدقة واتسمت حياتهم بالخشونة والبساطة. ومن اشهر رجال القرن السادس الذين قامت شهرتهم على ملازمة المساجد والعكوف فيها اثنان:

الأول: عبد الله بن علي، المعروف بسبط الخياط المتوفى سنة ٥٤١ هـ، شيخ العراق ورأس اصحاب الامام احمد، كان طول عمره منفردا في مسجد^(٨) أبي عبد الله بن جرده بنهر^(٩) معل ببغداد الشرقية، وكان أكابر العلماء وأهل بلده يقصدونه^(١٠).

والثاني: صدقة بن الحسين الذي انقطع بمسجده بالبدرية^(١١) شرقي بغداد، يؤم

(١) كان في محلة المخرم قرب دار السلطنة السلجوقية. دليل خارطة بغداد ص ١٠١ هـ ٣

(٢) المنتظم ٦٠/٩

(٣) دليل خارطة بغداد ص ١٨٣ (٤) نساء الخلفاء ص ١١٣

(٥) نسبة الى دينار بن عبد الله، من موالى الرشيد وكان من أجل القواد في زمن المأمون. دليل خارطة بغداد ص ١١٩

(٦) مرآة الزمان ٣٥٦/٨، وانظر دليل خارطة بغداد ص ١٧٤ - ١٧٥

(٧) شذرات الذهب ١٢٢/٥

(٨) لم يذكر هذا الجامع بين جوامع بغداد التي ذكرها مؤلفا دليل خارطة بغداد، بل ذكره ابن جرادة ص ١٦٤، فلعل

الجامع كان فيها.

(٩) محلة ببغداد وفيها دار الخلافة. تنسب الى المعلى بن طريف مولى المهدي وكان من كبار قواد الرشيد. (معجم

البلدان. نهر المعلى).

(١٠) ذيل طبقات الحنابلة ٢٠٩/١

(١١) تسمى ايضا «باب بدر»، كما سبق أن اشرت في الهامش ص ٣٣.

الناس فيه وينسخ ويفتي ويتردد اليه الطلبة يقرأون عليه فنون العلم، وبقي على ذلك نحواً من سبعين سنة حتى توفي سنة ٥٧٣ هـ^(١).

أما أشهر جوامع بغداد في أواخر القرن السادس فهي:

١ - في بغداد الغربية: جامع المنصور، وقد وصفه ابن جبير حين زار بغداد سنة ٥٨٠ هـ، بانه: «جامع كبير عتيق البنيان»^(٢).

ومن الذين كانت لهم حلقة بجامع المنصور علي بن عبيد الله المعروف بابن الزاغوني^(٣) البغدادي المتوفى سنة ٥٢٧ هـ، اذ كان يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة، ثم يعظ بعد الصلاة، ويجلس يوم السبت ايضاً^(٤). وبعد وفاة ابن الزاغوني اخذ حلقة ابو علي الحسن بن محمد الفقيه الواعظ المتوفى سنة ٥٤٦ هـ، وطلبها ابن الجوزي فلم يعطها لصغير سنة^(٥). ومن النحاة العلماء الذين كانوا يجلسون في جامع المنصور هبة الله بن علي بن الشجري، وكان يجلس يوم الجمعة مكان ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ^(٦).

٢ - في بغداد الشرقية: جامع القصر ويسمى ايضاً جامع الخليفة، وهو الجامع الرسمي للدولة العباسية ففيه تقرأ عهود القضاة ويصلى على جنائز الاعيان والعلماء^(٧). . . ومن مدرسي الحديث في هذا الجامع محمد بن عبد الباقي . . ابو بكر ويعرف بقاضي المارستان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ، قال عنه تلميذه ابن الجوزي: كان ثقة فهما ثبثا حجة متفتنا في علوم كثيرة، منفردا في علم الفرائض^(٨). ومن ائمة اللغة الذين درسوا في هذا الجامع ابو منصور موهوب بن احمد . . الجوالقي البغدادي، صاحب «المعرب»^(٩)، وبعده كان ابنه اسماعيل المتوفى سنة ٥٧٥ هـ يدرس الأدب كل جمعة بجامع القصر نفسه^(١٠).

الربط:

كان للربط دور بارز في حياة القرن السادس الثقافية، ففيها كان يلتقي العلماء والمفكرون للدراسة والبحث والمناظرة، وفي مكتباتها يجد عشاق الكتب وهواة المطالعة نفائس الآثار وروائع المصنفات، وفي الربط كان يقيم طلبة العلم المغتربون الذين كانوا يقصدون بغداد للدراسة، وكذلك كان ينزل في الربط كثير من العلماء عند مرورهم ببغداد

(١) ذيل طبقات الخنابلة ١/ ٣٣٩ (٢) الرحلة ص ٢٠١ (ط. دار صادر).

(٣) نسبة الى زاغوني، قال ياقوت: ما اظنها الا من قرى بغداد. (معجم البلدان . . زاغوني).

(٥) نفسه ١/ ٢٢٠

(٤) ذيل طبقات الخنابلة ١/ ١٨٠ - ١٨١

(٧) دليل خارطة بغداد ص ١٢٤ - ١٢٥

(٦) المنتظم ١٠/ ١٣٠

(٨) المنتظم ١٠/ ٩٤، ذيل طبقات الخنابلة ١/ ١٩٤ (٩) وفیات الاعيان ٤/ ٢٥

(١٠) ذيل طبقات الخنابلة ١/ ٣٤٧

وحين عودهم من الحج، فيلقون من شيوخها كل ترحاب وكرم وضيافة.

وقد وجد ببغداد في أنفثة التي ادرسها نوعان من الربط :

١- ربط خاصة بالنساء ومنها: رباط^(١) فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلوته الرازي، وقد سمع منها ابن الجوزي كتاب «ذم الغيبة» لابراهيم^(٢) الحربي، وقال انها: كانت متعبدة واعظة توفيت سنة ٥٢١هـ^(٣). ويرى الدكتور مصطفى جواد ان رباط فاطمة هذا هو اول رباط انشيء للنساء المسلمات^(٤) ومن ربط النساء ايضا رباط دار الفلك بناه الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٦هـ وخصصه بالنساء المتصوفات، وكان قريبا من دجلة^(٥). ومنها رباط السيدة بنفشة، وقد افتتح اول رجب سنة ٥٧٣هـ، وكان قد افرد لاخت ابي بكر الصوفي شيخ رباط^(٦) الزوزني^(٧).

٢ - ربط خاصة بالرجال وهي كثيرة تزيد على الاربعين رباطا^(٨)، ومن اسماء مؤسسي هذا الربط نعلم ان بعض المتفلسفين الموسرين شيّدوا أكثر من رباط، كما فعل بهروز^(٩) وابن^(١٠) رئيس الرؤساء^(١١).

ومن أشهر هذا النوع من الربط رباط ناصر الدين محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الازجي^(١٢) المتوفى سنة ٦٠٩هـ، فقد كان هذا الرباط مجمعا للفقراء وأهل الدين والفقهاء.. وكان الاشتغال فيه بالعلم اكثر من الاشتغال في سائر المدارس^(١٣). ولا يكاد رباط من الربط البغدادية يخلو من مكتبة حافلة بنفائس المؤلفات.

(١) كان في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٥٢

(٢) هو ابراهيم بن اسحاق الحربي، محدث، فقيه، اديب، لغوي، اصله من مرو ومات ببغداد سنة ٢٨٥هـ. تاريخ بغداد ٢٧/٦، المنتظم ٣/٦، فوات الوفيات ٥/١.

(٣) المنتظم ٧/١٠ - ٨.

(٤) مجلة سومر ١٩٥٤/٩٠، مقال بعنوان «الربط البغدادية».

(٥) المصدر السابق، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٣٨٩

(٦) نسبة الى ابي الحسن علي بن محمود الصوفي المتوفى سنة ٤٥١هـ. وكان هذا الرباط مقابلا لجامع المنصور في الجانب

الغربي من بغداد. المنتظم ١٢٤/٨، المختصر المحتاج اليه ٣٧/١

(٧) المنتظم ٢٧١/١٠

(٨) دليل خارطة بغداد ص ٢٥٠ - ٢٥٣

(٩) نفسه ص ٢٥٠

(١٠) هو غصن الدين ابو الفرج محمد بن عبد الله، كان استاذ الدار ايام المستنجد واستوزر في خلافة المستضيء. قتل سنة

٥٧٣هـ. المنتظم ٢٨٠/١٠، ابن الاثير ١٤٥/١١

(١١) دليل خارطة بغداد ص ٢٥١

(١٢) نسبة الى باب الأزج، من محلات الجانب الشرقي من بغداد. (معجم البلدان.. باب الأزج).

(١٣) شذرات الذهب ٣٨/٥

ففي سنة ٥٨٩ هـ فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بانشائه الخليفة الناصر بالحريم^(١) الطاهري غربي بغداد على دجلة، وهو من أحسن الربط ونقل اليه كتب كثيرة من احسن الكتب^(٢). . . وحين توفي ابن الخشاب- وقد سبقت الاشارة الى غرامه بالكتب- تفرقت مكتبته وبيع اكثرها ولم يبق الا عشرها، فتركت في رباط^(٣) المأمونية وقفا^(٤). وكان ابو الحسن علي بن احمد المؤدب المقرئ يتولى خزانة كتب رباط الزوزني^(٥). . .

- (١) كان ائمه بقصر ملكي، وينسب لطاهر بن الحسين بن مصعب، احد قواد المأمون المتوفى سنة ٢٥٧ هـ. دليل خارطة بغداد ص ٩٤
- (٢) ابن الاثير ٤٣/١٢
- (٣) هورباط السيدة زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر، وكان في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٥٢
- (٤) ذيل طبقات الحنابلة ٢١٩/١٠
- (٥) مجلة سومر ١٩٥٤/٩٠

الفصل السَّابِقُ
شعراء محافظوٲون

الاتجاه المحافظ

وقد يسمى ايضا بـ «الشعر التقليدي» او «الشعر القديم» أو «الشعر الكلاسيكي» .

ان كون هذا الشعر محافظا لا يعني بداهة انه تقليد للشعر الجاهلي او للشعر الاسلامي او الاموي ، وانى يكون كذلك وبين العصرين اكثر من خمسة قرون قلبت كل شيء رأسا على عقب ، فتغيرت الدنيا وتبدل المجتمع .

ان المحافظين في القرن السادس ، وان ظلوا داخل الاطار العام للمحافظة من ناحية الشكل والاسلوب والخصائص العامة ، استطاعوا أن يحددوا هنا وهناك بما لا يلحقهم بتيار التجديد كلية ولا يبعدهم عن التيار المحافظ بمعناه العام .

ان الاتجاه المحافظ يشمل شعراء كثيرين تفاوتت حظوظهم من الجودة كما اختلفت ثقافتهم ومكانتهم الاجتماعية ، فمنهم الاعيان كالوزراء وابنائهم واخوانهم ، ومنهم الزعماء والقادة رؤساء الطوائف الدينية وعلماء النحو واللغة والاطباء والفقهاء بالاضافة الى الشعراء المحترفين .

والاتجاه المحافظ في شعر العراق في القرن السادس من اكبر الاتجاهات الشعرية التي سادت تلك الحقبة ، بل هو اكبرها على الاطلاق اذا اخذنا بكمية الشعر التي وصلتنا عن طريق خريدة القصر لعمر الدين الاصبهاني ودواوين اشهر الشعراء كالحيص بيص المتوفي ٥٧٤ هـ ، وسبط بن التعاويذي المتوفي ٥٨٣ هـ ، ومحمد المولد المعروف بالابله البغدادي المتوفي ٥٧٩ هـ ومحمد بن علي المعروف بابن المعلم الواسطي المتوفي ٥٩٢ هـ .

ان معظم الشعر المحافظ الذي وصلنا ، وكذلك معظم الشعر العراقي عامة كان لشعراء بغداديين او ممن اتصل بأهل بغداد بسبب من الاسباب . أما شعراء المناطق البعيدة عن العاصمة في جنوب العراق او شرقه وغربه ، فان معرفتنا بهم تقف عند خريدة القصر وما استطاع صاحبها ان يدونه خلال عمله الرسمي في خدمة الدولة العباسية ، وهو امر يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة شعر الفترة وتقييمه .

ولعل ندرة شعر المرأة العراقية الذي وصلنا، وخاصة المرأة البعيدة عن بغداد، من الاسباب التي ترجح ان معلوماتنا عن هذه الفترة ليست دقيقة، وان مصادرنا اهتمت بشعر الرجال واهملت الشعر النسوي فلم تصلنا سوى قلة من اسماء^(١) الشواعر من أشهرهن الشاعرة الفقيهة ام علي الرشيدة، وقد كانت حية ترزق ايام اقامة العماد الكاتب في البصرة سنة ٥٥٦ هـ. ومن شعرها مقطوعات اوردتها صاحب الخريدة نقلا عن ولدها السيد علي العبدى مثل قولها:

دع سالف الاموات لا تبكهم وابك على نفسك يا جاهل
ما انت بالخالد من بعدهم انت على اثارهم راحل^(٢)

وقولها ترثي:

اقول - ولم ابلغ نهاية فضلها - : بكاك ويكي الوالد المتندم
تشير، فلا يعيا الصواب برأيا يعز علينا كيف تنسى وتعدم
وان تك قد ماتت لنا اسوة بمن مضى قبلها فيما يظن ويعلم
وفاطمة الزهراء بنت محمد - عليها سلام الله - ماتت ومريم^(٣)

١ - شعراء محافظون:

اشرت قبل قليل الى كبر واتساع تيار الشعر المحافظ سواء من حيث عدد الشعراء او كمية الشعر التي وصلتنا وكذلك الأغراض الشعرية التي طرقت، ولا سبيل الى دراسة هذا الركام الشعري الهائل الا عن طريق تجزئته، فكان ان صارت الأغراض الشعرية في جزء مستقل، وخصصت هذا الجزء لدراسة الشعراء المحافظين بعد ان وجدت ان هؤلاء يمكن ان يدرسوا على شكل مجموعات صغيرة تربط بينها صفة مشتركة، تتضح بين وحدات كل مجموعة، وبذلك اصبح الشعراء المحافظون اربع مجموعات كما يلي:

(١) في كتاب «نزعة الجلساء في اشعار النساء» للسيوطي، وردت اسماء ثلاث من شاعرات القرن السادس وشيء من

شعرهن وهن:

أ - سلمى البغدادية ص ٥٨

ب - بدر التمام بنت الحسين بن عبد الوهاب البارغ ص ٢٨

ج - شهدة بنت الابري ص ٦١

(٢) خريدة القصر ٤ / ٦٨٩

(٣) المصدر نفسه ٤ / ٦٩٠

أ - شيوخ المحافظين :

وأشهر هؤلاء اربعة شعراء هم : سعد بن محمد المعروف بالحيص بيص المتوفى سنة ٥٧٤ هـ، وطلحة بن محمد (وقيل احمد) النعماني^(١) المتوفى سنة ٥٢٠ هـ، وابو فراس علي^(٢) بن محمد بن غالب العامري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، ومفلح^(٣) بن علي الانباري المتوفى سنة ٥٦١ هـ.

يمثل هؤلاء الشعراء رافدا فريدا من روافد الشعر المحافظ، لانهم لم يلتزموا بالمحافظة في شعرهم وحده، بل ان بعضهم^(٤) كان محافظا في سلوكه وطريقة تصرفه بين الناس كذلك، فهم محافظون فطرة وسليقة، وحياة. فلا غرابة ان جاء شعرهم صورة صادقة لذواتهم، فكان يمثل اقصى ما بلغته المحافظة في القرن السادس، بحيث يخيل لك - وانت تطالع شعر الحيص بيص مثلا - انك تقرأ في ديوان احد شعراء الفترات المتقدمة كثيرا عن القرن السادس كالعصر الاموي او صدر الاسلام^(٥).

ان الموازنة بين الحيص بيص وزملائه من الذين تطرفوا في المحافظة بين شعراء القرن السادس، تقنع الباحث ان هذا الشاعر خير من يدل على الشخصية الادبية المثالية في تعلقها بالقديم وتعمدها - ربما بدون قصد - الايغال في البعد عن عصرها وأهله حتى ليسعر الدارس ان الحيص بيص غريب بين شعراء القرن السادس وهي غربة حملت احد فضلاء الباحثين المحدثين على اتهام الشاعر بتهمة لم اجد في شعر الرجل واخباره ما يرجحها^(٦).

وعلى الرغم من كوننا لا نملك شعر الحيص بيص كله، فان ما وصلنا من هذا الشعر، وكذلك كثرة الذين ترجموا له ونقلوا اخباره وقسما من شعره، كل ذلك - إذا قورن بما نعرف عن زملائه - يجعل الباحث يخطو على أرض صلبة ويصدر أحكامه وآراءه بعيداً عن الحدس والافتراض حين يتخذ الحيص بيص مثالا لشيوخ المحافظين.

وافضل طريقة يمكن بها تبيان مذهب الحيص بيص في الشعر هي ان نوازن بينه وبين

(١) منسوب الى «النعمانية» وهي بلدة بين بغداد وواسط. انظر ترجمته في: نزهة الالباء ص ٣٨٤، الخريدة ٣/٢ - ٥١، معجم الادباء ٢٦/١٢، ابنه الرواة ٩٣/٢، فوات الوفيات ٤١٦/١، بغية الوعاة ص ٢٧٣

(٢) انظر ترجمته في: الخريدة ١٤١/٢ - ١٧١، المستفاد ٥٩، فوات الوفيات ١٦٢/٢

(٣) انظر ترجمته في الخريدة ٣٠١/٤ - ٣١١

(٤) جاء في وفيات الاعيان ١٠٦/٢ - ١٠٧: «ان الحيص بيص كان لا يخاطب أحدا الا بالكلام العربي... وكان بلبس زي العرب ويتقلد سيفاً. وفي الخريدة ٣٠٢/٤: «ان مفلح الانباري كان يتبادى في انشاده وايراده، ويسلك اسلوب العرب».

(٥) تكملة اكمال الاكمال ص ٣٧١ هـ ١، الغري: السنة ٦ عدد ١٤

(٦) الشعر العربي في العراق ٢/ ٦٤

احد كبار الشعراء من معاصريه وهو سبط بن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ، وبذلك نقف على الفرق الشاسع بين شعر القرن السادس كله وشعر الحيفس بيص ومن تبعه في طريقته واسلوبه.

١ - ان الغالبية المطلقة من مدائح ابن التعاويذي تبدأ عادة بمقدمة غزلية يغلب عليها الطول حتى تزيد على الثلاثين بيتا، وهذه الصفة تكاد تشمل جميع مدائح القرن السادس^(١)، اما الحيفس بيص فعلى خلاف معاصريه ينذر ان يبدأ مدائحه بالغزل الا اذا اصر الممدوح وتوسل الى الشاعر^(٢)، ومن هذا النادر من مديحه الذي افتتح بالغزل قصيدته التي مطلعها:

عفا ضارج من آل ليلي فعائلُ وخفت باعباء القطين الرواحلُ
وهي التي بدأت بالغزل بناء على الحاح الممدوح.

ويبدو لي ان اسقاط الشاعر للمقدمة الغزلية قد اثار دهشة معاصريه، ولذلك احتاج الى تبرير هذه البدعة، فراح يزعم تارة ان ضيقة بمعاصريه وشكواه منهم، قد شغلت شعره وصرفته عن الغزل:

ضقت ذرعا ببني اللؤم، فما تَرَكْتُ شكواي للشعر غزلُ
وغدا ترتيل دمي لهم شاغل القول عن الثغر الرتل^(٣)
وطورا يزعم انه لا يتغزل الا بالمجد والحرب والغارات وهذا هو الغزل الحقيقي في رأيه:

يقولون: جانبت النسب، وانما نسيبي ذكرى غارةٍ وتقحم
وفي غزل العلياء - لو تعلمونه - شفاء غرام وادكار متيم
وكم مغرم بالمجد عز سلوه فاعرض لا يصغي الى قول لوم^(٤)
وقال في مطلع قصيدة ثالثة:

خلّ التغزل للمشوق المغرم فالمجد بين مثقفٍ ومطهم

(١) انظر دراسة الغزل والمدح من هذه الرسالة.

(٢) الديوان المطبوع ١/ ٣٦٧

(٣) الخريدة ١/ ٢٩٩، الثغر الرتل: المفلح الاسنان.

(٤) الديوان المطبوع ١/ ١٠٧ - ١٠٨

رغبت بك العلياء عن خدع الهوى فارغب بنفسك عن مقام مُتِمِّمٍ (١)

ولو عدنا الى سبط بن التعاويذي لرأيناه هو الآخر قد اسقط المقدمة الغزلية ولكن من قصائده الذاتية التي لم تنظم من اجل المدح، فهنا نجد الشاعر يرسل نفسه على سجيته ويطرح عن كاهله التقاليد الموروثة معبراعما يحس ويعاني مرسلا سهام نقده اللاذعات الى اولئك الذين وقفوا بينه وبين ما يريد (٢)، وهكذا نجد عند هذا الشاعر ضربين من الشعر: شعرا نظم للمدح فلا بد فيه من مراعاة التقاليد ومنها المقدمة الغزلية، وشعرا ذاتيا محضا يفهم منه ان شاعرية الأديب وفنه لا بد ان تصور مطامح الفرد وآماله وتشير الى عيوب المجتمع بهدف الاصلاح والتقويم.

اما الحيص بيص فقد اختلط شعر المدح عنده بشعره الذاتي. فهو يعبر عن مطامحه وآماله ويشير الى ما في مجتمعه من عيوب ونقائص من خلال قصائد المدح. اذ يندر جدا ان تقف في ديوانه على قصيدة ذاتية تحس من خلالها ان الشاعر قد خلا الى نفسه وأوقف بعض شعره عليها. وهنا يناقض الشاعر نفسه، فقد مر انه ترك الغزل لانشغاله بالمجد وطلبه، وفي الوقت نفسه اوقف معظم ديوانه على المال والجري وراء الممدوحين.

ان ما وصلنا من غزل الحيص بيص - وهو قليل - كقوله:

يا حرة الابوين إنَّ صَبَابِي عظمت، ومالي في وِصَالِك طَائِلُ
سَدُّ العَفَافِ عَلَيَّ كُلِّ ثَنِيَّةٍ فاهجرُ عِنْدِي لِلوَصَالِ مُمَائِلُ (٣)

وقال في اول قصيدة مدح:

عفا الله عنها، هل يلم خيالها؟ فيقضي على رغم الرقيب وصاها
وما ملتقى الطيف الملم بناقعٍ غَلِيلاً، ولكن منية وضلالها
تذكرتها، والحي للحي جيرة، يهون تلاقيا ويدنو منالها
وقومي وقوم العامرية عصبة كذات البنان ما يُرام انفصالها
رفاق ندئ لا يستقل نوالها واحلاف روع لا يفل نزالها
وفي ألسن الواشين صمت عن الحنا اذا ارشقت بالقول طاشت نبالها

(١) نفسه ١/ ٣٦٠

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٣ ق ١٤٧، ص ١٣٩، ٢٩٥، ٣٠٢

(٣) الحريدة ١/ ٢٩٥

فبت كأني شارب قَرْقَفِيهِ^(١) من الراح لم يفلل شباهها زلالها
أبى حبها إلا غرامي، وأصبحت تقطع إلا من فراقي حبالها
... الخ^(٢).

ان هذه النماذج من غزل الرجل، اذا اضفنا اليها ما يقوله المؤرخون من أنه كان «فقيها شافعي المذهب... وتكلم في الخلاف^(٣)». «^(٤)» وانه كان «عالما لغويا خبيراً باشعار العرب^(٥)». وانه سمع شيئاً من الحديث^(٦)، اصف الى ذلك ما يشيع في ثانيا شعره وبين ابیات قصائده من ميل واضح الى الجد والصرامة والخشونة والصرع^(٧)، كل ذلك يرجح ان الحليص ببص لم يكن من ذوي الطباع التي تحسن الغزل وتجيد في حديث العواطف والصبايات، وقد عرف الرجل من نفسه هذه الخصلة - على ما ارجح - كذلك ادرك انه يجيد ويحسن اذا افتخر او وصف الحرب، ولذلك اضرب عن الغزل صفحا ومال الى الجانب الذي خلق له.

٢ - قصيدة المدح عند ابن التعاويذي وكذلك عند معاصريه عبارة عن وسيلة يستدر بها الشاعر كف الممدوح، ولذلك يحشد الشعراء لها كل ما يعرفون من اساليب، بحيث تميزت المدائح عن سواها من الشعر بخصائص منها: ان الشاعر لا يكف عن اطراء الممدوح والاشادة بكرمه وشجاعته وما عرف به من حميد الخصال، وقد يبالغ في ذلك ويخرج الى نعت ممدوحه بصفات تدل على فساد الذوق ورقة الدين^(٨). كذلك من صفات المدائح عموماً: ان ذات الشاعر وشخصيته لا وجود لها فالقصيدة وقف على الممدوح ومآثره وكل بيت منها له ثمن. وكلما اوغل الشاعر وظل يدور حول صفات الممدوح ويحاول استقصاءها كلما تضاعفت مكافأته.

ويلاحظ ان شاعر المدح وهو يطنب في وصف ممدوحه وما هو عليه من غنى وجاه وسلطة، لا ينسى ان يذكر حاجته وفقره وكثرة عياله وتكالب الزمن عليه، وان يد الممدوح هي التي انقذته من قبضة الفقر وانتزعتة من مخالب الأقدار. وحين اراد شعراء المدح في القرن السادس - وفي مقدمتهم ابن التعاويذي - المبالغة في وصف كرم ممدوحهم وشدة

(١) القرقف: الخمر التي يرعد شاربها. الشبا: مفرد شباة: طرف الشيء وحده.

(٢) الديوان المطبوع ٨٤ / ١

(٣) الخلاف: الموازنة بين المذاهب الفقهية.

(٤) وفيات الاعيان ١٠٦ / ٢

(٥) المنتظم ٢٨٨ / ١٠

(٦) المنتظم ٨٣ / ٢

(٧) انظر الحريدة ١ / ٢٣٦، ٢٣٤، ٣٠٨، ٢٤٦، ٢٤٠ - ٢٤١، ٢٥٧، ٢١١ وغيرها.

(٨) انظر دراسة المدح من هذه الرسالة.

حاجتهم الى عطفهم، لجأوا الى كل ما في اللغة العربية من اساليب والفاظ وعبارات تدل على الذلة وهوان النفس وفقدان الكرامة^(١)، حتى ارتضى الشعراء لانفسهم ان يقولوا لممدوحهم بانهم عبيدهم الاقنان^(٢)، وان الساعة التي قبل بها الشاعر كف سيده من ساعات السعادة المشهودة في حياته^(٣).

اما مدائح الحيص بيص فعل الرغم من كونها - مثل بقية شعر المدح - نظمت من اجل المال، والدليل على ذلك ان الشاعر - وهو يقطن بغداد - كان يقصد بعض ممدوحيه الى اصقاع بعيدة جدا عن موطنه كمرو الشاهيجان^(٤) وسرخس^(٥) ونيسابور^(٦) كذلك نجده يعاتب الخليفة المسترشد بالله لان المال الذي يعطاه اقل بكثير مما يستحق^(٧)، اصف الى ذلك ان الشاعر يعترف بانه مدح من لا يستحق المدح من اجل المال:

كم اذلت المديح في حمدِ قومٍ
كان كفراً بالمجدِ ذاك الحمْدُ

خَرَجَ الْجَا صَدُوقٌ إِلَى الْمِيْمِ —————
ن وما من لوازم العيش بُدُّ^(٨)

وبرغم هذا كله، يشعر الباحث، وهو يطالع معظم مدائح الحيص بيص، ان هذا الرجل ليس شاعرا محترفا متكسباً يقصد اصحاب الغنى والسلطة كما يفعل سواه طمعا في المال او الثراء، بل تشعر انك تقرأ لامير من الامراء أو سيد من السادات جارت عليه الأيام فأذهبت ما كان يملك من مال ورياش وعقارات، ولكنها لم تستطع ان تذهب عزة نفسه واعتداده بها، فهو يخاطب الملوك والوزراء وكبار شخصيات العصر مخاطبة الند للند، ويرسل نفسه على سجيته، مفتخرا بنفسه وبقومه، حتى اذا شعر انه اخذ حصّة الأسد من القصيدة، التفت الى الممدوح يحامله ويذكره بانه ليس شاعرا، وان ما قاله فيه قد بخل به على سواه. بل ان القليل الذي خص الحيص بيص به عمدوحه من اسلوب المدح ولغته التي تتردد على السن الشعراء. فلا شكوى ولا خنوع ولا توسل وتضرع وارقة ماء الوجه، فهو يخاطب السلطان مسعودا مثلا في آخر قصيدة له فيه قائلا:

أَوْفِ فُضْلِي حَقَّوْهُ إِنَّ فُضْلِي رَاحَ فَرْدًا وَأَنْتَ فِي النَّاسِ فَرْدٌ^(٩)
وَقَالَ لَدَيْسٌ^(١٠) بِنِ صَدَقَةٍ:

(١) انظر خصائص المدح من هذه الرسالة.

(٢) الخريدة ٢ / ٢٦، العبد القن: الذي ملك هو وابواه.

(٣) المصدر نفسه ١/ ١٩٣

(۵) نفسه ۱ / ۲۲۸

(۷) نقشه ۱/۳۴۳

(۹) نفسه ۱ / ۱۸۷

(٤) الديوان المطبوع ١ / ١٨٤

(۶) نفسه ۱ / ۱۳۷

(٨) الديوان المطبوع ١ / ١٨٦

(١٠) من الامراء المزيديين، وقد قتل سنة ٥٢٩ هـ. انظر الفصل الاول

حبيبتك حُبِّي شَهْيَ الحَيَاةِ صَمَفَتْ وَتَبَاعَدَ ادْرَانَهَا
 واسخطتُ فيكَ نفوسَ الملوكِ وما راع قلبي غضبانها
 وفارقت اوطاني المونساتِ وعيش البَرِيَّةِ أوطانها
 انا المرء - إن كنت لي منصفاً - دليل المعالي وبرهانها^(١)

بل نجد الحيص ببص يسمي مديحه لأحد الوزراء بأنه «سخاء» من الشاعر قال:
 سخوت له بالملاح حبا وقربة فلا بالندی بلوى، ولا انا أكذبُ

تهنّ بودي، انه لك عدة اعزّ من السيفِ الحسامِ وارهب^(٢)
 وقال لامير الغراف^(٣) المظفر^(٤) بن حماد بن أبي الجبر:

يا ناصرَ الدين ادخرتُ من العلى كَنَزاً، ومثل مودتي لم تذخر
 أغنيكَ حمداً اذ أقولُ، وموسر لم اغنه حمداً، فليس بموسر
 ولئن تعداني الحمام، فربما كنتُ الذخيرةَ للجليلِ الأخطر^(٥)

ويمكن تصور منزلة الممدوح وقومه (آل أبي الجبر) من قول صاحب الخريدة عنه «فكل من يخشى من الخليفة والسلطان يجد عنده المن والمنى والامان فلا يقدر عليه ولا يساء اليه^(٦)» .

ولا شك ان شاعرية الحيص ببص، وترفعه، واباءه هي الصفات التي جعلته ذا مكانة خاصة متميزة بين شعراء عصره فقال:

لا يحفظنك^(٧) حساد زَعَانِفَةٌ صَبْرٌ عَلَى الضَّيْمِ وَرَادَ عَلَى الْكَدْرِ
 مدفعون عن الأبوابِ تقذفهم ايدي المراسم^(٨) قَذَفَ السَّهْمَ بِالْوَتْرِ

(١) الديوان المطبوع ١/ ١٩٤

(٢) نفسه ١/ ١٩٧

(٣) انظر الفصل الاول ص ٢٢ هامش ٣

(٤) كان يلقب بـ «ناصر الدولة»، قال العماد عنه: . . . ملك البطيحة في زماننا . . . قتل سنة ٥٥١ هـ. الخريدة ٤/ ٥٢٩،

اخبار الدولة السلجوقية ص ١٣٧

(٥) الديوان المطبوع ١/ ٢٢١

(٦) الخريدة ٤/ ٥٢٩

(٧) لا يحفظنك: من الحفيظة وهي الغضب.

(٨) المراسم: اراد بهم الحجاب والحرس.

لهم الى النائل المنزور حقيقه^(١) وفي طلاب المعالي هجمة الحمر
ان شاركوني في قول، فلا عجب ما حال ابلِس في التخليد كالخير
انزع الملك الطاعني وسادته ومحجبون عن التسليم والنظر
كانني باذل ما جئت اطلبه عند الملوك، لفرط العز والخطر^(٢)

ولذلك صار ممدوحوه يشعرون بالزهو والخيلاء حتى ان بعضهم كان يدفع له الجائزة
مقدما، ويوسط الوسطاء من اجل قصيدة مدح^(٣)، والبعض الآخر كان يوافق على جميع
شروط الشاعر ومنها: ان يجلس وقت الانشاد على كرسي من ذهب^(٤)، واذا اخطأ الحاجب
فلم يسمح للشاعر بالدخول وجب على سيده ان يعتذر^(٥).

وهكذا عرف الحيص بيص بـ «ملك الشعراء»^(٦)، وقد وصف نفسه بالملك، اكثر
من مرة كقوله:

فلو لحظوا- عن أعين الحق- هميتي رأوا ملك الآمال في زي شاعر^(٧)
وقوله:

مَلِكٌ ثَوَى بِالْجَاهِلِيَةِ رَمَهُ فَبَعَثَهُ مَنَى بِرُكَّةِ زُلْزَلِ^(٨)
وقوله:

إِنِّي مَلِكٌ، وَأَنْتُمْ سَوَاقَةٌ فَاتِ وَقْتُ النِّيبِ تَجْلِيحِ الرِّثَالِ^(٩)

٣- ان دراسة ديوان الحيص بيص تقنع الباحث بأن من خصائص شعره التي ابعده عن
معاصريه والحقته بالقدماء- غير ما تقدم- خصلتان هما اسلوبه الشعري اي طريقته، ولغته.

(١) الحقيقه: السير الشديد.

(٢) الديوان المطبوع ١/ ١٣٢ - ١٣٣

(٣) نفسه ١/ ١٣٢

(٤) نفسه ١/ ٣٥٥

(٥) نفسه ١/ ٣٢٧

(٦) تعليقه ابن جماعة ١١٦

(٧) الديوان المطبوع ١/ ١٠٢

(٨) نفسه ١/ ٩٨، بركة زلزل: مكان ببغداد منسوب الى منصور زلزل الضارب المشهور (معجم البلدان ٢/ ١٥٢)

(٩) نفسه ١/ ١٤٨، النيب: النوق المسنة. التجليح: الاقدام والتصميم. الرثال: صغار النعام.

أ - أما أسلوبه فيتضح حين نجد الشاعر في قصائد المدح يخرج عن الفرض الأصلي للقصيدة الى الوصف ثم يعود ثانية الى المدح بعد أن تكلف جملة أبيات وصف بها ليلة باردة ريحها شديدة ليقول ان ممدوحه - وهو وزير - يطعم الناس في اشباه تلك الليلة قال - بعد ان ترك المدح -

وإذا تَغَبَّرَتِ الفِجَاجُ، وأعصفت
وتَصَادمتْ مِرْقُ البيوتِ كأنها
وتشابه الوحش العزيبُ، ومن هم
فمَجَاسِدَ الفَتَيَاتِ^(٦) أهب كَوَانِسِ^(٧)
حيث المواقد كالموارد قرة
من غير ما مطر ولكن لزبة^(١٠)
آويت ثم قرئت غير مسوف
هوج^(١) تَرَاجمِ^(٢) بالقروم^(٣) البزلِ
في الجَوْ شَغَاغِ^(٤) الغَمَامِ المُثْقَلِ
تحت الطرافِ بقره^(٥) وبأفكل
والمطفل الحَسَاءِ مثل المغزلِ^(٨)
والعائم^(٩) الرعديد مثل المصطي
امهى^(١١) عوارقها عصوف^(١٢) الشَّمَالِ
وَكَفَفَتْ من هم المسيفِ المُرْمَلِ^(١٣)

وفي قصيدة ثانية نجد الشاعر ينتقل من المدح الى وصف السيل، ليقول بعد ذلك ان ممدوحه - وهو من الوزراء - اغزر كرما من هذا السيل:
وما مقبل من قنة^(١٤) الطودِ زاخِرُ
تَظَلُّ له عصم^(١٦) اليفاعِ غَريقَةً
إذا مرَّ بالوعاءِ^(١٧)، وهو مُزَجَجِرُ،
تري شجر^(١٨) الغلانِ فيه كانها
... الخ^(١٩) ثم يقول ان ممدوحه اكرم من هذا السيل - الذي مر وصفه - تماما كما فعل في القصيدة السابقة.

وعلى الرغم من وجود هذا الاسلوب الشعري عند بعض معاصري الخيص بيص كالابله البغدادي مثلا^(٢٠) فان هذا الاخير موجز جدا في هذه الطريقة يعرج عليها مسرعا

-
- (١) الهوج: الرياح العاصفة
(٢) تراجم: تقاذف.
(٣) القروم البزل: فحول الابل التي بلغت التاسعة.
(٤) شغاغ: متفرق.
(٥) القرة والأفكل: الرعدة من البرد.
(٦) أهب: جلبود.
(٧) كوانس: ظباء.
(٨) المغزل: التي لها غزال.
(٩) العائم الرعديد: السابح في الفلاة المرتفع من البرد.
(١٠) لزبة: قحط.
(١١) امهى عوارقها: زادها حدة.
(١٢) عصوف: عاصف، شديد.
(١٣) الديوان المطبوع ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩. السيف المرملة: الفقير الجائع.
(١٤) قنة الطود: اعلى الجبل.
(١٥) المصال: الصيال، العراك والصراع.
(١٦) عصم اليفاع: الوعول التي تسكن المرتفعات.
(١٧) الوعاء: رابية من رمل.
(١٨) الغلان: منابت السلم والطلع.
(١٩) الديوان المطبوع ١/ ٨٦.
(٢٠) ديوان الابله ٥٠ و ١٧٥ وغيرها.

ثم يعود الى الغرض الاصلي من القصيدة دون اطالة ولا عناية بالتفاصيل، على عكس الحيص بيص اذ يتفنن في عرض الصور ويختار الفاظها المناسبة المعبرة ولا يعود الى المدح الا بعد ان يتأكد انه وفى الموضوع حقه وزيادة، حتى ليخطر على البال ان الشاعر يعتمد الايغال في الوصف ورصد اجزاء الموصوف بهدف اظهار البراعة في نعت ما لم يره الشاعر.

ان البحث عن شبيه لطريقة الحيص بيص هذه في العصر العباسي كله لن يسفر عن شيء - بحسب علمي - ولكنها موجودة في العصر الجاهلي حيث نجد الشعراء ينتقلون من المدح الى الوصف ثم يعودون ثانية الى المدح - مثل الحيص بيص في القرن السادس - كقول النابغة الذبياني في قصيدته: «يا دار مية بالعلياء فالسند»:

فما الفرات اذا جاشت غواربه ^(١) ترمي أواديه ^(٢) العبرين ^(٣) بالزبد
يمده كل واد مزبد لجب فيه حطام من الينبوت ^(٤) والخضد ^(٥)
يَظَل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة ^(٦)، بعد الأين والنجد ^(٧)
يوماً باجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد ^(٨)

كذلك نجد الانتقال من الوصف الى الغزل عند أعشى قيس في قصيدته:

ودع هريرة، ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً ايها الرجل ^(٩)؟
وما دام شاعرنا الحيص بيص قد رضي لنفسه ان يتابع الشعراء الجاهليين في اساليبهم، لذلك عمد الى عادة عربية عرفت ايام الجاهلية وهي ايقاد النيران على المرتفعات كي يهتدي بها المسافرون الى حيث يوجد القرى وكرم الضيافة فراح يصف نيران ممدوحه من وزراء القرن السادس وقادته، قال يمدح امير البطائح ^(١٠):

واذا خبت نار اليفاع، فناره تهدي ركاب الخابط المتنور
نار تكاد من المكارم والندى تحبو، فلولا الباس لم تتسعر
رفعت لابلج من كنانة، دابه ضرب الجماجم تحت ظل العثير ^(١١)

وقال في مدح ملك العرب دبيس:

طليق الوجه، اغلب، مزيدي مضيء النار، مرفوع العماد ^(١٢)

(١) الغوارب: الامواج.

(٢) الينبوت: صرب من النبات.

(٣) الخيزرانة: المردى.

(٤) شرح القصائد العشر ص ٤٠٨ - ٩.

(٥) انظر الفصل الاول ص ٢١ مامش ٥.

(٦) (١٢) نفس ٢٤٠ / ١.

(١) الغوارب: ما علا منه.

(٢) العبران: الشيطان.

(٣) الخضد: مائي وكسر من النبات.

(٤) النجد: العرق من الكرب.

(٥) شرح القصائد العشر ص ٣٧٣ - ٧٤.

(٦) الخريدة ٢٤٨ / ١ - ٤٩. العثير: الغبار.

وقال من قصيدة في مدح سلطان السلاجقة طغرل بن محمد مفتخرًا بقومه :

إذا اخذَ النيرانَ قد^(١) مراوَحَ باهداب^(٢) رجافِ العشيّةِ مرعدٍ
ولم يطق العجلان في قبسِ ضَرمَةٍ حفاظًا لما يعرفه من رِيشَةِ اليَدِ
ولاذتْ بفرث^(٣) المودياتِ مع الدُّجى من القر رعيانِ العَزيزِ المبدّد
رأيتْ ضيوفَ الدارميين هَجَعاً لدى خيرِ مثوى من رجالٍ وموقِد^(٤)

ولست ادرى كيف يدرك رجل تركي هذه الصور وهذه اللغة ليجيز الشاعر عليهما؟

ولعل من الأمور التي تثير الفضول وتدعو الى الحيرة أن يحدّثنا التاريخ أن الفيلسوف

الكِندي^(٥) احتج على ابي تمام لقوله يمدح احمد بن المعتصم :

اقدام عمرو^(٦) في سَمَاحَةِ حاتم^(٧) في جِلَمِ احنفا^(٨) في ذكاءِ إياس^(٩) (١٠)

فلم يرض الفيلسوف لشاعر القرن الثالث ان يمدح ابن الخليفة بصفات لم تعد تناسب العصر. ولم اقف على أية اشارة تدل على ان معاصري الحيص بيص قالوا له- ولولتلميحًا- بان شعره من حقه ان ينظم قبل اكثر من خمسة قرون.

ب- من اهم خصائص لغة الشعر في القرن السادس اثنتان: الوضوح الشديد والاكثار من المحسنات البديعية وخاصة الجناس^(١١).

وفي سبيل الخاصية الاولى قل ان نجد في شعر الفترة بصورة عامة كلمة تحتاج ان تراجع من

(١) القر: برد الشتاء.

(٢) اراد بالعجز كله: السحاب المتدلي الثقيل بالماء.

(٣) الفرث: فضلات الحيوان.

(٤) الخريدة ٢٣٢/١

(٥) هو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق، واحد دهره في معرفة العلوم القديمة بأسرها، ويعرف بـ «فيلسوف العرب» توفي سنة

٢٥٥ هـ. الفهرست ص ٣٧١ (ط. مصر)، تاريخ الحكماء ص ٣٦٦ (ط. اوربا).

(٦) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي، الشاعر الفارسي المشهور، توفي سنة ٢١ هـ. الشعر والشعراء ٣٧٢/١ (تحقيق احمد

محمد شاكر)، الاغانى ١٤/ ٢٥ - ٤١ (ط. بولاق)، الاصابة: الترجمة رقم ٥٩٦٥، مقدمة ديوانه.

(٧) هو حاتم بن عبد الله الطائي، الفارس الشاعر الجواد المشهور، يضرب بجوده المثل. توفي سنة ٤٦ ق. هـ. الشعر

والشعراء ٢٤١/١ (تحقيق احمد محمد شاكر)، مجمع الامثال ١/ ١٢٣، الاعلام ١٥٧/٢

(٨) هو الاحنف بن قيس، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاء الفصحاء. توفي سنة ٧٢ هـ. طبقات ابن سعد ٩٣/٧، وفيات

الاعيان ١/ ٢٢٣، ميزان الاعتدال ١/ ١٣١، الاعلام ١/ ٣٧٦

(٩) هو إياس بن معاوية المزني، قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء، توفي بواسطة سنة ١٢٢٠ هـ.

وفيات الأعيان ١/ ٢٢٣، ميزان الاعتدال ١/ ١٣١، الاعلام ١/ ٣٧٦.

(١٠) ديوان ابي تمام شرح الخطيب التبريزي ٢/ ٢٥٠، وانظر وفيات الاعيان ١/ ٣٣٧

(١١) انظر الدراسة الفنية من هذه الرسالة.

اجلها معجما: فقد ابتعد القوم من لغة المعجمات بسبب هبوط المستوى اللغوي للجمهور عامة، حتى صارت الألفاظ والتعابير العامة والدخيلة تحتل حيزا لا بأس به من لغة العصر. وعندي ان شعر ابن التعاويذي يجسد الخصائص اللغوية لشعر الفترة، اقرأ له قوله مادحا:

- ١ - حان اسفار الصباح ودعا داعي الفلاح
 - ٢ - وَسَرَتْ تَحْمِلُ نَشْرَ الْ روض انفاسُ الرِّيحِ
 - ٣ - وَتَغْنَتْ هَاتِفَاتُ الْ ورق^(١)، والعجم الفصاح
 - ٤ - فَاشْفَ بِالْكَاسِ غَلِيلِي وَأَطْفَ بِالرَّاحِ التِّيَاحِي
 - ٥ - مِنْ كَمِيَتْ^(٢) وَرْدَةٌ ذَاتِ شَبَابٍ وَجِمَاحِ
 - ٦ - اوطأت فارسها صَهْ وَةَ لَهْوٍ وَمُزَاحِ
 - ٧ - مِنْ يَدَيِّ مَهْضُومَةٍ^(٣) الْكَشْ حِينَ بِيضَاءَ، رَدَاحِ^(٤)
 - ٨ - غَادَةً تَمِزْجُ لِي مِنْ رِيْقَهَا الرَّاحَ بِرَاحِ
 - ٩ - فَتَرْتُ - إِذْ فَتَرْتُ الْحَاطُّهَا - سَوْقُ الْمِلَاحِ
 - ١٠ - اَنَا شَاكٌ فِي هَوَى مَنْ طَرَفُهُ شَاكِي السِّلَاحِ
 - ١١ - ظَالِمٌ يَبْلُغُ أَقْصَى الْ جَدٍ مِنْي بِالْمِزَاحِ
 - ١٢ - اسْتَرُّ الْوَجْدَ وَيَأْبَى حَسَنُهُ الْاِفْتِضَاحِي
 - ١٣ - مَا عَلَى الْعَاذِلِ فِيهِ مِنْ فُسَادِي وَصَلَاحِي
- ... الخ^(٥).

ان الأبيات واضحة جدا لا تحتاج الى تأمل، وربما كانت قريبة من لغة التخاطب اليومية، وفيها لين وهلهة نسج. يبعدها عما الفناه عند شعراء القرون السابقة من متانة وجزالة. وواضح ان البديع قد غزا العديد من ابائنا: كما في البيت الرابع (اشف واطف) والعجم والفصاح في البيت الثالث، وفي الثامن الراح (الخمر) والراح (راحة اليد)، وفي العاشر (شاك من الهوى والطرف الشاكي السلاح)، وفي الحادي عشر (الجد والمزاح). . الخ. وتلاحظ العامة مع الجناس في البيت التاسع، فقد جانس الشاعر بيت فتور اللاحاظ

(١) الورق: الحمام.

(٢) الكميت: من اسماء الخمر لما فيها من سواد وحمرة.

(٣) مهضومة الكشحين: خضاء البطن.

(٤) رداح: ضخمة العجز.

(٥) الديوان من ٨٢ - ٨٣

وفتور السوق (كسادها)، وهذا التعبير الاخير من تعابير العامة الباقية حتى اليوم في بغداد. ويمكن القول - اجمالاً - ان الابيات تعكس مثالا للشعر السائد في القرن السادس.

أما شعر الحيص بيص فيمكن التمثيل له بقوله ادحا:

- ١ - لَمِنْ الْخَيْلِ كَامِثَالِ السَّعَالِي^(١) عَادِيَاتٍ تَتَمَطَّى بِالرَّجَالِ
 - ٢ - مَاعِجَاتٍ^(٢) بَغَطَارِيفٍ^(٣) وَغَى جَلَبُوا الْمَوْتَ بِاطْرَافِ الْعَوَالِ
 - ٣ - حَظَرَ الْغِمْرُ^(٤) عَلَيْهِمْ دَعَةً فَأَبَاحُوا غَارَةَ الْحَيِّ الْحَلَالِ^(٥)
 - ٤ - لِغُلَامٍ هَتَفَ الْمَجْدُ بِهِ فَهَفَا يَفْرَعُ غَايَاتِ الْقِلَالِ^(٦)
 - ٥ - حَالَفَ الدَّهْرَ بِإِيمَانِ الْعُلَى لَيْلَفَنَّ رِعَالاً^(٧) بِرِعَالِ
 - ٦ - وَيُعِيدُ الصُّبْحَ لَيْلًا بِمِثَارٍ مِنْ عَجَاجٍ، وَنَجُومٍ مِنْ نِصَالِ
 - ٧ - فَاتَقُوا وَثْبَةً لَيْثٍ خَادِرٍ أَكَلَهُ الْمَوْتُ، إِذَا يُدْعَى نِزَالِ
 - ٨ - فَفُؤَادِي مِنْ أَدَى مُضْرَكُمُ شَارَةَ أَوْدَى بِهَا كُرُ النَّبَالِ
 - ٩ - كُلَّمَا أَوْسَعْتَ جِلْمِي جَاهِلًا أَوْسَعَ الْجَهْلُ لَهُ فَحْشَ الْمَقَالِ
 - ١٠ - كُلُّ يَوْمٍ حَسَنٍ صَفْحٍ مَطْمَعٍ يَشْمَتُ الْفَتَكَ بَلِيْنِ الْإِحْتِمَالِ
 - ١١ - يَا بَنِي الْأَشْعَارِ كَفُوا سَفَهًا وَاقْصِرُوا، إِنَّ بِنَا مَجْدِي عَالِ
 - ١٢ - فَالْقُوا فِي لَكُمْ مُسْتَرْزُقٍ وَمِطَايَا نَحْوِ الْمَعَالِ
 - ١٣ - لَكُمْ الْبَلْفَةُ مِنْ مَكْسَبِهَا وَلِي الْحَالَانِ مِنْ مَجْدٍ وَمَالِ
- ... الخ^(٨).

ان الموازنة بين هذا الشعر وشعر ابن التعاويذي في الصفحة السابقة تقنع الباحث اننا ازاء اسلوبيين ولغتين بينهما بون ليس بالقليل: ففي هذا الشعر من التماسك وشدة الاسر والمثانة ما ليس في شعر ابن التعاويذي، وهو يدل على أن الأسلوب الرفيع في النظم والنفس

(١) السعال: مفرد سعال. وهي انثى الغول او الغول.

(٢) مسرعات.

(٣) الغطاريف: السادة.

(٤) الغمر: (يكسر الغين) الحقد.

(٥) الحلال: (يكسر الحاء) النزول.

(٦) القلال: (يكسر القاف) رؤوس الجبال.

(٧) الرعال: واحدها رعي: القطعة المتقدمة من خيل ورجال.

(٨) الديوان المطبوع ١/ ١٤٧ - ١٤٨

القوى البعيد عن الركة والضعف لما يزل موجودا، برغم موجة العامية والاسفاف التي بدأت تغزو ميادين الأدب الفصيح. لقد استطاع الحيص بيص - بما يملك من علم بلغة العرب - ان يخلق فوق عصره ويعيد للفصحى سيادتها، فهو يختار الألفاظ الفصيحة المعبرة دون ان يجهد نفسه في البحث عن البديع أو محاولة النزول الى مستوى الناس - لانهم بعدوا عن الفصاحة - ولذلك راح يعتمد حتى إلى الألفاظ التي لا يعرفها الا خاصة العلماء مثل ها هوابه ^(١) والبعا ^(٢) والخشاشة ^(٣) والخشفات ^(٤) والشاحية ^(٥) وغيرها برغم احتجاج ابن قتيبة - منذ القرن الثالث - على ان هذه الألفاظ قد مضى زمنها ^(٦).

ان الباحث المحايد - وان اختلف مع الحيص بيص حول مجمل طريقته في الشعر - لا بد ان يعترف بان هذا الشاعر وأنصاره يمثلون امتدادا لمذهب الشريف الرضي والمتنبي في القرنين الخامس والرابع وكذلك مذهب البحري في القرن الثالث، وهؤلاء جميعاً يرون - كما يدل شعرهم - على ان خير الشعر ما كان شبيهاً بشعر الاوائل : متانة في الأسلوب وجزالة في اللفظ والبعد عن البديع الا ما جاء عفواً. وهو مذهب على التقيض من مذهب الصنعة أو البديع أو مذهب ابي تمام.

ان اتباع الحيص بيص - برغم قتلهم في القرن السادس - استطاعوا ان يقفوا بوجه التدهور والانحطاط الذي بدأ يسيطر على لغة الشعر: فكان لهم الفضل في تعويق المد البديعي وطوفان الزخارف اللفظية الذي بدأ على يد الحريري المتوفى سنة ٥١٥ هـ، ثم استشرى على يد القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ، وتلاميذه وانتهى عند أصحاب البديعيات.

ب - محافظون مجددون:

وأشهر هؤلاء ثلاثة هم: سبط بن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ ومحمد بن بختيار المعروف بالابله البغدادي المتوفى سنة ٥٧٩ هـ ومحمد بن علي ويعرف بابن المعلم الواسطي المتوفى سنة ٥٩٢ هـ.

ان الشعر المحافظ عند هؤلاء يبرز ويتضح - وخاصة عند ابن التعاويذي - في المدح

(١) معناها: صاحوا به. الديوان المطبوع ١/ ١٤٩

(٢) معناها: ثقل السحاب من المطر. الديوان المطبوع ١/ ٢٨٥

(٣) معناها: الغضب. الديوان المطبوع ١/ ٢٧١

(٤) معناها: السيوف. الديوان المطبوع ١/ ٢٧١

(٥) معناها: الفاتحة فاها. الديوان المطبوع ١/ ١٤٩

(٦) الشعر والشعراء ص ٤٥ (ط). دار الثقافة الثانية).

عامة، وفي مدح الخلفاء على وجه الخصوص. ولكن الباحث لا يستطيع - حتى في مدح الخلفاء - ان يزعم ان مدح ابن التعاويذي هذا يشبه مدح الحيص بيص وجماعته على الرغم من الطريقة المحافظة التقليدية التي تجمع بينها: ان ابن التعاويذي محافظ - في مدح الخلفاء - ولكنه يعيش في القرن السادس، وهو ليس عالماً مترمناً من علماء اللغة العربية - كالحيص بيص - ولذلك راح هذا الشاعر يتصرف ضمن اطار المحافظة الواسع فبعد عن الخيال البدوي واللغة الموعلة في القدم، وتجنب الأساليب التي لم تعد تلائم متحضري القرن السادس، وبذلك استطاع ابن التعاويذي ان ينظم مدحا محافظا تلوح عليه سيماء العصور العباسية المتأخرة.

وهؤلاء الشعراء أبعد صيتا، وأنبه ذكرا من سابقهم - باستثناء الحيص بيص - لأن لهم تراجم مصحوبة بنماذج من شعرهم قد تكثرت وتطاول في بعض الاحيان، كما ان دواوين هؤلاء الشعراء هي الأخرى متوفرة، وان كان معظمها مثل ديوان الابله وابن المعلم لا تزال مخطوطة. وكل ذلك مما يساعد الباحث ويجعل دراسته غير قائمة على الافتراض والظن.

ان شهرة هؤلاء الشعراء وكثرة معلوماتنا عنهم وحفظ دواوينهم من الضياع كل ذلك يمكن ان يعود الى عاملين كبيرين هما:

أ - اتصاهم بكبار رجال العصر وقادته الذين شغلت اخبارهم صفحات بارزة من كتب التاريخ بنوعيه العام وكذلك تاريخ الأدب . فقد نص صاحب مرآة^(١) الزمان على أن الابله البغدادي : « كان يصحب حاجب الباب ابن الدوامي ويمدحه » . ويقول ابن التعاويذي - في مقدمة^(٢) ديوانه - انه افرد مدائحه في بني المظفر بن رئيس الرؤساء لكثرتها ولأنه نشأ فيهم واتصل بهم وصحبهم هو ووجهه لأمه . . . وبنيو المظفر هؤلاء كان منهم الوزير محمد^(٣) ابن رئيس الرؤساء الذي استوزر سنة ٥٦٦ هـ ، وكان استاذ^(٤) الدار في أيام الخليفة المستنجد بالله^(٥).

ب - وجودهم واقامتهم في بغداد وقد كانت مركز الحياة العربية الاسلامية في هذه

(١) مرآة الزمان ٨ / ٣٧٩

(۲) ص ۱۳

(۳) انظر: الفصل الاول ص ۴۷ هامش ۲

(٤) في عمل استاذ الدار قال ابن جبير: «ولللخليفة تيم على جميع الديار العباسية وامين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وابه وعلى جميع من تضمنه الحرمه الخلافيه يعرف بالصاحب مجد الدين استاذ الدار، هذا لقبه ويده له اثر الدعاء للخليفه...»

الرحلة ص ٢١٣ (دار مصر للطباعة)، وانظر صبح الاعشى ٤ / ٢٠

(٥) المختصر المحتاج اليه ١ / ٥٥ - ٥٨

العصور. ان أثر بغداد في القاء الأضواء على حياة الأدباء يتضح حين نعلم ان شاعرا من كبار شعراء العراق في القرن السادس وهو مجد العرب العامري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ قد اغفلت ذكره امهات كتب التراجم ومنها وفيات الأعيان. وحين حاول صاحب الفوات الاستدراك على ابن خلكان جعل شاعرنا من رجال القرن الثامن، وقال انه مات سنة ٧٥٣ هـ^(١). وفي الوقت نفسه نجد صاحب الخريدة يترجم لأحد الأشخاص من عامة بغداد^(٢)، ولآخر من عقلاء المجانين^(٣) بها، راويا للأول بيتين من الشعر وللثاني اربعة.

ويبدو ان وجود ابن التعاويذي وزميليه في بغداد متجاورين متعاصرين قد أوجد بينهم نوعا من التنافس^(٤) والتحاسد - ربما ساهم معاصروهم في اذكاء ناره - وقد كانت هذه المنافسة خيرا على الشعر لأنها حملت هؤلاء الشعراء على تجويد شعرهم خوفا من المعجبين بشعر خصومهم. ففي ديوان^(٥) ابن التعاويذي ان بعض الاكابر كان يقدم محمدا المولد المعروف بالابله ويفضله على غيره ويمجيزه ويمجّم سماع شعر غيره، ولذلك قال ابن التعاويذي يهجوه:

قل لابي النقص والمخازي	يا حَرَجَ الصّدرِ والفناء
بأيّ رأي؟ وأيّ فهم؟	يا مُدعي الفهم والذكاء
قَدِمْتَ مستائِرا علينا	أحقّر قدراً من الهباء
ابله قد ما يرى ويرى	عليه في قلّة الحياء
له فم كالكنيف يلقى	وجهك منه ببيت ماء
وحاشى لله ان مدحاً	يأتيك الا من الخلاء
له على زعمه مديح	اقبح عندي من الهجاء
... الخ ^(٦) .	

وابن المعلم هو الآخر لم يسلم من لسان ابن التعاويذي اذ قال يهجوه:

يا ابن المعلم ما لدا	ثك في الحماقة من مُعالج
يا حائكاً ادمى انا	مل كفّه كف الصّهارج ^(٧)

(١) فوات الوفيات ١٦٢/٢

(٣) نفسه ٣٢٤/٢

(٥) ص ١٥

(٢) الخريدة ٣٢٣/٢

(٤) وفيات الاعيان ٩٨/٤

(٦) نفسه.

(٧) الصهارج والصحاريج: هي دالحياض يجتمع فيها الماء.

ان لم تكن بزر اليهو د، فانت من نسل الخوارج
فاصح لسفع في هجا ثك قد ملأت به المذارج^(١)
يرميك شيطان القوا في من لوافحه بمارج^(٢)
يحلو هجاؤك لي واند ت امر من حب الايارج^(٣)

ولا شك ان الشاعرين قد اجابا ابن التعاويذي وكالا له الصاع صاعين وخاصة الابله فقد كان معروفا بالهجا ذا شهرة فيه^(٤). ولكن رد الشاعرين لم يصلنا لحسن حظ ابن التعاويذي.

وما يدل على المنافسة بين الشعراء الثلاثة - غير ما تقدم - قول ابن خلكان: انهم وقفوا على قصيدة صدر^(٥) التي اولها:

اكذا يحازي ود كل قرين ام هذه شيم الطباء العين^(٦)؟

فقرروا أن يعارضوها، ثم يورد نموذجين من هذه المعارضات، ويضيف: ان قصيدة ابن التعاويذي احسن الجميع^(٧).

يمثل ابن التعاويذي وصاحبه رافدا آخر من روافد الشعر المحافظ، وهو رافد يختلف عن ذلك الذي ينتمي اليه الحيص بيص وجماعته: ان هؤلاء يمثلون شعر القرن السادس اصدق تمثيل وهو شعر اختلط فيه القديم بالجديد فبدت المعاني القديمة في لباس لغوي محدث.

ان ابن التعاويذي وصحبه حاولوا التوفيق بين ميلهم الفطري الى الجديد المبكر وبين رغبات الممدوحين - وجلهم من علية القوم - الذين يثيرهم القديم فيهتزون له ويطربون، وبمقدار هذا الاهتزاز والطرب تكون الجائزة التي من اجلها - دون سواها - نظم الشاعر ما نظم وقال ما قال.

ان ميل هؤلاء الى الجديد المعاصر لهم، جعل المحافظة عندهم يغلب عليها التكلف

(١) المذارج: الطرق.

(٣) الديوان ص ٧٥. الايارج: دواء، معرب.

(٤) الخريدة ١٦٠ نسخة ايران.

(٥) علي بن الحسن احد شعراء القرن الخامس المتوفى سنة ٤٦٥ هـ. قال ابن خلكان: له ديوان شعر صغير. الوفيات ٣/

٦٥، شذرات الذهب ٣/ ٣٢٢، ٣٢٣، معجم المؤلفين ٦٦/ ٧

(٦) العين: الواحدة عيناء وهي الحسنه العين.

(٧) وفيات الاعيان ٤/ ٩٩، ٢٢٥/ ٤

والافتعال، ويبدو الشاعر برما متضايقا من هذه القيود التي فرضت عليه فرضا. ولذلك ما ان يجد فرصة سانحة حتى يهرب منها: كما يلاحظ عند مدح غير الخلفاء من يعرف الشاعر اذواقهم وحقيقة موقفهم من هذه التركة الثقيلة. فمثلا نجد ابن التعاويذي يفتح احدى مدائحه في محمد بن رئيس الرؤساء قائلا:

وممِيلَ الْعِطْفَيْنِ اغِيدَ^(١) غَضَّ الصَّبِي بَضَّ الْمَجْرَدَ
كَالْحَقْفِ^(٢) اِهْيَلْ وَالْقَضِي ب مَهْفَهْفًا وَالطَّبِي اجِيدَ^(٣)
نَادِمُهُ، وَالْبَدْرَ مَحَ تَجِبَ وَطَرَفَ النَّجْمِ اَرْمَدُ
بِمُدَامَةٍ صِرْفٍ كَأَنَّ بِكَاسِهَا نَارًا تَوْقَدُ
... الخ^(٤).

ففي هذا الشعر وأمثاله^(٥) لا نجد ذكرا لأعلام بلاد العرب مثل حزوي وشراف واللولي والجزع، ولا للنسوة اللاتي اعتاد الشعراء التغزل بهن كليل وسعاد ونوار وبثينة، كذلك ليس في هذا الشعر ذكر للهودج ورحلة الصحراء ووقوف الشاعر على ديار احبابه بعد ان رحلوا عنها. كل ذلك هجره الشاعر واعرض عنه لسبيين: الأول معرفته بالممدوح، والثاني: ان هذا القديم ليس مما يميل اليه الشاعر ولذلك فر منه الى الغلاميات ومجالس الخمر وسواهما مما شاع في عصره. ان موقف هؤلاء الشعراء من القديم والجديد قد يتضح اذا عرفنا الأسباب والدوافع والروافد التي كونت شخصياتهم الأدبية والفنية.

ان ابن التعاويذي رجل من الموالي قابوه يدعى «نشتكين»^(٦) واسم والد الابله «بختيار» ليس عربيا هو الآخر على الأرجح، ولذلك لا نجد عند الشاعرين اي حماس للأنساب والافتخار والمباهاة بها، على عكس الحيص بيص^(٧) لأن هذا الأخير تميمي النسب^(٨). والحيص بيص - كما سبق - كان من العلماء بلغة العرب وكذلك زميله طلحة ابن محمد النعماني^(٩)، ولذلك يعذر الرجلان لغرامهما بالقديم وولعهما به وصدما عن

(١) اغيد: من الغيد (بفتحين) وهو طول العنق في لين.

(٢) الحقف: المعوج من الرمل.

(٣) اجيد: جميل الجيد وهو العنق.

(٤) الديوان ص ١٢٣ - ٢٤

(٥) انظر: ديوان ابن التعاويذي ص ٨٦، ٨٢، ٧١، ٢٧، ديوان الابله ص ٧٨، ٧٣، ٦٢، ٦١ وغيرها.

(٦) وفيات الاعيان ٩٠ / ٤

(٧) ديوانه ص ٨٥، ٨٨، ٩٢، ٩٥، ١٠٨ وغيرها.

(٨) وفيات الاعيان ١٠٦ / ٢

(٩) نزعة الألباء ص ٣٨٤، معجم الأدباء ١٢ / ٢٦، انباء الرواة ٩٣ / ٢

الجديد واعراضهما عنه، على الضد من ابن التعاويذي وصاحبيه: فهم ليسوا من علماء اللغة، فقد كان ابن التعاويذي كاتباً بديوان المقاطعات^(١)، وكان زميلاً من الشعراء المحترفين كما يقول ابن خلكان^(٢).

ان احتراف ابن التعاويذي وزمليه لنظم الشعر وارتزاقهم مما تجود به اكف المدوحين يجعلهم اقل مرتبة من الناحية الاجتماعية من جماعة الحيص بيص: فقد مر ان اثنين منهم كانا من العلماء وينص العماد الكاتب على ان العامري كان من الامراء^(٣)، وكان مفلح بن علي الانباري عامل منتر^(٤) الوزير ابن هبيرة^(٥)، اي انه كان مديراً عاماً بلغة اليوم.

ان جميع العوامل والاسباب والمؤثرات التي ذكرتها فرضت على ابن التعاويذي وزمليه: ان يميلوا الى الجديد المعاصر لهم وان يعرجوا على القديم كلما شعروا ان الجائزة توشك ان تفلت من ايديهم.

ان الشعراء الثلاثة: ابن التعاويذي والابله وابن المعلم على الرغم من انتمائهم الى ما يمكن ان يسمى بـ «المحافظة الجديدة»، كذلك فان دراسة دواوينهم تثبت ان معظم شعرهم هو المدح، اضيف الى ذلك ان الموازنة بينهم ترجح كفة ابن التعاويذي على زمليه وهو الرأي الذي قال به ابن خلكان قديماً^(٦)، ولكن هذا لا يسوغ للباحث ان يدرس ابن التعاويذي ويهمل صاحبيه، لان هذين الشاعرين استطاعا ان يبرزوا ويشتهرا بنوعين من الشعر لم يستطع ابن التعاويذي ان يجاريهما فيهما، على الرغم من طاقته الشعرية الكبرى وموهبته الفذة.

اما الابله فان دراسة ديوانه تثبت خبرته وطول باعه في موسيقى الالفاظ. فقد وهب - على ما يبدو - اذنا مرهفة وذوقاً فنياً بالغ الدقة، فراح يحشد لقصائده اكبر قدر مستطاع من الحروف والكلمات، ويلجأ الى جميع ما عرفه الشعر العربي من مؤثرات لفظية وصوتية حتى استطاع ان يحيل طائفة من قصائده - وهي التي شاعت وذاعت - الى الحان خالصة يطرب لها السامع والقارئ. فاذا زالت نشوة الموسيقى، وحاولت ان تبحث في زوايا الأبيات وبين الكلمات عن شاعرية صاحبها وفنه لم تجد شيئاً سوى الفاظ وخروف اجيد اختيارها، ثم ربت ووزعت بحيث تحدث - عند الانشاد - اكبر ما فيها من اصوات وانغام تطرب السامع وتهزه.

(٢) نفسه ٨٧/٤، ٩٨
(٤) المنثر: مخزن الحبوب.
(٦) وفيات الاعيان ٩٠/٤

(١) وفيات الاعيان ٩٠/٤
(٣) الخريدة ١٤١/٢
(٥) الخريدة ٣٠٢/٤

ان الابله يجيد - اولاً - انتقاء الحروف التي تبنى عليها القوافي، ثم يعتمد الى التصريح في مطالع القصائد، وقد يضيف اليه الجناس بحيث ينسجم مع حروف المطلع المصرع من ناحية وحرف القافية من ناحية اخرى، فاذا تم له كل ذلك راح يكرر بعض الحروف ويوزعها بين شطري المطلع، فاذا عجز ان يجمع بين التصريح والجناس والتكرار في بيت واحد - وهو يركز ويؤكد عادة على مطلع القصيدة - فانه يعتمد الى طرق التأثير الاخرى مثل الطباق والتصوير واستعمال الجمل الاعتراضية والقوافي الداخلية للايات، وهكذا حتى تصبح القصيدة اشبه بالقطعة الموسيقية.

ان الوزير ابن هبيرة يحتل مكانة بارزة بين ممدوحى شاعرنا الابله، ويقول صاحب وفيات الاعيان^(١): ان القصيدة الآتية هي خير ما قاله الشاعر في الوزير الكبير:

- ١ - وَلَعَّ النسيمِ وبانَّةَ الجُرْعَا^(٢) وَصَفَاكَ إِلَّا الحَلْيَ والرَّدْعَا^(٣)
- ٢ - يا دُمِيَّةُ ضاقتْ خِلالِهَا عنها، وَضِقتْ بحبِّها ذُرْعَا
- ٣ - قد كُنْتُ ذا دَمْعٍ وذا جَلْدٍ فَبقيتْ لا جَلْدًا ولا دَمْعَا
- ٤ - صَيَّرَتْ جِسْمِي لِلضُّفَى سَكْنًا وَسَكَنْتَ (بعد^(٤)) تَبَالَةَ الجُرْعَا^(٥)
- ٥ - يا من رأى ادماء سانحةً قَلْبِي لها لا المنحى مرعَا؟
- ٦ - لَأَنْتَ بِمَثَلِ الدِّعْصِ^(٦) مَثْرَها وَجَلَّتْ بَعود اراكِه طَلْعَا
- ٧ - واذا تُراجِعَكَ الكلامَ فلا تَعْدَمْ لآيَام الصَّبِي رَجْعَا
- ٨ - وَلَقَدْ سَعَتْ بالراحِ تُصْبِحني سَكْرَى اللُّواظِ وَعَنَة^(٧) الْمَسْمَى
- ٩ - في مُستَنير الزهر ما صَنَعْتُ اِبْرادَه^(٨) عَذْنُ، ولا صَنَعَا
- ١٠ - باكَرْتُ مُفْتَرعاً ثِراه، وما رَكِبَ الحِمَامُ لَبانَه فَرْعَا
- ١١ - سَلَّتْ عليه البارقَات طَبِي لَبَسَ الغَدِيرَ لُخوفها ذُرْعَا
- ١٢ - يا عاذِلِي إِنْ شِئْتُ تَسْمَعني عَذْلًا فَشَقُّ لَصْخَرَةٍ سَمْعَا
- ١٣ - طَبْعاً جَبَلْتُ على الغرام كما جَبَلَ الوزيرُ على النَّدَى طَبْعَا
- ١٤ - مَلِكُ رَزِينُ الحَلَمِ مُنْتَقَم غير ان طَبِيعَ مَجْتَنِي الْمَرْعَى

(٢) الجرعا: اراد الجرعاء وهي ارض مرتفعة فيها رمل.

(٤) زيادة من الوفيات يقتضيها الوزن.

(٦) الدعص: كتيب الرمل.

(٧) وعنة المسمى: ربما اراد انها تجد صعوبة في المشي لكبر اعضائها.

(٨) الابراد: واحدها البرد: كساء اسود مربع فيه صفر.

(١) وفيات الاعيان ٥ / ٢٨٠

(٣) الردع: (يسكون الدال) اثر الطيب.

(٥) الجزع: منقطع الوادي.

- ١٥ - لِطَرِيرِهِ^(١) وَنَزِيلِهِ قَسَمْتُ
 ١٦ - سَامِي النَّدَى يَلْقَى الْعِدَى أَبْدَأُ
 ١٧ - هَام تَذُرُّ عَلَيْهِ أَنْعَمَهُ
 ١٨ - لَمَّا صَنَعْتُ لَهُ الْمَدِيحَ رَأَى
 ١٩ - مَا زِلْتُ تَحْتَ الْخَفْضِ مُسْتَرَأً
 ٢٠ - قَسَمًا بَيْنَ حَجِّ الْحَجِيجُ لَهُ
 ٢١ - تَسْعَى بِهِ فِتْلَاءً^(٦) تَحْسِبُهَا
 ٢٢ - مَا زَالَ سِيرَ الْخُمْسَ يَنْحَلُّهَا
 ٢٣ - إِنَّ الْوَزِيرَ، فَتَى هَيِيرَةً لَمْ
 ٢٤ - الْوَاصِلُ الْمَعْرُوفَ حِينَ رَأَى
 ٢٥ - لَوْ قِيلَ: زِدْ وَسْعًا عَلَى كَرَمٍ
 ٢٦ - تَغْنِيهِ يَوْمَ الرُّوعِ سَطْوَتُهُ
 ٢٧ - وَبَكَفَهُ قَلَمٌ يَصُولُ بِهِ
 ٢٨ - فِيهِ حَيَاةٌ لِلْوَلِيِّ وَلِلْغَنَمِ^(١٠)
 ٢٩ - فَقِدَاءُ عَوْنِ الدِّينِ كُلِّ فَتَى
 ٣٠ - مِنْ مَعْشَرٍ لَيْسُوا - إِذَا نُسَبُوا -
 ٣١ - بِيضُ الْوُجُوهِ فَإِنْ هُمْ سَثَلُوا
 ٣٢ - وَافَيْتَ يَا تَاجَ الْمُلُوكِ عَلَى
 ٣٣ - لَمَّا رَأَيْتَ الْبُخْلَ شَرَعَهُمْ
 ٣٤ - يَا ابْنَ الْأَوَّلَى وَطَاوَا عَلَى عَنَفٍ
- خَلَقَاهُ ذَا ضَرًّا وَذَا نَفْعًا
 وَتَرَا^(٢) وَيَلْقَى جَوْدَهُ شَفْعًا^(٣)
 عَفْوًا وَلَمْ يَيْسْ^(٤) لَهَا ضِرْعًا
 حَسَنًا، فَاحْسَنَ عِنْدَهُ الصُّنْعَا
 حَتَّى رَأَيْتُ بِمَذْحِهِ الرُّفْعَا
 وَالْمَازَمِينَ^(٥) وَمَنْ أَقَى جَمْعَا
 فِي نَسْعِهَا^(٧) مِنْ دَقَّةٍ نِسْعَا
 حَتَّى أَطْفَنَ بِمَكَّةِ سَبْعَا
 يَرِثُ السَّمَاحَةَ وَالنَّدَى بِدَعَا
 لِسَوَاهِ فِي إِشَارِهِ قَطْعَا
 تَأْتِيهِ طَبْعًا، لَمْ يَجِدْ وَسْعَا
 عَنْ أَنْ يَخْوَضَ لِمَازِقِ نَقْعَا
 يَغْنَى الْفَقِيرَ وَيَشْعَبُ^(٨) الصَّدْعَا^(٩)
 رَ الْمُعَادَى حَيَّةً تَسْعَى
 يَقْلِي^(١١) السَّمَاحَ وَيَعِشِقُ الْمُنْعَا
 فِي الْجُودِ لَا غَرِبَا^(١٢) وَلَا نَبْعَا
 رَفْدًا رَأَيْتُ وَجُوهُمْ سَفْعَا^(١٣)
 وَضَعُ يَخَالِفُ ذَلِكَ الْوَضْعَا
 أَرْسَلَتْ تَنْسَخُ ذَلِكَ الشَّرْعَا
 مِنْ حَاسِدِيهِمْ أَنْفَا جَدْعَا^(١٤)

(١) الطرير: السنان المحدد.

(٢) الوتر: الفرد.

(٤) ييس: من الأساس وهو المسح والتسكين بالأصل، واستعملت هنا مجازاً.

(٥) المازمان: موضع بمكة بين المشعر الحرام وبين عرفة (معجم البلدان ٧/٣٦٢).

(٦) فتلاء: ناقة قوية كأنها قتلت فتلاً.

(٧) النسع: الجلد.

(٨) يشعب: يصلح.

(٩) الصدع: الشق.

(١٠) القعر: الحقود.

(١٢) الغرب: شجر ضعيف. النبع: شجر صلب: أي إن هؤلاء ليس لهم من الجود شيء.

(١٣) سف: سورد.

(١٤) جدع: مقطوعة.

- ٣٥ - غرما ميع ذوو لسن
 ٣٦ - بك يدفع النكبات نازلة
 ٣٧ - فلکم سَدَدَتْ لاملٍ خللاً
 ٣٨ - لو كُنْتُ في زمن الكليم^(٣) لما
 ٣٩ - اعددت للحدثان^(٤) كل فتى
 ٤٠ - ومهنداً ما اهتز يوم وغى
 ٤١ - ومشرفاً نهذاً مراكله^(٥)
 ٤٢ - يجري على الغايات فارسه
 ٤٣ - احييت يا يحيى الرجاء كما
 ٤٤ - انا ناظم الدر الثمين اذا
 ٤٥ - فَهَنَ شهرَ الله، وابق على
 ٤٦ - ما نواح الدوح النسيم، وما
- مشحودة لا تعرف القذعا^(١)
 من ساورته فلم يطق دفعا
 وَلَكُمْ مَدَدَتْ لِخَامِلٍ ضَبْعاً^(٢)
 دخل المرا آياته التسعا
 لئى الكريمة قبل ان يدعى
 الا رايت لبارق لمعا
 جَدْعاً^(٦) تحال بليته^(٧) جدعا
 خبيأ فتحسب طرفه سمعا
 احيا ولي الديمة الزرعا
 وافاك غيري ناظماً جَزْعاً^(٨)
 مر الشهور مهشاً جمعا
 طرب الحمام فرجع السجعا^(٩)

لقد تعتمد الشاعر ان يختار العين المفتوحة للقافية والكلمات الثلاثية المفتوحة الاولى غالباً: للتوفيق بينها وبين عين القافية المفتوحة ثم بدأ يؤكد على موسيقى الألفاظ ويحشد اكبر قدر مستطاع من الكلمات التي فيها حرف العين، لان القافية عينيه، ففي المطلع: ولعا، الجرعا، والردعا، وفي البيت الثاني: عنها الذرعا، وفي الثالث كرر الدمع من اجل العين، كذلك عمد الى التكرار اللفظي في البيت ١٣ والبيت ٢١، ٢٥، ٣٢، ٣٣، ٤١، والشاعر اذا اعوزه التكرار من اجل الحرف المطلوب عمد الى المفعول المطلق المشتق من لفظ الفعل: كما فعل في البيت ١٨ (صنع الصنع) والبيت ٣٦ يدفع دفعا. . .

وبذلك استطاع ان يحشد ٩٠ كلمة يدخل في نطقها وصوتها حرف العين اي ان كل بيت فيه كلمتان من هذا الصوت.

(١) القذع: الافحاش في القول، وهي بالاصل بالبدال (القذع).

(٢) مددت لخامل ضبعاً: اي نومت باسمه فصار معروفاً.

(٣) الكليم: النبي موسى عليه السلام، وآياته التسع ذكرت مرتين في القرآن الكريم، في الآية ١٠١ (سورة الاسراء)، وكذلك في الآية ١٢ (سورة النمل)، قال تعالى في سورة الاسراء: ولقد آتينا موسى تسع آيات بآيات فاسال بني اسرائيل إذ جاءهم ففقال له فرعون اني لاطنك يا موسى مسحوراً. وفي شرح الآيتين الكريميتين تنظر تفاسير القرآن الكريم مثل الكشف للزمخشري ١/

٤٦٤، وروح المعاني للالوسي ٦/ ٢٦١ - ٢٦٢.

(٥) هد المراكل: اي عال مرتفع.

(٤) الحدثان: احداث الزمان.

(٧) الليت: صفحة العنق.

(٦) جدع: حدث السن، فتى.

(٩) الديوان ٣٥ - ٣٦.

(٨) الجزع: الحزوز اليماني الذي فيه بياض وسواد.

ثم راح الشاعر يوفر لقصيدته مؤثرات صوتية وموسيقية أخرى: فهناك التصريح في المطلع، ومعه جناس ناقص بين الجرعا والردعا: لان الخلاف بين الكلمتين في الجيم والదال فقط، كذلك بينهما توافق في الحركات فكلاهما مفتوحة الاول ساكنة الوسط، وفي المطلع هذا - كما في كثير من أبيات هذه القصيدة - يعتمد الشاعر الى ربط الكلمات المتجاورة برباط موسيقي دقيق: عن طريق تكرار بعض الحروف المشتركة بين الكلمتين المتجاورتين: ففي صدر المطلع نجد هاتين الكلمتين المتجاورتين: النسيم وبانه وقد تكرر حرف النون فيهما، وفي البيت السادس تكررت التاء: لاثت بمثل، وفي التاسع الراء: مستنير والزهر وفي العاشر تكررت الراء ايضا: باكرت ومفترعا، وفي الثالث عشر الباء: طبعاً وجبلت، وفي الخامس عشر الباء: طريره ونزيله، وفي التاسع عشر التاء: ما زلت وتحت، وفي العشرين الجيم: حج الحجاج، وفي السادس والعشرين القاف - في العجز - : مازق ونقع، وفي السابع والعشرين العين: في العجز ايضا: يشعب والصدع، والراء في عجز البيت ٣١: رفدا ورأيت، وهكذا في بقية الفاظ وحروف الأبيات الأخرى: وافيت يا تاج، ارسلت تنسخ، اعددت للحدثان...

ويلاحظ ان الشاعر يكرر بعض الحروف بكثرة في طائفة من الأبيات كي يحدث التأثير الموسيقي المطلوب: ففي البيت الثالث تكررت الدال اربع مرات، وتكررت السين ثلاث مرات في الرابع، وكذلك تكررت الجيم ثلاث مرات في السابع، وفي التاسع تكررت النون اربع مرات، وفي العاشر تكررت الراء خمس مرات، وفي الرابع عشر تكرر الميم ست مرات... وهكذا.

وفي القصيدة اكثر من طباق: الضر والنفع في البيت ١٥، والوتر والشفع في السادس عشر، والرفع والخفض في التاسع عشر، والوصل والقطع في الرابع والعشرين، وفي التاسع والعشرين: يقلي ويعشق، والسماح والمنع والغرب والنبع في الثلاثين. وفي القصيدة طباق دقيق بين المعاني المتضادة على طرفي طائفة من الأبيات، وهو اصعب وأعمق من الطباق اللفظي الساذج: ففي البيت الثالث عشر - وقد أحسن الانتقال من الغزل الى المدح - نجد تناقضا طريفا: فالشاعر مجبول مطبوع على الغرام، على حين جبل الوزير وطبع على الندى، وشتان بينهما، وفي البيت الثامن والعشرين نجد قلم الوزير ذا اثرين متضادين متباينين: ففيه حياة للولي والصديق، ولكنه حية تسعى للعدو، وفي الأبيات: ٢٩، ٣٠، ٣١ يوازن الشاعر بين الوزير ومعاصريه من الزعماء فاذا هما على طرفي نقيض. وآخر ما عمد اليه الابله لتحسين الموسيقى اللفظية في قصيدته هو الازدواج او الموازنة كما يسميه ابن

الاثير^(١): ففي البيت الخامس عشر نجد الطير والنزير على وزن واحد، وفي السادس عشر: الندى والعدى - وهو جناس في الوقت نفسه - وفي الخامس والعشرين: وسعا وطبعاً، وفي السابع والعشرين يغني ويشعب، والغرب والنعيم في البيت الثلاثين - وهو طباق في الوقت نفسه - وفي السابع والثلاثين نجد: سددت ومددت وحامل وامل - وفيها جناس ايضاً - وفي الحادي والأربعين نجد: نهذا وجذعا . . . وهكذا استطاع الابله ان يوفر كثيراً من القيم الصوتية في هذه القصيدة مما يذكرنا بسينية البحري^(٢).

ولم يعرف القدماء هذه الميزة في شعر الابله، ولكن العماد الاصفهاني نجبرنا ان المغنين: «يتهافون على نظم الابله المطرب تهافت الطير الحوم على عذب المشرب^(٣)». وهذا التهافت على غناء وتلحين شعر الابله سببه ايغال الشاعر في الموسيقى اللفظية مما جعل طائفة من شعره تتميز بصلاحياتها للغناء^(٤).

واما ابن المعلم الواسطي فقد اشتهر وذاع صيته في الغزل، على الرغم من كون غزله - مثل غزل زميله ابن التعاويذي والابله هو مقدمات لقصائده في المدح. ان اهتمام القدماء وتأكيدهم على غزل ابن المعلم يكاد يحمل الباحث على اخراج هذا الشاعر وابعاده عن دائرة شعراء المدح واضافته الى شعراء الغزل المعروفين كجميل بثينة والعباس بن الأحنف، لولا النصوص الكثيرة المتواترة على ان ابن المعلم شاعر مداح: قال ابن الديبني: - وقد سمع منه اكثر شعره - هو أحد من سار شعره وانتشر ذكره ونبه بالشعر قدره وحسن به حاله وأمره . . . اكثر القول في الغزل والمدح وفنون المقاصد^(٥). وقال سبط ابن الجوزي عنه: «مدح الامراء والرؤساء والاعيان^(٦)».

ومن المشهور المعروف: ان الغزل - في قصائد المدح - ليس سوى مقدمة وتمهيد ينتقل بعده الشاعر الى المدح، غرض القصيدة الاصيلي، ولكن هذه الحقيقة انعكست عند ابن المعلم: فصار الغزل هو الاصل والمهم، وبات المدح ثانوياً تابعا للغزل، حتى ان العماد الكاتب - وكان صديقاً لابن المعلم - اورد له في خريدته^(٧) خمس قصائد: اربع منها مقدمات غزلية، وواحدة فقط ذكر منها المدح الى جانب الغزل. بل ان ديوان ابن المعلم المخطوط في مكتبة الامام الحكيم في النجف - ومنه نسخة مصورة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد - لم

(١) المثل السائر ١ / ٣٧٩ (ط. نهضة مصر).

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٨٦

(٣) الخريدة: نسخة ايران ١٦٠

(٥) تاريخ ابن الديبني ١ / ٩٩ (المصور).

(٤) دلالة الالفاظ ص ١٩٩

(٦) مرآة الزمان: ٨ / ٥٥١، وانظر ذيل الروضتين ص ١١ (٧) الخريدة ٤ / ٤٣٠ - ٤٤٩.

ثبت فيه ناسخه - وهو الشيخ محمد السماوي - سوى الغزل وبعض الابيات التي تدل على نهاية الغزل وبداية المدح^(١)، وكذلك الأمر في قطعة من ديوان ابن المعلم مخطوطة في مكتبة الدراسات الاسلامية العليا ببغداد^(٢).

اعجب القدماء اعجابا شديدا بغزل ابن المعلم، وكالوا للشاعر النعوت والالقب والصفات التي تدل على ذلك: فقد فضله صاحب الخريدة - وهو الأديب الكاتب الشاعر المشهور - على مهيار الديلمي^(٣)، وكذلك على ابن هاني الاندلسي^(٤). وقال الصلاح الصفدي عنه: انتهت اليه رياسة الشعر في زمانه^(٥). وقال صاحب الوفيات ان شعر ابن المعلم «لا يسمعه من عنده ادنى هوى الا افتتن وهاج غرامه»^(٦).

ان شهرة ابن المعلم الواسطي يمكن ارجاعها الى ثلاثة عوامل: متصلة متشابكة لا يمكن الفصل بينها الا لغرض الدراسة وهي: عوامل تتصل بالشاعر اولا، وبشعره ثانيا، وبعصره وبنيته ثالثا.

أما الشاعر: فان طول عمره ساهم في اشاعة ذكره وتداول شعره، فقد ولد سنة ٥٠١ هـ، وتوفي سنة ٥٩٢ هـ أي انه عاش اكثر من تسعين سنة^(٧). وأما غزل ابن المعلم فأهم ميزاته: العفة التامة في اللفظ والمعنى، وكذلك الوضوح الشديد: حتى أن عامة الناس لا تجد صعوبة في فهمه، وبذلك انتشر بين اوسع طبقات المجتمع «ولطف مكانه عند اكثر الناس، ومالوا اليه وتحفظوه، وتداولوه بينهم، واستشهد به الوعاظ، واستحلاه السامعون»^(٨). قال:

يا منزلاً بدواعي البين منتهياً^(٩) وما البلية الا من دواعيه
وقفت اشكو اشتياقي والسحاب به فانهل دمعي، وما انهل غواليه
والنار من زفراتي، لا بوارق والماء من عبراتي، لا غواديه^(١٠)

(٢) رقمها ٢٩٢

(١) انظر ٦٣، ٦٤، ٥٩.

(٣) هو مهيار بن مرزويه، الكاتب الشاعر، كان محسباً فاسلم على يد الشريف الرضي، وعليه تخرج في نظم الشعر، وهو

شيخه توفي سنة ٤٢٨ هـ. المنتظم ٩٤/٨، ٩٥، وفيات الاعيان ٤/٤٤١، النجوم الزاهرة ٥/٢٦، ٢٧.

(٤) هو محمد بن هاني، الازدي، الاندلسي. قال ابن خلكان: هو اشعر المغاربة. توفي سنة ٣٦٢ هـ. معجم الادباء ١٩/

٩٢، وفيات الاعيان ٤/٤٩، النجوم الزاهرة ٤/٦٧، ٦٨.

(٦) وفيات الاعيان ٤/٩٨

(٥) الواقي بالوفيات ٤/١٦٥

(٧) ابن الديبشي ١/٩٩ (المصور)، وفيات الاعيان ٤/٩٨، الواقي بالوفيات ٤/١٦٥، البداية والنهاية ١٣/١٣

(٨) ابن الديبشي ١/٩٨ (المصور).

(٩) بالأصل بالرفع (منتهب)، ولعله سهو من الناسخ.

(١٠) الغوادي: مفرداً غادية، وهي السحابة تنشأ - غدوة.

ومودع القلب - إذ ودعته - لهبا
 يوهي قوى جلدي من لا ابوح به
 لم ادر حين بدا، والكأس في يده
 وما المدامة الا من ثنيته
 لو لم يطل عصره فخراً، وتاه به
 حكّت جواهره ايامه، فصفت
 ... الخ^(١).

حاشاه حاشاه من قلبي وما فيه
 ويستبيح دمي من لا اسميه
 من كاسه السكر، ام عينيه، ام فيه
 ولا الظلامة الا من ثنيته
 عجباً، لما اهتز عطفاه من التيه
 وحدّث عن لآليه لآليه

في هذه الأبيات وصف للشوق والصبابة، وفيها عتاب رقيق، وشكوى وألم دفين عرف الشاعر كيف يلمح دون ان يصرح به، وفيها موسيقى حزينة ساهمت في بثها الفاظ خاصة عرف الشاعر كيف ينشرها بين الأبيات مثل: الزفرات والدمع والعبرات ويوهي ويستبيح والذل والقتل... كذلك ساعدت هذه القافية المكسورة المسبوقة بالياء في الجو الحزين، اضافة الى البحر البسيط الذي اختاره فجاءت عواطفه هادئة ولكنها محسوسة بينه وأفكاره ومعانيه واضحة لا غموض فيها ولا مجون ولا كلمة مما يחדش الحياء أو يسيء الى الذوق السليم، والأبيات لا تحتاج الى شرح او ايضاح: فليس فيها فلسفة ولا تعقيد. انها حديث في الحب يفهمه ويرتاح له كل الناس.

ان الحزن والألم أو النوح - كما يقول ابن خلكان^(٢) - هو العاطفة التي تشيع وتنتشر في غزل ابن المعلم كله، ولذلك تجده كثير التردد والتكرار للالفاظ والمعاني التي تشيع وتشتيع هذه العاطفة مثل: البكاء والنحول والفراق والبعاد والنوى والسقام ونفاد الصبر والبلوى والمصيبة وسواها، حتى قال الصلاح الصفدي: ان شعره ينفع الوعاظ^(٣).

ويغلب على الظن ان المعاني والألفاظ البدوية وخاصة الحجازية منها - التي يكثر ابن المعلم من ذكرها وايرادها في شعره - قد ساعدت على اشاعة الجو الحزين الذي يغلف قصائده^(٤)، ومنحتها مسحة خاصة حببتها الى المتصوفة، فراحوا يتواجدون على انغامها^(٥):

قد كنت خلي فاطرح تَكْ واتخذتْ النجمَ خلا
 وعزيرُ دمع العينِ يو مَ دعا الخَلِيطُ البينُ ذَلَا

(٢) وفيات الاعيان ٤ / ٩٨
 (٤) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٧١

(١) الديوان ٢٠ و (نسخة النجف).
 (٣) الرواقي بالوفيات ٤ / ١٦٦
 (٥) وفيات الاعيان ٤ / ٩٨

وكذاك جيشُ الصبرِ مذ حملَ الفراقُ عليه ولَّى
قَفَّ بي على الوادي الذي اقوى رُبى، وعفا مَحَلًا
اشكو بلايَ اليه وال مشكُو من شاكيه أبلى
وعلى مَراراتِ الهوى ما اعذبَ الشكوى واحلى
هو منزلَ اللذاتِ لو لم يلقِ فيه الدهرَ رَحلا
ولقد وجدت الدارَ دا رأ لو وجدتُ الاهل اهلا
وسلِ «العقيق» وحيَّ مِنْ شجر «اللوى» باناً وأثلاً^(١)

أما اثر البيئة في شعر ابن المعلم فيتضح حين نعرف ان هذا الشاعر هو الوحيد بين شعراء القرن السادس الذي لم يستطع احد أن يعثر له على بيت تشم منه رائحة المجون أو الغلمان أو الخروج على مبادئ الخلق الكريم، على الرغم من أن شهرته قائمة على الغزل، وهو فن يندر ان يستطيع الشاعر فيه التوفيق بين الجودة والمحافظة على الأخلاق.

ان ديوان ابن المعلم وثيقة تدمغ اولئك الذين ينادون بضرورة «التسامح» مع الشعراء والفنانين اذا اردنا ان تزدهر الفنون، بدعوى ان الفن الرفيع والخلق الرفيع لا يتفقان.

ان بيئة الشاعر: الزمانية والمكانية، كانت السبب الأساسي في ثلاث صفات لها أثر كبير في رواج شعره وهي: خلوه من فاحشي القول وساقطه، وتلك العناية الظاهرة في حسن اختيار الألفاظ والبحور الشعرية، حتى بدا الديوان وكأنه قد صفي وغربل قبل ان يخرج للناس، وهناك - اخيراً - عاطفة الحزن والمرارة التي تنبعث من بين سطور الديوان فتقرب بينه وبين مشاعر المحرومين الحزائي.

ان ابن المعلم رجل قروي الأصل: فقد ولد ومات في قرية من قرى واسط تعرف بـ «أهرث»^(٢) وأهل القرى، حتى اليوم، اعف لسانا، وأكثر ميلا الى مكارم الأخلاق من اهل المدن، اصف الى ذلك ان غزله - كما مر - هو مقدمات لقصائد مدح، قيلت في صفوة رجال المجتمع العباسي وقادته، فليس من المعقول ان يتماجن الشاعر في تلك المجالس الحاشدة المشهودة.

عاصر ابن المعلم، من ناحية الزمان والمكان، شيخ الطريقة الرفاعية في التصوف، الشيخ احمد الرفاعي ت ٥٧٨هـ^(٣)، بل ان صاحب الوفيات قال: سمعت جماعة من مشايخ

(١) الديوان ٦٦ (نسخة النجف).

(٢) الخريدة ٤ / ٤٣١، ابن الديني ٩٨ / ١ (المصور).

(٣) وفيات الأعيان ١ / ١٥٤.

البطائح^(١) يقولون : ما سبب لطافة شعر ابن المعلم الا انه كان اذا نظم قصيدة ، حفظها القراء المنتسبون الى الشيخ احمد بن الرفاعي ، وغنوا بها وطابوا عليها ، فعادت عليه بركة انفسهم ، ورأيتهم يعتقدون ذلك اعتقادا لا شك عندهم فيه^(٢) . . والواقع أن هذه «اللطافة» التي تشير اليها ابن خلكان ، أو «الرقعة» كما سماها غيره من القدماء^(٣) ، أو «الحلاوة» كما قال فريق ثالث^(٤) ، من صفات شعر ابن المعلم ، التي عرفها القدماء ، ولكنهم لم يبتدوا الى سببها ، فظلوا حيارى .

من المستحيل ان يعيش شاعر تسعين عاما - كما عاش ابن المعلم - في وسط يضج بالتصوف والمتصوفين ، ثم لا يظهر أثر ذلك في شعره .

ان الألفاظ الدالة على التصوف نادرة الوجود في شعر ابن المعلم ، مثل «حلبة الذكر» في قوله :

وَعَدَ بِحَدِيثِ الرَّمْلِ قَلْبًا تَبِيحُهُ اعنة نسيان الأسى حَلْبَةُ الذِّكْرِ^(٥)
و«كشف الغطاء» في قوله :

كَشَفَ الْغَطَاءَ فَكُلُّ نَاهٍ عَاذِر وبدا الخفاء فكلُّ بَاكِ مُعَوِّل^(٦)
و«الحقيقة» في بيته :

فَإِذَا اقْشَعَرَ فَإِنَّ ذَاكَ حَقِيقَةٌ وإذا اطمأنَّ فَإِنَّ ذَاكَ تَعْمَلُ^(٧)
ولست استبعد أن يكون ما في شعر ابن المعلم من حنين أو ألم أو تواجد - كما يسميه الدكتور شوقي ضيف^(٨) - سببه الوسط الصوفي الذي عاش فيه الشاعر قرابة قرن من الزمان ، اذا تناسينا ان الفرد العراقي بطبعه - وخاصة ابناء الأرياف - يميل الى الحزن ، ويجد لذة في الغناء الحزين ، والصوت الشجي المكتوم الالم والعاطفة ، المعبر عن امال ضاعت ، او حبيب ليس الى لقاءه من سبيل .

اما رقة الألفاظ ، وحسن اختيار البحور ، فلعل الشاعر استفاد فيهما من حلقات

(١) موقعها بين واسط والبصرة في جنوب العراق . (٢) وفيات الأعيان ٩٨ / ٤

(٣) الخريدة ٤ / ٤٣١ ، مستدرک المختصر المحتاج اليه ص ٢٧ - ٢٨

(٤) ابن الديبشي ٩٨ / ١ (المصور) ، المختصر المحتاج اليه ٩٦ / ١

(٥) الديوان ١٧ (نسخة التحل)

(٦) نفسه ٣٦ وانظر الرسالة القشيرية ص ٥١ .

(٧) نفسه ٣٧ وانظر الرسالة القشيرية ص ٥٦ (٨) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٧١

الذكر والسماع^(١) التي عرف بها المتصوفة، اذا اغفلنا الموهبة الذاتية.

ج - شعر الطبقة الحاكمة:

ويراد هؤلاء من وصلنا شعره ممن عرف بنظم الشعر من الطبقة العليا في المجتمع العباسي وتشمل:

١ - خلفاء بني العباس:

وأشهر من نظم الشعر منهم الخليفة المستنجد بالله المتوفى سنة ٥٦٦ هـ، أما اقلهم شعرا فالخليفة الناصر لدين الله المتوفى سنة ٦٢٢ هـ، اذ لم أعثر له الا على بيت واحد^(٣).

٢ - وزراء العباسيين واخوانهم وابناؤهم:

وعلى الرغم من رواية العماد الكاتب لبعض اشعار الوزراء^(٤)، فإن اشهر من يستحق الذكر ها هنا ابنا الوزير ابن هبيرة: عز الدين محمد المتوفى سنة ٥٦١ هـ، وله شعر كثير - كما يقول العماد - ولكنه فقد لاسباب سائير اليها بعد قليل، والابن الثاني هو شرف الدين ظفر (وقيل المظفر) المتوفى سنة ٥٦٢ هـ وهو اكثر الجميع شعرا، اذا اعتمدنا على خريدة القصر.

٣ - المزيديون:

وقد اشرت في الفصل الأول من هذه الرسالة الى ان سلطانهم السياسي انتهى سنة ٥٥٨ هـ، ففترقوا في البلاد، وقال عنهم صاحب الخريدة انهم: «ما كانوا يعتمدون قول الشعر الا لحادثة على سبيل الندرة^(٥)». «وقول العماد هذا يجب ان يؤخذ بحذر كما سيتضح بعد قليل. وأشهر من عرف بقول الشعر من زعماء بني مزيد هم: دبيس بن صدقة المتوفى سنة ٥٢٩ هـ^(٦)، وبدران بن صدقة المتوفى سنة ٥٣٠ هـ بمصر^(٧)، ومزيد بن صفوان بن الحسن، توفي في بلدة مصياف بالشام سنة ٥٨٤ هـ، وله ديوان شعر، لا يزال مخطوطا^(٨)».

(١) من الالحان الباقية الى اليوم لحن السماعي وانما هو لحن من الحان الصوفية في اثناء اقامة السماع في ربطهم. تاريخ

العراق في العصر السلجوقي ص ٢٤٢

(٣) فوات الوفيات ١ / ٦٢

(٥) نفسه ١ / ١٠٠

(٧) نفسه ٤ / ١٥٦

(٩) نفسه ٤ / ١٧٧

(٢) الخريدة ١ / ١٨

(٤) الخريدة ١ / ٩٥، ٩٦

(٦) نفسه ١ / ١٠١

(٨) نفسه ٤ / ١٧٠

(١٠) الشعر العربي في العراق ٢ / ٧٤

ملوك البطائح وأعيانها^(١)، وتقع ديارهم هذه بين واسط والبصرة، في جنوب العراق، وكانت ملاذا لكل خائف، من الخليفة أو من السلطان^(٢)، ولكن العماد يقول عنهم، بعد هذا الكلام بقليل: وملوك البطائح لم يزالوا يملكون بالقتل والفتك^(٣). وقد ضرب ابن التعاويذي بهم المثل في الظلم والتجبر، قال من قصيدة يصف واليا:

غادرت الأعمال أعماله خالية كالبلد القفر
تجبراً لم يرم أهل القرى بمثله آل أبي الجبر^(٤)

وأشهر من يستحق الوقوف عنده من آل أبي الجبر الشعراء: الأمير أحمد بن أبي الفتوح المتوفى سنة ٥٤٧ هـ^(٥).

بعد هذه المقدمة السريعة، يمكن أن ندرس شعر الطبقة الحاكمة - آخذين ما يلي بنظر الاعتبار -: ان شعر هؤلاء قليل معظمه مقطوعات او تنف: بسبب طبيعة حياتهم، وصعوبة الوصول الى بعضهم لتدوين شعرهم، وقد نص العماد انه كان: «يهاب سديد»^(٦) الدولة ابن الانباري، ويكبره ان يستنشد^(٧). « فكيف بمن هو اعلی مرتبة، وأعظم شأنًا من ابن الانباري؟، ومع ذلك استطاع صاحب الخريدة أن ينقل لنا قصائد طويلة لبعضهم، كما فعل مع شرف الدين ابن الوزير يحيى بن هبيرة^(٨)، وكذلك اثبت قصائد طويلة للأمير أحمد بن أبي الفتوح^(٩). ولا شك ان لمكانة العماد الاجتماعية، وعلاقاته الشخصية اثرًا في حصوله على شعر، أو وقوفه على معلومات، يصعب على غيره حتى ان يسمع بها. ولا شك ان هناك عوامل أخرى، كان لها اثر غير قليل في قلة شعر طبقة الحكام هذه: ومن تلك العوامل: الصراع بين الخلفاء والمزيديين من جهة، وبين الوزراء وانصارهم وأقاربهم، بعضهم مع البعض الآخر، من جهة أخرى، فعلى سبيل المثال: ينص العماد انه حذف من احدى القصائد أبياتا كثيرة، لان الشاعر تعرض للخليفة بما لا يليق^(١٠)، فكيف يمكن الوثوق بالذي ينقله العماد من شعر المزيديين، وهم في حرب لا تكاد

(١) الخريدة ٤ / ٥٢٣

(٣) نفسه ٤ / ٥٣١

(٢) نفسه ٤ / ٥٢٩

(٤) الديوان ص ١٩٥

(٥) الخريدة ٤ / ٥٤٧

(٦) هو ابو عبد الله، محمد بن عبد الكريم الانباري، منشيء ديوان الخلافة، وشيخ الدولة المتوفى سنة ٥٥٨ هـ الخريدة ١ / ١٤٠

(٨) نفسه ١ / ١٠٢ - ١٢٠

(٧) الخريدة ١ / ١٤٢

(١٠) الخريدة ٢ / ٨٤

(٩) نفسه ٤ / ٥٤٩ - ٥٧١

تهدأ مع خلفاء بني العباس^(١). وإذا كان موت الوزير - ابن هبيرة - يدفع بعض الكبراء - كما ينص العماد^(٢) - الى ان يأخذ جميع الاشعار التي قيلت فيه ويغسلها، فكيف نصدق ان كل ما نظمه الوزير وابناه - وقد قتل بعد موته بمدة وجيزة - هو هذه الاشعار التي روتها الخريدة؟

ان الأدب صورة من النشاط الاجتماعي، فهو يعكس عقلية الفرد والجماعة، ويترجم عما تحس به وتشعر، ويصور آلام الناس وآمالهم، وينقل لنا كيف يفكر هذا الفرد أو هذه الجماعة، وما يسيطر على حياتها من خير أو شر، ومن فقر أو غنى، وكفر أو إيمان. وقد كانت حياة الطبقة العليا في المجتمع العباسي، مزيجاً من متناقضات، تبعاً للظروف والأحوال: ففيها الترف والغنى والفراغ، من ناحية، وفيها التشرد والنفي والسجن، من ناحية أخرى، وفيها الحقد والدسائس والدجل والخداع، من ناحية ثالثة. وقد صور الشعر كل ذلك، ورسم أولئك الناس - باقلامهم - حياتهم العجيبة الغريبة، وتجاربهم التي ربما انفردوا بها، دون أن تخطر لسواهم ببال.

١ - الفراغ:

وهو عامل مهم، وتجربة يندر ان يجربها عامة الناس ولكن الطبقة العليا مبتلاة بهذا الوحش الذي لا سبيل الى القضاء عليه، ولذلك مال قسم من الحكام الى الشعر ينفقون في نظمهم اوقاتهم ويبددون سأمهم، وضيقهم، فاولع قسم منهم بالوصف، فوصفوا عما يحيط بهم: الشمعة^(٣)، والأترج^(٤)، والفرس^(٥)، والسوط^(٦)، والتفاح^(٧)، والسكين^(٨)، والقمر^(٩) وغيرها.

على حين اولع قوم بالمعارض الشعرية، لا شيء سوى تزجية اوقات الفراغ وقتل الوقت، كما كان يفعل شرف الدين ابن الوزير: فقد عارض قصيدتين لمهيار^(١٠) احدهما ميميه، والأخرى قافية^(١١)، وعارض ايضاً قصيدة للأبيوردي^(١٢) ولم ينص العماد على الغرض الذي نظم من اجله هذا الشعر سوى المعارضة. ومال فريق ثالث من هؤلاء

(١) انظر دراسة الحياة السياسية في الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٢) الخريدة ٩٨/١، نفسه ١٨/١، ١٥٤

(٣) نفسه ١٥٣/١

(٤) نفسه ١٥٢/١

(٥) نفسه ١٥٣/١

(٦) نفسه ١٢١/١

(٧) الخريدة ١٠٩/١، ١١٧

(٨) مروت ترجمته في ص ٨٥

(٩) هو ابو المظفر محمد بن ابي العباس أحمد، الاموي، الشاعر، كان متبحراً في الأدب، خبيراً بعلم النسب. توفي سنة

٥٠٧ هـ، لا سنة ٥٥٧ هـ كما زعم ابن خلكان. المنتظم ١٧٦/٩، معجم الادباء ٢٣٤/١٧، وفیات الاعيان ٧١/٤، الوافي

بالوفيات ٩١/٢

المتفرجين الى الأحاجي، والالغاز، والمعميات ينظمونها او يتبارون في حلها، ونال بعضهم شهرة في هذا المجال: فقد نص العماد على ان تاج الدين، شقيق الوزير عضد الدين، كان.. اكثر ميلا الى اللغز والمعمى والأحاجي^(١)، وقال صاحب الفوات: ان سعد الدين، الحسين بن شبيب الطيبي^(٢)، كان مقداما في حل الالغاز^(٣).

وعندي ان افراط هؤلاء الزعماء في ادعاء الغرام، وشكواهم من فرط الجوى، ووصفهم لما يعانون من سهاد وارق في غزلهم، لا يمكن فهمه الا على افتراض انه نظم قتلا للوقت، ودفعاً لساعات ثقال لا تريد ان تزحزح، والا فكيف نصدق شقيق الخليفة، حين يزعم انه يموت اسفا على حبيب نأى:

قد جَدَدَ الدهر في الْوَرَى مَحْنًا وَاودَعَ الدهر في الْحَشَا حَزَنًا
لو كَانَ شَخْصٌ يَمُوتُ مِنْ أَسْفٍ عَلَى حَبِيبٍ نَأَى، لَكُنْتُ أَنَا^(٤)

٢ - السجن والاعتقال:

من الغريب ان ينفرد اثير الدين ابن عم الوزير عضد الدين بذكر السجن، ووصف ما كان يعانيه فيه، رغم ان السجن والاعتقال لم يكن من نصيب اثير الدين هذا وحده: فقد سجن كل من بهاء الدين بن حمدون الكاتب، صاحب ديوان الزمام، ايام المستنجد، ومات في الحبس سنة ٥٦٢ هـ^(٥)، كذلك سجن شاعر ابن هبيرة، مفلح بن علي الانباري، ومات في الحبس سنة ٥٦١ هـ^(٦)، كذلك نجد ان ولدي الوزير ابن هبيرة، قد سَجِنَا بعد موت والدهما سنة ٥٦٠ هـ، وماتا في السجن، وهؤلاء كلهم من الشعراء، وكلهم من الطبقة العليا في المجتمع فاين شعرهم في السجن؟ ارجح ان شعر اثير الدين قد وصلنا، دون سواه، لانه قد خلا من اية اشارة الى اسباب سجنه، ولم يتعرض الى أحد ممن سجنه، على حين كان موت الآخرين في السجن، من اسباب اتلاف شعرهم: لان الغضب على فرد، في ذلك الزمن، قد يؤدي الى اتلاف جميع شعره^(٧).

(١) الخريدة ١/ ١٧٧

(٢) نسبة الى الطيب، بلدة كانت تقع بين واسط وخوزستان، وابن شيب هذا كان بمنزلة التديم للخليفة المستنجد بالله، وولاه اشراف المخزن، توفي سنة ٥٨٠ هـ. الخريدة ١/ ١٨٧، فوات الوفيات ١/ ٢٧٦

(٣) فوات الوفيات ١/ ٢٧٦

(٤) الخريدة ١/ ٣٦، وانظر ص ٩٩، ١٥٧: أبيات ابن عم الوزير: تحري دموعي...

(٥) نفسه ١/ ١٨٤

(٦) نفسه ٤/ ٣٠٢

(٧) الخريدة ٢/ ٥٤

ان شعراثر الدين في السجن، شعر دون المتوسط، من الناحية الفنية، ولكن اهميته تكمن في دلالاته الاجتماعية، مثل معظم شعر الاغنياء المترفين، ومنه قول اثير الدين:

افادني السجنُ منه عَقْلاً لعقله سمي اعتقالا
لكنه شَفَنِي بِغَمٍ غادرني بالضنى خيالا
يُضِيءُ للعقلِ كُلَّ شَيْءٍ اذْ صرت من دقتي هلالاً^(١)
٣ - التغرب والحنين الى الوطن:

عرف اثنان من امراء بني مزيد هما: الامير بدران بن صدقة المتوفى بمصر سنة ٥٣٠ هـ^(٢) والامير مزيد بن صفوان بن الحسن، المتوفى في الشام سنة ٥٨٤ هـ^(٣)، عرف هذان الاميران بالحنين والتشوق الى موطن الاباء والاجداد في الحلة، بعد ان اضطرا الى مغادرة العراق قبيل نهاية سلطانهم السياسي سنة ٥٥٨ هـ، لاسباب اشرت اليها في مقدمة هذه الرسالة، قال بدران:

الا قُلْ لمنصور، وقُلْ لمسيبٍ وقُلْ لِديسٍ إِنَّنِي لَغَرِيبُ
هَنِيئاً لكم ماء الفرات وطيبه إذا لم يكن لي في الفرات نصيبُ^(٤)
وقال ايضا:

يا راكبينَ من الشَّأ مِ الى العراقِ تحَسَّسا لي
إن جئتما حللَ^(٥) الكِرا مِ ومركزَ الأسَلِ^(٦) الطُّوالِ
قُولاً لها، بعد السُّلا مِ، وَقَبْلَ تَصْفِيفِ الرُّحالِ
مالي ارى السُّعدي عن جيشِ الفتى المضري خبالِ
والقبة البيضاء في نقصٍ، وكانت في كَمالِ
يا صدق، لو صَدَقُوا رجا لك مثل صدقكَ في القتالِ
او يَحْمِلُونَ على اليمِ ن، كما حَمَلَتْ على الشَّمالِ

(١) نفسه ١/ ١٥٦

(٢) نفسه ٤/ ١٧٧

(٣) الشعر العربي في العراق ٢/ ٧٤

(٤) الخريدة ٤/ ١٧٢ - ١٧٣

(٦) الاسل: الرماح.

(٥) الحلال: المنازل.

دامت لهم بك دولة تسعى لها همم الرجال
عربية، بدوية تسمو على طول الليالي
لكنهم لما رأوا يوم الوغى وقع العوالي^(١)
فرّوا، وما كروا قتب ياً: للعبيد وللموالي^(٢)
وقال مزيد:

فيا دهر، هل بعد التفرق رجعة؟ فيهتف بي للوصل يا دهر هاتف
وتسعدني بالقرب بين احبتي وتجمعني^(٣) «بالجامعين» معارف
وبالرغم من شدة تعلق العراقيين، حتى اليوم، ببلادهم، حتى ان النازحين منهم الى
الاقطار الاخرى قلة اذا قورنوا باخوانهم العرب الاخرين، ولكن مع وجود هذه الحقيقة،
فان فكرة الوطن عند الاميرين المزيدين - كما تدل قطعة بدران الثانية - ارتبطت بالمجد
والامال والمطامح، التي تلاشت كلها في ديار الغربة، حتى ظهر على بدران اثر الفقر - كما
نص^(٤) العماد - بعد ان كان اميرا ذا شأن.

د - شعراء العلماء:

ويمثل هؤلاء الطبقة المثقفة في المجتمع العباسي، فينبهم الطبيب، مثل هبة الله بن
صاعد بن التلميذ المتوفى سنة ٥٦٠ هـ^(٥)، والنحوي المقرئ، مثل الحسين بن محمد
المنعوت بالبارع المتوفى سنة ٥٢٤ هـ^(٦)، والعلامة الذي يجمع بين النحو، واللغة، وقراءة
القرآن الكريم، ورواية الحديث الشريف مثل ابي اليمن زيد بن الحسن الكندي الملقب تاج
الدين المتوفى سنة ٦١٣ هـ^(٧)، والمؤرخ الواقظ، المحدث، ابو الفرج عبد الرحمن بن
الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ^(٨)، والعالم بالطب، والرياضيات، والهيئة، والنجوم،

(١) العوالي: الرماح.

(٢) الخريدة ٤ / ١٧٩ - ١٨٠

(٣) احدى مناطق مدينة الحلة مدينة الحلة الباقية حتى اليوم.

(٤) الشعر العربي في العراق ٢ / ٧٤

(٥) الخريدة ٤ / ١٧٧

(٦) تاريخ الحكماء ص ٢٢٢ (ط. السعادة)، عيون الانباء ٢ / ٣٠٦، وفيات الاعيان ٥ / ١١٩

(٧) المنتظم: ١٠ / ١٦ - ١٩، الخريدة ٢٣٠ نسخة ايران، معجم الادباء ١٠ / ١٤٧، وفيات الاعيان ١ / ٣٥٥

(٨) معجم الادباء ١١ / ١٧٢، وفيات الاعيان ٢ / ٨٧، غاية النهاية ١ / ٢٩٨

(٩) مرآة الزمان ٨ / ٤٨١، ذيل الروضتين ص ٢١ - ٢٧، وفيات الاعيان ٢ / ٣٢١، البداية والنهاية ١٢ / ٢٩

والرصد مثل هبة الله بن الحسين المعروف، بالبديع الاسطرلابي المتوفى سنة ٥٣٤ هـ^(١)، وغير هؤلاء كثيرون.

وعلى الرغم من النص على ان بعض العلماء، عرفوا بقلّة الشعر او ندرته، كأبي محمد عبد الله بن احمد، المعروف بابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ^(٢)، وهبة الله بن علي، ابو السعادات، العلوي النحوي الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ^(٣)، اقول برغم ذلك، عرف بعض علماء هذه الحقبة بكثرة الشعر، حتى قيل ان شعر ابن الجوزي يصل الى عشر مجلدات^(٤)، وكان لطائفة منهم دواوين، ومن هؤلاء: البديع الاسطرلابي، ومحمد بن مَوَاهِب الخراساني^(٥) المتوفى سنة ٥٧٦ هـ. وتاج الدين الكندي^(٦)، والبارع^(٧). وجمع ابو الحسن، علي بن الحسن المعروف بـ (شميم الحلبي) المتوفى سنة ٦٠١ هـ، من نظمه كتابا سماه الحماسة، ضامى به حماسة ابي تمام الطائي^(٨)، والفي الطيّب البصري يحمي بن سعيد بن ماري المتوفى سنة ٥٨٩ هـ، ستين مقامة، ضامى بها مقامات الحريري، احسن فيها واجاد، كما يقول صاحب معجم الادباء^(٩).

ولا بد ان الباحث المؤرخ سيفرح، وعني نفسه بالكثير، حين يطالع النصوص السابقة عن كثرة شعر العلماء ووفرته، ولكن تلك الفرحة سرعان ما تختفي، ويصدم المرء، حين يجد ان اكثرية شعر العلماء قد ضاعت، وان تلك الاكداوس، والمجاميع الشعرية، لم تبق منها الا صباغة لا تبل الريق، ولا تزيد الظمان الا عطشا، ولعل مما يضاعف حسرة المرء، ويزيد في تعاسته، ان يجد المؤرخين القدماء - ساعهم الله - ينعتون طائفة من العلماء بغزارة الشعر، وطول الباع في ميدان النظم، حتى اذا جئت الى الادلة والشواهد، والامثلة التي تسند تلك الاقوال، لم تجد الا سرايا، فعلى سبيل المثال، قال ابن كثير عن ابي بكر، المبارك بن سعيد الواسطي الملقب بالوجيه النحوي المتوفى سنة ٦١٢ هـ: له مدائح حسنة،

(١) معجم الادباء ٢٤١/٧ ط. ماركليوث الاولى، عيون الانباء ٣٠١/٢، وفيات الاعيان ١٠١/٥

(٢) الخريدة/ نسخة ايران ٢٢٤، وفيات الاعيان ٢٨٨/٢

(٣) المستفاد ٧٧

(٤) مرآة الزمان ٤٩٩/٨، ذيل الروضتين ص ٢٤

(٥) معجم الادباء ٢٤٢/٧ ط. ماركليوث الاولى.

(٦) ذيل الرديتين ص ٩٧

(٧) وفيات الاعيان ١/٣٥٥

(٨) نفسه ٣/٢٦

(٩) معجم الادباء ٢٩٦/٧ ط. ماركليوث الاولى، وانظر: تاريخ الحكماء ص ٢٣٦ ط. السعادة، والنجوم الزاهرة ٥/

٣٦٤، وقد وهم ابن تغري بردي اذ جعله بغداديا وهو بصري، ومقاماته الستون قد اعدّها للطبع الاستاذ الشيخ محمد بهجة الاثري، كما اشار في تعليقاته على الخريدة/ قسم العراق. وفيات الاعيان ١/٤٣٥.

واشعار رائقة، ومعان فائقة، وربما عارض شعر البحري بما يقاربه ويدانيه^(١). ثم لا يورد بعد هذا الكلام سوى خمسة أبيات لا تبل الغليل، وقال ابن الفوطي عن ابن الخراساني، السالف الذكر: علامة الزمان، في الادب والنحو، له خاطر كالماء الجاري، يقدر على نظم ما شاء في ساعة واحدة، وديوانه خمس عشرة مجلدة^(٢)، ثم لا يورد، من هذه المجلدات، سوى بيتين، وهكذا الامر في بقية من اشتهر بقول الشعر من العلماء.

ان بعض الاسباب، التي يوردها المؤرخون للتدليل على اسقاطهم لطائفة كبيرة من شعر بعض العلماء، قد تكون مقبولة، فمثلاً: لم يسلم من لسان هبة الله بن الفضل، المعروف بابن القَطَّان المتوفى سنة ٥٥٨ هـ، احد من الكبراء، ومنهم الخليفة نفسه^(٣)، ولذلك قال العماد عنه، له شعر كثير لم يدون^(٤)، وقال ابن خلكان عن البديع الاسطرلابي: وكان كثير الخلاعة، يستعمل المجون في اشعاره، حتى يفضي به الى الفحش، في اللفاظ، فلهذا اقتصر له على هذه النبذة، مع كثرة شعره^(٥). ولكن الباحث المحايد لا يلبث ان يجد طائفة من العلماء، لم ينص احد على انهم تعرضوا لذى منصب كبير، ولا انهم من الماجنين، ومع ذلك لا نجد من شعرهم الا اقل القليل، ومن هؤلاء: الوجيه النحوي، وابن الخراساني، السالفا الذكر، وكذلك ابن الجوزي، الواعظ الحنبلي المعروف.

وأرجح ان اشتهار العلماء، وانصرافهم الى علومهم التي عرفوا بها، كالطب، والفلك، والرياضيات، والنحو، واللغة، اضعف الى ذلك ما شاع وذاع من ضعف ورقة، قيل ان شعر العلماء لا يكاد يخلو منها، وهي المقولة التي ردها ابن قتيبة في القرن الثالث^(٦)، وتبعه القفطي^(٧) في القرن السابع، كل ذلك حمل النقاد والمؤرخين على الاهتمام بكتب العلماء وآرائهم في حقول اختصاصاتهم المختلفة، اما شعرهم وأدبهم، فكانوا يرون به مروراً سريعاً، مكتفين بالبيت او البيتين، على سبيل الطرافة والتفكه، وهكذا طويت عنا دواوين، وحجب في زوايا الغيب ادب، ربما كان في نشره واذاعته ما يغير كثيرا من المفاهيم، التي تتردد عن شعر العلماء.

ان الذي يهتما من شعر العلماء، هو نفسه الذي اهمنا من شعر الطبقة العليا: لان الجماعتين ليستا من رجال الشعر المعروفين، الذين وقفوا حياتهم على تدبيح القصائد، وتجويد القول. ان شعر العلماء يصور حياة الطبقة المثقفة آنذاك، ويعبر عما كانوا يعانون

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٦٩

(٢) تلخيص معجم اللغات: ق ٤ ج ٣ ص ٣٧٣

(٣) وفیات الاعيان ٥ / ١٠٤

(٤) وفیات الاعيان ٥ / ١٠١

(٥) الخريدة ٢ / ٢٧٠

(٦) انباء الرواة ٣ / ٢٦٧

(٧) الشعر والشعراء ص ١٦ (ط. دار الثقافة الاولى).

ويكابدون ! وكيف كان المجتمع ينظر الى العالم ، وما نوع العلاقة بين العلماء ورجال الدولة ، ان علاقة بعضهم بكبار الحكام ، كالخلفاء والوزراء ، وترددهم المستمر على دار الخلافة ، ومنازل عليا القوم ، قد يكشف لنا عن صحة او بطلان الصور الزاهية للحياة يومذاك ، كما وصفها الشعراء المحترفون .

١ - نقد الحكام وتعريتهم : ان من يطالع دواوين شعراء الفترة المحترفين ، ومنهم ابن التعاويذي ، والابله البغدادي ، ويقف على قصائدهم الطنانة ، وتلك الصفات ، والصور التي صوروا بها ومدحهم من رجال السياسة والادارة ، كالخلفاء والوزراء ، اقول ان من يقف على صورة رجال الحكم ، كما ترسمها الاقلام المرتزقة ، وتقدمها للناس في مثالية عجيبة ، ثم يقرأ تلك التنف ، والابيات القصار ، التي يسددها العلماء الى اولئك الحكام ، فيصفونهم على حقيقتهم ، بعيدا عن الدجل ، والتلفيق ، وشراء الذمم ، ان من يوازن بين الصورتين ، يأخذ العجب مما تفعله الدراهم ، فعلى سبيل المثال : نظم الابله اكثر من خمس عشرة قصيدة في مدح ابن هبيرة الوزير ، ونظم معاصروه من الشعراء اكاداسا من لشعر ، كلها تكبر السيد الوزير ، وتشيد بمآثره ، واياديه الجسام ، وما ناله الناس في ايامه من خير وبر ، ولكن صورة هذا الوزير ، ما تلبث ان تهتز في اذهاننا ، اذا وقفنا على ابيات البديع لاصطربلاي فيه :

قُضِيَ أَمَانِيكَ الرَّجُو عَ إِلَى الْمَسَاحِي وَالنَّيْرِ^(١)
مُتَرَبِّعاً وَسَطَ الْمَزَا بَلْ ، وَسَطَ دُورِ بَنِي أَقْرِ^(٢)
أَوْ قَائِداً جَمَلَ الزُّبَيْ لَدِي^(٣) اللَّعِينِ إِلَى سَقَرِ^(٤)

وهذا الذي فعله البديع الاصطربلاي ، يشبه ما فعله هبة الله ابن الفضل حين قال بهجو «خلقنا من الاكابر» بينهم الخليفة نفسه ، في قصيدة منها هذا البيت الساخر :

تَكْرِيتٌ تُعْجِزُنَا ، وَنَحْنُ بِجَهْلِنَا نَمْضِي لِنَأْخُذَ تَرْمِداً مِنْ سَنْجَرِ^(٥)

(١) النَّيْرُ : واحدها : نير وهو الخشبة التي تجمع بين ثورين عند الحراة .

(٢) فِي وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ ٢٧٤ / ٥ .

ان الوزير يحيى بن هبيرة من قرية بني أوقر من اعمال دجيل .

(٣) لعله استاذ ابن هبيرة وهو ابو عبد الله محمد بن يحيى . . الزبيدي الواعظ اذ ينص ابن خلكان انه كان يصحبه . والوفيات

٢٧٤ / ٥ ، وقال ابن خلكان : ان الشيخ الزبيدي كان كبير القدر وما انتفع الوزير الا بصحبته ، وقد توفي سنة ٥٥٥ . الوفيات / ٥

٢٨٦

(٥) وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ : ١٠٩ / ٥

(٤) . معجم البلدان : ٩٨ / ٤

٢ - كثرة التعليل، وذكر الاسباب: يخضع العلماء شعرهم لنظام دقيق من ربط المقدمات بالتنتاج، والظواهر باسبابها، وهو صدى لتفكيرهم العلمي، وحياتهم القائمة على ان لكل شيء سببا، ولذلك نراهم، في شعرهم، يسارعون الى البرهنة على صحة ما يذهبون اليه من رأي، او فكرة، وكأنهم يتوقعون ان يناقشهم السامعون فمن ذلك قول هبة الله بن التلميذ الطبيب:

إذا وجدَ الشَّيْخُ في نفسه نشاطاً، فذلك موتٌ خَفِي
أَلَسْتُ ترى ان ضوءَ السراجِ له لهيبٌ قبلَ أنْ يَنْطَفِئَ؟^(١)

فابن التلميذ-وهو الطبيب الخبير المجرب- يحذر الشيوخ من النشاط المفاجيء بانه ليس علامة صحة، بل بالعكس، وفي سبيل البرهنة على صحة هذه الدعوى عمد الى لب السراج قبل ان ينطفئ. وقال سعيد بن المبارك، المعروف بابن الدهان النحوي المتوفى سنة ٥٦٩ هـ:

قِيلَ لي: جاءكَ نجلٌ ولدَ شَهْمٍ وَسِمٍ
قُلْتُ عَزَّوهِ بِفَقْدِي وَلَدُ الشَّيْخِ يَتِيمٌ^(٢)

٣ - استعمال الالفاظ والاصطلاحات العلمية: قال صلاح الدين الصفدي: وكل من عانى النظم، وغلب عليه فن من الفنون، مال به الى ذلك الفن، وغلبت عليه قواعده، واستعملها في مقاصده الشعرية، وتحيلات معانيه، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن، واحكامه، الا ترى الى ابي الفتح البستي^(٣)، ومقاطيعه المشهورة في الاداب، والحكم، كيف يغلب عليها الفاظ المنجمين^(٤). وقبل الصفدي اشار القفطي^(٥) الى شيء من هذا الذي فصله صلاح الدين بعد ذلك. والمهم هنا: ان الفاظ واصطلاحات العلوم المختلفة واصطلاحاتها، تكسب الشعر طرافة وجالا، فيعذب ويحلو، ويخف على القلوب والاسماع، قال البديع الاضطرابي، وكان عالما بالفلك - كما مر -

(١) معجم الادباء ٢٤٦/٧ (ط. ماركليوث الاولى)، عيون الانباء ٢/٢٨١، وانظر أيضا ٢/٢٨٣، وفيات الاعيان ٢/

(٢) الوافي بالوفيات ١٤٣/٨ «مصور».

(٣) هو علي بن محمد، الكاتب، الشاعر، المشهور، قال ابن خلكان انه: صاحب الطريقة الانيقية، والتجنيس البديع التأميس. توفي ببخاري سنة ٤٠٠ هـ وقيل سنة ٤٠١ هـ. يتيمة الدهر ٤/٢٨٤ (ط. الصاوي)، وفيات الاعيان ٣/٥٨، النجوم الزاهرة ٤/٢٢٨، شذرات الذهب ٣/١٥٩
(٤) الغيث المسجم ١/١٨٩
(٥) انباء الرواة ٣/١٩١

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ، فَإِنِّي قَدْ صُغْتُ قَلْباً مِنْ حَدِيدٍ
وَقَعَدْتُ أَنْتَظِرَ الْكُسُوفَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ بَعِيدٍ^(١)
وقال:

تَقْسِمُ قَلْبِي فِي مَحَبَّةٍ مَعْشِرٍ بِكُلِّ فِتْنٍ مِنْهُمْ، هَوَايَ مَنُوطٌ
كَأَنَّ فُؤَادِي مَرْكَزٌ، وَهُمْ لَهُ مُحِيطٌ، وَاهْوَايَ إِلَيْهِ خُطُوطٌ^(٢)
وقال أيضاً:

وَذُو هَيْئَةٍ، يَزْهَوُ بِخَالٍ مِهْنَدَسٍ أَمُوتُ بِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأُبْعَثُ
مُحِيطٌ بِأَوْصَافِ الْمَلَاخَةِ وَجْهَهُ كَأَنَّ بِهِ إِقْلِيدَسٌ يَتَحَدَّثُ
فَعَارِضُهُ خَطٌّ اسْتَوَاءٌ، وَخَالُهُ بِهِ نَقْطَةٌ، وَالْخَدُّ شَكْلٌ مِثْلُ^(٣)

ان الفاظ: الكسوف، والمركز، والمحيط، واقليدس، والنقطة، وخط الاستواء،
والشكل المثلث، تظهر بوضوح مهنة البديع الاضطرابي، فلم يستطع ان ينساها، حتى
وهو يتغزل.

وقال الطبيب هبة الله بن التلميذ:

إِذَا كُنْتُ مَحْمُوداً فَأَنْتَ مَرِيءٌ عُيُونُ الْوَرَى، فَاحْلِهِمْ بِالتَّوَاضُعِ^(٤)

٤ - الغربة والحنين الى الوطن: اضطر قسم من العلماء الى ترك بلادهم، والنزوح
الى الاقطار المجاورة، بسبب الاوضاع الاجتماعية، والسياسية السيئة التي اشترت اليها في
مقدمة هذه الرسالة، وكان العالم العراقي - آنذاك - يمثل عملة نادرة، ولذلك كان
العراقيون، يقابلون بالاكبار اينما حلوا، قال صاحب الروضتين يصف مكانة تاج الدين
الكندي في دمشق: ان اولاد الملوك، كانوا من طلابه، وخدامه، وكان يحضر مجلسه للقراءة
والسماع منه في داره: جميع المتصدرين بجامع دمشق من المشايخ المعتبرين. كأبي الحسن
السخاوي^(٥)، ويحيى^(٦) بن معطي^(٧). اما ابو المظفر، محمد بن اسعد الحنفي البغدادي

(١) عيون الاناء ٢/ ٣٠٢

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ٢/ ٣٠١

(٤) نفسه ٢/ ٢٨٣

(٥) هو ابو الحسن علي بن محمد، المصري، المقرئ، النحوي، الملقب بعلم الدين، قال ابن خلكان: رأته بدمشق والناس يزدهون عليه في الجامع لاجل القراءة، ولا يصح لواحد منهم نوبة الا بعد زمان. توفي سنة ٦٤٣ هـ بدمشق. وفيات الاعيان ٣/ ٢٧، بغية الوعاة ص ٣٤٩، معجم المؤلفين ٧/ ٢٠٩.

(٦) هو ابو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور، الملقب زين الدين: كان احد ائمة عصره في النحو واللغة. توفي بالقاهرة سنة ٦٢٨ هـ. وفيات الاعيان ٥/ ٢٤٣، بغية الوعاة ص ٤١٦، شذرات الذهب ٥/ ١٢٩، معجم المؤلفين ١٣/ ٢٠٩.

(٧) ذيل الروضتين ص ٩٥

الواعظ المتوفى سنة ٥٦٧ هـ، فقد بنى له صاحب دمشق مدرسة ليعظ بها^(١). ومن الطبيعي ان يشترك هؤلاء العلماء الى بلادهم مهما كانت الظروف المحيطة بهم، وقد صور شعرهم هذا الشوق، ورسم تعلق العراقيين ببلادهم، وحنينهم الى ايام الصبا، ومرايح الحداثة.

قال الفقيه ابو علي محمد بن عبد الله البغدادي، المتوفى ببلخ سنة ٥٤٨ هـ يشترك الى جَرَجَرَايا^(٢):

على تلك العِراضِ بِجَرَجَرَايا من الانواءِ انواع التحايا
ديارُ كنت ألفها، وأغشى بها هيفاء، وأضحى الشايا
فَغَيَّرَ آيَهَا صَرَفُ اللَّيالي وَبَدَّلَ اهلَهَا بِالْقُرْبِ نايَا
عَدَّتْ اَيَّامُهَا سوداً، وكانت لَيَالينا بها بيضاً وضَايا^(٣)

وقال عبد الرحيم بن الاخوة، البغدادي، المتوفى بشيراز سنة ٥٤٨ هـ:

أخوَيَ بالزَّوراءِ، جادَكُمُ الحَيَا هلِ الملتقى بعدَ النَّأيِ مُتَدانٍ؟
وهَلْ بعدَ أن شَطَطَ بنا غُرْبَةُ النَّوى تلاقٍ، وهل بعد الجَفَاءِ تَجانٍ؟
تَرَحَّلْتَ عنكم، والشَّبابُ بمائه فَشَيَّبَنِي هِجْرانُكُمْ، وَحَنانِي
وَقَيَّدَنِي عنكم أصاغرُ صَبِيَّةٍ تَوَزَّعَ قَلْبِي شانَهُمْ وَعَنانِي
إذا هَزَنِي عَزْمِي اليُكُمُ أَهَابَ بِي تَعَهَّدَهُمْ، فاعْتاقَنِي وَثْنانِي
فانشد نفسي قولَ صخر^(٤)، وانطوى على كَمَدٍ، يحكي شِباةً^(٥) سِنانٍ
«اهمُّ بامر الحزمِ - لو أستطيعه - وقد جيلَ بين العِبرِ والتَّزْوانِ»^(٦)

٥ - الاحاجي، والالغاز، والمعارضات: كما شغفت الطبقة العليا بالاحاجي والالغاز، ومعارضة قصائد مشهورة - كما اشرت قبل صفحات - قتلا للوقت، وترفيها عن النفس، وربما ايضا اثباتا للقدرة على نظم الشعر، كذلك فتن العلماء هذه «الالعب» بسبب صلتهم برجال الطبقة العليا، وحرصهم على مجاراة السادة الكبار فيما يحبون، ويولعون اذ يبدو ان الغرام بالاحاجي، والشعر المعنى، اصبح دليلا على ان ناظمه

(١) الوافي بالوفيات ٢٠٣/٢

(٢) من نواحي واسط، كما في معجم البلدان ٨٠/٣

(٣) الخريدة / نسخة ايران ١٨١

(٤) صخر: لم اتوصل الى معرفته، وكذلك لم اقف على بيته الذي ضمنه ابن الاخوة.

(٥) الشباة: طُرف السنان.

(٦) الخريدة / نسخة ايران ٢٠١، العبر: الحمار. التزوان: الوثب.

يواكب كل مستطرف في عالم الشعر. وقد تكون مقامات الحريري - وقد نالت لمدة نيفت على سبعة قرون تقديرا يلي القرآن الكريم^(١) - هي السبب في تسابق الكثيرين نحو الاحاجي والالغاز، لاحتوائها على الغاز في النحو^(٢)، والغاز في الفقه^(٣)، والغاز في غير هذين الميدانين. وهكذا رويت الغاز للبارع^(٤)، ولابن الخشاب^(٥)، وللطبيب هبة الله بن التلميذ^(٦)، ولابي الفرج بن التلميذ^(٧)، اما الطبيب محفوظ بن المسيحي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ، فقال العماد انه كان «لهجا بالالغاز، ولما يسمعه من ذلك شديد الاهتزاز...»، ثم ذكر له الغازا في العقل، والرمانة، وكيزان الفخار، والناي^(٨).

وكان ابو نزار - المعروف بـ ملك النحاة - مولعا بالمعارضات كي يثبت انه متفوق على مشاهير القدماء، حتى روي انه قال: هل سيبويه الا من رعيقي، وحاشيتي، ولو عاش ابن جني لم يسمه الا اهل غاشيتي^(٩). وقد وضع ابو نزار مقامات على غرار مقامات الحريري، قال عنها: «مقاماتي جد، وصدق، ومقامات الحريري هزل، وكذب»^(١٠)، وقد عارض ابو نزار ميمية مهيار التي فيها يقول:

فابْعَثُوا اشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكَرَى اَنْ اَرَدْتُمْ لِيْجْفُونِي اَنْ تَنْبَاسَا^(١١)

كما عارض حائية ذي الرمة بقصيدة، يقول فيها:

وَإِنْ مِنْ الْهَيْفِ النَّوَاعِمِ مَا هَفَّتْ إِلَيْهِ جِهَاتٌ مِنْ فَوَادِكُ تَطْمَحُ؟
سَقَى الْجَزَعُ مَا رَوَى رَبَّاهُ مُجْلَجِلٌ^(١٢) هَتُونُ الْغَوَادِي^(١٣) بِرَقَّةٍ يَتَوَضَّعُ^(١٤)

(٢) انظر: المقامة القطيعية والنحوية.
(٤) الاعجاز للحظيري ص ١٢٢
(٦) الاعجاز ص ٣١
(٨) الخريدة ٤/ ٤٩٨-٥٠١
(١٠) انباء الرواة ١/ ٣٠٩ حاشية ١٥.
(١٢) مجلجل: اي سحاب راعد.

(١) المدخل في الادب العربي ص ١٢٠
(٣) انظر: المقامة الطيية او الحرية.
(٥) معجم الادباء ١٢/ ٥٢
(٧) نفسه ص ٤٤
(٩) بغية الوعاة ص ٢٢٠، الغاشية: غطاء السرج.
(١١) في الديوان ٣/ ٣٢٨ (وابعثوا... إن اذنتم...)
(١٣) الغواضي: واحدها الغادية: السحابة التي تنشأ صباحا.
(١٤) الخريدة / نسخة ايران ٢٤٠-٢٤١

الفصل الثالث
الشعر المحافظ .. أشهر أغراضه

١ - المدح :

لا يختلف القرن السادس عن القرون السابقة من ناحية كثرة شعر المدح، قياسا الى الاغراض الشعرية الأخرى، كذلك وجد في هذا القرن - كما هو الحال في الماضي - بعض الشخصيات التي عرفت بتشجيعها للشعراء، وبذاتها الاموال بسخاء من اجل الذكر الحسن، والقصائد الطنانة ولذلك استقطب هؤلاء قصائد الشعراء، وقيلت فيهم معظم قصائد المدح المشهورة.

ومن الطبيعي ان يكون الخلفاء في طليعة مشجعي الشعراء، وخاصة المستضيء وابنه الناصر لدين الله، والوزير يحيى بن هبيرة، ثم صلاح الدين الايوبي، ووزيره القاضي الفاضل، وكذلك وزير الموصل محمد بن علي المتوفى سنة ٥٥٨ هـ، وهو المعروف بالجواد - كما يقول ابن خلكان^(١).

ولعل وجود طائفة من الشعراء يسمون «شعراء الديوان»^(٢) خاصين بديوان الخلافة، مما يدل على اهتمام الخلفاء بالشعر والشعراء، اضافة الى الاخبار والروايات الكثيرة التي تدل على اكرام الخلفاء للشعراء، ومنها: ان المستضيء اعطى الحيص بيص ٣٠٠ دينار وخلعة ودارا، واقطعه ضيعة من اجل أبيات لا تزيد على خمسة مدحه بها^(٣)، واعطى هذا الخليفة نفسه للنحوي المعروف بابن الخشاب مائتي دينار من اجل بيتين من الشعر، وقال: «لو زادنا زده»^(٤)، أما الوزير ابن هبيرة فقد قال عنه العماد انه: «رزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه احد، وأجاز عليه، وقد جمعت القصائد التي مدح بها فزادت على مائتي الف بيت»^(٥). وقال ابن خلكان عن صلاح الدين الايوبي: «ومدحه جميع شعراء عصره،

(١) وفیات الأعيان ٤ / ٢٢٨.

(٢) ابن الديبهي و ٥٤، ٢٦٤، الجامع المختصر ٩ / ٦٩، الوافي ٢ / ١٠١، ١١٩ / ٢، نكت الحميان ١٢٤.

(٣) الخزينة ١ / ٣٣٠.

(٥) الخزينة ١ / ٩٨.

(٤) شذرات الذهب ٤ / ٢٢١.

وانتجعوه من البلاد^(١). « وكان ابن التعاويذي يسير قصائده اليه من بغداد، فتصل الى القاضي الفاضل، ومعها مديح للفاضل، وهو الذي يعرض قصائده على صلاح الدين^(٢). عوامل أثرت في المدح:

يذهب الدكتور شوقي ضيف الى ان البواعث والحوادث الهامة، مما يدفع الشاعر الى التجويد والابداع، ويعطي شعره حدة أو قوة^(٣). وهذا الذي يقوله الاستاذ الكريم، هو الذي اضفى على طائفة من المدح في القرن السادس مسحة من الجدة، وبث فيه حياة وقوة، تحمل الباحث على الوقوف والتأمل والاعجاب، اذ وجد الشعراء في اشخاص بعض المدحون والأحداث المحيطة بهم، حوافز كبيرة اهمتهم افكارا وصورا، كان يظن ان لا سبيل اليها بعد ان شاخ شعر المدح وهم.

١ - كانت الحروب الصليبية والصراع بين الفرنج والعرب، أو بين الاسلام والمسيحية، وموقف الخليفة من الحرب التي كان يقودها صلاح الدين، كل ذلك ترك اثره في مدح ابن التعاويذي لصلاح الدين، حين قال:

وَنَهَضَتْ لِلإِسْلَامِ نَهْضَةً صَادِقَ الْـ
وَعَظِيبَتْ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ، وَلَمْ تَزَلْ
غَادَرَتْ أَهْلَ الْبَغْيِ، بَيْنَ مُجْدَلٍ
أَوْ هَارِبٍ ضَاقَتْ عَلَيْهِ بِرَحْبِهَا الْـ
فَاصْبُحْ بِلَادَ الرُّومِ مِنْكَ بَغَارَةٌ
وَانْكَحِ صَوَارِمَكَ الثُّغُورَ، يَزُورُهَا
... الخ^(٤).

عزَمَات، تَرَابُ^(٥) مِنْ ثَأَةٍ^(٦) وَتَشَعْبُ^(٧)
فِي اللَّهِ تَرْضَى، مِنْذُ كُنْتُ، وَتَغْضَبُ
لِقِيِّ الْجِمَامِ، وَخَائِفٍ يَتَرَقَّبُ
أَرْضَ الْفُضَاءِ، وَابْنَ مِنْكَ الْمَهْرَبُ؟
لِلنَّصْرِ فِيهَا رَائِدٌ لَا يَكْذِبُ
- فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ جِيوشِكَ - مِقْنَبُهُ^(٨)

وقد حذف منها جامع الديوان الأبيات التالية:

وَارِمِ الْكِنَاسَ مِنْ شِظَاكِ بِمَارِجٍ^(٩)
وَارْفَعْ بِهَا لِلْمُسْلِمِينَ مَنَابِرًا
مُتَاجِجٍ، نِيرَانُهُ تَسْلُهُبُ
بِاسْمِ الْخَلِيفَةِ، ثُمَّ بِاسْمِكَ يُخْطَبُ

(٢) نفسه ١٦٢/٦.

(٤) تراب: تصلح.

(٦) تشعب: تصلح.

(٨) الديوان ص ٢٥.

(١) وفيات الأعيان ٢١٠/٦.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٧٤.

(٥) ثأه: الثاني: أراد بها الجانب أو الكف.

(٧) المِقْنَب: الجماعة من الخيل.

(٩) المارِج: الشعلة ذات اللهب الشديد المختلط بسواد النار.

واسق الجياد من الخليج، فَوْرَدُهُ يدنو عليك - اذا عَزَمْتَ - وَيَقْرُبُ
مَلَحَتْ مَوَارِدُهُ، واقْبِسْمْ أَنَّهَا من نيل مصر، في مَذاقِكَ، أَعَذِبُ
واقْرَعْ بِحَيِّ عَلَى الْفَلاحِ مَسامِعاً تَصْبُو، اذا دُكِرَ الصَّليبُ، فَتَطْرُبُ
لا تُبْقِ زُناراً. يَشْدُ بها على عِلْجٍ، ولا ناقوسَ دَيْرٍ يَضْرِبُ
واصمد لحربِ المُشركينَ، مَهْذَباً بالسيفِ مَنْ بسِواه لا يَتَهَذَّبُ^(١)

ان عاطفة الشاعر الدينية، واعجابه بموقف صلاح الدين في الدفاع عن الاسلام هي التي اكسبت القصيدة قوة، وبثت في ابياتها روحا، حتى كدنا ننسى ان هذا الشعر قد غبرت عليه قرون.. وقد كرر الشاعر فكرة الدفاع عن الاسلام والذود عن حماه في اكثر من قصيدة من مدائحه لصلاح الدين: فقال من قصيدة نص الديوان انه نظمها سنة ٥٧٤ هـ:

حامي ثغور الاسلامِ بِالْهِنْدِوا^(٢) نِيَّاتٍ وَالضَمِرِ السَّراجِيِبِ^(٣)
ومنها:

رَأَيْتُ شِعْبَ^(٤) الدنْيا، وكانَ ثأْي الـ اسلامٍ لَوْلاكَ غيرَ مَشعوبِ^(٥)
وقال من قصيدة اخرى:

جِهادُ مَنْ لَمْ يَبْقَ يَوماً لَه في نَضْرِ دينِ اللهِ، مَجْهُودُ
وَمَنْ تَبَقَّاهُ الرَدَى مِنْهُمْ في الاسْرِ مَكْبُولُ وَمَصْفودُ^(٦)
ويلاحظ ان جامع الديوان ومحققه، يشير هنا الى انه قد ترك خمسة أبيات «لعدم المنفعة فيها»، وكذلك فعل في مكان آخر من الديوان^(٧).

ومن حسن الحظ ان الأبيات المحذوفة في هذا المكان الثاني، قد اثبتتها صاحب «مضمار الحقائق»، وفيها يهاجم الشاعر المسيحية، ويحرض صلاح الدين على هدم الكنائس، والقضاء على اصحاب الزنار والصليب. وبذلك يتضح ان حذف تلك الأبيات، لم يكن لعدم المنفعة - كما يقول ماركليوث - وان اصول التحقيق والحياد العلمي، لا يقران هذا الصنيع.

(١) مضمار الحقائق: ص ١٩٤.

(٢) الهندوانيات: البيوف.

(٥) الديوان ص ١٩، ٢١، غير مشعوب: لا مصلح له.

(٦) الديوان ص ١١١.

(٣) السراجيب: الخيول الطويلة.

(٤) الشعب: الصدع أو الشق.

(٧) ص ٢٥.

٢ - والحدث الهام الثاني الذي ساعد على تجديد المدح وتنوعه، هو عودة الخطبة للعباسيين بمصر، بعد انقطاع ايام الفاطميين دام اكثر من مائتي سنة، وهو حدث عظيم الأهمية ايام المستضيء، واعتبر من مناقب هذا الخليفة وانجازاته، ومن اكبر ما قدمه صلاح الدين للخلافة العباسية، قال ابن خلكان: «ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر، ارسل نور الدين^(١) اليه يعرفه ذلك، فحل عنده اعظم محل، وسير اليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل^(٢) المقتفوي، اكراماً له، لان عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية، وكذلك ايضا سير خلعا لصلاح الدين. . وسيرت الاعلام السود^(٣) لتتصب على المنابر^(٤)» وقد مر بنا ان ابن الجوزي الف في هذا الموضوع كتابا سماه «النصر على مصر»^(٥).

واكثر الشعراء من نظمهم والاشارة اليه عند مدح الخليفة المستضيء، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر، أذكر هنا قصيدة لعماد الدين الاصفهاني^(٦) واخرى لأبي عبد الله الحسين بن شبيب^(٧)، وثالثة للأبله البغدادي^(٨) اما ابن التعاويذي، فقد ذكر الحادث في اكثر من اربع قصائد من مدائحه للمستضيء، وراح يعيده ويكرره ويدور حوله ويتناوله من زوايا متعددة وفي مناسبات مختلفة، حتى يخيل للقارئ ان عودة الخطبة للعباسيين أهم من انتصار صلاح الدين على الصليبيين، وتحرير الأرض المقدسة، ففي اولى قصائد الديوان قال:

وأطاعَتْكَ أَرْضُ مِصْرَ، وَمِصْرُ حِينَ تُدْعَى، وَخَشِيَّةُ عِصْمَاءُ^(٩)
وَأَسْتَقَادَتْ - بَعْدَ الشَّمْسِ^(١٠) - وَقَدَّاسَ حَمَّهَا بِالْعِرَاقِ مِنْكَ النَّدَاءُ
وَاعْتَدَتْ خِطَّةَ الصَّعِيدِ، تُذِيبُ أَلْ صَخَرَ أَنْفَاسُ أَهْلِهَا الصُّعَدَاءُ
انْكَحَتْهَا بِيضُ الصُّوَارِمِ غَارَا تُكَ، وَهِيَ الْعَقِيلَةُ الْعَذْرَاءُ
ذَخَرَتْهَا لَكَ اللَّيَالِي، وَكَمْ حَا مَتْ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِكَ الْخُلَفَاءُ
مَلَكَتْهَا يَدَاكَ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ^(١١)

وفي قصيدة ثانية قال:

(١) نور الدين محمود. . بن زنكي: انظر الفصل الأول ص ٩ هامش ٢.

(٢) عماد الدين صندل المقتفوي: نسبة الى سيده الخليفة المقتفي لأمر الله، كان استاذ دار الخليفة المستضيء، توفي سنة

٥٩٣ هـ. دليل خارطة بغداد ١٩٥-١٩٦.

(٣) هي اعلام العباسيين.

(٤) وفيات الأعيان ٦/١٥٨.

(٥) أنظر: الفصل الأول ص ٩.

(٦) الخريدة ١/١٣-١٤.

(٧) نفسه ١/١٨٩، وقد مرت ترجمة ابن شبيب ص ٩٦ هامش ٢.

(٨) ديوان الأبله و ٧.

(٩) عصماء: يصعب الوصول اليها.

(١٠) الشمس: الصنرد والامتناع.

(١١) الديوان ص ١-٢.

ولولا الامامُ المستضيء، ورأيه تَدَاعَتْ قَوَى الاسلامِ وانثغر الثغرُ
به اَيْدِ اللهِ الخِلافةَ، بَعْدَمَا تَفَاقَمَ دَاءُ الْبَغْيِ، واستفحل الشُّرُ
فَمَنْ مُبْلَغٌ تَحْتَ التُّرَابِ ابْنَ هَانِيٍّ^(١) وَقَبْرُ الْمُعَزِّ^(٢)، إِنَّ اصَاخَ^(٣) لَهُ الْقَبْرِ
بَأَنَّ الْحَقُوقَ اسْتَرْجَعَتْ فِي زَمَانِهِ - عَلَى رَغْمٍ مِنْ نَاوَاهُ - وَافْتَحَتْ مِصْرُ
وَأَنَّ اللَّيَالِي الدَّهْمُ^(٤) بِالْجُورِ اشْرَقَتْ عَلَى إِثْرِهَا بِالْعَذَلِ، أَيَّامُهُ الْغُرُ^(٥)

ان من يطالع هذه المقاطع من قصائد ابن التعاويذي في الخليفة، يخيل له ان المستضيء قد جهز الجيوش، واعد الخطط، وخاض المعارك حتى اذعنت له مصر، بعد ان عجز عنها من سبقه من الخفاء رغم محاولاتهم المستمرة.

والواقع ان الخليفة لم يبذل اي جهد لاسترداد مصر، ولكن صلاح الدين هو الذي قرر الخطبة لبني العباس في مصر، بغضا منه للفاطمين، والشاعر يعرف هذا جيدا، ومع ذلك - ارضاء للخليفة وتملقا له - راح يزعم ويردد بان صلاح الدين لم يكن سوى عامل من عمال الخليفة او قائد من قواده كلف بمهمة فأنجزها. قال مشيرا الى خلع الخليفة التي ارسلها الى صلاح الدين:

مِمَّا تَخَيَّرَهُ الْخَلِيفَةُ مِنْحَةً لَكَ فَاصْطَفَاهُ، كَفَاءً مَا تَسْتَوِجِبُ
أَلْفَاكَ خَيْرَ مَنْ ارْتَضَاهُ لِمُلْكِهِ يَقْظَانُ، تَسَهَّرُ فِي رِضَاهُ، وَتَدَأْبُ
وَرَأَاكَ اسْرَعَهُمْ إِلَى الْأَعْدَاءِ أَقْدَامًا، وَغَيْرَكَ مُحْجَمٌ مُتَهَيِّبٌ^(٦)
وقال من قصيدة أخرى:

سَيْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي لَوَاؤُهُ بِالنَّصْرِ مَعْقُودُ
مَلِكُهُ الدُّنْيَا، فِيهِ كَفُّهُ - نِيَابَةٌ عَنْهُ - الْمَقَالِيدُ
نِيَابَةٌ فِي رَاحَتِهِ بِهَا عَهْدٌ مِنَ اللَّهِ وَتَقْلِيدُ^(٧)

(١) ابن هاني: مرت ترجمته في الفصل الثاني ص ٨٥ هامش ٦.

(٢) هو المعز لدين الله الفاطمي، واسمه معد. توفي في القاهرة سنة ٣٦٥ هـ. المنتظم ٨٢/٧، تاريخ ابن الاثير: ٢٣٩/٨، وفيات الأعيان ٣١٢/٤، شذرات الذهب ٥٢/٣، الأعلام ١٧٩/٨.

(٣) أصاخ: أصغى.

(٤) الدهم: السود.

(٥) الديوان ص ١٧٦، وأنظر الوفيات ١٦٠/٦.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٦.

(٧) نفسه ص ١١٠.

وهكذا استطاع الشاعر ان يجدد ويطور في مدح الخليفة، عن طريق استخدام ثقافته وخياله، ولم يقف عند معاني المدح القديمة المعروفة: من ان الخليفة امل العفاة، وابن عم الرسول ﷺ، والشجاع الذي يلوذ به الفرسان.

٣ - والعامل الثالث الذي كان له اثره في شعر المدح هو «تحزب الشعراء لرجال السياسة».

ان اثر هذا العامل يبدو واضحا عند دراسة دواوين شعراء المدح الكبار ومنهم ابن التعاويذي والابله البغدادي. ان ديوان الشاعر الاول، ليس فيه سوى قصيدة واحدة في مدح الوزير يحيى بن هبيرة، وقد نص^(١) فيه على انه لم ينشدها اياه، وهو امر يلفت النظر، ويدعو الى الدهشة: لان ابن هبيرة هو اشهر وزراء القرن السادس، وبقي في الوزارة اكثر من ست عشرة سنة، وقد مر بنا قول العماد عنه انه: رزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه أحد^(٢)، فلماذا كاد ديوان ابن التعاويذي ان يخلو من مدح الوزير الشهير، وهو الذي مدح حتى اصحاب الحمامات^(٣)؟ اما ديوان الابله فهو حافل بمدائح ابن هبيرة.

ان الباحث لا بد ان يلاحظ العداء الشديد بين ابن هبيرة، وابن رئيس الرؤساء، وقد امتد ذلك الى انصارهما من الشعراء، ويؤيد هذا الابيات التي هجا بها ابن عم الوزير عضد الدين عدوه ابن هبيرة^(٤)، كما أن ابن التعاويذي «اهين وظن الناس به الظنون»، كما ينص الديوان^(٥)، لاتصاله وعلاقته بابن رئيس الرؤساء. وقد وصف الشاعر ما أصابه بعد نكبة الوزير، فقال:

وَقَائِلَةٌ: مَا لِي رَأَيْتُكَ مُعَدِّمًا؟ وَمِثْلُكَ لَا تَخْشَى الْكَسَادَ بَضَائِعُهُ
فَقُلْتُ: الَّذِي كُنَّا نَعِيشُ بِفَضْلِهِ وَنَحْنُ مَوَالِي جُودِهِ، وَصَنَائِعُهُ
رَمَتْهُ اللَّيَالِي عَنْ دَخَائِرِ مَالِهِ يَفَادِحِ خَطْبٍ، مُسَلِّمٌ مَنِ يِقَارِعُهُ
فَلَا تَعْجَبِي مِنْ سُوءِ حَالِي، فَإِنَّهُ إِذَا غَاضَ^(٦) مَاءَ الْبَحْرِ مَاتَتْ ضَفَادِعُهُ^(٧)

ومن الطبيعي ان يمتد اثر تحزب الشعراء لرجال السياسة الى الاغراض المتصلة بالمدح كالعتاب والاعتذار. ففي سنة ٥٧٠ هـ حدث خصام بين بيت رئيس الرؤساء - وهم حماة الشاعر ابن التعاويذي ومواليه - ومتنفذ كبير في بلاط الخليفة هو قطب الدين

(١) ص ٣٤٤.

(٢) الديوان ص ٤٤٩.

(٣) الديوان ص ٣١٩.

(٧) الديوان ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٢) الخريدة ١ / ٩٨.

(٤) الخريدة ١ / ١٥٦.

(٦) غاض الماء: نقص أو نضب.

قايماز^(١)، فرجحت كفة هذا الاخير، واضطر جماعة الشاعر الى الهرب من بيوتهم. ولكن الشاعر لم يشارك مواليه في شدتهم كما شاركهم ايام السعادة، ولذلك كتب الى عماد الدين ابن الوزير عضد الدين يعتذر، قائلا: انه شاعر يصلح للرءاء، لا لايام الشدائد:

يا عماد الدين، يا ابا	رم من تحت السماء
يما اجل الناس قدراً	وابن خير الوزراء
إن تأخرت، فقد قد	دمت في الليل دعائي
أو تشاقلت عن السيد	بر، فقد سار ثنائي
انا لا اصلح للشد	دة، لكن للرءاء
انا لا احضر إلا	في مواقيت الهناء
حالة دلت على صعب	ف قلوب الشعراء ^(٢)

وينص^(٣) الديوان أنه في سنة ٥٧١ هـ مدح الشاعر بعض الاكابر ممن بينه وبين الوزير مباينة، فوجد عليه وانقبض عنه فاعتذر اليه في هذه القصيدة:

ابثكم اني مشوق بكم صب	وان فوادي للأسى بعدكم نهب
تناسيتم عهدي كاني مذبذب	وما كان لي لولا ملالكم ذنب
وقد كنت أرجوان تكونوا على التوى	كما كُنتم ايام يجمعنا القرب

... الخ.

وفي الديوان اكثر من مقطوعة وقصيدة يعاتب فيها الشاعر مواليه آل عضد الدين اكتفي بالاشارة الى بعضها^(٤).

المدح بين التطور والجمود:

قبل دراسة المدح في القرن السادس، لا بد من اشارة الى ان هذا الفن لم يعد مقصورا على الشعراء المحترفين المشهورين كابن التَّعاوِذي والابله والحيص بيص، بل نجد في هذه الحقبة مدحا ينظمه ابناء الوزراء^(٥)، والامراء^(٦)، كذلك نظم العلماء

(١) كان قائد الجيش في خلافة المستضيء. أنظر: الفصل الأول ص ٢٦.

(٢) الديوان ص ١٣.

(٣) نفسه ص ٣٠.

(٤) الحريدة ١/ ١٠٢.

(٥) نفسه ص ١٣، ٤٣، ٤٤.

(٦) نفسه ٤/ ٥٤٨.

شعرا في المدح كما فعل ابن الشجري^(١)، والبارع^(٢)، وعبد الرحيم بن الاخوة البغدادي^(٣).

ويلاحظ ان الذين ينظم فيهم شعر المدح ليسوا رجال السياسة الكبار كالخلفاء والوزراء وحدهم، بل نجد في هذه الحقبة مديحا نظم في النساء^(٤)، ومديحا نظم في العلماء^(٥)، ومديحا نظم في صاحب حمام^(٦).

وغني عن البيان ان هذه الدراسة تعنى بشعر المدح الذي نظمته الشعراء المحترفون الكبار، للحصول على الجزاء المادي من كبار رجال العصر وقادته.

ظل شعر المديح في هذه الحقبة، بصورة عامة، محافظا على تقاليد هذا الفن الموروثة من ناحيتي الشكل والمضمون، وكذلك في البناء العام لقصيدة المدح.

فمن الناحية الشكلية:

بقيت المقدمة الطللية تصدر معظم قصائد المدح، وخاصة مدح الخلفاء، بعد ان مال الشعراء فيها الى سهولة اللغة ولينها، واسقطوا الحوشي والغريب من الالفاظ. على ان الشاعر قد يحذف هذه المقدمة ويبدأ بالغرض الاصلي مباشرة، خاصة اذا كانت المدحة قد نظمت اثر حادث كبير مهم، ولكن هذا ليس قاعدة مطردة، فقد مر^(٧) ان ابن التعاويذي بدأ قصيدته بالغزل في مدح المستضيء بعد عودة الخطبة للعباسيين في مصر، وهو من اكبر الاحداث كما اشرت.

وكان ذوق العصر يميل الى تطويل المدائح، ولعل الابله البغدادي من بين شعراء المدح الكبار الذين تتصف مدائحهم بالاعتدال في الطول، اذ يتراوح عدد ابيات قصيدته بين ٣٠ و ٣٥ بيتا، ويندر ان تتجاوز الاربعين. اما ابن التعاويذي والحيص بيص فالطول هو الغالب على مدائحهما، وخاصة الاول اذ تصل بعض مدائحه الى اكثر من مائة بيت^(٨).

وفي سبيل الوصول بقصيدة المدح الى الطول المطلوب، راح كل من الشاعرين يلجأ على طريقته او طرقه الخاصة. فالحيص بيص يطيل في مقدمات مدائحه من فخره بنفسه وبقومه، حتى يصل - احيانا - بهذه المقدمة الى حوالي ٢٥ بيتا، ثم يبدأ

(١) وفيات الأعيان ٩٨/٥.

(٢) الخريدة / نسخة ايران ٢٣٣.

(٣) نفسه ٢٤٤.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦، الخريدة ١/١٥٨.

(٥) أنباه الرواة ٢/٣٢٦.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٤٩.

(٧) الفصل الأول ص ٩.

(٨) تنظر القصيدة الأولى في الديوان، ص ٣٠، ١٩٠، ٢٦٤، ٢٨٤، ٣٠٩.

بالمَدح^(١)، وأحياناً يعتمد على الوصف للوصول الى الطول الذي يريده لقصيدته: كأن يصف السيل وكيف يندفع ويكتسح كل من يقف في طريقه، زاعماً ان الممدوح يشبه هذا السيل في كرمه وجوده^(٢). أما ابن التعاويذي فطرقه لاطالة المدائح تختلف عن طرق زميله: فهو يطيل في المقدمة الغزلية حتى يصل بها الى ٣٠ بيتاً أو أكثر^(٣)، وأحياناً يلجأ الى القسم لتوكيد ما يزعمه للممدوح من صفات، ويفصل بين القسم وجوابه بعدة أبيات قد تزيد على عشر. فمثلاً قال يمدح الناصر لدين الله من قصيدة، مطلعها:

يَا غُلُوْ اغْرَيْتِ الشَّهَادَ بِنَاطِرِي وَرَقَدَتِ عَنْ لَيْلِ الْمُحِبِّ السَّاهِرِ
قال - بعد أن بدأ بالمَدح -:

أَوْ مَا وَأَمْسَالِ الْقِسِيِّ لَوَاعِبِ^(٤) مِنْ فَوْقِ أَمْثَالِ السَّهَامِ ضَوَامِرِ
هَجَرُوا ضِلَالِ الْعَيْشِ فِي أَوْطَانِهِمْ وَتَعَرَّضُوا لِسَمَائِمِ^(٥) وَهَوَاجِرِ^(٦)
مِنْ كُلِّ اشْعَثَ فِي الرَّحَالَةِ^(٧) مُخْلَصِ لِلَّهِ أَوَابِ إِلَيْهِ مُهَاجِرِ
ظَمَانٌ يَقْذِفُ نَفْسَهُ، مُسْتَشْعِرًا خَوْفَ الْقِيَامَةِ فِي الْهَجِيرِ الْوَاعِرِ^(٨)
يَرْمِي بِهِمْ أَهْوَالَ كُلِّ تَنَوُّفَةٍ^(٩) عَيْسَى^(١٠) كَخَيْطَانِ^(١١) النَّعَامِ الْنَافِرِ
مِنْ كُلِّ وَالْعَةِ^(١٢) بِحَرَّتِهَا^(١٣) إِذَا ظَلَمْتُ تُعَلِّلُ بِالسَّرَابِ السَّاحِرِ^(١٤)
وَجَنَاءِ^(١٥) تَحْمِلُ مِنْ هَضَابٍ يَلْمَلُمُ رُكْنًا، وَتَنْظُرُ مِنْ قَلْبِ^(١٦) غَائِرِ
يَرْجُونَ مَوْقِفَ رَحْمَةٍ تَلْقَى بِهَا أَعْبَاءُ أَوْزَارِ لَهُمْ وَكِبَائِرِ
وَالْبَدْنُ خَاضِعَةٌ الرَّقَابِ دَوَامِي الـ لَبَاتِ^(١٧) تَفْحَصُ^(١٨) فِي النَّجِيعِ^(١٩) الْمَائِرِ^(٢٠)
أَخَذَتْ مَصَارِعَهَا الْجَنُوبُ، فَاسْلَمْتُ مِنْهَا النَّحُورَ إِلَى شِفَارِ الْجَزَارِ

(١) الديوان المصور: ٢١، ٧.

(٢) الخريدة ١/ ٢٩١، وأنظر أيضاً: ١/ ٢٦٨، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥١، ٢٨٢.

(٣) الديوان: ص ٦٣، ٣٠٩.

(٤) كذا بالأصل يولعل الصواب بالغين (لواعب)، وهي المُنْعَبَةُ.

(٥) السمائم: الرياح الحارة.

(٦) الهواجر: مفرداها هاجرة: نصف النهار في القبط.

(٧) الواغر: الشديد الحر.

(٨) العيس: الأبل الأبيض، يحالط بياضها سواد خفيف.

(٩) تنوفة: برّية لا ماء فيها ولا أنيس.

(١٠) خيطان: جماعات.

(١١) والعة: كاذبة.

(١٢) الساجر: كذا بالأصل، ولعلها بالجيم (الساجر) أي الساخن.

(١٣) الوجناء: الناقة القوية.

(١٤) الالبات: الواحدة لبة: موضع القلادة في العنق.

(١٥) القليب: البئر.

(١٦) التفحص: تبحث بأرجلها.

(١٧) المائر: الجاري.

وَشَعَائِرِ اللَّهِ الَّتِي عَظُمَتْ، وَمَا ضَمِنَتْهُ مَكَّةُ مِنْ صَفَا وَمَشَاعِرِ
وَالْبَيْتِ وَالْحَرَمِ الْمُطِيفِ بِهِ، وَمَا وَارَاهُ مِنْ حُجْبٍ لَهُ وَسَتَائِرِ
إِنَّ الْخَلِيفَةَ خَيْرٌ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا مِنْ خَيْرِ بَادٍ فِي الْأَنَامِ وَحَاضِرِ^(١)

ويبدو لي ان ابن التعاويذي، قد ضاق ذرعا بجميع المقدمات الجاهزة لقصائد المدح، ورآها بعيدة عن روح العصر. فكيف يصف رامة، ويقطع فيافي نجد، ويصف غزلان وجرة، وهو البغدادي المترف الذي لم تخطر العيس بباله الا حين يمدح خليفة أو وزيراً؟ ولذلك قرر ان يغامر فيبدأ احدى مدائحه بمقدمة «بغدادية» يصف فيها تجربة عرفها كثير من اهل بغداد، مسرحها انهار بغداد، ومنها الصَّراة^(٢)، وقد تم اللقاء فيها على ظهر زورق، لا جمل، وصاحبته بغدادية منعمة «غير الهبيد»^(٣) طعامها، كما يقول، في قصيدة، منها:

وَبِالْقَصْرِ مِنْ بَغْدَادَ خَوْذُ^(٤) إِذَا رَنْتَ^(٥) لَوَاحِظُهَا، لَمْ يَنْجُ مِنْ كَيْدِهَا قَلْبُ
كَعَابٌ كَخَوْطِ الْبَابِ، لَا أَرْضُهَا الْجَمَى وَلَا دَارُهَا سَلْعُ، وَلَا قَوْمُهَا كَهْبُ
مُنْعَمَةٌ غَيْرَ الْهَبِيدِ طَعَامُهَا وَمِنْ غَيْرِ الْبَابِ اللَّقَاحُ^(٦) لَهَا شُرْبُ
لَا دُونَهَا يَنْدُ يُخَاضُ غِمَارُهَا قِفَارُ، وَلَا طَعْنُ يُخَافُ وَلَا ضَرْبُ
مَحَلَّتْهَا أَعْلَى الصَّراةِ، وَدَارُهَا عَلَى الْكَرْخِ، لَا أَعْلَامُ سَلْعٍ وَلَا الْهَضْبُ
.. وَلَمَّا تَلَاقَتْ بِالصَّراةِ رِكَابُنَا وَرَقُّ لَنَا مِنْ حَرِّ انْفَاسِنَا الرُّكْبُ
عَلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ، وَالْجَوْ مَوْهِنًا^(٧) رَقِيقُ الْحَوَاشِي، وَالنَّسِيمُ بِهَا رَطْبُ
... الْخِ^(٨)

ان هذه المقدمة الحديثة، برغم رقتها وبعدها عن التكلف، وهذا الجو البغدادي الاخاذ الذي رسمه الشاعر بدقة متناهية، اقول برغم هذا كله لم تنجح التجربة، وظل القوم يميلون الى المقدمات التي تتحدث عن نجد وطلع، والدليل ان الشاعر لم يكرر التجربة، وبقيت وحيدة في ديوانه.

(١) الديوان: ص ١٦٩ - ١٧٠، وأنظر ص ٨١، ٢٥٣.

(٢) الصَّراة: أسم لنهرين كانا ببغداد، هما الصَّراة العظمى والصَّراة الصغرى. دليل خارطة بغداد: ص ٦.

(٣) الهبيد: الخنظل أو حَبّه. (٤) خود: امرأة شابة.

(٥) رنت: من الرنن، وهو ادامة النظر مع سكون الطرف.

(٦) اللقّاح: واحدها لقوح. الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٧) مَوْهِنًا: نحو منتصف الليل أو بعد ساعة منه. (٨) الديوان: ص ٣١.

ولعل ميل الابله الغدادي وعشقه للغلمان^(١)، هو الذي دفعه الى أن يبدأ طائفة من مدائحه بالتغزل بهم. والغريب ان الوزير الحنبلي يحيى بن هبيرة، كان من بين الذين افتتح الابله مدائحهم بذكر الغلمان، قال يمدحه:

ذَنْبُ الْعَوَازِلِ لَيْسَ يُغْفَرُ وَالرَّفْقُ بِالْعُشَاقِ أَجْدَرُ
أَقْصَرُ مِنَ الْعَذْلِ الطَّوِيلِ لَ، فَإِنَّ عُمَرَ الْوَصْلِ أَقْصَرُ
مَنْ لِي بِأَسْمَرَ قَدَهُ - عِنْدَ الثَّنِيِّ - قَدْ أَسْمَرَ^(٢)
خَالِي الضَّلُوعِ مِنَ الْغَرَا م، يَنَامُ عَنْ لَيْلِي، وَأَشْهَرُ
... الخ^(٣).

وقد افتتح الابله عددا غير قليل من مدائحه بهذا النوع من الغزل^(٤).

ولا بد من اشارة - في ختام هذه الالماسة باشهر، مقدمات المدائح - الى ان اردأ تلك المقدمات وأسوأها، واقلمها نصيبا من الشاعرية، هي مقدمات الابله البغدادي لطائفة من مدائحه، اذ بدأها بالدعاء، مستعملا الفاظ وعبارات نسوة بغداد من العوام احيانا. وبذلك اخل هذا الشاعر بشرط مهم من شروط نجاح القصيدة.

وهو الذي سماه النقاد «براعة الاستهلال». قال ابن رشيق: «انه اول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عند الشاعر من اول وهلة^(٥)».

قال الابله يمدح ابن الصاحب - وكان استاذ^(٦) الدار: -

يَا رَبَّ مَسَّى الصَّاحِبِ ابْنَ الصَّاحِبِ بَعْلُو مَرْتَبَةٍ، وَسَعْدِ رَاتِبِ
وَاحْفَظْهُ، مَا حَدَرَ الصَّبَاحُ لِشَامُهُ لِمُلْتَمٍ بِالْقُرِّ أَغْبَرَ، شَاحِبِ^(٧)

وقال يهنئ آخر بولد ذكر:

يَا رَبَّ يَمْنٍ طَلْعَةَ الْمَوْلُودِ وَاحْفَظْ أَبَاهُ أَخَا النَّدَى وَالْجُودِ
سَمَحَتْ بِهِ الْإَيَّامُ أبيضَ تَنْجَلِي عَنَّا بِهِ ظُلُمَ الْخُطُوبِ السَّوْدِ^(٨)

(٢) أسمر: أي رمح

(١) الوافي بالوفيات: ٢/ ٢٤٥.

(٤) نفسه: ٧٣، ٧٠، ٧٨، ١٤٨، ١٥٤.

(٣) ديوان الابله: ٦٢.

(٦) انظر: الفصل الثاني من ٧٢ هامش ٢

(٥) العمدة: ١/ ٢١٧.

(٨) نفسه: ٨٦.

(٧) ديوان الابله: ١٦٢.

وقال في ابن الصاحب:

صَبَّحَ اللَّهُمَّ مَجْدَ الدِّينِ بِالسَّعْدِ الْمُقِيمِ
وَاحِبُهُ مَا رَنَحَ الْغُضِّ نَ ضَحَى مَرُّ نَسِيمِ
فَهُوَ سَارٍ مِنْ ثَرَاهُ فِي طَرِيقِ مُسْتَقِيمِ^(١)

ولست استبعد ان يحبس أحد الممدوحين الشاعر من اجل قصيدة من هذا النوع، كما يشير ديوان^(٢) ابن التعاويذي.

ومهما يكن، فقد قال ابن رشيق في القرن الخامس: «ان طريق العرب القدماء في كثير من الشعر، قد خولفت الى ما هو اليق بالوقت، واشكل باهله^(٣)».

اما من حيث المضمون او المعاني والافكار:

فقد ظل الشعراء عيالا على اسلافهم ممن اشتهر بالمدح كالبحثري وابي تمام والمُتَنَّبِي: يدورون في فلكهم، ويلوكون افكارهم، ويعيدون صورهم ومعانيهم. فقد بقيت الفكرة القائلة بوجوب التمييز بين مدح الخليفة ومدح الوزير ومدح القاضي والقائد، على الرغم من متطلبات العصر وكر السنين وتباين الأمزجة والاهواء، فصرنا لا نجد فرقا ولا نحس اختلافا بين مدح الناصر لدين الله في أواخر القرن السادس، ومدح آبائه واجداده من خلفاء القرنين الثالث والرابع، لانهم جميعا - في قصائد المدح - من بيت الرسول ﷺ، وهم ملجأ الخائفين، وامل العفاة البائسين المرملين، مع ملاحظة ان الشعراء السابقين تناولوا معاني اسلافهم فطوروها، و اضافوا اليها من تجاربهم وثقافتهم، واستطاعوا ان يحتفظوا بمتانة اللغة ونصاعتها، وقوة الاسلوب وبعده عن الركة والعامية والهلهله. اما شعراء القرن السادس - الا القليل النادر - فقد لانت اساليبهم، وضعفت لغتهم، وغزتهم العامية، وظلوا يرددون المعاني القديمة كالبيغوات. وحين حاول بعضهم الخروج من دائرة القديم، سقط سقوطا يثير الضحك ويدعو الى الرثاء.

فعلى سبيل المثال: اخذ طلحة بن محمد النعماني بيت ابي تمام:

نَكَادُ عَطَايَاهُ يَجُنُّ جُنُونُهَا إِذَا لَمْ يُعَوِّذْهَا بِنِعْمَةِ طَالِبِ^(٤)
فقال:

(٢) ص ٢٤٣.
(٤) شرح ديوان ابي تمام: ١/ ٣١١.

(١) نفسه: ١٧٩، وأنظر ١٦٦، ١٨٢، ١٧٦.
(٣) العمدة: ١/ ٣٠١.

أَعِيذُ عَطَايَاهُ مِنَ الْمَسِّ، إِنَّمَا مَدَانَحْنَا سُخْبٌ عَلَيْهَا وَأَحْرَاؤُ^(١)
فقصّر عن شاعر القرن الثالث في اللفظ والمعنى جميعاً.

واراد ابن التعاويذي ان ينقل معنى بيت مشهور للشّريف الرّضي من الغزل الى المدح. قال الشريف:

سَهْمٌ أَصَابَ، وَرَامِيهِ يَبْذِي سَلْمٌ مِّنْ بِالْعِرَاقِ، لَقَدْ أَبْعَدَتْ مَرْمَاكَ^(٢)
فقال ابن التعاويذي يمدح صلاح الدين:

لَبَى دُعَائِي مِنَ الْعِرَاقِ، وَقَدْ أَسْمَعُهُ بِالصَّعِيدِ تَنْوِيي^(٣)
فلم يستطع ان يوضح ما يريد، وكل الذي فعله ان اق في صدر البيت بـ «العراق» وبـ «الصعيد» في العجز، وترك السامع في حيرة، علماً بأن معنى «التنوي» التلويع بثوب ونحوه، وابن التعاويذي يقول: ان تنويه يسمع، على خلاف قواميس اللغة.
وقال منصور^(٤) النّمري يمدح الرشيد:

إِنْ اخْلَفَ الْقَطْرُ لَمْ تُخْلَفْ مَخَابِلُهُ^(٥) أَوْ ضَاقَ أَمْرُ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَسَعُ^(٦)
فجاءه ابن التعاويذي في بيتين، فقال مرة:

نُيِّبُ بِهِ فِي لَيْلٍ خَطْبٍ فَيَنْجَلِي وَنَدْعُوهُ فِي كَرْبٍ فَيَنْفِرُجُ الْكَرْبُ^(٧)
فلم يفسد بيت النمرى، ولكنه اراد ان يصارع سلفه عسى ان يفوز، فقال:

وَمَنْ إِذَا ضَاقَ بِنَا أَمْرُ ذَكَرْنَا فَاَنْفَسَحَ^(٨)
فخسر شاعرنا وسقط. تأمل عجز البيت، فـ «ذكرنا» هذه اراد بها «ذكرناه» فحذف

(١) الخريدة: ١٤/٢، والسخب والاحراز: التمام والعود.

(٢) ديوان الشريف الرضى: ٥٩٣/٢.

(٣) الديوان: ص ٢٢.

(٤) هو منصور بن الزبرقان. النمرى أبو القاسم، شاعر من أهل الجزيرة الفراتية، كان يظهر للرشيد أنه عباسي منافق للشيعية العلوية، توفي نحو سنة ١٩٠ هـ. الشعر والشعراء/تحقيق أحمد محمد شاكر ص ٨٥٩-٨٦٢، الأغاني (ط. دار الكتب) ١٣ ١٤٠-١٥٧، تاريخ بغداد ١٣/٦٥-٦٩، نهاية الأرب ٣/٨٢، الأعلام ٨/٢٣٨.

(٥) المخاليل: العلامات والدلائل.

(٦) طبقات الشعراء: ص ٢٤٢.

(٧) الديوان: ص ٣٢.

(٨) نفسه: ص ١٠١.

المفعول به لسبب يتصل بالوزن، وهو غير مقبول من شاعر كبير.

وقد اشرت قبل صفحات الى ان ابن التعاويذي من اطول شعراء العصر قصيدة مديح، ولذلك يكثر عنده التكرار في اللفظ والمعنى، كما نجده ييسط عبارته ويمدها ويوسع جملة وأبياته، حتى ان المعنى الذي يعبر عنه شاعر كالمتنبي في نصف بيت، لا يستطيع ابن التعاويذي الا ان يقصر عنه بعد ثلاثة أبيات اتعب نفسه في نظمها، ولذلك نجد طائفة من شعره خالية من التركيز باهتة عديمة الطعم واللون والرائحة. فمثلا قال يمدح صلاح الدين:

تَكْسُوهُ حَمْدًا تَبْقَى مَلَابِسُهُ وَالْحَمْدُ كَاسِيهِ غَيْرَ مَسْلُوبٍ^(١)

وعلى الرغم من رداءة لفظة «ملابس» فقد كررها عدة مرات: فقال مرة يمدح الناصر لدين الله:

مَدْحًا لَكُمْ خِيطَتْ مَلَابِسُهُ فَمَا يَعْتَامُ غَيْرَ بِيوتِكُمْ أَيْبَاتُهُ^(٢)
وقال يمدح أحد الوزراء:

وَلِمَجْدِكُمْ خِيطَتْ مَلَابِسُ فَخْرِهَا قَبْغِيرِ نِعْمَةٍ طِيَّكُمْ لَا تَعْبُؤُ^(٣)
وكررها مرة رابعة فقال في الرثاء:

وَمَلَابِسًا مِنْ غِبْطَةِ الْبُسْتَنِ جُدْدًا، عَلَامَ أَعْدَتِهَا أَشْمَالًا؟

وتأمل قول ابن التعاويذي يمدح المستضيء بعد اعادة الخطبة لبني العباس في مصر:

خَبِرْتُ طَبَقَتْ بِشَائِرُهُ الْأَرْضَ، فَمِنْهُ السَّرَاءُ وَالضَّرَاءُ
فَهُوَ فِي الرُّومِ وَالْكَنَائِسِ رُزْءٌ وَهُوَ فِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ هَنَاءُ
وَتَرَاهُ فِي سَمْعِ قَوْمٍ نَبِيًّا وَهُوَ فِي سَمْعِ آخَرِينَ غِنَاءُ^(٤)

ان البيتين الثاني والثالث هما تكرار لمعنى السراء والضراء في البيت الاول، لأن الشاعر يريد لقصيدته ان تطول. ومعنى الابيات الثلاثة من نصف بيت مشهور لابي الطيب المتنبي هو قوله: «مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ قَوَائِدُ».

(١) الديوان: ص ٢٢.

(٢) نفسه: ص ٦٧.

(٣) نفسه: ص ٢٩٧.

(٤) نفسه: ص ٤-٣.

(٤) ديوان ابن التعاويذي: ص ٣٥٣.

ويمكن اجمال اهم عيوب المدح في القرن السادس بما يلي:

١ - شدة التوسل والتضرع للممدوحين:

بالغ قسم من شعراء المديح في المسألة والالاح في استدرار الاكف، حتى يخيل للباحث ان هؤلاء فقدوا كرامتهم، ولم يتركوا كلمة ولا معنى يدل على الاستجداء الا تسابقوا اليه. ان هذه الظاهرة الجديدة على الشعراء العرب - كما اظن - لا يتحمل المجتمع وحده وزرها بسبب بعد القوم عن الروح العربية، وتغلغل الاعاجم والدخلاء في أوساط الناس، وسيطرتهم على كثير من مرافق الحياة، بل ان شيوعها عند بعض الشعراء سببه شخصيات هؤلاء الادباء ونفسياتهم - ربما بسبب انحدارهم من اصول غير عربية . . ولعل مكانة الحيص بيص وشهرته، وموقفه من ممدوحيه - وقد مرت^(١) الاشارة اليه - تقف دليلا يدحض ادعاءات الذين يحاولون القاء جميع التبعات على المجتمع.

ومن الشعر الذي يدل على ان بعض شعراء القرن السادس فقدوا عزة انفسهم قول طلحة بن محمد النعماني يمدح المستظهر بالله:

وَمَدِيحُ مَجْدِكَ فِي الْكِتَابِ مُرْتَلٌّ جَارٍ مَعَ الْأَعْشَارِ وَالْأَخْمَاسِ
أَنَا عَبْدُكَ^(٢) الْقِنُّ الَّذِي مُذْ لَمْ أَزَلْ أَسْطُو عَلَى أَعْدَاثِكَ الْأَرْجَاسِ^(٣)
مَا جَالَ إِلَّا فِي مَدِيحِكَ خَاطِرِي وَبَغِيرِ وَصْفِكَ مَا جَرَتْ أَنْفَاسِي
وَبِذَلِّ مَجْدِكَ قَدْ عَلَقْتُ فَلَا تَدَعُ ظَنِّي يَعُودُ مُلَازِمًا لِلْيَاسِ^(٤)

وقال ابن التعاويذي:

عَبْدُ شُكْرِ، وَحَرٍ أَنْ يَشْكُرَ الرُّوضُ السَّمَاءَ^(٥)
وقال:

خَدَمَ تَحْمِيلُ فِي أَوْ عِيَةِ الشُّكْرِ الْهِنَاءِ^(٦)

وقال من قصيدة في القاضي الفاضل:

دَعْوَةُ عَانٍ، وَعَدَاكَ الْأَذَى يَسْمَعُهَا مَنْ كَانَ ذَا وَقَرٍ

(١) أنظر: دراسة الحيص بيص في الفصل الثاني ص ٥٨ - ٦٠. (٢) القن: العبد إذا ملك هو وأبواه.
(٣) الأرجاس: من الرجز، وهو العمل القبيح.
(٤) الخريدة ٢/ ٢٦.
(٥) ديوان ابن التعاويذي: ص ١٢.
(٦) نفسه.

أَلَسْتُ عَبْدًا لِأَيَادِيكَ مَوْ قَوْفًا عَلَى التَّقْرِيطِ وَالذِّكْرِ
كَمْ حُرْمَةٍ أَكْدهَا الْفَضْلُ بِي وَخِدْمَةٍ قَدَّمَهَا شُعْرِي
مَلَكْتُ رَقِي، وَأَبُو خَالِدٍ فِي وَاسِطٍ بَعْدُ عَلَى الْمَجْرِ (١)
وقال الأبله :

أَنَا عَبْدٌ لَكَ اسْتَرْقَنِي الْإِحَادُ سَانُ، فَلْتَشْهَدْ الْعُدُولُ الشُّهُودُ (٢)

٢ - المبالغة في صفات الممدوحين :

أطلق الشعراء لالستهم العنان فراحوا يكيلون الصفات كيلا لممدوحيههم، غير عابئين او ملتفتين الى وازع من دين او فن او خلق . ولم اجد احدا من هؤلاء الممدوحين اعترض على شاعر وصفه بصفات لا تليق الا بالخالق سبحانه، فكأن هذا السكوت تشجيع للقوم على الجري في هذا الميدان الى نهايته . وربما قلد هؤلاء الشعراء المتنبي ، فقد اولع بالمبالغات ولج بها (٣)، ولكن فاتهم ان مبالغات المتنبي كانت من بين عيوبه، فليتهم قلدوه في محاسنه .

ان شيوع المبالغات في الصفات التي يخلعها الشعراء على افراد الطبقة الحاكمة من المجتمع العباسي ، وارتياح هؤلاء الافراد لما يقال فيهم ، بل وتشجيعهم لاصحابه قد يدل على شعور الحاكمين بانهم لا يملكون شيئا مما يدور حولهم ، وان سلطانهم واهن ضعيف لا يزيد على مجموعة من الأكاذيب يطلقها شاعر مداح في ساعة طمع .

فمن مبالغات القرن السادس قول طلحة بن محمد النعماني :

وَلَوْ كَانَ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَقَى مُرْسَلٍ خِلْنَاكَ بِالْجُودِ مُرْسَلًا (٤)
وقال :

لَا يَرْزُقُ الرَّحْمَنُ مَنْ لَمْ تُعْطِهِ وَكَذَلِكَ لَيْسَ بِمَنْعٍ مَنْ تَرْزُقُ (٥)
وقال ابن التعاويذي :

مَذْحِكَ لَا يَسْتَطِيعُهُ الْبَشَرُ أَنَّى، وَقَدْ أُنْزِلَتْ بِهِ السُّورُ

(١) نفسه : ص ١٩٥ .

(٢) ديوان الأبله : و ٢٤ ، وأنظر الخريدة ١ / ١٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ .

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر : ص ٢٩١ ، ٣٢٣ .

(٤) الخريدة : ٢ / ٤٧ .

(٥) نفسه : ٢ / ٤٠ .

أَغْتَتَكَ عَنْ مَدْحٍ مَادْحِيكَ مِنَ السَّجْعِ^(١) الْمَثَانِي يَاسِينَ وَالزَّمْرُ^(٢)
وقال الحِصْبُ بِيص:

سَأَلْنَا اللَّهَ يُعْطِينَا إِمَامًا نُسَرُّ بِهِ فَأَعْطَانَا نَبِيًّا
بَلَّغَنَا فَوْقَ مَا كُنَّا نَرْجِي هَيْئًا يَا بَنِي الدُّنْيَا هَيْئًا^(٣)

وهاذان البيتان الاخيران من خمسة أبيات، كانت جائزتها من المستضيء ٣٠٠ دينار
وخلعة ودارا وضيفة كبيرة.

وبعد «فلست اشك ان الشعر حين يقضي الى هذا النوع من المبالغة لا يعبر عن
احساس او وجدان، وانما يعبر عن نوع من السقوط الفني. اذ يذهب الشعراء بعيدا في
تصوراتهم وافكارهم، وكأنهم ينجحون الى كل افراط في الشعر^(٤)...»

٣ - النثرية والركة:

ان من يطالع ديوان ابن التعاويذي والابله البغدادي، وخاصة ديوان هذا الثاني،
يجد ان مديحه - ومعظم ديوانه مدح - تشيع في طائفة منه ركة غير قليلة، ونثرية تعجب معها
كيف عد من مشاهير شعراء القرن السادس. ان جملة من قصائد هذا الشاعر بدت، وكأنها
مجرد الفاظ مرصوفة، فلا عاطفة ولا خيال ولا تعبير متماسك. انها اجمالا ليست من الشعر
لولا الوزن والقافية. تأمل - مثلا - قصيدته:

لَوْمًا عَلَى الْعَذْبِ الْمُقْبَلِ	لَا تَعْدِلَنَّ فَلَسْتُ أَقْبَلُ
مَنْ لَلتَصَبَّرَ عَنْهُ قَلَّلُ	وَاقِلْ عَذْلَكَ فِي هَوَى
عَمْدًا، وَلِلْهَجْرَانِ حَلَّلُ	جَدْلَانُ حَرَمَ وَضَلُهُ
طَوَّ مَاشِيًّا، وَالذَّغَصِ أَهْيَلُ ^(٥)	كَالْغُصْنِ أَهْيَفَ حِينَ يَخُ
وَتَرَائِبِ مِثْلِ السَّجْنَجِلِ ^(٦)	بِذَوَائِبِ مِثْلِ الدُّجَى
ظَبِي غَضِيضِ الطَّرْفِ أَكْحَلُ	يَرْنُو إِلَيَّ بِمُفْلَتِي
لِ، وَرَفْقَهُ بِالصَّبِّ أَجْمَلُ	وَيَزِيدُ تَيْهًا بِالْجَمَا

(١) السجع المثنائي: القرآن الكريم.

(٢) الخريدة: ٣٣٦/١.

(٣) الدعص: كتيب الرمل.

(٤) ديوان الأبله: ١٧ - ١٨.

(٥) الديوان: ص ١٥٨.

(٦) الفن ومذاهبه في الشعر: ص ٢٩٤.

(٧) السججل: المرأة.

انها ليست شعرا من الناحية الفنية، بل مجرد الفاظ مرصوفة، قد حشيت بالطباق الباهت والجناس الفج، وقد غزت العامة والاسفاف الفاظها من كل جانب تأمل مثلا هذه الطباقات: حرم وحلل، والوصل والهجران، وتتوج وتسربل، طال وقصر. وهذه الجناسات: اقبل والمقبل، واقل وقلل، واهيف واهيل. وتأمل قوله فيها: «بدر تتوج بالندى»، اراد ان يبالغ في وصف الممدوح بالكرم، فجعله يلبس الندى تاجا، وهو تاج غريب وصورة مضحكة. وتلاحظ العامة في قوله: «لست اقبل»، و«على سماحته توكل»، و«للتصبر قلل».

وهذه قصيدة ثانية، ينص الديوان «انه مدح بها الناصر لدين الله سنة ٥٧٧ هـ»، اي قبل وفاة الشاعر بستتين:

حَيْتَ مِنْ طَلَلٍ وَمَعْهَدُ	قَدْ حَالَ عَمَّا كُنْتُ أَعْهَدُ
وَتَلَا عَبْتُ بِرَسُومِهِ	أَيْدِي الْبَلَى، حَتَّى تَأْبُدُ ^(١)
فَلَنْ عَفَا، وَتَجَنَّبْتُ	فِيهِ الْبُرُوقُ بَرَاقُ ثَهْمَدُ
فَلَكُمْ رَبَعْتُ بِرَبْعِهِ	وَجَمَعْتُ شَمْلَ هَوَى مُبَدَّدُ
أَيَّامِ اغْصَانِ الشَّيْبِ	بِةٍ فِي رِيَاضِ اللَّهِوِ مَيِّدُ
وَالْوَصْلُ مُنْتَبِهِ الْجُفُو	نِ، وَأَعَيْنَ الرُّقْبَاءِ هُجْدُ
مَنْعَ كُلِّ أَحْوَى أَحْوَرِ	وَمَهْفَهفِ الْكَشْحَيْنِ أَغْيَدُ ^(٢)

... الخ^(٣)

ان هذه القصيدة لا تختلف عن سابقتها، على الرغم من ان الممدوح هو الخليفة نفسه، وفي هذه الحالة يفترض ان يقدم الشاعر احسن ما عنده. ومن يدري؟ فربما قيل عن هذه القصيدة في ايام الشاعر: انها عصماء او يتيمة الدهر، لان المقاييس والاذواق تختلف، ولكل عصر احكامه، والابله نفسه كثير الزهو والتهيج بجموده شعره، حتى انه كثيرا ما يذكر ممدوحه - قبل ان يختم قصائده - بان ما انشده نادر الوجود، عديم النظر، وان

(١) تأبُد: أفقر ودرس.

(٢) ديوان الابله: و ١٧-١٨.

(٣) الديوان: و ٩-١٠، وأنظر ٩٨، ٩٧، ١٤٦، ١٤٥، و ١٤٩.

دهاقنة المديح من الشعراء السابقين لو بعثوا لأطنبوا في الثناء عليه.

قال في نهاية احدى قصائده:

فاسعَدُ بِهَا، واسمَعُ بِهَا رائِئَهُ غِرَاءُ يَخْلِبُ^(١) لَفْظُهَا السَّحَارُ
لو أَنَهَا سَبَقَتْ زَمَانِي لِأَدْعَى أَيْبَانَهَا الْحَكْمِيَّ^(٢) أَوْ بَشَّار^(٣)
وقال:

فَخُذْهَا كَمَا رَقَّ النَّسِيمُ، وَغَارَلْتُ دَمُوعَ الْغَمَامِ الْمُسْتَهْلِ^(٤) الْإِقَاحِيَا
إِذَا قَضَى فِي الْقَوْمِ رَاوٍ حَسْبَتَهُ يَفْضُ عَلَى الْأَسْمَاعِ سَبْعًا^(٥) مَثَانِيَا
وقال:

وَأَسْمَعُ بِهَا فَكَأَنَّهَا سِلْكٌ وَهِيَ مِنْ كَفِّ نَاطِلِمٍ
أَضْحَى الْمُؤَلَّدُ^(٦) رَبَّهَا فَمَنْ الْوَلِيدُ^(٧)، وَمَنْ كُشَاجِمُ^(٨)
غِرَاءٌ لَا مِثْلَ لَهَا فَبَقِيََتْ مُمْتَثِلُ الْمَرَاثِمِ^(٩)

اما ابن التعاويذي، فطاقة شعرية كبيرة، لا تقارن بشاعرية الابله المتواضعة وعندني ان ضعف ورقة طائفة من مدائح ابن التعاويذي، سببه ان الشاعر مطيل - وقد اشرت الى ان بعض مدائحه زادت على المائة بيت - كذلك تعددت الاغراض الشعرية التي طرقها - بينها اقتصر الابله على المديح في الغالب - فكان لا بد ان يجيد احيانا، وان يضعف ويسقط احيانا اخرى. ان معظم شعر ابن التعاويذي الركيك في المدح، وليس ذلك غريبا على الشعر والشعراء، فقد كان البحرّي - مثلا - مشهورا بجودة مديحه، ولكنه لا يحسن الهجاء^(١٠).

ومن مدائح ابن التعاويذي الركيكة قصيدته:

حَجَلْتُ مِنْ عَطَائِكَ الْأَنْوَاءَ وَتَحَلَّلْتُ بِنُورِكَ الظُّلُمَاءَ

(١) بالأصل (تخلب)، وهو مخالف للفاعل (لفظها).

(٢) الحكمي: هو أبو نواس، الشاعر المشهور.

(٣) الديوان: و ١٤.

(٤) السبع الثاني: القرآن الكريم.

(٥) الوليد: هو البحرّي الشاعر العباسي المشهور.

(٨) كشاجم: هو محمود بن حسين (وقيل ابن محمد بن الحسين) شاعر، متفنن، أديب، توفي سنة ٣٦٠ هـ. الفهرست ٢٠٠ ط.

ط. مصر، الديارات ٢٥٩، ٦٦٠، شذرات الذهب ٣/٣٧، الأعلام ٨/٤٣، معجم المؤلفين ١٢/١٥٩.

(٩) الديوان: و ٨٤، وأنظر و ٦٢، ٤٧، ٤٣. (١٠) الموشح ص ٣٣٨.

وَاسْتَجَابَتْ لَكَ الْمَالِكُ إِذْ عَا
أَصْبَحَتْ^(١) فِي يَدَيْكَ، وَاتَّفَقَتْ طَو
نَسَخَ^(٢) الْعَدْلُ فِي إِبَالَتِكَ الْجَو
وَاهَنْتَ الْمَالَ الْعَزِيزَ عَلَى غِي
رَكَ، حَتَّى اسْتَوَى الثَّرَى وَالثَّرَاءُ
... الخ^(٣).

وتستمر القصيدة على هذا المستوى من رخاوة الأسلوب، وشحوب العاطفة، ورتابة الأفكار وتناقضها، حتى تزيد على الثمانين بيتا، على الرغم من أن فتح مصر، أو إعادة الخطبة للعباسيين فيها - وهو سبب نظم القصيدة - كان حدثا مدويا هز العالم الاسلامي آنذاك، وكان جديرا بتحريك وجدان الشاعر والهاب حماسه ومشاعره، كما حدث فعلا في قصائد اخرى اشرت اليها في مكان آخر من هذه الدراسة^(٤).

ونطالع قصيدته الاخرى في مدح صلاح الدين الايوبي، والتي مطلعها:

سِرْبُ مَهْأَ أَمْ دُمَى مَحَارِبِ أَمْ فَتَيَاتِ الْحَيِّ الْأَعَارِبِ^(٥)

وهي لا تختلف عن سابقتها، لا تربطها بالشعر سوى رابطة الوزن والقافية وحتى هذه خان ابن التعاويذي فيها طبعه، وحكمت عليه المقادير أن يختار لها كلمات ليست شعرية ابدا، مثل «مربوب» في بيته:

شِعْرِي رَبُّ الْأَشْعَارِ قَاطِبَةٌ وَهَلْ يُسَوِّي رَبُّ بَجْرِبُوبِ؟
و «مخطوب» في قوله:

أَمْسَتْ مُلُوكُ الْإِفَاقِ تَخْطُبُهُ وَأَنْتَ دُونَ الْإِنَامِ مَخْطُوبِي

و «مقروب» اي في القرب:

رَبُّ الْمَذَاكِي^(٦) الْجِيَادِ مَقْرَبَةٌ^(٧) وَالنَّصْلُ عُرْيَانٌ غَيْرُ مَقْرُوبِ

وقد يكون سبب سقوط ابن التعاويذي في هذه القصيدة انه حاول مجازاة المتنبي ومصالته في قصيدته:

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب (أصبحت) أي خضعت وأنقادت.

(٢) نسخ: أزال أو أبطل.

(٣) الديوان: ص ١.

(٤) الديوان: ص ١٩.

(٥) الديوان: ص ١١٣.

(٦) المذاكي: الخيول التي تمت أسنانها.

(٧) مقربة: هي الخيول التي تقرب مرابطها ومعانفها لكرامتها.

مَنْ الْجَادِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ حُرُّ الْحَلِي وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ^(١)

بدليل تشابه قافيتي القصيدتين، وإن بعض أبيات ابن التعاويذي تغلفها معاني قصيدة أبي الطيب. فقول ابن التعاويذي:

هَبْ لِي بَقَايَا شَبِيبِي، وَارْتَجِعْ مَا اكْسَبَنِي أَيْدِي التَّجَارِبِ
مَا أَنَا رَاضٍ غَمًّا سَلَبْتُ بِمَا أُفَدْتُ مِنْ حُنْكَةٍ وَتَجْرِبِ
هما محاولة للتعليق بقول أبي الطيب:

لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي اخَذْتُ مِنِّي بِحُلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجْرِبِي

٢ - الهجاء:

هذا فن شعري شديد العلاقة بالمدح منذ القدم، فمعظم الشعراء الذين نظموا شعر المدح كان لهم هجاء أيضا، كذلك نجد طائفة كبيرة من كبار الرجال الذين قصدهم الشعراء بمدحهم تعرضوا كذلك للهجاء. ولعل الخلفاء هم وحدهم الذين وصلنا مدح فيهم يفوق كثيرا ما وصلنا من هجاء لهم، بل إنني لم أعثر إلا على ستة أبيات في هجاء خلفاء القرن السادس^(٢)، على حين تجد مدائحهم تغص بها الكتب، ودواوين الشعراء. ولعل من أهم أسباب هذه الظاهرة، سببان:

الاول:

إن الخليفة له مركزه الديني المقدس، لذلك كان التعرض له في الشعر قد يعني الانسلاخ عن الاسلام، ولم أقف إلا على نص وحيد يشير إلى أن هبة الله بن الفضل لم يسلم من لسانه حتى الخليفة^(٣).

الثاني:

إن الخلفاء عامة عرفوا بعدم التساهل مع الذين يحاولون النيل من مكانتهم وهيبتهم - وربما كانوا معذورين أحيانا - . وكان من العقوبات التي عرفوا بها: النفي، وعرفت «المشان» بالبصرة بكونها منفى^(٤)، كما نفي بعضهم إلى واسط، والزم أن يقيم بها إلى أن مات^(٥) وعوقب آخرون بهدم دورهم^(٦)، أو حتى اعدامهم^(٧) ولذلك قال صاحب الفخري عن

(١) شرح ديوان المتنبي ٢٨٨/١.

(٢) وفيات الأعيان ١٠٤/٥.

(٣) الجامع المختصر ٩٤/٩.

(٤) المنتظم ١٧١/٩، الجامع المختصر ٤٤/٩، شذرات الذهب ٢٠٦/٤.

(٥) الخريدة: ١١٣/٤.

(٦) المنتظم ٢٥٩/١٠، معجم البلدان: المشان.

(٧) المنتظم ٥٩/١٠.

بعض الخلفاء: «فكم من نعمة ازالوها عن اربابها، ونفس ازهقوها بسبب كلمة منقولة او حكاية مقولة^(١)».

وكما اشتهرت طائفة من الشعراء بالمديح، اشتهرت طائفة اخرى بالهجاء. والذين اشتهروا بالهجاء من شعراء القرن السادس هم: هبة الله بن الفضل، المعروف، بابن القطن^(٢)، وعلي بن افلح الكاتب ٥٣٥ هـ^(٣)، والحسن بن احمد، المعروف بابن حكينا المتوفى سنة ٥٢٨ هـ^(٤)، وعلي بن احمد، المعروف، بـ «قبة الادب» المتوفى سنة ٥٧٠ هـ^(٥)، واحمد بن علي بن عيسى ابو جعفر الهاشمي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ^(٦)، والابله البغدادي^(٧)، والمؤيد الالوسي المتوفى سنة ٥٥٧ هـ^(٨)، والمؤيد التكريتي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ^(٩).

وهذه الوفرة في عدد شعراء الهجاء المشهورين، قد توحى بأن ما وصلنا من الهجاء اكثر مما وصلنا من المدح، لان شعراء المدح المشهورين لم يزيدوا على اربعة، كما اشرت، ولكن الواقع على النقيض تماما، فقد ضاع معظم الهجاء وبقي اكثر المديح.

ولست استبعد ان يعتمد المؤرخون والرواة اسقاط كثير من الهجاء وعدم روايته وتدوينه، لاسباب دينية وخلقية، لان الهجاء لا يخلوا عادة من سباب وافحاش، لذلك نقل صاحب العمدة ان الرسول ﷺ قال: «مَنْ قَالَ فِي الْإِسْلَامِ هِجَاءً مُقَدِّعًا فَلِسَانَهُ هَذْرٌ»^(١٠). وهناك اسباب اخرى ادت الى هذه الشحة الواضحة في شعر الهجاء منها: ان طائفة من الشعراء حين يتقدم بها العمر، وتوشك على مغادرة هذه الدنيا، تندم على ما فرط منها وتحاول التوبة، فتتلف هجاءها او تغسله، كما فعل ابو جعفر الهاشمي، السالف الذكر^(١١). وبعضهم لم يدون هجاءه اصلا، فلا بد ان يضيع بمرور الزمن^(١٢)، وبعضهم اتلف شعرهم بامر من الخليفة، عقابا لهم، كما حدث لعلي بن افلح^(١٣). وهكذا ضاعت دواوين كل من: هبة الله بن الفضل^(١٤)، وعلي بن افلح^(١٥)، والمؤيد الالوسي^(١٦).

(١) الفخري ص ٦١ (ط. دار صادر).

(٢) المنتظم ٢٠٧/١٠، وفيات الأعيان ١٠٤/٥، عيون الأنباء ٣٠٤/٢.

(٣) المنتظم ٨٠/١٠، الخريدة ٥٢/٢، وفيات الأعيان ٦٨/٣.

(٤) الخريدة ٢٣٠/٢، المختصر المحتاج اليه ٢٧٥/١، فوات الوفيات ٢٢٨/١.

(٥) تلخيص معجم الالقاب ق ٤ ج ٣ ص ٥٧٢، وانظر الهامش (١).

(٦) ابن الأثير: ١١/١٢، المختصر المحتاج اليه ١٩٧/١، الوافي بالوفيات ٩٠/٦ مصور.

(٧) الخريدة/ نسخة ايران ١٦٠، الروضتين ٥٤/٢.

(٨) الخريدة ١٧٢/٢، معجم البلدان: الوفيات ٤٢٨/٤.

(٩) الجامع المختصر ١٠٧/٩، الوافي بالوفيات ١١٥/٢.

(١٠) الخريدة ٢٧٠/٢.

(١١) وفيات الأعيان ١٠٤/٥.

(١٢) نفسه ٤٢٨/٤.

(١٣) نفسه ٦٨/٣.

ضروب المهجويين :

لو حاولنا ان نصنف المهجويين في القرن السادس ، او لو استعرضنا اشهر انواع الهجاء ، لوجدنا ما يلي :

١ - كبار موظفي الدولة : ومنهم الوزير^(١) ، والقاضي^(٢) ، وقاضي القضاة^(٣) ، والحاجب^(٤) ، والعامل^(٥) ، وكتاب الديوان^(٦) ، وجميع رجال الدولة دون تعيين^(٧) . واحيانا لا ينص على وظيفة المهجو ، ولكن الشعر يدل على انه موظف كبير ، كقول هبة الله بن الفضل :

كَمْ تَرَدَّدَتْ مِرَاراً وَتَجَوَّعْتُ مَرَارَةً
ثُمَّ لَمَّا وَفَّقَ الْمَلَأُ هُ ، وَوَقَعَتْ بِكَارَةً^(٨)
لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ الْجَدِّ طَبْعٌ مَا تَقْرُضُ فَارَةً^(٩)
وقول علي بن افلح :

سَأَلْتُكَ التَّوْقِيعَ فِي قِصَّتِي فَاحْتَطَّتْ لِأَجَلٍ بِالْعَاجِلِ
وَخِفْتُ أَنْ تُجَرِّيَ فِي قَابِلٍ وَقَّعَ ، فَمَا تَبْقَى إِلَى قَابِلٍ^(١٠)

ويلاحظ ان هجاء الموظفين : يؤكد فيه على ابراز وتجسيم الصفات التي لا تتفق ووظيفة ذلك الموظف ، بحيث يبدو غير اهل للمنصب الكبير الذي يتولاه . فمما هجي به الوزراء - على سبيل المثال - التوفيق والمماطلة :

قَدْ جِئْتُ بَابِنِي - فاعرفوا وَجْهَهُ - لِأَخَذِ النَّائِلَ مِنْ بَعْدِي
فَلَيْسَ فِي التَّقْدِيرِ أَنِّي أَرَى قَبْلَ مَمَاتِي سَاعَةَ الرَّفْدِ^(١١)

وقد اتخذ الشاعر اسلوب السخرية والتهكم للتعبير عن مماطلة الوزير وعدم وفائه بما يقول .

كما هجي الوزراء بالجبروت وشدة الرهبة :

(١) الخريدة ١ / ١٨١ ، ٢ / ٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ٢٧٧ ، ٤ / ٣٩٣ .

(٢) نفسه ٢ / ٢٣٣ .

(٣) الخريدة ١ / ١٨١ .

(٤) نفسه ٤ / ٤٥٤ والعامل في الفترة التي ادرسها هو المحافظ في العصر الحاضر .

(٥) الكار : مقدار معلوم من الطعام أو الخنطة .

(٦) الخريدة ٢ / ٦٥ .

(٧) وفيات الأعيان ٣ / ١٥١ .

(٨) نفسه ٢ / ٢٥٢ .

(٩) وفيات الأعيان ٥ / ١٠٩ .

(١٠) عيون الأنباء ٢ / ٣١٢ .

(١١) نفسه ٢ / ٢٤٥ .

يا مُعْشَرَ النَّاسِ الْنفِيرِ النَّفِيرُ قَدْ جَلَسَ الْهَرْدَبُ^(١) فَوْقَ السَّرِيرِ
وَصَارَ فِينَا أَمْرًا نَاهِيًا وَكُنْتُ أَرْجُو أَنَّهُ لَا يَصِيرُ
وَكُلَّمَا قَالُوا: غَدًا تُنْجَلِي وَظُلْمَةٌ عَمَّا قَلِيلٍ تُنِيرُ
فَتَحْتُ عَيْنِي، فَإِذَا الدَّوْلَةُ الـ دَوْلَةٌ، وَالشَّيْخُ الْوَزِيرُ الْوَزِيرُ^(٢)

وقد استعمل الشاعر التكرار اللفظي في تأكيد المعنى الذي يريده، خاصة في هذا البيت الأخير حيث اجاد الافصاح عن تبرمه وسأمه وحنقه.

وهجي القضاة بالسرقة وعدم الامانة، وهما صفتان لا تليقان بالقاضي:
وَبَارِدِ التَّنْمِيسِ^(٣) بَيْنَ الْوَرَى يَفْعَلُ مَا لَا يَفْعَلُ اللَّصُّ
يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْوَرَى كُلَّهَا بِطَرْحَةٍ^(٤) مِنْ تَحْتِهَا شِصُّ^(٥)

وقد استعان الشاعر هنا بطريقة التصوير لابراز فكرته وتوضيحها: فالقاضي صياد، وهو يصيد اموال الناس، وما طرحته سوى غطاء يخفي حته الشص.

وفي القرن السادس - كما في القرون التي سبقت^٦ عرف بعض الشعراء بهجاء كبار موظفي الدولة في قصيدة واحدة، ونبز كل واحد منهم بشيء. ان اقدم نص لهذا النوع من الهجاء يرجع الى القرن الثالث للهجرة. قال القفطي عن محمد ابن الدقيمي (ويقال احمد) ابو نعمة: «كوفي يكنى ابا جعفر، شاعر، خبيث اللسان، هجاء، وله قصيدة مزدوجة^(٦) ذكر فيها جميع رؤساء الدولة في ايام المتوكل من اهل «سر من رأى» وبغداد، ورماهم بالقبائح. . المتوفى سنة ٢٦٠ هـ^(٧)»، وفي القرن الرابع عرف علي بن محمد ابن نصر، المعروف بابن^(٨) بَسَام المتوفى سنة ٣٠٢ هـ بقصيدة، قال في ختامها:

فَخَلَّ الزَّمَانُ لِأَوْغَادِهِ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ، وَالْهَاوِيَةِ
فِيَا رَبِّ قَدْ رَكِبَ الْأَرْدَلُونَ وَرَجَلِي مِنْ رِجْلِهِمْ عَالِيَةً^(٩)

(١) الهرذب: المعجوز. الجيان.

(٢) تمام المتن ص ٧٦.

(٣) التميمي: الاحتيال والافساد.

(٤) الطرحة: لباس القضاة، الطيلسان.

(٥) الخريدة ٢/ ٢٣٣.

(٦) هي القصيدة التي تكون جميع أبياتها مصرعة، وأميز ما يكون ذلك في الراجيز. فن التقطيع الشعري والقافية ص

. ٢٨٨.

(٧) المحمدون ص ٣٢١.

(٨) شاعر هجاء، حسن البديهة، استفرغ شعره في هجاء والده، وهجاء جماعة من الوزراء. الفهرست ص ١٥٠ ط.

أوريا، معجم الأدباء ١٤/ ١٣٩، وفيات الأعيان ٣/ ٤٦، فوات الوفيات ٢/ ١٦٧.

(٩) المشهور في رواية عجز البيت (ورجلي من بينهم حافية).

فان كنت حامِلنا مِنْهُمْ وَالْأَفَارِجِلُ^(١) بَنِي الزَّانِيَةِ
وفي هذا الشعر - كما قال صاحب مروج الذهب - جمع جميع رؤساء أهل الدولة
في ذلك العصر^(٢).

وفي القرن الخامس عرفت قصيدة ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٥ هـ في هجو
أرباب الدولة الجَلالية^(٣) الملكشاهية:

لَوْ أَنَّ لِي نَفْساً صَبَرْتُ لِمَا أَلْقَى، وَلَكِنْ لَيْسَ لِي نَفْسُ
مَا لِي أَقِيمُ لَدَى زَعَانِفَةٍ^(٤) شَمَّ الْقُرُونِ أَنْوَفَهُمْ فُطْسُ
لِي مَبَاتَمُ مِنْ سَوْءٍ فَعَلَهُمْ وَلَهُمْ بِحَسَنِ مَدَانِحِي عُزْسُ
وَلَقَدْ غَرَسْتُ الْمَدَحَ عِنْدَهُمْ طَمَعاً، فَحَنَظَلْ ذَلِكَ الْغَرْسُ
... الخ^(٥).

وفي القرن السادس عرف هبة الله بن الفضل بانه صاحب القصيدة الرائية
المشهوره - كما يقول ابن خلكان - التي جمع فيها خلقا من الاكابر ونيز كل واحد منهم
بشيء وفيها يقول:

تَكَرَيْتُ تُعْجِزُنَا، وَنَحْنُ بِجَهْلِنَا نَمْضِي لِتَأْخِذَ تَرَمِذاً مِنْ سَنْجِرٍ
ومنها البيت السائر:

نَسَبُ إِلَى الْعَبَّاسِ، لَيْسَ شَبَهُهُ فِي الضَّعْفِ غَيْرُ الْبَاقِلَاءِ الْأَخْضَرِ^(٦)

ولا يمكن - بالطبع - ان يجهل شاعر القرن السادس قصائد الذين سبقوه في

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب (فارجل) بالجيم.

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٩٨.

(٣) هو محمد بن محمد... أبو يَحْيَى البغدادي، كان شاعراً مجيداً، خبيث اللسان. الخريدة ٢ / ٧٠، شذرات الذهب ٤ / ٢٤، أعيان الشيعة ٤٥ / ٣٢٦، ٣٢٧، معجم المؤلفين ١١ / ٢٢٥.

(٤) نسبة إلى ملكشاه بن ألب أرسلان، الملقب بجلال الدولة. قال ابن خلكان: «كان أحسن الملوك سيرة، حتى كان يلقب بالسلطان العادل». المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ببغداد. وفيات الأعيان ٤ / ٣٧٠.

(٥) زعانقة: أراذل الناس.

(٦) الخريدة ٢ / ٨١ - ٨٤.

(٧) وفيات الأعيان ١٠٩ / ٥. وفي نصرة الفترة ٢٠٢-٢٠٣، أورد العماد ٣٦ بيتاً من هذه القصيدة. وعن الباقلاء الأخضر، قال العماد: «ينادي في بغداد على الباقلاء الأخضر بـ العباسي». الخريدة ٢ / ٢٧٦.

الموضوع ذاته، فهل نظم قصيدته لمجرد التشبه بالاسلاف؟ انني استبعد هذا الاحتمال، لان الموضوع خطير، قد يكلف الشاعر حياته، ولعل الاقرب الى الصواب ان الشاعر - وكان طبيب العسكر - قد خسر بعض الامتيازات ايام المسترشد - وقد نظمت القصيدة في خروجه لقتال السلطان مسعود^(١) - بدليل ان الشاعر قال في آخرها - بعد ان ذكر امتيازات جماعة كانوا معه بصحبة الخليفة: -

لَهُمْ مَعَايِشُهُمْ، وَمَالِي بَيْنَهُمْ مَا كَانَ لِي فِي دَوْلَةِ الْمُسْتَظْهِرِ
وَوَلَاتِي فِي الْحِرْمَانِ لَيْسَ بِنَاقِصٍ وَتَنَائِي غَضَّ لَيْسَ بِالْمُنْغِيرِ^(٢)

اذن فقد نظم الشاعر هذه القصيدة، لانه خسر ما كان له في دولة المستظهر.

ان هجاء الموظفين - وقد مرت نماذج منه - يقل فيه التعرض لشكل المهجو، او تصوير ملامحه الخارجية، كما يندر ان يتعرض الشاعر لاصل المهجو او يفحش في ذكر نساءه ومحارمه. ويبدو ان الشعراء وجدوا ان نعت المهجو بالدمامة والقبح، والتعرض للنساء وذكر العورات مما لا يكفل لهجائهم الذبوع والسيرورة والانتشار، كما اكد النقاد ان ابلغ الهجاء واجوده «ان يسلب الانسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض»^(٣).

ومع ذلك تعرض علي بن افلح لخلقة احد الوزراء، حين قال يهجو:

لَوْلَا السَّوَادُ^(٤) وَذَقْنُهُ مَا بَانَ فِي وَقْتِ السَّلَامِ
كَزُرَيْقٍ^(٥) دَجَلَةٌ، كُلُّهُ رَيْشٌ، وَبَاقِيهِ عِظَامٌ^(٦)

وقال آخر يهجو عاملا ظلمه:

وَجَهْ يَمْثُ بِسَوْءِ مَنْظَرِهِ إِلَى شَخْصٍ تَقَارَبَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِهِ
وَنَحَافَةٌ مُوصُولَةٌ بِدَمَامَةٍ تَقْضِي عَلَى كُلِّ الْأَنَامِ بَيْغُضِهِ^(٧)

(١) أنظر: الفصل الأول ص ٦

(٢) نصره الفترة: ٢٠٣.

(٣) العمدة ٢ / ١٧٤.

(٤) السواد: أي الثياب السود التي كان وزراء العباسيين يرتدونها.

(٥) زريق دجلة: لعله ما يعرف الآن باسم «نعيج الماء» وهو طائر أكثره بياض، يرى في دجلة في أيام الربيع.

(٦) الخريدة ٢ / ٦٨، وأنظر الهامش.

(٧) الخريدة: ٤ / ٤٥٤.

٢ - هجاء اصحاب الحرف :

ومن هؤلاء: الشاعر^(١)، والواعظ^(٢)، والمغني^(٣)، والحلاق^(٤)، وصاحب الحمام^(٥)، والفاصد^(٦)، والمُنَجِّم^(٧)، والطبيب^(٨).

وهجاء هؤلاء يؤكد ويبالغ في رميهم بكل ما يبعد الناس ويفرهم، ويجعلهم غير صالحين للحرف التي يرتزقون منها. فمثلا المغني : يفترض ان يساعد الناس على الفرح ونسيان الهموم، فاذا كان بارد الغناء، حصل العكس، قال ابن جارية^(٩) القَصَّار يهجو مغنيا :

يَا بُدْبُوِي^(١٠) قَدْ نَشَأَ لَكَ فِي الْعَوِ
أَنْتَ تَدْرِي أَنَّ الشِّتَاءَ عَلَى الْأَشْدِّ
جَارٌ صَعْبٌ - إِذَا أَطْلَّ - شَدِيدٌ
لَوْ أَرَادَ الْإِلَهُ بِالْأَرْضِ خِصْبًا
مَا تَغْنَى مِنْ فَوْقِهَا مَحْمُودٌ^(١١)
كُلَّمَا انْبَتَتْ يَسِيرًا مِنَ الْعُشْدِ
بِ، وَغْنَى، غَطَى عَلَيْهِ الْجَلِيدُ^(١٢)

اما الواعظ فلا بد ان يجدد ويطور في وعظه، حتى لا يمل السامعون، فاذا عرف احد الوعاظ بانه يعيد ويكرر فيما يقول، انصرف عنه الناس. قال ابن جَكِينَا يهجو واعظا :

يُعِيدُ مَا قَالَ أَمْسَ فِي غَدِهِ
بِلا اِخْتِلَافِ الْمَعْنَى وَلَا اللفظِ
حَضَرْتُ بَعْضَ الْآيَامِ مَجْلِسَهُ
فَكُلَّ مَا قَالَهُ عَلَى حِفْظِي^(١٣)

ويعد الحيص بيص اشهر من هجى من شعراء القرن السادس، وكان يزعم انه من تميم، وتغلب على طباعه اخلاق اهل البادية، فقال زميلة هبة الله بن الفضل يهجو:

كَمْ تَبَادَى^(١٤)؟، وَكَمْ تُطَوِّلُ طُرْطُورَ^(١٥) زَكَ؟!، مَا فِيكَ شَعْرَةٌ مِنْ تَمِيمٍ

(١) عيون الأنبياء ٣١٢/٢، وفيات الأعيان ١٠٥/٥.

(٢) الخريدة ٢٤٥/٢، الوفيات ٣٦٣/٣.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٦٧، الخريدة ٢٥١/٢، ٢٦١.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٤٧.

(٥) نفسه ص ٣٢١، ٥٤٠.

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي مج ٤٢ ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٧) تاريخ الحكماء ص ٢٧٨ (ط. السعادة)، الروضتين ٧٣/٢.

(٨) تلخيص معجم الألقاب ق ٤ ج ٣ ص ١٧٣.

(٩) هو محمد بن المبارك، أبو عبد الله، نسب إلى أمه، وكانت عَوَادَة محسنة. توفي بعد سنة ٥٤٠ هـ. الخريدة ٢٥٠/٢.

(١٠) قال العماد انه: البديوي العَوَادَة الخريدة ٢٥١/٢. محمود: شقيق البديوي العواد.

(١١) نفسه ٢٤٥/٢.

(١٢) الخريدة ٢٥١/٢.

(١٣) أنبادي: أراد تنبادي، أي تشبه بأهل البادية. (١٤) الطُرْطُور: الفلانة الدفينة الطويلة.

فَكَلِ الضَّبِّ، واقْرطِ الحَنْطَلِ اليا بسْ، واشربْ - ماشئت - بولَ الظلِيمِ^(١)
لَيْسَ ذا وَجْهٍ مَنْ يَضِيفُ، ولا يقد ري ولا يَدْفَعُ الاذَى عَنْ حَرِيمِ^(٢)

٣ - هجاء المدن:

من المدن التي هجيت بغداد^(٣)، واصفهان^(٤)، وسنجان^(٥)، وواسط^(٦)، وهيت^(٧) واربل^(٨)، ودمشق^(٩).

وهذا الهجاء قد ينظم للتسلية والمزاح، يقطع به المسافرون طرقهم الطويلة، وقد يجد فيه بعض الشعراء متفلساً عما اصابهم من احدى المدن او من اهلها.

وليس هجاء المدن على اسلوب واحد، فمنهم من يذم اهل المدينة بانهم معرضون عن شعره:

يَتَمَنُّونَ أَنْ تَحُلَّ الْمَسَامِيحُ رُ بِأَسْمَاعِهِمْ، وَلَا الشَّعْرَ مِنِّي^(١٠)
ومن الشعراء من يزعم ان المدينة كثية، حزينة، لا تشرح قلب المسافر، ولذلك هجأها:

تَبَّأَ لِشَيْطَانِي، وَمَا سَوَّلَا لِأَنَّهُ أَنْزَلَنِي إِرْبِلَا
نَزَلْتُهَا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ، فَمَا شَكَّكَتُ أَنِّي نَازِلُ كَرْبِلَا^(١١)
وقال ياقوت عن هذه القصيدة بأنها «مشهورة سلك فيها الشاعر - وهو المعروف بِشَيْطَانِ الْعِرَاقِ^(١٢) - طريق الهَزَلِ، راکباً سنن الفكاهة، مورداً الفاظ البغداديين والاکراد».

اما بغداد فقد هجيت بانها مدينة الاغنياء المترفين، والمفلس فيها غريب مهممل «كأنه مصحف في بيت زنديق».

بَغْدَادُ دَارُ لَاهِلٍ الْمَالِ طَيِّبَةٌ وَلِلْمَفَالِيسِ دَارُ الصُّنُكِ وَالضُّيْقِ
ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِي فِي أَزْقَتِهَا كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقٍ^(١٣)

(١) الظلِيم: ذَكَرَ النُّعَامُ.

(٢) وفیات الأعيان ١٠٧/٢.

(٣) الخريدة / نسخة إيران ٢٠٠، معجم البلدان: جي.

(٤) الخريدة ١/ ١٨٢.

(٥) معجم البلدان: اربل، نكت الهميان ص ١٢٢.

(٦) معجم البلدان: هيت.

(٧) معجم البلدان: اربل.

(٨) معجم البلدان: اربل.

(٩) المعجم ٩٤/١٠.

وهجيت سنجار بالصغر والضيق:

زَادَ أَمِينُ الدِّينِ فِي وَصْفِهِ سِنْجَارَ، حَتَّى جِئْتُ سِنْجَارَا
فَعَايَنْتُ عَيْنَايَ - إِذْ جِئْتُهَا - مَضِيدَةٌ قَدْ مُلِئَتْ فَارَا^(١)

٤ - هجاء المجتمع بأسره:

الشعراء جماعة من الناس تختلف عنهم في الاحاسيس والمشاعر والعواطف فهم ارق احساسا من سائر الناس، لذلك تراهم يفضون ويشورون لامور يراها سواهم لا تستحق الاهتمام، وقد يكلفون ويولعون بما لا يلفت نظر الآخرين. ان الشاعر - في بعض الاحيان - لا يستطيع الوقوف بوجه الطغاة المتجبرين من بني البشر، لا يقدر ان يقول كلمة الحق ويجهر بها امام اناس اعتادوا الكذب والدجل والخداع، ولذلك يضطر الشعراء الى مهاجمة الزمن وصب غضبهم عليه، وهم يعلمون ان اهل الزمن او حكامه هم اساس البلاء:

إِنِّي رَأَيْتُ الدَّمَارَ فِي صَرْفِهِ يَمْنَحُ حَظَّ الْعَاقِلِ الْجَاهِلَا
فَمَا رَأَيْتُ نَائِلًا ثَرَوَةً أَظُنُّهُ يَحْسُبُنِي عَاقِلًا^(٢)
وقد توهم بعض الشعراء - وهم في غمرة الانفعال - ان الساقطين من الناس هم المتقدمون:

قَالُوا: ابْنُ صُعْلُوكٍ^(٣) بِهِ أُبْنَةُ فَقُلْتُ: كَلَا وَعَلَيَّ^(٤) الرُّضَا
مَنْزِلَةٌ مَا خِلْتُهُ نَائِلَهَا وَلَوْ سَعَى بَيْنَ يَدَيْهِ الْقَضَا^(٥)
ويرى ابن التعاويذي ان بعض المتنفذين لا يستحقون المديح، ولذلك ينصح زملاءه من الشعراء ان يتجهوا الى الهجاء فهو اجدى واصدق:

يَا قَالَةَ الشُّعْرِ أَمَا فَيْكُمْ فَتَى ذُو مَحْمِيَةٍ؟
يَأْنَفُ أَنْ يَغْشَى مَقَا مَاتِ السُّوَالِ الْمُخْرِجَةِ
إِلَى مَتَى جَفَوْنَكُمْ عَلَى قَذَاهَا^(٦) مُغْضِيَةٍ؟

(٢) الخريدة ٢ / ٣٣١.

(١) معجم البلدان: سنجار.

(٣) هو يحيى بن صعلوك، قال العماد عنه: وشاب من أولاد حجاب الديوان العزيز، وتعاطى نظم الشعر مُدْبِئَةً. الخريدة

٢ / ٢٢٨.

(٤) هو ابو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم... أحد الأئمة الإثني عشر عند الإمامية. توفي سنة ٢٠٢، وقيل ٢٠٣.

تاريخ ابن الأثير: ٦ / ١٣٠، وفيات الأعيان ٢ / ٤٣٢، الأعلام ٥ / ١٧٨.

(٥) الخريدة ٢ / ٢٢٨.

(٦) القذى: الجسم الغريب في العين.

وَكَمْ تَمُوتُونَ بِأَذِّ وَاءِ الهمومِ المَذُوبَةِ^(١)؟
دَعُوا المَدِيحَ، وَاِبرِدُوا صُدُورَكُمْ بِالْأَهْجِيَةِ
فَدُمُّ اَوْلَادِ الزُّنَا ۚ فِيهِ بَعْضُ التَّسْلِيَةِ

... الخ^(٢).

ان هجاء المجتمع، او الطبقة العليا منه، صورة من صور الواقع التي يحاول المجتمع طمسها وعدم الاعتراف بها والتستر عليها في كل زمان ومكان، ولكن الشعراء يابون الا ان يذكروا بالحقيقة ويشيروا الى مواطن الضعف في البيئة الاجتماعية. وعلى مر العصور وتعاقب الدول والناس، ظل الشعراء يهجون ويصرخون، وظل المجتمع لا يابه بهم، بدعوى انهم مثاليون لا امل في اصلاحهم وتحطيم بروجهم العاجية.

الهجاء بين اللفظ والمعنى:

من البديهي ان يستفيد شعراء القرن السادس من تجارب اسلافهم من شعراء القرون السابقة، فادرجوا الغرض الذي ينظم من اجله الهجاء، وعرفوا انه لا بد ان يصل الى اعماق المجتمع، والى اكبر عدد من افراده، كما عرفوا المعاني والاساليب التي تؤثر في الناس وتثيرهم، وقال لهم النقاد: «ان جميع الشعراء يرون قصر الهجاء اجود، وترك الفحش فيه اصوب الاجريرا...». وسلك طريقته في الهجاء سوى علي بن العباس الرومي، فانه كان يطيل ويفحش^(٣)...»

ومن شعراء الهجاء - غير جرير وابن الرومي - عرف ابو نواس والمتنبي، وقد لاحظ النقاد ان هجاء هذين الاخيرين يختلف تبعا لاختلاف مراتب المهجوين^(٤) وقد استوعب شعراء القرن السادس هذا كله، وفي الوقت نفسه ادركوا نفسية ومزاج معاصريهم، فشاع في اهاجيهم القصر، ومالوا الى تركيز اهاجيهم في اقل عدد من الابيات، وهو ما عرف باللمحة الدالة، فجاءت معظم اهاجيهم قليلة الابيات والالفاظ، ولكنها مركزة المعاني، دقيقة الافكار، خالية من فضول الكلام، وهجين المعاني وفاحشها. على ان هذا لا يعني ان هجاء العصر خلا من القصائد الطوال، او سلم من البذاء والسباب، ان هبة الله بن الفضل من الشعراء الذين نظموا اطول قصائد الهجاء في القرن السادس، وقصيدته في قاضي القضاة:

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٦١
(٤) نفسه ١٧٣/٢

(١) المذوبة: الممرضة.
(٣) المعلقة ١٧٢/٢

يا أخي الشرط املك لست لثلب أترك

قال ابن خلكان: «انها ١٢٨ بيتاً»^(١). ويذكر العماد^(٢) شخصاً يسميه (جنون البصري) له قصيدة طويلة في بقاء، فيها افحاش، وقال العماد: انها سائرة. وعلى الرغم من ميل اكثرية الهجاء الى ذكر صفات المهجوين المعيبة والمبالغة فيها: كالتكبر والبخل والقسوة، ولكننا نجدهم احياناً يهجون بلزوم الاصل وخسة الجدود، كقول سعد بن علي الخطيري:

كَمْ تَدْعِي كَرَمَ الْجَدْوِ دِ، وَأَنْتَ تَحْرُمُ مَنْ شَكَرَ؟!
وَعَلَى فُسَادِ الْأَصْلِ مِنْ كَيْ يَدُلُّنِي عَدَمُ الثَّمَرِ^(٣)

وقول هبة الله بن الفضل في بعض الهاشميين:

يُكْنَى أَبَا الْعَبَّاسِ، وَهُوَ بِصُورَةٍ حَكَمْتُ عَلَيْهِ وَأُسْجِلْتُ^(٤) بِمُعَمَّرِ^(٥)
فِي كَفِّ وَالِدِهِ، وَفِي أَقْدَامِهِ آثَارُ نَيْلٍ^(٦) لَا يَزَالُ، وَعُصْفُرٍ^(٧)
وَإِذَا رَأَى الْبَرْكِلَ^(٨)، يَخْفِقُ خَيْفَةً ذِي الْهَاشِمِيَّةِ أَصْلُهَا مِنْ خَيْرٍ^(٩)

واحياناً يكون الهجاء برقة الدين والخروج على تعاليم الاسلام:

يَا حَاكِماً، مَا مُسْلِمٌ وَاحِدٌ يَسْلُمُ مِنْ أَحْكَامِهِ الْجَائِزَةِ
أَحْتَلَّتْ لِلدُّنْيَا فَحَصَلَتْهَا، وَالرَّأْيُ أَنْ تَحْتَالَ لِلْآخِرَةِ^(١٠)

وقال ابن جنيب:

وَمُتَّقِلٌ بِالْإِثْمِ أَرْسَاهُ جُرْمُهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْ ثِقَلِهِ أَنْ يَقْلَوْهُ
رَأَى أَهْلُهُ إِبْعَادَهُ مَغْنَمًا لَهُمْ وَكَانَ كَثِيراً عَنْدهُمْ، فَاسْتَقْلَوْهُ
وَلَمْ يَسْمَعْ الْحَقَّارُ سَاعَةً دَفِنِهِ وَتَوَسَّيْدِهِ، الْآ: «خُدُوهُ»^(١١) فَعْلُوهُ

(١) وفيات الأعيان ٣/ ١٥١.

(٢) الخريدة ٤/ ٧٥٩.

(٣) الخريدة ٤/ ٥١.

(٤) أسجلت: ملكت.

(٥) معمر: من الغمرة، وهي الزعفران: يصفه بالعنوسة والصفرة.

(٦) النيل: صبح أزرق.

(٧) العُصْفُرُ: نبات يستخرج منه صبح أحمر.

(٨) البركيل أو البرقل: القوس الذي يرمي به الصبيان البندق.

(٩) الخريدة ٢/ ٢٧٦، خير: ناحية مشهورة في الحجاز، كانت مساكن اليهود: يصفه بالجن، وانه من أصل يهودي.

(١٠) الخريدة ٢/ ١٦٦.

(١١) الخريدة ٢/ ٢٣٨، والاقباس من الآية ٣٠ (الحاقة).

ووجدت المذاهب الاسلامية طريقها الى معاني الهجاء، كقول المؤيد الالوسي :

وأعور رافضي^(١) لله ثم لشعري
يدعونه بابين زيد، وهو ابن زيد وعمرو^(٢)

وقال سعد بن علي الحطيري :

يا فتح، يا اشهر كل الوري
كَمْ تَدْعِي شَيْعَةَ آلِ النَّبِيِّ؟
باللُوم والخِسة والكذب
اسمك يُبَيِّنِي عَنِ النَّصَبِ^(٣)

وكما تعددت معاني الهجاء، تعددت كذلك اساليب الشعراء في توكيد الهجاء، وضمان انتشاره وذيوعه بين الجماهير. فقد عمد الشعراء الى الاساليب البسيطة، السهلة، الشعبية، التي تقرب من لغة العامة وطرقها في التعبير، كقول هبة الله بن الفضل :

يا حَزِينَة، الطُّمِي الطُّمِي
وَي^(٥) عَلَى الشَّرْعِ وَالْقَضَا
قَدْ وَلِيَ (ابنُ المُرْخَمِ)^(٤)
أَتَرَى صَاحِبَ الشَّرِيدِ
وَيَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
عَمَةٍ قَدْ جُنَّ أَوْ عَمِي^(٦)؟!

وقوله :

يا (كمال الدين) الذي
والرئيس الذي به
خُذْ حَدِيثِي، فَأَنَّهُ
كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ تَبَغَّ
هُوَ شَخْصٌ مُشَخَّصٌ
ذَنْبُ دَهْرِي يُمَحَّصُ
نَبَأٌ سَوْفَ يَرُخَّصُ
دَدَّ قَوْمِي تَحْمَصُصُوا^(٧)
وَعَوَاشٍ^(٨) عَلَى الرُّوْ
سِ عَلَيْهَا الْمُقَرَّنُصُ^(٩)
... الخ^(١٠)

(١) رافضي : منسوب الى جماعة المسلمين التي ترفض خلافة أبي بكر وعمر (رضي).

(٢) معجم البلدان : آلوس.

(٣) تمام المتون ص ٢٤٧، النصب : بغض آل النبي (ص).

(٤) هو القاضي يحيى بن سعيد بن المرخم، وقد مرت الإشارة إليه في الفصل الأول ص ٢٦.

(٥) وي : اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب.

(٦) المنتظم ٢٠٧/١٠.

(٧) تحمصصوا : صاروا من أهل حمص.

(٨) عواشي : الواحدة غاشية، وهي الغطاء.

(٩) المقرنص والمقرنس : سقف عمل على هيئة السلم.

(١٠) وفیات الأعيان ١٠٨/٥ - ١٠٩.

كما عمدوا الى الالفاظ القرآنية، يقتبسون منها ما يلائم شعرهم، فبدا الهجاء طريفا وقد اكد وزين بآيات الكتاب الكريم. ولكن هذا الاقتباس قد يخرج الآيات عن معناها - احيانا - مما يغضب رجال الدين، وان اشبع عاطفة الشاعر الحائق الغاضب.

فمن الاقتباس قول هبة الله بن الفضل يهجو (كثير^(١)) بن شماليق:

(ابنُ شماليق) ليس فيه نفعٌ صغير ولا كبير
فكيف أثني عليه يوماً بمنطق الحامد الشكور؟!
والله قد قال فيه قبلي يهجو: «لا خير في كثير^(٢)»

وقال آخر:

أتحسبني أفدت إليك نفسي ولي بك، أو بما تأتيه، علم؟
ظننت بك الجميل، فخاب ظني وقال الله: «بعض الظن إثم^(٣)»

والاقتباس من القرآن الكريم ليس جديدا على الشعراء، فقد اورد صاحب مروج الذهب مجموعة من اهاجي علي^(٤) بن محمد بن نصر، وفي بعضها اقتباس من القرآن الكريم، كقوله:

عبيد^(٥) الله ليس له معاد ولا عقل، وليس له سداد
رُدِدَتْ الى الحياة، فَعُدَّتْ عنها لقول الله: «لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا^(٦)»

كذلك ضمن الشعراء اهاجيهم شيئا من شعر اسلافهم، وهذا التضمين نادر في هجاء هذه الفترة، لم اقف له الا على شاهد واحد، اورده صاحب الوفيات^(٧) لشدة اعجابه به، وهو قول هبة الله بن الفضل:

(١) لم اقف على ترجمة له. وانظر الخريدة ٢/ ٢٧٥ هامش المحقق رقم ٥.

(٢) الخريدة ٢/ ٢٧٥، والاقتباس من الآية ١١٤ (النساء): لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بضعة او مغرور او اصلاح بين الناس.

(٣) الخريدة ٢/ ٣٢٧، والاقتباس من الآية ١٢ (الحجرات): يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، ان بعض الظن إثم، ولا تحسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً.

(٤) مرت ترجمته ص ١٤٦ هامش ٣.

(٥) هو عبيد الله بن سليمان بن وهب، وزير المعتضد، توفي سنة ٢٨٨، ابن الأثير ٧/ ١٨٢، وفيات الأعيان ٢/ ٣٠٦، فوات الوفيات ٣/ ٥٨، الاعلام ٤/ ٣٤٩.

(٦) مروج الذهب ٤/ ٣٠٠، والاقتباس من الآية ٢٨ (الانعام): وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

(٧) وفيات الأعيان ٥/ ١٠٥.

يا أهل بغداد، إنَّ الحِصْنَ بيضُ أبيض
هو الجبانُ الذي أبدى تشاجعهُ
وليس في يَدِهِ مالٌ يَدِيهِ^(١) به
فأنشدت جَعْدَةً^(٢) - مِنْ بَعْدِ ما احتسبت
(أقول للنفسِ تأساءً وتغزيباً
كلاهما خَلَفَ مِنْ فَقْدِ صاحبه
بفعللة أكتسبته الخزي في البلد
على جري ضعيف البطش والجلد
ولم يكن ببواء^(٣) عنه في القود^(٤) -
دم الأبتلي عند الواحد الصمد -
:إحدى يدي أصابتي، ولم ترد
هذا أخي - حين أدعوه - وذأ ولدي^(٥))

ان شعراء القرن السادس لم يقفوا عند حدود الطرق السالفة في محاولاتهم المستمرة لتطوير فن الهجاء، والاخذ بأكثر الاساليب والوسائل اتفاقا وتمشيا مع روح العصر وطابع اهله، ولذلك حاولوا ان يطوروا اهاجهم ويحوروها - لفظا ومعنى - تبعا لمراتب المهجوين ومنزلتهم الاجتماعية، فصار الهجاء انواعا وضروبا: فمن لا يجدي فيه التلويح والاشارة اتخذ له سلاح التصريح والعبارة الجارحة المؤلمة^(٦)، بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك، فقد عمد هبة الله بن الفضل الى اللغة الفارسية، وراح يدس بين ابياته كلمات وتعابير فارسية، حين اضطر الى ان يهجو رجلا يكره العرب ويفضل عليهم الفرس.

ففي الوقت الذي نجد فيه شعراء القرن السادس يهجون افرادا - بمثل قولهم:

شخص يعزُّ على الكدِّ ب أن يُقاسَ بِكَلْبٍ^(٧)
وقولهم: وهجوي لا أعرضه لِقَرْدٍ مخافة أن تدنسه القروء^(٨)
وقولهم:

لِللُّؤْمِ شَرْعٌ، وَهَمْ رُسْلُهُ وَعَنْهُمْ جَاءَ بِمِنْهَاجٍ^(٩)

اقول في ذلك العصر نفسه، نجد شعراء الهجاء وقد أعدوا هجاء آخر يختلف عن هذه الشتائم، لافراد آخرين تولمهم الكلمة النابية، وقد لا يصدقها الناس، وربما سخروا

(١) يَدِيهِ: من الدبّة، وهي ما يعطى من المال بذل القتيل.

(٢) ببواء: مُساو له.

(٣) القود: القصاص وقتل القاتل بدل القتيل.

(٤) جَعْدَةٌ: اراد بها هنا الكلبة، وأبو جعدة: كنية الذئب.

(٥) البيتان المضمّنان لأعرابي قتل أخوه ابنا له. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٠٧/١.

(٦) الخريدة ٣٨٤/٤

(٧) العمدة ١٧٣/٢

(٨) نفسه ٣٨٥/٤

(٩) الخريدة ٣٨٤/٤

من الشاعر لانه افترى وكذب على اشخاص عرفوا بين جميع الناس بخلاف ما ادعاه الشاعر. ومن هنا لا بد من تخيير الهجاء المناسب للرجل المناسب، تأمل - مثلاً - كيف هجا ابن حَكِينَا الشريف هبة الله بن الشَّجَرِي - وكان من فضلاء عصره - :

يا سَيْدِي، والذي يُعِيدُكَ مِنْ نَظْمٍ قَرِيضٍ، يَصْدَا بِهِ الْفَكْرُ
ما فيكَ مِنْ جَدِّكَ النَّبِيِّ سِوَى أَتَكَ ما يَنْبَغِي لَكَ الشَّعْرُ^(١)

فيحار الباحث: فماذا يسمى هذا الشعر؟ انه مديح قريب من الهجاء، أم هجاء كأنه مدح. ولست اشك ان معاصري الشاعر تداولوا هذين البيتين زمناً لبراعة الشاعر في الجمع بين المدح والهجاء.

وقال ابن حَمْدُونُ الْكَاتِبُ^(٢):

وَحَاشَا مَعَالِيكَ أَنْ تُسْتَزَادَ وَحَاشَا نَوَالِكَ أَنْ يُقْتَضَى
ولكنَّها أَسْتَزِيدُ الحُظوظَ وَإِنْ أَمَرْتَنِي النُّهى بِالرُّضَى^(٣)

وقال ابن حَكِينَا:

ما بَالُ أَشْعَارِي - وقد ضُمَنْتَ مَدْحَكُمُ - تَرْجِعُ بِالذُّلِّ^(٤)؟
ما فيكُمُ بخلٌ، وما بي غِنًى عَنْ نَائِلٍ، والنُّجُحُ في الصَّدَقِ
وَلَسْتُ أَسْتَبْطِى، ولكنِّي يَنْقُطُ الغَيْثُ فَاسْتَسْقَى^(٥)

ومن استعمال اللغة الفارسية، قول هبة الله بن الفضل للواعظ الغزنوي^(٦)، وكان

يذكره ويتعرض به :

وَأَنْتَ تَنْهَى النَّاسَ عَنْ غَيْبَةٍ فِي مِثْلِهَا تَأْمُرُ بِالرَّدِّ
أَمَّا بِتَخْوِيفٍ مِنَ النَّارِ، أَوْ بِنَوْعِ تَشْوِيقٍ إِلَى الْخُلْدِ
وَبَعْدَ ذَا تَفْعَلُ بِى هَكَذَا؟ زَهَارُ مِنْ سَالِوسِكَ السَّرْدِ!

(١) نفسه ٢/ ٢٣٥، وقد ألح في عجز البيت الثاني إلى قوله تعالى: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ. الآية ٦٩ (سورة يس).

(٢) هو أبو المعالي بن حمدون: مرت ترجمته في الفصل الأول ص ٢٩ هامش ٤.

(٣) وفيات الأعيان ٤/ ١٦.

(٤) الدلق: خروج الشيء من مخرجه بسرعة، وأراد بها هنا أن شعره لا فائدة منه.

(٥) الخزينة ٢/ ٢٣٧.

(٦) هو علي بن الحسين، الملقب بالبرهان، كان مفوهاً فصيحاً، يدل بمجة الأعاجم ولا يعظم بيت الخلافة، توفي سنة ٥٥١

المنتظم ١٠/ ١٦٦، الكامل: ١١/ ٨٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٣٤، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٢٣.

وهذه العُجْمَةُ، مِنْ عِنْدِكَ اِقْ تَبَسُّهَا، مَا هِيَ مِنْ عِنْدِي
 لَا تُصْلِحِ الْفَاسِدَ مِنِّي بِمَا يُخْرِجُ مِنْ خَرْدٍ إِلَى شَدٍّ^(١)
 وَدَرْدَسَرُ، يَا نَوْرَ عَيْنِي، مَكُنْ لِضَيْقِ الْأَنْفَاسِ بِالذُّرْدِ
 ... الخ^(٢).

فعبارة: «زَنَهَار مِنْ سَالُوسِك السَّرْد»، معناها: حَذَار مِنْ كَلَامِكَ الْمَخَادَعِ الْبَارِدِ.
 وعبارة: «دَرْد سَر مَكُن» تعني: لَا تَوَجَّع رَأْسَكَ. وَالذُّرْدُ: الْغَمُّ بِالْفَارْسِيَّةِ^(٣)، وَلَا زَالَتْ
 شَائِعَةٌ عَلَى السَّنَةِ الْعَامَةِ مِنَ الْعِرَاقِيِّينَ حَتَّى الْيَوْمِ.

٣ - الْغَزَلُ وَالنَّسِيبُ:

هَذَا غَرَضٌ يَكَادُ يَسَاوِي الْمَدِيحَ مِنْ حَيْثُ كَثْرَةُ الشَّعْرِ وَغَزَاةُ الْمَقْطُوعَاتِ وَالْقَصَائِدِ
 الَّتِي قِيلَتْ فِيهِ، وَحَسْبُكَ أَنْ جَمِيعَ النَّاطِلِينَ مِنْ شُعْرَاءَ مُحْتَرِفِينَ أَوْ غَيْرِ مُحْتَرِفِينَ قَلَّمَا خَلَّتْ
 تَرْجُمَةٌ أَحَدَهُمْ مِنْ أَيْبَاتِ فِي الْغَزْلِ.

أَنْ مَعْظَمَ غَزْلِ الْقَرْنِ السَّادِسِ هُوَ مَقْدِمَاتُ لِقَصَائِدِ الْمَدِيحِ، وَلِذَلِكَ صَارَ قِسْمٌ كَبِيرٌ
 مِنْ غَزْلِ هَذِهِ الْحَقْبَةِ مِنَ الْغَزْلِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي اعْتَادَ الشُّعْرَاءُ الْعَرَبُ أَنْ يَفْتَتِحُوا بِهِ قَصَائِدَ
 الْمَدِيحِ، كَذَلِكَ صَرْنَا - رُبَّمَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ - نَجِدُ طَائِفَةً مِنْ كِبَارِ شُعْرَاءِ
 الْمَدِيحِ هُمْ أَنْفُسُهُمْ مِنْ شُعْرَاءِ الْغَزْلِ الْمَعْرُوفِينَ.

أَنْ طَوَّلَ الْمَقْدِمَةُ الْغَزْلِيَّةَ عِنْدَ شُعْرَاءَ لَيْسُوا غَزَلِينَ هُوَ مِنَ الظُّوَاهِرِ الْأَدْبِيَّةِ الَّتِي يُحْسِنُ أَنْ
 أَقِفَ عِنْدَهَا، وَخَاصَّةً عِنْدَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْمَعْرُوفِ بِالْبَارِغِ وَالْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٢٤ هـ،
 وَكَذَلِكَ مَقْدِمَاتُ بَعْضِ قَصَائِدِ ابْنِ التَّعَاوُيْذِيِّ.

أَنْ قَصِيدَةُ الْبَارِغِ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

ذَكَرَ الْأَحْبَابَ وَالْوَطَنَا وَالصَّبَى وَالْأَلْفَ وَالسُّكُنَا^(٤)

زَادَتْ مَقْدِمَتَهَا الْغَزْلِيَّةَ عَلَى أَرْبَعِينَ بَيْتًا، وَكَذَلِكَ قَصِيدَتُهُ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

طَرِبْتُ وَهَاجَ لِي الْبَرْقُ وَهَنَا^(٥) تَبَارِيحَ وَجَدٍ قَدِيمٍ بُلْبُنِي^(٦)

(١) خَرْدٌ إِلَى شَدٍّ: كَذَا بِالْأَصْلِ، وَهُوَ غَيْرُ وَاضِحٍ الْمَعْنَى، وَأَنْظُرِ الْخَزِيدَةَ ٢/ ٢٨٤ هَامِشٌ (٤٤).

(٢) الْخَزِيدَةُ ٢/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٣) الْأَلْفَاظُ الْفَارْسِيَّةُ ص ٦١.

(٤) الْخَزِيدَةُ / نَسْخَةُ إِيْرَانِ ٢٣٥.

(٦) الْخَزِيدَةُ / نَسْخَةُ إِيْرَانِ ٢٣١.

(٥) وَهَنَا: الْوَهْنُ: مُتَصِفٌ اللَّيْلِ أَوْ بَعْدَ سَاعَةٍ مِنْهُ.

وبعض مقدمات ابن التعاويذي زادت على الثلاثين بيتا كقصيدته التي مطلعها:

ابنكم أني مشوق بكم صبُّ وأن فؤادي للأسى بعدكم نهب^(١)
وقصيدته:

عَصُرُ الشَّبَابِ تَصَرَّمْتُ أَوْقَاتَهُ وَتَبَسَّمْتُ عَنْ فَجَرِهَا لَيْلَاتُهُ^(٢).

ان الشاعرين يعيدان ويكرران، ويشققان القول، ولا يكاد الواحد منها يترك لفظة غزل، ولا عبارة نسيب، أو فكرة أو صورة يمكن ان تدل على صباية أو وجد الا استعملها في مقدمات المدائح، كل ذلك حتى يصل بها الى الطول المطلوب، وحتى لا يملك الباحث الا ان يتساءل متعجبا من اين يأتي هذان الشاعران بكل هذه الابيات؟ ومن اين لهما هذه الالفاظ والمعاني، وهذا النفس الشعري الذي لا ينضب ولا يضعف حتى تصل القصيدة احيانا الى اكثر من مائة بيت؟

لقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة^(٣) الى ان الطول هو الصفة الغالبة على قصائد المدح، ولا شك ان طول المقدمة الغزلية هو احدى طرق اطالة القصيدة بصورة عامة. وعندي ان سبب هذا الطول يرجع الى عاملين اساسيين:

الأول:

شاعرية الشاعر أو طاقته على النظم، فان الشاعر المحدود القابلية يختصر مقدمته اختصارا كي يسرع الى الهدف الاصلي من القصيدة، قبل ان يدركه الاعياء، اما كبار الشعراء فان رصيدهم لا ينفد، وربما تفتحت قرائنهم وظهرت مواهبهم كلما طال الشعر. وليس من المستبعد ان يطيل الشاعر في الغزل لانه مجيد في هذا الميدان، وهو يعرف ذلك جيدا. اما الذين اسقطوا المقدمة الغزلية من معظم مدائحهم - وأشهرهم الحيص بيص -، فربما عمدوا الى ذلك لانهم لا يجيدون التغزل - وان تعللوا بعلل اخرى.

الثاني:

ثقافة الشاعر، وخاصة في اللغة، اذ بدونها لا يستطيع ان يأتي بكل هذه المفردات التي يقيم بها شعره، وقد اشار ابن خلكان الى ان البارع كان نحويا لغوية مقرئا. افاد خلقا كثيرا خصوصا باقراء القرآن الكريم^(٤).

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٠.

(٢) الديوان ص ٦٣.

(٣) أنظر دراسة المدح في أول هذا الفصل الثالث.

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٤٣٥.

ان ارتباط قسم كبير من غزل هذه الفترة بالمديح، وخاصة مدح الخلفاء وكبار شخصيات العصر، جعل الشعراء في موقف دقيق خاص، اذ لا بد أن يكون شعر هذه المناسبات الحاشدة الرسمية جديراً بسمعة الشاعر وهيبة الموقف، فلا مجال لاطلاق العنان والاسراف في الغزل وأحاديث الصباية وغير الصباية، على حساب الوقار والتقى والورع التي يجب أن يتصف بها الخليفة، كما لا يصح ان يكون غزل الشاعر بارداً متكلفاً وهو يفتتح مديحه امام سمع وبصر حشد من كبار العلماء والأدباء والنقاد، فكل كلمة أو عبارة أو صورة، يجب أن توزن بدقة. ولذلك بدن الشعراء جهوداً جبارة، وحاولوا المستحيل، وسودوا عشرات الصفحات حتى استطاعوا ان يوفقوا بين الغزل ومدح الخلفاء. فكان من ذلك قصائد وأبيات كانت مثالا يحتذى في العصور التالية، مثل قصيدة ابن التعاويذي في مدح القاضي الفاضل:

مَرَّتْ بِجَمْعٍ لَيْلَةَ النَّفْرِ^(١) تَجْمَعُ بَيْنَ الْإِثْمِ وَالْأَجْرِ^(٢)

فقد قال الشيخ ابن دقيق^(٣) العيد: انه لو مدح بها لاجاز عليها بالف دينار^(٤) وقصيدة ابن المعلم:

تَنْبَهِ يَا عَذْبَاتِ^(٥) الرَّنْدَ كَمْ ذَا الْكَرَى؟ هَبْ نَسِيمُ نَجْدِ^(٦)

عارضها شاعران هما حماد الخراط^(٧)، وفتيان الشاغوري^(٨). ولا زال بيت الأبله البغدادي:

لَا يَعْرِفُ الشَّوْقُ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةُ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا^(٩)

حيا خالدا حتى اليوم.

وقد وجد في القرن السادس - الى جانب مقدمات المدائح - نوعان آخران من الغزل

هما:

(١) النفرة: اندفاع الحاجاج من منى إلى مكة.

(٢) الديوان ص ١٩٠.

(٣) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع، الإمام العلامة، كان محدثاً محبداً فقيهاً، أديباً شاعراً، نحيباً. توفي سنة ٧٠٢ هـ. فوات الوفيات ٢/ ٤٨٤، الدرر الكامنة ٤/ ٩١، شذرات الذهب ٦/ ٥، الأعلام ٧/ ١٧٣.

(٤) الوافي بالوفيات ٤/ ١٤.

(٥) العذبات: واحدتها عذبة، وهي طرف كل شيء.

(٦) الخريدة ٤/ ٤٣٩.

(٧) هو حماد بن منصور البزاعي، قال العماد عنه: «... ليس بالشام في عصرنا هذا مثله رقة شعر وسلاسة نظم...» توفي حماد سنة ٥٦٥ هـ. خريدة الشام ٢/ ١٣٠، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨٣.

(٨) هو الشهاب فتيان بن علي... الدمشقي، كان فاضلاً وشاعراً ماهراً. توفي سنة ٦١٥ هـ. خريدة الشام ١/ ٢٤٧ وفيات الأعيان ٣/ ١٩٥، الأعلام ٥/ ٣٣٦، معجم المؤلفين ٨/ ٥٤.

(٩) الديوان و ١.

١ - الغزل المغني :

وهو مقطوعات او ابيات تكون في العادة قليلة العدد، ! تنظم ليتغنى بها صناع الغناء أو المغنون، وقد وصلتنا اخبار اثنين منهم هما : مظفر الدين ابو الفتوح سعيد بن عبد العزيز المتوفى سنة ٦٠٠ هـ^(١)، والبدر محمد بن الفراش المتوفى ٥٩٨ هـ^(٢)، اما الشعراء الذين اشير الى ان المغنين كانوا مولعين بغناء طائفة من شعرهم فمنهم : الابله البغدادي^(٣)، وابن ألعلم الواسطي^(٤)، وقد نص العماد^(٥) على ان ابا المعالي بن مسلم الشروطي كان : «يعمل شعرا ويلقنه صناع الغناء».

وعلى الرغم من استقلال القطع المغناة عن المدح في العادة^(٦)، فاني لم اعثر في ديوان الأبله على غزل له مستقل عن المدح، وقد نص على ان قصيدته الاتي مطلعها :

إِنْ دَامَ هَجْرُكَ وَاسْتَمَرَّا أَلْفَيْتُ حُلُوَ الْعَيْشِ مُرًّا^(٧)
وهي في مدح الوزير ابن هبيرة، ومما غني به .

ان معظم النصوص التي اشير الى انها غُنيت او فيها غناء، تتصف بخلوها من آثار التقليد والتعلق بأذيال القدماء كالوقوف على الاطلال، والبكاء في اثر الظاعنين، وقد يكون سبب ذلك ان هذه الموضوعات ليس فيها ما يسر، وقد فقدت طرافتها لفرط ما اعيدت وكررت.

وقد قلت «معظم» لان بعض القطع المغناة لم تسلم من هذه اللازمة كقول عماد الدين ابن الوزير عضد الدين :

قَفْ بِاللَّوَى، إِنْ تَنَاءَتْ الدَّارُ فَعِنْدَ تِلْكَ الْاَوْطَانِ اَوْطَارُ
وَشِمَّ لَهَا بَارِقَ السَّحَابِ، فَإِنْ ضَنَّ، فَمَاءُ الْجَفَوْنَ مِذْرَارُ
أَحْبَابُنَا، أَزْمَعُوا الرَّحِيلَ، وَمَا أَظُنُّ أَنِّي أَعِيشُ إِنْ سَارُوا
رَاحُوا بِقَلْبِي، وَخَلَّفُوا جَسَدًا جَارَ عَلَيْهِ السَّقَامُ، مُذْ جَارُوا
أَحَبَّ نَجْدًا، إِنْ أَنْجَدُوا، وَإِذَا غَارُوا، فَعِنْدِي لِلْغُورِ إِثَارُ

(١) تلخيص معجم الالقاب ٥/ ٥٢٢ .

(٢) الجامع المختصر ٩/ ٨٨ .

(٣) وفيات الاعيان ٤/ ٨٧، تاريخ الموسيقى العربية ص ٢٣٣ .

(٤) الخريدة ٤/ ٤٣٨ .

(٥) نفسه ٢/ ٣٠٨ .

(٦) انظر الخريدة ١/ ١٦٧، ١٨٦، ٢/ ٢٧٤، ٢٩٢، ٤/ ٣٧٣ .

(٧) الخريدة / نسخة ايران ١٦٤ .

لا عُذَرَ لي في الحياة بَعْدَهُمُ النَّارُ في حُبِّهِمْ ولا العَارُ^(١)

ان الرجل من اكثر الناس بعدا عن «اللولى» و«نجد» وما اظن احدا يصدقه. حين يزعم ان احبابه على وشك الرحيل، وحين رحلوا خلفوه جسدا سقيما يائسا من الحياة. فاذا كان ابناء الوزراء - وهم في قمة الطبقة المترفة العباسية - يحبون نجدا لحب من سكنها، فماذا بقي لسكان البوادي الحقيقيين؟ انه التقلد ينطق الرجل بما لا يشعر به، ولذلك تفوح رائحة التلفيق والتكلف من كل بيت، بل من كل كلمة في ابياته. وقال آخر:

يا طُلُولُ بَعْدَهُمُ كَيْفَ حَالُ ذِي شَجَنِ؟
غَيَّرْتَكَ حَادِثَةٌ مِنْ حَوَادِثِ الزَّمَنِ^(٢)

ان هاتين المقطوعتين تدلان على ان طوائف من المجتمع العباسي في عصوره المتأخرة لا تزال تجد لذة ونشوة بالاستماع الى احاديث البادية وصور اهلها، وهم ينتقلون بين الاغوار والانجاد، ولذلك نجد عذرا للشعراء حين التزموا بالمقدمة الطللية، لانهم انما يعزفون الالحان التي يحبها الجمهور.

وليس بوسع الباحث ان يطمئن الى ان العماد الكاتب قد اطلع على جميع الشعر المغنى فاشار الى القطع المغناة كلها. ان المهمة الكبيرة، وهي تسجيل ادب القرن السادس في العراق وغير العراق التي تكفل بها كتاب الخريدة تدل - فيما تدل عليه - ان الرجل سيفوته الكثير، وان قضية فرعية مثل تتبع الشعر المغنى، لا بد ان قلم العماد مر بها مسرعا منطلقا مكتفيا بالاشارات السريعة التي خلفها وراءه هنا وهناك. ولذلك ارجح ان قسما غير قليل من القطع الشعرية الغزلية المبثوثة في الخريدة ووفيات الاعيان وفوات الوفيات وسواها من المصادر التي اهتمت بشعر الفترة وشعرائه، هي من الشعر الذي نظم من اجل الغناء - وان لم ينص على ذلك صراحة - والدليل ان امثال هذه المقطوعات فيها كل صفات الشعر المغنى: البحور القصيرة او المجزوءة، والألفاظ الرشيقة المختارة، والقوافي التي اختيرت بحروفها وحركاتها بعناية، وفوق كل ذلك قلة عدد أبياتها بحيث تصلح للاعادة والتكرار عند الغناء^(٣).

واكثر الذين رويت لهم امثال هذه المقطوعات هم: محمود الشَّروطي البغدادي^(٤)، ويوسف بن الدَّر البغدادي^(٥)، وابن قَزَمي البغدادي^(٦)، وهذا الأخير بخاصة، أرجح ان

(٢) نفسه ٢ / ٢٩٢.

(٤) الخريدة ٢ / ٢٩٨، ٣٠٦.

(٦) نفسه ٢ / ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠.

(١) الخريدة ١ / ١٦٧.

(٣) حياة الشعر في الكوفة ص ٦٠٤.

(٥) نفسه ٢ / ٣٢٩.

كثيرا من نظمه ألف وكتب للغناء والمغنين لان جميع الشعر الذي رواه له العماد، عليه طابع الغناء. ولم ينص صاحب الخريدة ان هذا الشاعر مدح أحدا، ولم يذكر سبب هذه الرشاقة والاناقة التي تغلف مقطوعاته، فتبدو متميزة عن سواها، تدل على ان الشاعر بذل جهدا غير قليل في اعدادها وصلقلها وتزيينها مما يشهد له بعلو الكعب في الفن. مثل قوله:

لِي حَبِيبٌ لَّانَ عِطْفًا لَيْتَهُ قَدْ لَانَ عَطْفًا
إِنَّ قَلْبِي - مِنْ هَوَاهُ - فِي حَرِيقٍ لَيْسَ يُطْفَأُ
اشتهى تَقْبِيلَ عَيْنِي (م) ه وَصَحْنِ الْخَدَّ الْأَفْ
ثُمَّ ضَعَفَ الشَّفْعَ (١) وَالْوَتْرَ (م) ر (٢)، وَضَعَفَ الضَّعْفَ ضِعْفًا (٣)
وقوله من ثانية:

لُطْفُ الْخُصُورِ الْمُخْطَفَةِ (٤) وَالطَّرْرُ (٥) الْأَصْفَفُ
وَالْوَجَنَاتُ الْبَضَّةُ (م) مَشْرِقَةُ الْمَتْرِفَةِ
وَلَيْنُ أَغْصَانِ الْقُدُو دِ اللَّدْنَةِ الْمَهْفَهْفَةِ (٦)
أَبَقْتُ قُلُوبَ الْعَاشِقِ (م) نَ صَبَّةٌ تُخْطِفُ
فَكَمْ مَرِيضٍ مُدْنِفٍ شِفَاؤُهُ لَتَمِ الشَّفَةُ
وَلَا يُبَالِي أَنْ يُعَمَّ (م) دَ فَعْلُهُ مِنْ السَّفَةِ
قَالُوا لَهُ الْمَائِمُ لَا يَرُدُّهُ مَنْ عَنَّفَهُ
... الخ (٧).

٢ - امشاج من الغزل:

تصادف الباحث، وهو يدرس غزل القرن السادس، مقطوعات كثيرة لا يدري اين يدرسها، فهي ليست مقدمات لقصائد مديح، وليست من الشعر المغنى، كما انها لا تخلو - احيانا - من معنى طريف او تعبير مبتكر، وفيها من قوة الشاعرية واصالتها ما يوجب انتشالها

(١) الشفع: الزوج من العدد.

(٣) الخريدة ٢ / ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٥) الطرر: واحدتها طررة وهي الجبهة أو الناصية.

(٦) المهفهفة: واحدها مهفهف: الضامر البطن، الدقيق الخصر.

(٧) الخريدة ٢ / ٣٣٩، وأنظر ٢ / ٣٤٠.

(٢) الوتر: الفرد.

(٤) المخطفة: الضامرة، الخفيفة لحم الجنب.

من ايدي النسيان، وعرضها امام الباحثين فقد يرى فيها بعضهم من الدلالات غير ما تراه.

ان غزل القرن السادس الحقيقي - وهو قليل - لا يوجد في مقدمات المدائح حيث يتكلف الشاعر جزالة الالفاظ وفخامتها، وبداءة اللغة وقدمها، ولا في شعر الغناء حيث يجري الشاعر وراء الالفاظ التي تصلح للتلحين والموسيقى، مهذراً من أجل الالفاظ وفي سبيلها كل شيء. ان العواطف الصادقة البعيدة عن الافعال الخالية من الادعاء، تجدها في هوامش الغزل، بعيدا عن ضجيج الالفاظ، وصخب التملق والرياء. تجدها في البيتين او الثلاثة التي اصطادها الرواة فجمعوها من هذا وذاك، دون اشارة الى سبب نظمها، انها غزل وكفى، ولا يهمهم ان كان ناظمها عاشقا أو فاسقا.

ان قسما من هذا الغزل نظمه علماء مشهورون كأبي سعيد محمد^(١) بن علي بن عبد الله. . الجاواني^(٢) الحلو المتوفى سنة ٥٦١ هـ، ويبدو أن الرجل كان أعور، ولذلك قال:

أفديك بالعينِ الصَّحِيحِ (م) حة، فالمریضة لا تُساوي
إني أفيكم بِالْمَحَامِ (م) سن لا أفيكم بِالْمَسَاوِي^(٣)

وابي عبد الله الحسين بن محمد. . المنعوت بالبارع قال:

رُدِّي عَلَيَّ الْكَرَى، ثُمَّ اهْجُرِّي سَكَنِي فَقَدْ قَنَعْتُ بِطِيفِ مَنْكَ فِي الْوَسَنِ
لَا تُحْسَبِي النَّوْمَ قَدْ أَوْحِشْتُ أَطْلُبُهُ إِلَّا رَجَاءَ خِيَالِ مَنْكَ يُؤْنَسِي
تَرَكْتَنِي وَالْهَوَى فَرْدًا أَغَالِبُهُ وَنَامَ لَيْلُكَ عَنْ هَمِّ يُوْرُقُنِي^(٤)

ومن شعراء هذا الغزل: علي بن افلح الكاتب المتوفى سنة ٥٣٥ هـ:

دَعِ الْهَوَى لِأَنْسَاسٍ يُعْرِفُونَ بِهِ قَدْ مَارَسُوا الْحُبَّ حَتَّى لَانَ أَصْعَبُهُ
بَلَوْتَ نَفْسَكَ فِيمَا لَسْتَ تَجْبِرُهُ وَالشَّيْءُ صَعْبٌ عَلَى مَنْ لَا يَجْرِبُهُ
إِفْنِ اضْطِرَاراً - وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ جَلْدًا - قَرَبٌ مُدْرِكُ أَمْرِ عَزَّ مَطْلَبُهُ
أَحْنِ الضُّلُوعَ عَلَى قَلْبٍ يُحْيِرُنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَيُعِينُنِي تَقْلِبُهُ

(١) تفقه ببغداد على الغزالي. . وبرع وتميز وقرأ المقامات على الحريري، وكان إماماً مناضراً. . وله نظم. . الوافي بالوفيات ٤

١٥٥/

(٢) الجاواني: نسبة الى جاوان: وهي قبيلة كردية سكنت الحلة.

(٣) الوافي بالوفيات ٤/ ١٥٥، طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ١٥٣.

(٤) الكامل لابن الأثير: ١٠/ ٢٥٤.

تَنَاحُ الرِّيحِ مِنْ يَهِيْجُهُ وَلَا مِعُ الْبَرْقِ مِنْ نَعْمَانِ يُطْرِبُهُ^(١)
وللأَمِيرِ بَذْرَانِ^(٢) الْمَزِيدِي :

وَصَغِيرَةٍ عُلِّقَتْهَا كَانَتْ مِنَ الْفَتَنِ الْكِبَارِ
كَالشَّمْسِ إِلَّا أَنْهَا تَبْقَى عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ^(٣)

ان هذه المقطوعات وأمثالها تدل على أن بعض شعراء العصر كان باستطاعتهم ان يطوروا فن الغزل ويدفعوا به الى امام لو تركوا قرائحهم على هواها، تعبر عما تحس، وتختار الألفاظ التي تريد، ولكن دنيا العواطف هذه - فيما يبدو - كان نصيبها من عناية القوم جد قليل.

ولا بد من الاشارة الى انني لا أستبعد أن تدل هذه القطع أو بعضها على حب حقيقي، وعاطفة صادقة، لم يصلنا منها سوى بصيص لا يكاد يضيء، كذلك يصح أن بعض هذه القطع اخذت اصلا من قصائد مدح، ابى المؤرخون والرواة الا ان يجعلوا القصيدة الواحدة اشياء مبعثرة، فتركوا الباحثين يعتمدون على الحدس والظن والتخمين.

خصائص الغزل :

١ - غلبة التقليد عليه : على الرغم من غلبة التقليد على معظم شعر القرن السادس - كما يتضح من فصول هذه الرسالة - فان هذه الظاهرة واضحة ملموسة في الغزل التقليدي أكثر من سواه، لأن شعر المديح هو أهم وأكبر اغراض العصر، وهذه المقدمة تنصدر المديح غالبا. فما أن تحاول تقليد أي من دواوين الفترة، أو تطالع أي كتاب يهتم بشعرها حتى تطالعك هذه المقدمة بنوعيتها :

الطللي: كقول ابن التعاويذي :

غَادَاكِ مِنْ بَحْرِ الرُّوَاعِدِ مُسْبِلٌ وَسَقَّتْكَ أَخْلَافُ^(٤) الْغُيُومِ الْحَقْلُ^(٥)
وَجَرَّتْ بَلِيلُ الدَّلِيلِ وَائِيَّةُ الْخَطَا مِسْكِيَّةُ النِّفْحَاتِ فِيكَ الشَّمَالُ
لِلَّهِ مَا حُلَّتْ مِنْ ثِقَلِ الْهَوَى يَوْمَ اسْتَقَلَّ قَطِينُكَ الْمُتَحَمَّلُ
.. الخ^(٦).

(١) المنتظم ٨١/١٠، وانظر أيضاً وفيات الأعيان ٦٨/٣.

(٢) أنظر الفصل الثاني ص ٩٢.

(٣) الخريدة ٤ / ١٨٠.

(٤) الأخلاف: الضروع واحدها خلف.

(٥) الحقل: المثلثة.

(٦) الديوان ص ٣٢٦، وأنظر ٣٤٤، ٣٦٣. وديوان الأبله و ٨٤، ٩٤، ١٠٠، ١٢٤.

والغزلي كقوله :

أرى الأيام صَبَغَتْهَا^(١) تَحَوَّلَ وما لهُوَكَ مِنْ قَلْبِي نُصُولُ^(٢)
وَحَبَّ لَا تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي مُحَالُ أَنْ يُغَيِّرُهُ الْعَدُولُ
بِنَفْسِي مَنْ وَهَبْتُ لَهَا رُقَادِي فَلَيْلِي بَعْدَ فُرْقَتِهَا طَوِيلُ

... الخ^(٣).

وما دام الشاعر البغدادي المترف، قد ارتضى لنفسه ان يعيش على ضفاف دجلة بين احضان الترف والحضارة، ولكنه مع ذلك يطوف في غزله بين البوادي والرمال على ظهور الجمال، أقول ان شاعرا بدا بالصحراء والحيام والاطعان، لا بد ان يسير في هذا الطريق الى نهايته فنجد:

أ) أسماء الاماكن والبقاع التي يزعم الشاعر أن أحبابه من سكانها او ان له بها ذكريات وعلى ترابها عبرات، هذه الاماكن كلها غريب على المجتمع العراقي والبغدادي . فما اظن عراقيا مر ذات يوم بـ العقيق^(٤)، او المُنْحَنَى^(٥)، أو نجد^(٦)، او الشَّيْقَةِ والضال^(٧) او رملتي بيرين^(٨)، او غيرها من الاسماء التي يرددها الشعراء ويلوكونها في غزلهم .

ان الشعراء لفرط ترديدهم للاسماء البدوية وحياتهم في الماضي، كأنهم نسوا ان في العراق اماكن وبقاعا يمكن ان تذكر في الغزل، فيشير ذكرها زواجع من الذكريات الحية المعاصرة . ان اسماء مثل الكرخ ودجلة والصراة والنيل^(٩)، لا تكاد تعثر عليها في غزل هذا العصر الا بشق الانفس، واذا وجدت اطلت عليك من بيت تلول من البداوة تخنقها خبقنا كقول ابن التعاويذي :

وَبِالْقَصْرِ مِنْ بَغْدَادَ خَوْذُ^(١٠) إِذَا رَنْتَ لَوَاحِظُهَا لَمْ يَنْجُ مِنْ كَيْدِهَا قَلْبُ

(١) صبغتها: بالأصل صبغتها (بالياء) وما أثبتته يثقف ومعنى البيت .

(٢) نصول: أراد بها هنا خروج .

(٣) الديوان ص ٣٣٩، ٣٧٤، ٣٨٦ . وأنظر الخريدة ٢ / ١٧٥، ١٧، ٢٤، ٢٧، ٥٩ .

(٤) ديوان الأبله و ٩٤ .

(٥) نفسه و ١٠٠ .

(٦) نفسه و ٨٤ .

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٦٣ .

(٨) نفسه ص ٤٢٠ .

(٩) نهر يمتزق بُلَيْذَةَ النيل في سواد الكوفة قرب جَلَّة بني مزبد .

(١٠) خَوْذُ: امرأة شابة .

(٦) رنت: من الرَنُو وهو ادامة النظر مع سكون الطرف .

كَعَابٌ^(١) كَخَوْطِ^(٢) الْبَانِ، لَا أَرْضُهَا الْحِمَى
- مُنْعَمَةٌ، غَيْرُ الْهَبِيدِ^(٣) طَعَامُهَا
وَلَا دُونَهَا بَيْدٌ يُخَاضُ غِمَارُهَا
مَحَلَّتْهَا أَعْلَا الصُّرَاةِ، وَدَارُهَا
وَلَا دَارُهَا سَلْعٌ، وَلَا قَوْمُهَا كَعْبٌ
وَمِنْ غَيْرِ اللَّقَاحِ^(٤) لَهَا شُرْبٌ
قِفَارٌ، وَلَا طَعْنٌ يُخَافُ وَلَا ضَرْبٌ
عَلَى الْكَرْخِ لَا أَعْلَامُ سَلْعٍ وَلَا الْهَضْبُ
... الخ^(٥).

ان الشاعر لم يستطع ان يذكر بغداد والصراة والكرخ الا من خلال سلع وكعب والهضب والهبيد والحمى والبيد، وهذه الفتاة البغدادية المنعمة لم يجد شاعر بغداد في القرن السادس الا ان يصف طعامها بانه «غير الهبيد» وان شراها من غير «البان اللقاح»، فهل تصدق ان البغداديات المترفات - وابن التعاويذي من بغداد - ليس لما يأكلن ويشربن من اسماء سوى هذه الاسماء والصفات البعيدة عن القرن السادس؟
وفي قصيدة اخرى قال:

وَيَوْمٌ بِالصُّرَاةِ لَنَا قَصِيرٌ وَأَيَّامُ التَّوَاصلِ لَا تَطُولُ
وقبله بأبيات قال:

وَعَنَّفَنِي عَلَى الْعَبْرَاتِ صَحْبِي عَشِيَّةَ قَوْضِ الْحَيِّ الْحُلُولِ
وقالوا: اسْتَبَقِ لِلْأَحْبَابِ دَمْعاً فَقَدْ شَرَقَتْ بِأَدْمُعِكَ الطُّلُولُ^(٦)

فاين الصراة من الدموع والطلول؟ والحي الحُلُول؟ وما فائدة ذكر هذا النهر في وسط يضحج بالاطلال والابل والرحيل والعبرات؟

ب - ان صورة المرأة التي رسمها الشعراء على انها المرأة المثالية كما يتخيلها الرجل، ظلت في القرن السادس نسخة من زميلتها في العصور السابقة البعيدة كالعصر الجاهلي وصدر الاسلام، وكذلك صفات الرجل العاشق هي هي حتى كأن الزمن واقف، والمجتمع يراوح في مكانه، والدنيا ثابتة لا تتزحزح، والعقلية العربية الاسلامية لم تهضم وتتصل بحضارات وثقافات غيرت كل شيء.

(١) الكعاب: الفتاة نهد ثديها.

(٢) الخوط: الغصن الناعم.

(٣) الهبيد: الخنظل أو حبه.

(٤) اللقاح: واحدها لقوح: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٥) الديوان ص ٣٤٠.

(٦) الديوان ص ٣١.

اما المرأة فلا زالت تشبه بالبدر:

تجري دموعي شوقاً إن نظرتُ الى بَدْرِ السَّمَاءِ وَبَدْرِ الْأَرْضِ قَدْ غَابَا^(١)
وعيونها مريضة من غير مرض:
عَبَدْتَنِي لَهُ، وَمَا كُنْتُ عَبْدًا صِحَّةً فِي جُفُونِهِ وَاعْتِلَالًا^(٢)
وقوامها كالقضب، ووجهها كالصباح، وشعرها كالليل:
تُرِيكَ قَضِيًّا فِي كَثِيبٍ إِذَا اثْنْتُ وَصُبْحًا مُنِيرًا تَحْتَ جُنْحِ ظِلَامٍ^(٣)
ولا زالت علامات جملها:

نَحِيفُ خَصْرِ، كَثِيبُ رِذْفٍ ظَامِي الْحِشَا مُقْعَمٌ^(٤) الْمَعَاصِمِ^(٥)
ان الاوصاف البدوية للمرأة لا زالت كما هي على الرغم من تأثر الحياة الاجتماعية العربية بالامم الأخرى المتحضرة كالفرس والترك منذ زمن بعيد، ولكن هذا التأثير لم يظهر في شعر الشعراء المقلدين، فاكتمى بعض الشعراء بالإشارة الى ان محبوبه تركي:
جَدُّ بِقَلْبِي وَمَزَحَ ظَبْيِي مِنَ التُّرْكِ سَنَحٌ^(٦)
تماما كما فعل ابن الرومي قبله بثلاثة قرون حين قال:

فَتَاةٌ مِنَ الْأَتْرَاكِ تَرْمِي بِأَسْهُمٍ يُصِبْنَ الْحِشَا فِي السَّلْمِ لَا فِي الْمَعَارِكِ^(٧)
ان شعر الغزل في نهاية العصر العباسي، لم يزل كما كان في بداية هذا العصر منذ ستة قرون: يدور معظمه حول جسم المرأة وملاحظها الخارجية: العيون نجلاء تشبه نظراتها بالسهم، والقوام يثنى مشبها بالرمح او غصن البان، والحدود أسيلة كأن حرمتها اخذت من دماء العشاق، والفم رصابت كالخمر تسكر الباب الرجال.. اما جمال المرأة المعنوي: جمال الروح، وخفة الدم، وحلاوة الحديث، ورقة الاحاسيس، وفرط الحنم، واثار ذلك على مشاعر الرجل فقلما التفت اليها الشعراء.

اما صورة الرجل العاشق فلا زالت هي الأخرى دون تغيير انه يطلق لدموعه العنان في اثر الاحباب الطاعنين:

يَا مَنَزِلًا بِدَوَاعِي الْبَيْنِ مُتَهَبٌ وَمَا الْبَلِيَّةُ إِلَّا مِنْ دَوَاعِيهِ

(١) الخريدة ١/ ١٥٧.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٤٧.

(٣) ديوان الأبله و ٩٤.

(٤) مُقْعَم: ممتلئ.

(٥) ديوان الأبله و ٩٠، وأنظر ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٩.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٩.

(٧) ابن الرومي (حياته من شعره) ص ٣٥٨.

وَقَفْتُ اشكو اشتياقي والسَّحابُ به فأنهَلْ دَمْعِي وما انهَلَتْ غَوَالِيهِ
والنَّارُ من زَفَرَاتِي لا بوارقه والماءُ مِنْ عِبْرَاتِي لا غَوَادِيهِ
... الخ^(١).

وأبرز ما يتصف به العاشق: النحول والأرق وفقدان الصبر وضعف الجيلة:

عَنْ جُفُونِي النَّوْمُ مَنْ بَعْدَهُ؟ وإلى جِسْمِي الضَّنَا مَنْ قَرَبَهُ؟
وَصَلُّوا طَيْفًا إِذَا لَمْ تَصَلُّوا مُسْتَهَامًا قَدْ قَطَعْتُمْ سَبِيلَهُ
وَالِي أَنْ تُحْسِنُوا صُنْعًا بَنَّا قَدْ أَسَاءَ. الْحُبُّ فِينَا أَدَبُهُ^(٢)
وقال الحِصص يبيص:

عَجِزْتُ فَمَا لِي حِيلَةٌ فِي هَوَاكُمُ سِوَى أَنِّي أَزْدَادُ وَجَدًا مَعَ الصَّدْرِ
وَلَوْ أَنِّي جَاهَدْتُ نَفْسِي فِيكُمْ سَلَوْتُ، وَلَكِنْ لَا جِهَادَ عَلَى الْعَبْدِ^(٣)

ولا بد ان يتصف العاشق بالوفاء غير المحدود، على العكس من الحبيب فهو غادر خائن ابدا:

أَعِذْكُمْ مِنْ لَوْعَتِي وَشُجُونِي وَنَارِ أَسَى بَيْنِ الضُّلُوعِ دَفِينِ
وَبِرْجِ جَوَى، لَمْ يُبْقِ مِنِّي بَقِيَّةً سِوَى حَرَكَاتٍ تَارَةً وَسُكُونِ
سَهْرِنَا بَنَعْمَانٍ، وَغَمِّ بِيَابِلِ فِيا لَعِينٍ مَا وَقْتُ لَعِينِ
أَكَاذِبُ سَمْعِي عَنْ أَحَادِيثِ غَدْرِكُمْ وَأَعْرِفْهَا عَنْ صِحَّةِ يَقِينِ
أَلَا تُخْبِرُ عَنِّي قُلُوبًا أَبْيَّةً يَقُولُ لَهَا: كَمْ ذِي الْقَسَاوَةِ؟ لِيْنِي^(٤)

ولا بد من القول في ختام دراسة ظاهرة التقليد هذه: ان التزام الشعراء بالمقدمة الغزلية التقليدية، ومدى محافظتهم عليها او التخفف من رسومها وتقاليدها يعتمد على:

١ - الشاعر. ٢ - غرض القصيدة.

ان شاعرا كابن التعاويذي يبدو مولعا بالقديم مفتونا به، ولذلك نجده يبدأ حتى بعض قصائده الذاتية - التي لم تنظم للمدح - يبدؤها بالغزل التقليدي، كما فعل في قصيدته التي أولها:

(١) ديوان ابن المعلم، و ٢٠ (نسخة التحف).

(٣) الخزينة ٢٤٢/١.

(٢) نفسه و ٤.

(٤) الخزينة ١٨٦/١.

أَتَرَى تَعُودُ لَنَا كَمَا سَلَفَتْ لَيَالِي الْأَبْرَقِينَ^(١)؟
وكذلك قصيدته التي أولها:
تَأْوِبُنِي فَأَرَقَنِي خَيَالُ سَرَى لِلْمَالِكِيَّةِ بَعْدَ وَهْنِ^(٢)

وهذه ظاهرة جديدة في الشعر العربي - على ما اظن - لأن الشعراء اعتادوا أن يتغزلوا في أوائل قصائد المديح مجبرين مضطرين، وهم يحاولون - حتى في شعر المدح هذا - أن يمزجوا بالغزل التقليدي مسرعين متعجلين. فما ظنك بمن يلتزم التقليد مختاراً، وربما مفتوناً؟ ولعل من الجديد أيضاً أن نجد الأبله البغدادي يجمع في مقدمات بعض قصائده بين الغزل بالمؤنث والمذكر، وهذا الأخير هو الساقى في العادة، كقوله في قصيدته التي أولها:
على دارِ سَلَمَى بالعَقِيقِ سَلَامِي سَفَاها مُلِثُ^(٣) مِثْلُ دَمْعِي هَامِي^(٤)
وكذلك قصيدته التي مطلعها:

أَطْلَاهُم بِلَوَى^(٥) الْعَقِيقِ فَحَاجِرٍ لَاعَقُ نُوَيَّ^(٦) حِمَاكِ نَوْءُ^(٧) حَاجِرِي^(٨)

وفي هذه القصيدة الثانية نجد الشاعر - بعد ثمانية أبيات يتغزل فيها بالمؤنث - يتنقل فجأة في البيت التاسع إلى الغزل بالمذكر قائلا:

وَمُعَذِّرُ^(٩) حُلُو الشَّمَائِلِ وَاللَّمَى^(١٠) كَمْ لِي عَلَى حُبِّي لَهُ مِنْ عَازِرٍ
لَمْ أَنْسَهُ إِذْ زَارَنِي مُتَلَثِّمًا تَحْتَ الظَّلَامِ عَلَى صَبَاحِ سَافِرٍ
بِمَنَاطِقِ^(١١) نَظْفٍ وَجِجَلٍ صَامِتٍ وَمُؤَزَّرِ عَبْلٍ^(١٢) وَكَشْحٍ^(١٣) ضَامِرٍ
يَرْنُو بِمَطْرِفٍ ذِي سَقَامٍ سَاحِرٍ فِي رَقْدَةٍ عَنْ طَرَفٍ صَبَّ سَاهِرٍ
وَهَزُّ أَعْدَلٍ قَامَةٍ فِيهَا - إِذَا لَعِبَتْ بِهَا الْخِيَلَاءُ - سِيرَةَ جَائِرٍ

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٣٥.

(٢) نفسه ص ٤٣٩، والوهن: نحو منتصف الليل أو بعده بساعة.

(٣) أُلِثْتُ: المطر الذي يدم أياً ما.

(٤) اللوى: ما انعطف واستدق من الرمل، وهنا أراد بها مكاناً بعينه.

(٥) النوى: حفرة تحفر حول الخيمة لوقايتها من المطر والسيول.

(٦) النَّؤُ: المطر، وأراد بها هنا الدمع.

(٧) أَلْعَذَرُ: أي ذو العذار وهو جانب اللحية.

(٨) الحاجر: أراد بها العيون.

(٩) اللَمَى: سمة تكون في الشفة.

(١٠) المَنَاطِقُ: واحدها منطقة وهي ما يشد على وسط الانسان.

(١١) عَبْلٍ: ممتلئ.

(١٢) الكشح: ما بين السرة ووسط الظهر.

عَاطِيَتُهُ صَفْرَاءُ مَا حَلَّتْ حَشَاً فَرَأَتْ لَجِيْشَ هُمُوهِ مِنْ صَافِرٍ^(١)
 بَرَزَتْ بُرُوزَ الشَّمْسِ بَيْنَ شَمَامِسٍ^(٢) سَجَدُوا لَهَا إِذْ أُخْرِجَتْ مِنْ كَافِرٍ^(٣)
 .. الخ^(٤).

ان المقدمة التقليدية يغلب ان تلتزم بدقة في مدائح الخلفاء ، ثم يعتمد مدى الالتزام بها في المدائح الأخرى على مدى العلاقة بين الشاعر والمدح، فكلما توطدت هذه العلاقة، صرنا نجد الشاعر يخلع اللباس الرسمي في المدح، ويختار المقدمة التي تعجبه، ولذلك وجدت بعض المقدمات التي تكاد صلتها بالقديم تنقطع، كقول ابن افلح يمدح عم العماد الكاتب:

هَاتِيكَ دَجْلَةً رَدُّ، وَهَذَا النِّيلُ مَا بَعْدَ ذَيْنِ لِحَائِمٍ تَنْوِيلُ
 إِنْ كَانَ يَرُدُّ الْمَاءِ عِنْدَكَ نَافِعًا حَرًّا الْجَوَى^(٥)، لَا الْأَشْنَبُ^(٦) الْمَعْسُولُ^(٧)
 عَجَبًا لِشَانِكَ تَدْعِي ظَمًا، وَفِي جَفْنِيكَ مِنْ سَيْلِ الْجَفُونِ^(٨) سَيْوُلُ
 وَتَنْحُ مِنْ لَفْحِ الْهَجِيرِ^(٩) وَخَرِّهِ وَحَشَاكَ فِيهِ لَوْعَةٌ وَغَلِيلُ^(١٠)
 مَا هَذِهِ آيَاتُ مَنْ عَرَفَ الْهُوَى وَشَجَاهُ رَقْرَاقُ الْحَيَاءِ أَسِيلُ^(١١)
 لَا تَكْذِبْنَ، فَمَا هَذَا عِنْدَنَا أَهْلَ الصَّبَايَةِ - يُعْرِفُ الْمُتَبُولُ^(١٢)
 .. الخ^(١٣) وكذلك قصيدة البارع التي أولها:

ذَكَرَ الْأَحْبَابَ وَالْوَطَنَا وَالصَّبِي وَالْأَلْفَ وَالسُّكْنَا^(١٤)

٢ - قلة التجديد:

يكاد الدارسون يجمعون على ان الشعر العربي دخل منذ القرن الرابع في مرحلة الجمود والركود، اذ قلما وجد ابتكار او تجديد يمكن ان يشار اليه، وظل الشعراء عيالا على اسلافهم: يرددون افكارهم ويكررون صورهم. ويرى القاضي الجرجاني: ان المتنبى ومعاصريه معذرون اذا قصروا عن اسلافهم، لان احدهم يقف محصورا بين لفظ

(١) الصافر: الواحد.

(٢) الشمامس: واحدها شَمَامِس: وهو دون القيس.

(٣) الكافر: أراد به وعاء الخمر لانه يخفيها

(٥) الجوى: شدة الوجد.

(٧) المعسول: الخلو.

(٦) الأشنب: ذو الأسنان البيضاء الحسنة.

(٨) الجفون: واحدها جفن: قراب السيف وهو هنا السيف نفسه.

(١٠) الغليل: العطش الشديد.

(٩) الهجير: شدة الحر.

(١٢) المتبول: الذي أذهب الحب عقله.

(١١) الأسيل: الخلد العويل في امتلاء.

(١٤) الخريدة / نسخة ايران ٢٣٥.

(١٣) الخريدة ٢ / ٥٥.

قد ضيق مجاله، وحذف أكثره، وقل عدده، وحظر معظمه ومعان قد اخذ عفوها وسبق الى جيدها^(١). . . ويؤكد صاحب العمدة هذا الرأي، مشيراً الى ان الشاعر كلما تأخر زمنه، صار امله في التجديد والابداع ضئيلاً، لان اسلافه لم يتركوا من الالفاظ والمعاني الا ما لا خير فيه^(٢).

وقال الدكتور شوقي ضيف: ان الناقد لا يحس ازاء شعراء القرن الرابع وما بعده من قرون بالا عجاب الذي كان يحسه ازاء اسلافهم من شعراء القرنين الثاني والثالث، فقد شمل الحياة الفنية غير قليل من الركود والجمود، فالماء ساكن وليس عليه امواج ولا رياح، وكأني بالحضارة العربية قد ضلت طريقها، فوقفت عند تقليد الاوضاع القديمة، وقلما ظهر جديد في الشعر والفن، الا هذا التلفيق الواسع للماضي وافكاره وصوره^(٣). . .

وبعد اراء الخبراء هذه: ايصح ان يبحث عن «تجديد» في القرن السادس؟ ان التجديد الذي اريده، وسأحاول ان اجمع الشواهد عليه، هو تجديد نسبي، حملتي عليه ظروف العصر، وواقع الأدب والشعر فيه. ان التجديد الذي ادرسه، وانوع به، واصطاد له الشواهد من بين اكداس الشعر، كان من حقه ان يهمل، ولا يلتفت اليه - لو كان العصر الذي ادرسه غير القرن السادس -

أ - من ناحية المعنى أو المضمون:

يقول ابن خلكان: ان بيت عيسى^(٤) بن بهرام المعروف بالحاجري المتوفى سنة ٦٣٢

هـ:

وَيَلَاءُ مِنْ بَرْدِ رُضَابٍ لَهُ أَشْكُو إِلَى الْعُدَالِ مِنْهُ الْحَرِيقُ

وكذلك بيت النفيس القطرسي^(٥):

أَحْرَقْتَ يَا ثَغَرَ الْحَبِيرِ (م) سَبَّ حَشَائِي لَمَّا دُقْتُ بِرَدْدُكُ^(٦)

الاصل فيهما بيت ابن التعاويذي:

يُذْكَى الْجَوَى بَارِدٌ مِنْ ثَغَرِهِ شَبَبٌ^(٧) وَيَوْقُظُ الْوَجَدَ طَرْفٌ مِنْهُ وَسَنَانُ^(٨)

(١) الوساطة ص ٥٢.

(٢) العمدة ١/ ١١٣.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٠١.

(٤) وفيات الأعيان ٣/ ١٦٩.

(٥) هو أبو العباس أحمد بن أبي القاسم عبد الغني. . . اللخمي المالكي، من أهل مصر نسب الى جده قطرس: كان من

الأدباء وله ديوان شعر أجاد فيه توفي سنة ٦٠٣ بمدينة قرص وقد ناهز السبعين. وفيات الأعيان ١/ ١٤٨.

(٦) وفيات الأعيان ١/ ١٤٨.

(٧) الشبم: البارد.

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٤١٣، وفيات الأعيان ٥/ ٢٩.

كذلك رد صاحب الوفيات على ضياء الدين ابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ: بان قوله في احدى رسائله الى الخليفة ببغداد: . . ودولته هي الضاحكة وان كان نسبها الى العباس، فهي خير دولة اخرجت للزمن، كما ان رعاياها خير امة اخرجت للناس، ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بانها لا تهرم. . . هذا المعنى (السواد خير من البياض لانه لون الشباب، والربط بينه وبين شعار العباسيين) ليس من اختراع ابن الاثير كما يدعي، بل سبقه اليه ابن التعاويذي من قصيدته في مدح الناصر لدين الله:

يا نَهَارَ الْمَشِيبِ مَنْ لِي - وَهِيهَا (م) ت - بَلِيلِ الشَّيْبَةِ الذَّمَّاسِ (١)؟
حَالِ بِنِي وَبَيْنَ لَهْوِي وَأَطْرَا (م) بِي ذَهْرُ أَحَالٍ صَبْغَةً رَاسِي
وَرَأَى الْغَانِيَاتُ شَيْبِي، فَأَعْرَضَ (م) نَ، وَقُلْنَ: السَّوَادُ خَيْرُ لِبَاسِ
كَيْفَ لَا يَفْضُلُ السَّوَادُ وَقَدْ اضْ (م) حَى شِعَاراً عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ (٢)

. . . ويضيف ابن خلكان: ولا شك ان ضياء الدين زاد على هذا المعنى، لكن ابن التعاويذي هو الذي فتح الباب، وأوضح السبيل، فسهل على ضياء الدين سلوكه (٣):

وقال العماد الاصفهاني: ان قول ابن حَكِيمَا في مدح عور عين الحبيب:

يَا لَائِمِي، وَالْمَلُومُ مَتَّهُمْ حَسْبُكَ مَا قُلْتَ فِيهِ مِنْ عَوَرٍ
يَسْرِشُ عَنْ فَرْدٍ مُقَلَّةٍ، وَلَهُ أَلْفُ جَرِيحٍ مِنْهَا عَلَى خَطَرٍ
لَمْ كَيْفَ شِئْتُ، لَسْتُ تَارِكُهُ الْآنَ صَحَّ التَّشْبِيهُ بِالْقَمَرِ (٤)

عما لم يسبق اليه .

وعلى الرغم من «ان العبرة في الفن بجمال الاخراج وجمال الاوضاع والهيئات لا بالابداع المطلق» (٥) . . «أقول بالرغم من رأي الدكتور شوقي ضيف هذا، فان اختراع ثلاثة معان في قرن كالقرن السادس، يعد شيئا كالمعجزة، اذا تذكرنا ان شاعرا كأبي تمام، مشهود له بالعبقريّة والزعامّة، لم يثبت له بعض النقاد سوى ثلاثة معان مبتكرة» (٦).

(١) الذَّمَّاسُ: أراد بها هنا سواد اللون، ومن معانيها الحفرة المظلمة.

(٢) الديوان ص ٢٣٧، وفيات الأعيان ٣٠/٥.

(٣) وفيات الأعيان ٣٠/٥.

(٤) الخريدة ٢/٢٣٣.

(٥) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٢٩٦.

(٦) تاريخ النقد الأدبي ص ١٦٩.

اما بقية معاني الغزل فقد التقطها الشعراء من البيئة المحيطة بهم: من السياسة ورجالها، او من الحرب وما تحدثه من دمار وخراب، كذلك استغل الشعراء ثقافتهم الدينية واللغوية والتاريخية فاستطاعوا ان يتوصلوا الى معان بدت كالجديدة المبتكرة لما فيها من طرافة..

فمن السياسة اخذ ابن الفضل قوله:

يا مَنْ هَجَرْتَ وَلَا تُبَالِي هَلْ تَرْجِعُ دَوْلَةَ الْوِصَالِ^(١)؟
فقد تخيل الشاعر وجود دولة للوصال والغرام، تدير شؤون اهل الهوى، وان هذه الدولة يعترها ما يعترى الدول من ضعف وانحلال، ومن قوة وعظمة وجبروت.

ومن السياسة ايضا قول الآخر:

وَصَالِكٌ لِي مِثْلُ خُبْرِ الْوَزِيرِ يُوَصِّلُ يَوْمًا، وَيَعْتَصُ^(٢) شَهْرًا^(٣)
وقول الحظيري الوراق:

يا غَزَالًا فَاتَرَ النَّظَرَ يا شَبِيهَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
كَيْفَ يَخْفَى مَا أَكْتَمَهُ وَزَفِيرِي صَاحِبُ الْخَبْرِ^(٤)؟
وصاحب الخبر هو رئيس الاستخبارات باصطلاحات الوقت الحاضر. أما الحرب فمنها اخذ ابن قزَمي قوله:

جَارَ عَلَيَّ الْحَبُّ^(٥)، وَالْمِ^(٦) حَبُّ لَثِيمٍ الظَّفَرِ^(٦)
ان الحرب وحدها التي يوجد فيها ظافر لثيم، وآخر كريم، وقد تصور الشاعر ان الحب مثل الحرب فيه ظفر وفيه هزيمة، وهو خيال جميل طريف.
ومن الحرب ايضا قول ابن التعاويذي:

تَغْيِرُ لَوَاحِظُهُ فِي الْقُلُوبِ فَتَرْجِعُ بِالسَّبِي مِنْهُ ثِقَالًا^(٧)
وقوله:

فَبَيْنَ الْقَلْبِ وَالسَّلْوَانِ حَرْبٌ وَبَيْنَ الْجَفْنِ وَالْعَبْرَاتِ صُلْحٌ^(٨)

(٢) يعتاص: ينقطع ويتوقف.

(٤) الخريدة ٤ / ٤١.

(٦) الخريدة ٢ / ٣٣٧.

(٨) نفسه ص ١٠٢.

(١) الخريدة ٢ / ٢٧٤.

(٣) تلخيص مجمع الآداب ٥ ٥٧ ق ١.

(٥) يصح أن تكون بكسر الحاء أي المحبوب دون أن يتأثر المعنى.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٦٨.

اما الثقافة الدينية فتبدو من استفادة الشعراء من الاحكام الشرعية كقول اسير الهوى الهيتي المتوفى سنة ٥٤٦ هـ:

شَهُودُ صِدْقٍ غَرَامِي فِيكَ أَرْبَعَةٌ: الْوَجْدُ وَالدمْعُ وَالْإِسْقَامُ وَالسَّهَرُ^(١)
وقول الآخر:

يَا سَافِكاً ذَمِي الْحَرَامَ بِطَرْفِهِ أَوْ مَا تَخَافُ اللَّهَ يَوْمَ الْمَوْقِفِ؟
أَرَوَيْتَهُ عَنْ عَالِمٍ، أَوْجَدْتَهُ فِي مُسْنَدٍ، أَقْرَأْتَهُ فِي مُصْحَفٍ^(٢)؟
كذلك اخذ الشعراء بعض الفاظ القرآن الكريم - وهو غير الاقتباس - وطعموا بها غزلهم وزينوه، كقول ابن قزيمي:

مَنْ لِفُؤَادٍ نَارُهُ رَامِيَةً بِالشَّرَرِ^(٣)؟
وقال ابن التعاويذي:

نَجْلَاءُ^(٤) لَا النَّافِثَاتُ^(٥) تَبْلُغُ مَا يَبْلُغُهُ سِحْرُهَا وَلَا الْعُقَدُ^(٦)
ويبدو اثر العروض والصرف والنحو في قول جمال الدين ابي العباس احمد لبادرائي^(٧):

كَأَنِّي فَعَوَّلُنْ فِي الطُّوِيلِ، وَمُهِجَتِي بِكَفِّ الْأَسَى كَالنَّوْنِ بِالْكَفِّ^(٨) تَرَحُّفُ
وَمَا أَنَا مُعْتَلُّ الشَّلَاثِي، وَالضُّنَى مِنَ النُّحُوِّ تَصْرِيفُ بِهِ يَتَصَرَّفُ
وَقَدْ كُنْتُ تَأْسِيساً^(٩)، فَيَا لَيْتَ أَنِّي دَخِيلُ^(١٠)، إِذَا عُلَّتْ قَوَافٍ وَأَحْرَفُ
بَلَيْتُ سِوَى اسْمِي فِي هَوَاكُمُ كَزَائِدِ مَعَ اللَّفْظِ يَدُو، وَهُوَ فِي النَّعْتِ يُحْدَفُ^(١١)

(٢) نفسه ١٠٢/٧ ط. ماركليوت الثانية.

(١) معجم الأدباء ١١/ ١٥١.

(٣) الخريدة ٢/ ٣٣٧، وهو من الآية ٣٢ (المرسلات): إِنَّمَا تُرْمَى بِشَرِّهِ كَالْفَصْرِ.

(٥) النافثات: الساحرات.

(٤) نجلاء: واسعة.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ١٥٢، وهو من الآية ٤ (القلق): وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ. والعقد في الآية الكريمة تعني ما

يقوله الساحرات عند قيامهن بالسكر.

(٧) البادرائي: نسبة الى بادزاي، وتعرف اليوم بدائرة في محافظة واسط.

(٨) الكف: حذف السابغ الساكن في العروض. فن التقطيع الشعري والقافية ص ٢٠٧.

(٩)، (١٠) التأسيس: ألف ملتزمة تقع في لفظة واحدة مع الروي ويفصلهما حرف يعرف بالدخيل لا يلتزم ولكن حركته

تلتزم. فن التقطيع الشعري ص ٢٤٦.

(١١) الخريدة ٤/ ١٧٥.

ان فعولن والطويل والكف والتأسيس والدخيل من الفاظ العروضيين، والثلاثي المعتل من الفاظ الصرفيين، والزائد الذي يحذف في النعت من الفاظ النحاة.

اما الثقافة التاريخية فمنها قول الابله:

يَقْرَأُ الْمُتِمُّ مِنْ صَحِيفَةٍ خَدَهُ فِي الْهَجْرِ مِثْلَ صَحِيفَةِ^(١) الْمُتَلَمِّسِ^(٢)

وقول ابن المُعَلِّم الواسطي:

وَاحَرَ قَلْبِ الْمُبْتَلَى لِمَنْجِدٍ وَمُنْتَهَمٍ

يَبْكِي لِغَيْرِ مَالِكٍ^(٣) بِمُقْلَتِي مُتَمِّمٍ^(٤)

ب - من ناحية اللفظ أو الشكل:

ان الدوبيت او الرباعية هي الشكل الجديد الوحيد الذي - يمكن ان يعد ابن القرن السادس، لانه شاع وذاع في هذا القرن، بعد ان اخذه العراقيون عن الفرس، ومن العراق انتشر الى الاقطار العربية الاخرى^(٥).

ويلاحظ ان معظم دوبيت القرن السادس في الغزل، كما ان معظم ناظميه ليسوا من الشعراء المحترفين الكبار، فقد خلت منه دواوين اشهر شعراء الفترة كابن التعاويذي، والابله، وابن المعلم، والحيص بيص، على حين اولع به الاغنياء المترفون، الذين ينظمون الشعر على سبيل الهواية، وقضاء أوقات الفراغ: ومن هؤلاء ورير المسترشد بالله الحسن بن علي بن صَدَقَةَ المتوفي سنة ٥٢٢ هـ^(٦)، وسديد الدولة ابن الأنباري منشئ دار الخلافة المتوفي سنة ٥٥٨ هـ^(٧) وأبو المحاسن البوشنجي، وقد استوزر أيام المستظهر بالله^(٨)، وأبو الفرج ابن الجوزي الواعظ الحنبلي المشهور المتوفي سنة ٥٩٧ هـ^(٩).

ان الدوبيت لانتمائه الى الفرس من ناحية، وكونه يتيح للشاعر حرية في تنويع قوافيه وتبديلها من ناحية اخرى - وهو امر غير مقبول في القصيدة التقليدية - لذلك لا استبعد ان

(١) الْمُتَلَمِّسُ هو خال طرفة بن العبد، واسمه جرير بن عبد المسيح، ويراد بصحيفته الكتاب الذي كتبه له الملك عمرو بن هند، وفيه أمر بقتل الشاعر. والقصة مشهورة وفيات الاعيان ١٤٢/٥.

(٢) ديوان الأبله و ٦١، وفيات الاعيان ١٤٣/٥.

(٣) هو مالك بن نُؤَيْرَةَ، ورثاء إخوة مُتَمِّمٍ له مشهور معروف. فوات الوفيات ٢٩٥/٢.

(٤) ديوان ابن المعلم و ٢٥ (نسخة النجف).

(٥) أنظر مقدمة ديوان الدوبيت في الشعر العربي، ص ٣٠-٩٥.

(٦) الخريدة ١/٩٦، ديوان الدوبيت ص ١٥٤.

(٧) الخريدة ١/١٤٢، الدوبيت ص ١٦٩.

(٨) الخريدة ٢/٢٥٨، ديوان الدوبيت ص ١٧٣.

(٩) ديوان الدوبيت ص ١٨٩.

يكون شيوعه مقصورا على اولئك الذين لهم صلة بالفرس وأدابهم بطريقة من الطرق. وكذلك صغار الشعراء الذين يتلقفون كل بدعة ادبية ويروجون لها، لانها تلائم قابليتها المتواضعة التي تعجز عن مجاراة كبار الشعراء في الميدان التقليدي^(١).

ومن هنا لم يكتب للدوبيت في القرن السادس ان يكون ظاهرة ادبية متميزة بارزة بين فنون الشعر العراقي، بل ظل مقصورا على مجالس خاصة.

وقد يكون لانحسار النفوذ الاجنبي، وعودة السلطة الى ايدي الخلفاء بعد سنة ٥٤٧ هـ اثر في تقلص ظل الدوبيت وانكماشه.

ومن نماذج الدوبيت قول سديد الدولة:

يا رَيْحُ تَحْمَلِي مِنَ الْمُهْجُورِ شَكْوَاهُ إِلَى الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ
قُولِي لِلْعَدْبِيِّ، شَبِيهِ الْحُورِ مَا أَنْتَ عَنِ الْجَوَابِ بِالْمَعْذُورِ^(٢)

وقول ابي الحسين احمد بن المبارك ابن الخَلِّ المتوفى سنة ٥٥١ هـ أو ٥٥٣ هـ:

هَذَا وَلَهْيَ، وَكَمْ كَتَمْتُ الْوَلَهَا صَوْنًا لِدَادٍ مَنْ هَوَى النَّفْسَ لَهَا
يَا آخَرَ مَحْنَتِي وَيَا أَوْلَهَا آيَاتُ غَرَامِي فِيكَ مَنْ أَوْلَهَا^(٣)؟

بعد الدوبيت عاد شعراء القرن السادس الى النماذج اللفظية الموروثة يقلبونها ذات اليمين، وذات الشمال، عليهم يعثرون على لفظ أو تعبير أو صيغة، لم يستهلكها القدماء. وبعد تفتيش ودأب ومحاولات هنا وهناك، التفت القوم الى الشعر المغني. رأوا الاسلاف قد بذلوا كل ما في وسعهم لتوفير الالفاظ المناسبة له، ثم اختاروا له البحور القصار، والمجزوءات، ثم عمدوا الى التفعيلات ذاتها فاكثروا فيها من الزحافات، والجوازات، والضرورات الشعرية^(٤).

فماذا بقي لشعراء القرن السادس؟

يبدو انهم فعلوا في الالفاظ الموروثة ما فعلوه في المعاني الموروثة: لقد وجدوا مجموعة من المبالغات عند اسلافهم، فاستغلوها، و اضافوا اليها، واكثروا منها، حتى افسدوا المعاني افسادا لاصلاح بعده^(٥).

(١) ديوان الدوبيت ص ٧٢-٧٣، ص ١٠٧.

(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٣٦٣.

(٣) نفسه ص ١٦٩.

(٤) تنظر المآخذ على شعر المدح من هذه الرسالة.

(٥) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٧٤ وما بعدها.

وهذا بعينه ما حدث في الجانب اللفظي من الغزل: فقد بالغ الشعراء وافرطوا، وتجاوزوا جميع الحدود من أجل العثور على غزل، تكون الفاظه مما لم يستعمله الشعراء السابقون. ولا يضير - بعد هذه النتيجة - ان كان هذا الشعر «الجديد» ذا قيمة فنية تساوي ما بذل من أجله ام انه جديد، لا يمت الى الموروث العربي بصلة. تأمل - مثلاً - هذه المقطوعة لابن القطان البغدادي، والتي اشار العماد الكاتب الى انها من الشعر المغنى:

يا مَنْ هَجَرْتُ ولا تُبالي	هل ترجعُ دولةَ الوِصالِ؟
ما أطمعُ يا عذابَ قلبي	أَنْ يَنعَمَ في هواكِ بالي
الطرف، كما عهدتِ، بالكِ	والجسمُ، كماترين، بالِ
ما ضُرِّكُ أَنْ تُعلِّليني	في المَوْصلِ بموعِدِ مُحالِ؟
أهواكِ وَأَنْتِ حَظُّ غيري	- يا قاتلتني - فما احتيالي؟
أَيَّامُ عَنائي فيكِ سَوْدُ	ما أشبههُنَّ بالليالي
والعُذْلُ فيكِ قد تهَوّني	عَنْ حَبِّكِ، ما لَهْمُ؟ ومالي؟
... الخ ^(١) .	

ان البحث عن وزن هذه المقطوعة بين بحور الخليل، جهد ضائع: فهي ليست من العروض العربي، كما انها لا تشبه الدوبيت المكون من اربعة مقاطع عادة، فماذا صنع الشاعر حتى توصل الى هذا الوزن الغريب؟ لقد بالغ وغالى في اخضاع الوزن للموسيقى، فظل يسقط من الالفاظ الجزء تلو الجزء، والحرف بعد الحرف، حتى استحال الوزن العربي الى هذا الوزن الجديد، وبذلك اطمأن الشاعر، وايقن انه جاء بما لم يستطعه السابقون، وترك علماء العروض يضربون اخماسا باسداس: فمن قائل ان هذه المقطوعة من البحر الوافر، الا ان العقص وهو اجتماع الحُرْم^(٢) والعَصْب^(٣) - دخل عليه، فتحوّل (مفاعيلُن) الى (مفعول - بتحريك اللام)^(٤)، وقال آخرون: بل الصواب ان هذه المقطوعة من مجزوء الدوبيت، ما دامت لا تشبه الدوبيت الاصيلي ذا المقاطع الاربعة^(٥).

والمهم ان محاولة ابن القُطان، ظلت وحيدة، تدل على ان الشاعر سار بعيدا عن التجديد الذي ترتضيه الاذن العربية، حتى جاء البهاء زهير المتوفي سنة ٦٥٦ هـ^(٦)،

(١) الخريدة ٢ / ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٢) الحزم: حذف أول الوند المجموع من أول البيت في مطلع القصيدة. فن التقطيع الشعري والقافية ص ٥٢.

(٣) العصب: تسكين الخامس المتحرك وهو خاص بالبحر الوافر. فن التقطيع ص ٢٠٨.

(٤) الخريدة ٢ / ٢٧٣ - الهامش ٤ (٥) ديوان الدوبيت ص ٦٨ - ٧٢.

(٦) هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي... المَهْلِي، الكاتب: من فضلاء عصره، واحسنهم نظماً ونثراً وخطاً.

وفيات الأعيان ٢ / ٨١، البداية والنهاية ١٣ / ٢١١، ٢١٢، النجوم الزاهرة ٧ / ٦٢، ٦٣، شذرات الذهب ٥ / ٢٧٦، =

فجاري ابن القطان، وباراه في مقطوعة، كتب لها الذبوع والانتشار منها:

يا مَنْ لعبتْ به شَمُولٌ ^(١)	ما الطفَّ هذه الشمائل!
نشوان يَهْزُهُ دلالٌ	كالغُصْنِ مع النَّسيمِ مائلٌ
لا يُمكنهُ الكلامُ لكنْ	قد حَمَلَ طرفُهُ رسائلٌ
ما أطيب وقتَنَا وأهنا	والعاذِلُ غائبٌ وغافلٌ
... الخ ^(٢) .	

٤ - الرثاء:

من الظواهر الأدبية التي تستوقف الباحث في شعر القرن السادس ظاهرتان: الأولى قلة المراثي قلة غير معهودة قياسا الى كثرة المدائح والممدوحين. والثانية ان هذه المراثي القليلة ليست جيدة - بصورة عامة - حتى يمكن ان تشفع لهذا الفقر الواضح في فن الرثاء. لقد عودنا الشعراء ان يخلدوا في مراثيهم رجال الامة العظام ونابغيها في شتى مجالات الحياة الا شعراء القرن السادس، فان الباحث يجد الهوة واسعة بين احداث العصر الكبيرة - كما سجلها التاريخ - وبين قصائد الرثاء.

ان الشعراء يندر ان يكونوا رجلا عظيما خسر هذا العالم، وحتى الرثاء الذي وصلنا في بعض الرجال المشهورين، جاء باردا هزيلا، شاحب العاطفة، كأن الشاعر يريد ان يتخلص من هذه المهمة الثقيلة بأي شعر. فالمهم ان يقول شيئا، وان يسود صفحة أو صفحتين، ثم يتنفس الصعداء.

ولعل الغريب حقا ان نجد الشعراء وقد امسكوا عن رثاء بعض من يستحق الرثاء من قادة العصر وزعمائه، كما اخفقوا في رثاء معظم الذين رثوهم من هؤلاء الزعماء، اقول من الغريب ان يتجه بعض هؤلاء الشعراء انفسهم الى رثاء من لا يستحق الرثاء، من الذين ثلهم المؤرخون، وغمزوا سيرتهم كالوزير السميمري^(٣) مثلا^(٤).

وفي مقدمة اسباب قلة المراثي سبيان: الأول فقدان قسم كبير من شعر القرن السادس - كما سبق ان اشرت^(٥) - ولا بد ان يكون بين هذا الشعر المفقود بعض قصائد

= ٢٧٧، الاعلام ٨٨/٣، معجم المؤلفين ٤ ك ١٨٧.

(١) الشمول: الحمر.

(٢) ديوان الدوييت ص ٢٤٣.

(٣) الخريدة ٢٤٥/٤.

(٣) انظر الفصل الأول ص ١٢ هامش ١.

(٥) انظر: مقدمة الفصل الثاني من هذه الرسالة.

الرثاء او اجزاء ومختارات من تلك المراثي . ويؤيد هذا الفرض ما يقوله ابن الجوزي^(١)، وابن رجب^(٢): من ان الوزير يحيى بن هبيرة قد رثى بمرث كثيرة ليس بين ايدينا منها سوى واحدة. كذلك اشار صاحب الجامع المختصر^(٣): الى ان السيدة والدة الناصر لدين الله قد رثيت بعدة قصائد، لم يصلنا منها سوى مرثية ابن التعاويذي^(٤).

واشار العماد الكاتب^(٥) الى ان دُيِّساً المدائني^(٦)، ثَقَّة الدولة ابن أدرَينِي^(٧) بقصيدة لم يستطع العماد ان يحصل الا على خمسة أبيات منها هي قوله:

قَدْ قُلْتُ لِلرَّجُلِ الْمَوْلَى غَسْلَهُ هَلَا اطَاعَ وَكُنْتُ مِنْ نُصْحَائِهِ
جَنَّبَهُ مَاءَكَ ثُمَّ غَسَّلَهُ بِمَا تَجَرَّبَهُ عَيْنُ الْمَجْدِ عِنْدَ بُكَائِهِ
وَأَزَلُّ أَفَاوِيهِ^(٨) الْخَنُوطُ^(٩) وَطِيْبُهُ عَنْهُ وَحَنَظُهُ بِطِيبِ ثَنَائِهِ
وَمُرِّ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ^(١٠) بِحَمْلِهِ أَوْ مَا نَرَاهُمْ وَقَفَاً بِأَزَائِهِ؟
لَا تَوْهٍ^(١١) اعْنَاقَ الرِّجَالِ بِحَمْلِهِ يَكْفِي الَّذِي فِيهِنَّ مِنْ نَعْمَائِهِ^(١٢)

وهذه الابيات تدل على اننا خسرنا قصيدة، افضل من كثير مما وصلنا.

والثاني: تحزب الشعراء لرجال السياسة: وهو عامل سبق ان اشرت الى اثره على شعر المدح^(١٣)، فليس من المعقول ان يمدح الابله البغدادي الوزير ابن هبيرة باكثر من خمس عشرة قصيدة^(١٤)، ثم يلتزم هذا الشاعر الصمت المطبق حين مات الوزير. وكذلك الامر بين ابن التعاويذي ومواليه من آل عضد الدين: فقد شغلت قصائده فيهم جل شعره كما يقول في مقدمة الديوان^(١٥)، فكيف يصح ان يخلو ديوان هذا الشاعر من رثاء اي^(١٦) من مواليه؟ ان من المعقول جدا أن يحذف الابله وابن التعاويذي من ديوانيهما أية قصيدة يشعران ان اثباتها سيغضب زيدا او عمرا من ولادة الامور.

(١) المنتظم ٢١٧/١٠.

(٢) ذيل طبقات الخنابلة ٢٨٦/١.

(٣) الجامع المختصر ٢٧٩/٩.

(٤) الديوان ص ٢٢٢.

(٥) من شعراء المدائن (منطقة قرية من بغداد) وكان ضريراً. الخريدة ١١٦/٤، نكت الهميان ص ١٥٠.

(٦) مرت ترجمته في الفصل الأول ص ٣٩ هامش ٣. (٨) الأفافويه: الطيب.

(٩) الخنوط: كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسادهم.

(١٠) الكرام الكاتبون: الملائكة.

(١٢) النعما: اليد البيضاء الصالحة.

(١٤) ديوان الأبله و ٢٥-٣٧، و ١٢-١٦.

(١٦) باستثناء زوجة عماد الدين. الديوان ص ٣٩٤.

(١٣) انظر: العوامل المؤثرة في المدح من هذه الرسالة.

(١٥) مقدمة ديوان ابن التعاويذي ص ١٣.

ضربا الرثاء:

لم يعرف شعراء القرن السادس من الرثاء سوى ضربين اثنين^(١) قصرهما فيها عن اسلافهم تقصيرا بينا وهما:

١ - رثاء الاهل والاقارب: ومنه رثاء ابن التعاويذي لابن ابنه^(٢)، ولاخيه^(٣)، وجلده^(٤) لأمه، ولابنة له صغيرة^(٥)، ورثاء الحيص بيص لآخيه^(٦)، ورثاء الامير احمد بن ابي الفتوح لابنه^(٧)، ورثاء عبد الرحيم بن الاخوة لابنه^(٨).

ويغلب على هذه المراثي جميعها - باستثناء واحدة او اثنتين - برود العاطفة ونضوب الافكار والابخلة، فلم يستطع الشعراء ان ينقلوا الينا حزنهم وألمهم، وكل الذي فعلوه ان وصفوا ما تركه الراحل من ضعف في قوة الشاعر، ونقص في انصاره وموازره - اذا كان المرثي كبيرا - وكذلك يصفون فقدان الشاعر لصبره وجلده وتوازنه من هول ما اصابه، كقول ابن التعاويذي في رثاء جده لأمه:

يا ساكنَ اللَّحْدِ الذي أفرَدني مِنْ لَاعِجِ الشُّوقِ بِمَثَلِ ما انْفَرَدَ
إِنْ كُنْتُ فِي ثَوْبِ العُلَى، فَاتَّيَ بَعْدَكَ فِي ثَوْبِ نُحُولٍ وَكَمَدَ
يا مُوَجِّشِ الارضِ عَلَيَّ فَقَدُهُ حَتَّى كَأَنَّ لَيْسَ عَلَى الارضِ أَحَدَ
أَوْحَدَتْنِي - وفي الرجالِ كَثْرَةُ - يا قَلَّةَ الجارِ وَقِلَّةَ العَدَدِ
كُنْتُ إِذَا جَارَ الزَّمَانُ غَضَدِي فَالْيَوْمَ لا جَارِحَةَ ولا عَضَدَ
... الخ^(٩).

ونبحث عن العاطفة في هذه الأبيات، فلا نعرثر عليها، انها الفاظ يابسة متخشبة، لا تدل على حزن، على الرغم من جودة الافكار، وكونها لا تختلف عما رده شعراء العرب الكبار في مراثيهم كالشريف الرضي والمتنبي. ولعل اراداً ما في هذه القصيدة تكرار لفظة «مالك» ثلاث مرات في خطاب الشيخ المتوفى:

(١) في الخريدة ٢/ ٢٢٣ خمسة أبيات لمحمد بن خيذر المتوفى سنة ٥١٧ يرثي نفسه.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٨.

(٣) نفسه ص ١٠٤.

(٤) نفسه ص ١٣٥.

(٥) الخريدة ١/ ٣٤١.

(٦) نفسه ٤/ ٥٥٤، ٥٥٩.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١٣٦.

(٨) الخريدة/ نسخة ايران ٢٠٢.

مَا لَكَ لَا تَرْقُ لِي مِنْ زَفَرَةٍ تَلِفْتُ أَثْنَاءَ الْفَوَادِ وَالْكَبِدِ؟
 مَا لَكَ لَا تَرَابٌ^(١) أَحْوَالِي وَلَا تُصْلِحُ أَرَاؤَكَ مِنْهَا مَا فَسَدُ؟
 مَا لَكَ لَا تَرْحُمَ ذُلَّ مَوْقِفِي وَكُنْتَ أَحْنَى وَالِدٍ عَلَى وَلَدُ؟

امارتاء الاطفال فيكون بوصف الفراغ والوحشة اللذين تركهما غياب الصغير في البيت، وفي قلب امه وابيه واهله، وبالرغم من النص على صعوبة رثاء الاطفال، لضيق الكلام وقلة الصفات^(٢)، فقد استطاع ابن التعاويذي ان يقول شيئا - وهو يرثي حفيده :

يَا بِأَبِي الْمُخْتَلَسُ^(٣) الْمُسْتَلَبُ عَنْ لَهُ سَهْمُ حِمَامٍ^(٤) غَرَبَ^(٥)
 وَأَنْتَزَعْتُهُ لِلْمَنَايَا يَدُ مُغْتَالَةً مِنْ حُجْرٍ أَمَ وَأَبُ
 أَفْدِيهِ مِنْ رِيحَانَةٍ غَضَّةٍ عَادَ هَشِيمًا عُوْدُهَا الْمُخْتَطَبُ
 يَاقُوتَةٍ أَذْهَبَ جَرِيًّا^(٦) لَهَا الـ مَوْتُ، فَعَادَتْ كَفْضِيبِ الذَّهَبِ
 كَأَنَّهُ الْوَرْدُ أَتَى زَائِرًا ثَمَ انْقَضَتْ أَيَّامُهُ عَنْ كَثْبِ
 أَشْرَقَ كَالنَّجْمِ مُضِيًّا، فَمَا مَلَأَتْ عَيْنِي مِنْهُ حَتَّى غَرَبَ
 ... الخ^(٧).

اما المراثية الثانية التي لا بد ان يشار اليها فهي مراثية الامير احمد بن ابي الفتوح لابنه، وقد بكى عليه حتى ذهبت عيناه^(٨)، قال :

لَبَسَ الْجَنُودُ جَدِيدَهُمْ فِي عِيدِهِمْ وَلَبَسْتُ حُزْنَ أَبِي^(٩) الْحُسَيْنِ جَدِيدًا
 وَوَدَدْتُ لَوْ حَضَرَ الْمُصَلَّى فِيهِمْ حَيًّا، وَكُنْتُ أَلَيْتَ الْمَلْحُودَا
 أَيْسَرُنِي عَيْدٌ، وَلَمْ أَرَ وَجْهَهُ فِيهِ؟ إِلَّا بُعْدًا لَذَلِكَ عِيدَا
 كَيْفَ الْمَسْرَّةُ لَأَمْرٍ فَقَدْ أَلْهَوَى وَحْثًا^(١٠) عَلَيْهِ جَنَادِلًا وَصَعِيدًا^(١١)؟
 أَفَحِينَ عَادَ اللَّيْثُ بِأَسَأَ يُتَقَى وَالبَدْرُ حُسْنًا وَالسَّحَابَةُ جُودَا

(١) لا تراب: لا تصلح.

(٢) العمدة ١٥٤/٢

(٣) الْمُخْتَلَسُ: الذي مات صغيرا.

(٤) الحِمَامُ: الموت.

(٥) سَهْمُ غَرَبَ: أي لا يدري رايه.

(٦) الجُرَيَالُ: أراد بها هنا البريق أو اللعان.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٨

(٨) أبو الحسين: كنية المراثي.

(٩) نكت المهيمان ص ١١٥

(١٠) حثا: هال عليه التراب.

(١١) الصعيد: التراب.

وتَقِيلُ ^(١) النجباء من آباءه وجدوده المتخيرين الصيدا ^(٢)
 وَرَجَا الصَّدِيقُ - كَمَا رَجَوْتُ - بَانَ يَرَى بَعْدِي بِهِ مَا سَاءَني مُسَدودَا
 وَتَحَدَّثَهُ رُكْنًا أَرَدُ بِهِ الْاِذَى عَنِي، وَرُكْنًا فِي الْخُطُوبِ شَدِيدَا
 ... الخ ^(٣).

٢ - رثاء الاباعد:

ومنه رثاء ابن التعاويذي لوالدة الناصر لدين الله ^(٤)، ورثاؤه لابن البخاري ^(٥)، ورثاء
 الحيص بيص لديس بن صدقة ^(٦)، ولبعض امراء الاكراد ^(٧)، ولابن الخليفة المسترشد ^(٨)،
 وللخليفة المقتفي لامر الله ^(٩)، ورثاء الابله البغدادي للمقتفي ايضا ^(١٠)، ورثاء نصر ^(١١)
 النُميري لابن هبيرة الوزير ^(١٢) ..

ان تلك المراثي جميعها خلو من العاطفة المخلصة والدموع الحار - الا النادر الشاذ - لان
 الشعراء نظموا بدافع المجاملة لاجل الميت من ناحية، ولان جميع هؤلاء المراثيين - باستثناء
 الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة - لم تؤثر عنهم اعمال باهرة كبيرة، تثير الشعراء وتحرك
 مشاعرهم وعواطفهم، من ناحية ثانية. ولذلك ملأ الشعراء هذه المراثي بالمبالغات وتهويل شأن
 الميت وما تركه ففقه من شروخ وصدوع في هذه الدنيا، كقول الحيص بيص يرثي الخليفة المقتفي
 لامر الله:

الْخَطْبُ أَكْبَرُ فِي النَفُوسِ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَرَأَى لَهُ الدَّمُوعُ أَوْ الدَّمُ
 وَلَوْ أَنَّ شَمْسَ الصَّبْحِ رَاقَبَتِ ^(١٣) الْعُلَى لَتَغَيَّبَتْ فَالْصَبْحُ دَاجٍ مُظْلَمُ
 وَلَكُورَتْ ^(١٤) حُزْنًا لَفَقَدَ خَلِيفَةً شَهِدَ السَّنَانُ بِيَأْسِهِ وَالْمُخَذَّمُ ^(١٥)

(١) تقيل: أشبه.

(٢) الصيد: واحدا أصيد، وهو الرجل الذي يرفع رأسه كبرا. (٣) الحريدة ٤/ ٥٥٤ - ٥٥٦

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٢٢

(٥) هو جلال الدين، حبة الله بن محمد بن البخاري، كان ينوب في الوزارة، وهو منصب من مستحدثات العصور العباسية

المتأخرة. ديوان ابن التعاويذي ص ٣٥٠، وانظر: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ١١٦

(٦) الحريدة ١/ ٣٣٦

(٧) نفسه ١/ ٣٤٢

(٨) نفسه ١/ ٣٤٤

(٩) نفسه ١/ ٣٤٨

(١٠) ديوان الابله و ٣ - ٤

(١١) هو أبو المُرُفَع نَصْر بن منصور. الصرير، الشاعر المشهور، قدم بغداد في صباه وسكنها إلى حين وفاته سنة ٥٨٨ هـ. معجم

الأدياء ١٩/ ٢٢٢، وفيات الأعيان ٥/ ١٩، نكت الهميان ص ٣٠٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٨

(١٢) المتنظم ١٠/ ٢١٧، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٦

(١٣) راقبت: تعني هنا خافت علي.

(١٤) كُورَتْ: اضمحلت وذابت.

(١٥) الحريدة ١/ ٣٤٨، المُخَذَّم: السيف.

وقوله - يرثي ولد المسترشد بالله :-

نَبَأَ عَادَ لَهُ الصَّبْحُ دُجَى^(١) وَدُعَافاً^(٢) رَيْقُ^(٣) الْمَاءِ الزَّلَالِ
جَلَّ أَنْ يُكَيِّ دُمُوعاً، فَجَرَتْ أَعْيُنُ الْحَيِّ بِمُحَمَّرٍ^(٤) مُذَالِ
وَأَنْشَنْتُ مِنْ حَزَنِ الدَّهْرِ بِهِ غُرُورُ^(٥) الْأَمَالِ سَوْدَا كَاللَّيَالِ
وَعَلَا عَنْ نُذْبَةٍ مِنْ بَشِيرٍ فَرثَاهُ الْمَجْدُ مَفْهُومَ الْمَقَالِ^(٦)

والخميص بيص - برغم كل ما ادعاه من جريان الدماء بدل الدموع، وصيرورة النهار ليلاً، والصبح دجى، وريق الماء سداً دُعا - أقول برغم هذا كله، فقد فضح الشاعر نفسه، ودل على حزن متكلف، والم لا دليل عليه سوى هذه المبالغات والتلفيقات.

ولما كان الغرض من هذه المراثي - في الغالب - هو الحصول على الجائزة من خلف المتوفى، أو من اهله وابنائهم، لذلك فقد شغل الشعراء أنفسهم في كيفية الجمع بين التعزية والتهنئة، خاصة وقد أخبرهم النقاد أن التبريز والاجادة في هذا الميدان، مما لا يتاح لكل شاعر^(٧).

وفعلاً قل بين شعراء القرن السادس من احسن الجمع بين التهنئة والتعزية، وكل الذي فعلوه هو ان قسموا القصيدة الواحدة الى قسمين: الاول منها للرثاء، والثاني فيه ما يدل على انه تهنئة. وبعض الشعراء لم يحسن التسوية بين هذين القسمين فجار احدهما على الآخر، وصارت القصيدة ليست من الرثاء ولا من التهنئة. تأمل قول الابله البغدادي يرثي الخليفة المقتفي لامر الله، ويهني الخليفة الجديد:

عَزَاءٌ، وَإِنْ أَضْحَى الْعَزَاءُ حَرَاماً مَضَى مِنْ حَمَى سِرْبِ^(٨) الْأَنَامِ وَحَامَى
قَضَى عَامَرُ الدُّنْيَا، وَغَامَرُ^(٩) أَهْلِهَا عَطَاءُ كَجَمَّاتِ^(١٠) السَّيُولِ جُمَامَا^(١١)
قَضَى قَائِدُ الْخَيْلِ الْعَتَاقِ سَوَاهِمَا^(١٢) تَخَالُ نَعَاماً، بَلْ تَظُنُّ نَعَامَا
قَضَى نَحْبَهُ مَنْ كَانَ بِالْعَدْلِ مُلْهِمَا وَبِالْجَيْشِ يُرْدَى الْمَارِقِينَ لَهَا^(١٣)

(١) الدجى: الليل المظلم.

(٢) الدُعاف: السم القاتل. السريع المفعول.

(٣) الرَيْقُ: أفضل كل شيء.

(٤) الْمُحَمَّرُ الْمَذَالُ: ربما أراد به الدم.

(٥) الْغُرُورُ: الواحدة غره. وهي أول كل شيء، ومعظمه.

(٦) الخريدة ٣٤٤/٨

(٨) السرب: جماعة الناس.

(٩) غامر: كثير العطاء.

(١٠) جَمَّاتُ السَّيُولِ: الأماكن التي تلتقي فيها.

(١١) جُمَامَا: كثير.

(١٢) سَوَاهِمُ: واحدها ساهمة: الضامرة.

(١٣) الْمَارِقِينَ: الخارجين على الخليفة.

قَضَى مَلِكُ زَمْ^(١) الزَّمَانُ بِرَأْيِهِ وَرَمْ^(٢) أُمُورًا كُنْ قَبْلَ رِمَامَا^(٣)
سَلَامٌ عَلَى ذَاكَ الضَّرِيحِ لَقَدْ حَوَى وَلَا فَاتَهُ جَوْدٌ^(٤) مِنْ الْمَزْنِ لَا يَبِي
لَكُنْ جَبَّتِ^(٥) الْأَيَّامُ غَارِبَ^(٦) مُلْكِهِ لَقَدْ عَوَّضْتَنَا غَارِبًا وَسَنَامَا
فَقَدْنَا عَمَامًا عَوَّضَ اللَّهُ بَعْدَهُ وَزَادَ سَمَاءً ثَرَةً^(٧)، وَغَمَامَا
خَلِيفَةً حَقًّا، وَهُوَ خَيْرٌ مُخْلَفٍ تَقَاعَدَ بِالنَّاسِ الزَّمَانُ، فَقَامَا
وَأَوْسَعُهُمْ عَدْلًا وَبَذَلًا وَرَحْمَةً وَعِلْمًا وَحِلْمًا يَسْتَخِفُّ شَمَامَا^(٨)
... الخ^(٩)

وهكذا في قصيدة عدد ابائنا ثلاثة وعشرون بيتاً، نجد ستة أبيات في الرثاء، والبيت السابع بينَ بَيْنَ فهو تمهيد لترك الرثاء وافتتاح التهنة، ثم بقية القصيدة لمدح وتهنة الخليفة الجديد.

واسلوب الابله هذا في الجمع بين التعزية والتهنة، بافتتاح القصيدة بالرثاء ثم - بعد ابیات - ينتقل الى التهنة، هو الشائع بين شعراء العصر في هذا الضرب من القصائد^(١٠).
وهناك اسلوب آخر هو ان تفتح القصيدة بالجمع بين الرثاء والتهنة منذ المطلع، كقول الحيص في مرثية الامير عترة^(١١) بن ابي العسكر والثناء على اخيه مهلهل:

أَسَى وَسُرُورٌ نَاصِرٌ وَغُذُلٌ أَنَا حَهُمَا لِي عَنَتَرٌ وَالْمَهْلَهْلُ
فَمَاضٍ بَكَتْ عَيْنِي لِفَقْدِ كَمَالِهِ وَبَاقٍ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَجْدِ أَجْزَلُ
... الخ^(١٢)، وقوله:

-
- (١) زم: من الزمان اي قاد.
(٢) رم: بالية.
(٣) رمام: رماء.
(٤) الجود: المطر الغزير.
(٥) الجب: قطعت.
(٦) سجام: مصوب.
(٧) جبت: قطعت.
(٨) غارب: أعلى الشيء.
(٩) ثرة: كثيرة العطاء.
(١٠) شمام: اسم جبل لباهلة (معجم البلدان ٥/ ٩٢٢ و ١١ ديوان الابله و ٣).
(١١) أنظر الحريدة ١/ ٣٣٨، ٣٤٤

(١٢) هو الامير فخر الدين، من اكراد الحلة الجوانيين، كان من قواد العسكر في اماره الحلة المزيديية. قتل سنة ٥٣٢ هـ. وبعد مقتله تولى اخوه مهلهل الحلة للسلطان مسعود. تاريخ ابن الاثير ١/ ٢٥، اخبار الدولة السلجوقية ص ١١٠، تلخيص مجمع الاداب ج ٤ ق ٣ ص ٢٧٢.
(١٣) الحريدة ٣/ ٣٤٣

اما اذا سَلِمَ الإمام الأعظم وَسَلِيلُهُ^(١)، دَقَّ^(٢) الجليلُ المُعَظَّمُ
عَزَّ العَزاءُ، وهانَ حينَ بَقِيَّتْما فالمجدُ باكِ طَرْفُهُ مُتَبَسِّمُ
وَبَقَاءُ شَمْسِ الصَّبْحِ يُحْدِثُ سَلَوَةً فينا اذا بَدَرُ هَوَى او اَنْجُمُ
... الخ^(٣).

وعندي ان الجمع بين العزاء والتهنئة، يدل على زيف حزن الشاعر، وادعائه الالم ادعاء دون ان يكتوي بناره، ويذوق غصصه، لان المفروض بالحزين الذي سد عليه الالم وهول المصاب جهاته، وحال بينه وبين اي شعور آخر، ان ينسى هذا العالم وما فيه من مادة ومال. اما التفكير بالميت والحَي، بالمصيبة، ومقدار الجائزة، في وقت واحد، وفي قصيدة واحدة، فأمر لا يمت الى دنيا العواطف والفن بصلة، خاصة اذا اخذنا مستوى شعراء العصر - بصورة عامة - بعين الاعتبار. فقول الحِصص بيص - مثلاً - (المجد باكِ طرفه متبسم) امر يكذبه الواقع، لان البكاء عاطفة تختلف عن الابتسام والجمع بينهما يعني الكذب والافتعال والادعاء لا محالة، وان كنت اميل الى ان معظم قصائد الرثاء - التي جمع فيها بين التهنئة والتعزية - هي اقرب الى مدح الخليفة، او الشخص الذي خلف المتوفى، منها الى رثاء الميت، لان الشاعر - في مثل هذا الشعر - يؤكد ويلح على ان الدنيا لم تخسر شيئاً بل انها كانت الفائزة الرابعة، والدليل هو ان فلانا الفلاني - الذي سيأخذ الشاعر منه الجائزة - لما يزل على قيد الحياة.

والرثاء - مثل المدح والهجاء - اختلف تبعاً لمقامات المرثين ومنزلتهم الاجتماعية، وهو امر كان معروفاً قبل القرن السادس، فالخليفة تبكيه الخيول المسومة، والعدل والكرم والدين^(٤)، والقادة الزعماء بكتهم الكتاب وسوح الحرب، ودماثة الخلق، وحسن تصريف الامور في الشدائد^(٥).

والنساء خسرت الدنيا بفقدن العفاف والصون، ومساعدة المحتاجين، وان جنان الخلد والخور العين سيكن باستقبالها^(٦).

والشاعر في جميع هذه المراثي، لا بد ان يتحدث عن فلسفة الموت والحياة، وقد يضرب الامثال بالامم والممالك التي بادت ودرست آثارها. كقول الحِصص بيص:

(١) سليله: ابنه.

(٢) دَقَّ: صغر.

(٣) الخريدة ١/ ٣٤٥

(٥) الخريدة ١/ ٣٤٢، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨

(٤) الخريدة ١/ ٣٤٨، ديوان الابله ٣

(٦) ديوان الابله ٤، ديوان ابن التعاويذي ص ٢٢٣، ٣٩٥

لَا يَرْكَنْ إِلَى الْحَيَاةِ مُتَمَتِّعٌ فَالْبُعْدُ دَانٍ، وَالْمَدَى مُتَصَرِّمٌ
ووراءَ آمالِ الرِّجَالِ مَنِيَّةٌ يَعدُو بِفَارِسِهَا حَثِيثٌ مِرْجَمٌ^(١)
وقوله:

حُمَّ الْقَضَاءُ فَكَالذَّنِي مُمَجَّدٌ عِنْدَ الْمَمَاتِ وَكَالْجَبَانِ مُصَمَّمٌ^(٢)
وقال ابن التعاويذي:

لَا يَفْخَرُونَ الشَّامِتُونَ فَاتِمَا (م) دُنْيَا تُحِيلُ صُرُوفُهَا الْأَحْوَالَا
مَكَارَةً، غَرَارَةً، غَدَارَةً يَبْعُولُهَا^(٣) تَسْتَبْدِلُ الْأَبْدَالَا
يَا مَنْ يُكَلِّفُهَا الْوَفَاءَ بِذِمَّةٍ كَلَّفَتْ دُنْيَاكَ الْغَدُورَ مُحَالَا
لَا تَخْذَعَنَّ بِشُرُوءٍ وَشَيْبَةٍ وَارْقُبْ لِأَيَّامِ السُّرُورِ زَوَالَا^(٤)

وفي ختام هذه الدراسة للثرثاء في القرن السادس، اظن ان تقليد شعراء هذا القرن لاسلافهم من شعراء القرون السابقة في اسلوب الجمع بين التهئة والتعزية قد اضر بشعرهم ابلغ الضرر، والدليل هو وجود قصيدتين تعدان من اجود المراثي في هذا العصر كله، وقد خلطنا خلواتا من اية اشارة الى التهئة، أو الجائزة، بل نجد الشاعر فيهما يكاد يقضي نحبه في اثر من يرثيه، وهاتان المراثيتان هما:

١ - رثاء ابن التعاويذي لهبة الله بن البخاري ومنه قوله:

أَبَا الْمُظَفَّرِ كُنْتَ لِي مِنْ عُسْرَتِي مَالَا، وَمِنْ جَوْرِ الْخُطُوبِ مَالَا^(٥)
مَا زِلْتُ عَوْنًا فِي الْحَوَادِثِ لِي إِذَا ضَعُفْتُ يَمِينُ أَنْ تُعِينَ شِمَالَا
مَا بَالُ وَدٍّ فِي الزَّمَانِ ذَخَرْتُهُ لِشِدَائِدِي أَمْسَى عَلَيَّ وَيَالَا^(٦)
وَمِلَابَسًا مِنْ غِبْطَةٍ أَلْبَسْتَنِي جُدْدًا أَعْلَامَ أَعْدَتِهَا أَسْمَالَا؟^(٧)
وَمُبَشَّرَاتِكَ^(٨) كَيْفَ عَذَنَ سَمَائِمًا^(٩) هُوَجَا^(١٠)، وَكُنَّ عَلَى الْقُلُوبِ شِمَالَا؟

(١) الحريدة ٣٤٩/١، المِرْجَم: الفرس الشديد الوطء كأنه يرحم الأرض بحوافره.

(٢) نفسه ٣٤٧/١ (٣) البعول: واحدها بعل وهو الزوج. (٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٥٤

(٥) مَال: مرجع وملاذ. (٦) الويال: الشدة وسوء العاقبة.

(٧) الأسمال: الواحد سَمَل: الثوب البالي.

(٨) أَلْبَسَرَات: الرياح التي تبشر بالخطر لقوله تعالى في الآية ٤٦ (سورة الروم): وَبَيْنَ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ.

(٩) سَمَائِم: المفرد سَمُوم: الريح الحارة. (١٠) الهوج: الرياح التي لا تستوي في هبوبها وتقلع البيوت.

سُلِّبَتْ تَجْمُلُهَا عَلَيْكَ وَزَارَةٌ لَبِسْتُ بُمْلُكَكَ رَوْنَقًا وَجَمَالًا
يَبْكِي لِفَقْدِكَ دَسْتُهَا^(١)، وَلَقَلَّمَا كَانَتْ تُبْكِي غَابَةً رِيَالًا^(٢)
يَا مُورِدِي مَاءَ الدَّمُوعِ وَلَمْ يَزَلْ وَرَدِي نَمِيرًا مِنْ يَدَيْهِ زُلَالًا
وَمُحْمَلِي الْعَبءِ الثَّقِيلِ بَرَزْتُهُ إِنِّي عَهْدَتُكَ تَحْمِلُ الْأَثْقَالَ
أَمْسَكْتَ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ، وَطَالَمَا جَادَلْتُ فُرْسَانَ الْكَلَامِ جِدَالًا
وَقَطَعْتَ آمَالَ الْعُفَاةِ، وَلَمْ تَكُنْ لَكَ شِيْمَةٌ أَنْ تَقْطَعَ الْأَمَالَ
وَأَعَدْتَ أَيَّامِي الْحَوَالِي بِالْأَسَى عُظْلًا^(٣)، وَلَيْلَاتِي الْقِصَارَ طَوَالًا
... الخ^(٤).

ان ابن البخاري هو الوحيد الذي رثاه الشاعر، من بين جميع ممدوحيه ومنهم الخلفاء، ومواليه آل المظفر، مما يؤكد مكانته الكبيرة عند الشاعر ولذلك نحس بلذعة حزن، وحرارة تنبعث من بعض الابيات. ولو قدر لهذه القصيدة ان تخلو من هنات وركة، لا يمكن وضعها بجانب الخالدات من لاميات العرب في الرثاء: كلامية مروان بن ابي حفصة المتوفى سنة ١٨١ هـ، في معن بن زائدة المتوفى سنة ١٥١ هـ:

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ، وَأَبْقَى مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالَا^(٥)

ولامية الشريف الرضي في الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ:

أَكْذَا الْمَنُونُ تُقْنِطِرُ الْأَبْطَالَ؟ أَكْذَا الزَّمَانُ يُضَعِّضُ الْأَجْبَالَ؟^(٦)

٢ - رثاء نصر التميمري^(٧) للوزير عون الدين بن هبيرة ومنها:

أَلَمِمْ عَلَى جَدَثٍ حَوَى تَاجَ الْمُلُوكِ^(٨)، وَقُلْ سَلَامٌ
وَاعْقُرْ سَوِيدَاءَ^(٩) الضَّمِيرِ (م) ر، فَلَيْسَ يُقْنِنُنِي السَّوَامُ^(١٠)
فَإِذَا ارْتَوَتْ تِلْكَ الْجَنَانُ (م) دَلُّ مِنْ دَمُوعِكَ وَالرَّغَامُ^(١١)

(١) الدُّسْتُ: (فارسية): صدر المجلس أو البيت.

(٢) الرِّيَال: النبات الملتف الطويل.

(٣) الْمُطْل: غير المتجملات.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٥٣

(٥) وفيات الأعيان ٤ / ٣٣٥

(٦) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٦٧٠

(٧) تصحفت إلى البحرني في المنتظم..

(٨) تاج الملوك: من ألقاب الوزير ابن هبيرة.

(٩) السَوِيدَاء: حَيَّة الضمير.

(١٠) السَّوَام: الماشية والابل الراعية.

(١١) الرَّغَام: التراب.

فَاقِمِ صُدُورَ الْيَعْمَلِ^(١) (م) تِ، فَبَعْدَ يَحْيَى لَا مَقَامُ
 ذَهَبَ الَّذِي كَانَتْ تَقِيُّ (م) سَدَنِي مَوَاهِبُهُ الْجَسَامُ
 فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِي الشَّامُ^(٢)
 غَاضَ^(٣) النَّدَى الْفَيَاضُ عَنْ رَاجِيهِ وَاشْتَدَّ^(٤) الْأَوَامُ
 وَتَفَرَّقَتْ بِلَكَ الْجُمُوعُ، وَقُوِّضَتْ بِلَكَ الْخِيَامُ
 عَجَبًا لِمَنْ يَغْتَرُّ بِالْمِ (م) دَنِيَا، وَلَيْسَ لَهَا دَوَامُ
 عُقْبَى مَسَرَّتِهَا الْأَسَى وَعَقِيبُ صِحَّتِهَا السَّقَامُ
 مَا بَمْتُ وَحَدَكْ يَوْمَ مَتِّ (م) تِ، وَأَنْمَا مَاتَ الْإِنَامُ^(٥)

ان سبب الحزن في بعض ابيات هذه المراثية ، يعود الى ان الشاعر شامي الاصل ، وكان كثير الانقطاع لابن هبيرة^(٦) ، ولذلك رأى في موت الوزير كارثة حلت به ، وهو الضرير المغترب ، اضعف الى ذلك ان شخصية ابن هبيرة من الشخصيات التي استمالت القلوب وراعت الناس في القرن السادس .

(١) اليَعْمَلَات : النوق .

(٢) يقول أنه نسي وطنه الشام وأهله فيه لفرط رعاية الوزير له .

(٣) غاض : نقص أو نضب .

(٤) الأوام : العطش .

(٥) المنتظم ٢١٧/١٠ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢٨٦/١ وقد تصفحت الأبيات في هذا المصدر الثاني بما لا مزيد عليه ، وجمع كل بيتين في

بيت واحد ، وهي هنا أطول بكثير مما ورد في المنتظم .

(٦) نكت الحميان ص ٣٠١

الفصل الرابع الاتجاه الديني

تمهيد :

ان التيار او الاتجاه الديني في شعر القرن السادس ، تيار كبير واسع ، يمثل رقعة واسعة من الحياة الادبية على اختلاف فنونها ، فهو واضح جدا في المديح خاصة ، ومدح الخلفاء بصورة اخص ، وكذلك الامر - ولكن بصورة أقل بطبيعة الحال - في الهجاء والنسيب والرثاء .

ان الحكومة العباسية ، وعلى رأسها الخليفة ، اكتسبت شرعيتها واحترام الناس لها وحرصهم على طاعتها من الدين وتعاليمه . ولذلك حرص الخلفاء على احاطة انفسهم بهالة من الدين والقداسة ، ترد عنهم كيد الاعداء وتحميهم من سهام النقد ، عن طريق الایحاء للناس بان الخليفة يصدر ، في جميع اوامره وتصرفاته ، بتفويض وتحويل من الخالق سبحانه . فلا مجال للتذمر ولا موجب للشكوى .

ومن الاساس الديني للخلافة ، اتخذ سلاح محاربة اعداء العباسيين ومنهم الفاطميون والسلاجقة والمزيديون^(١) ، وكذلك حزب الشيعة^(٢) ، وجميع اولئك الذين لم ترضهم سيرة العباسيين ولم يوافقوا على الرأي الشائع بأن الخليفة نائب الله في الأرض .

وفي القرن السادس كانت الحروب الصليبية مشتتة ذات هب ، وصلاح الدين الايوبي هو بطل الاسلام الذي حمل لواء الدين في مواجهة الغزو الصليبي المسيحي ، وكان صلاح الدين ، في نظر المسلمين ، قائدا من قواد الخليفة ومنفذا لأوامره ولذلك شارك قسم من شعراء العراق في ادب الحروب الصليبية ، وهو ادب اساسه الدين ، لان الحرب كلها ذات طابع ديني .

وفي هذه الفترة ، كما في الفترات التي سبقتها ، كان الصراع لا يكاد يهدأ بين المذاهب

(١) لم أقف على شعر في الصراع الديني السياسي بين العباسيين والمزيديين ، مع أن التاريخ يعكس صوراً عديدة من هذا الصراع ، كما أشرت في أول هذه الرسالة .

(٢) يغلب على الظن أن حركة قائد الجيش قطب الدين قايماز في خلافة المستنصر سنة ٥٧٠ هـ . كانت حركة شيعية ، لأن أحد المشاركين فيها وهو علاء الدين تنابش كان شيعياً ، أضف إلى ذلك أن قطب الدين كان له دور في قتل المستنصر سنة ٥٦٦ هـ . انظر التفاصيل في ابن الأثير ٩/ ١٣٤ ، ١٩٨ ، والمختصر المحتاج اليه ٢/ ٢٩٧ في الهامش .

والفرق الاسلامية، من شافعية وحنابلة ومتصوفة وشاعرة، كل يعظم مذهبه وينصر فرقته ويرد على خصومها. وكان الشعر هو سلاح الجميع، والشاعر هو الرجل المختار في سوح النضال الفكري ومعارك الخصام المذهبي.

وكان للمعارك الحربية والكوارث الطبيعية ومنها الفيضانات المدمرة، اثر لا يستهان به في تردي الاحوال الاقتصادية، مما كان له اسوأ الاثر في حياة الناس الاجتماعية فكثرت الشكوى وساد القلق والخوف وضعف الشعور بالامن وعرفت الفوضى طريقها الى حياة الناس، فضاخوا ذراعاً بهذا العالم وزهدوا فيه ومالوا الى طريق الدين والتزهد والرهبة، حتى خيل لهم ان لا منقذ لهم مما يعانون الا الرسول ﷺ فظنلوا بابصارهم وقلوبهم الى الحجاز، فنشأت المدائح النبوية في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة.

ومن الطريف ان نجد في القرن السادس شاعراً، هو ابن التعاويذي، يشبه رجل الصحافة المرتزق في هذه الايام. لقد عرف هذا الرجل اهواء معاصريه وميولهم، فالجميع يحبون ان يوصفوا بالدين وينعتوا بالتقوى. ان اشارة صغيرة في بيت شعر اذا فهم منها ان فلانا رقيق الدين، كانت كافية لاسقاطه في عيون الناس. وعلى ضوء هذه الحقيقة الكبرى راح ابن التعاويذي يكسب رزقه ويدبر اموره، وديوان شعره هو الشاهد على ما اقول:

لقد مدح خلفاء بني العباس ورفعهم الى مصاف الانبياء، على حين جرد خصومهم - ومنهم بعض كبار القادة والزعماء - من اية صلة بالدين. وكان يتقرب الى زعماء الشيعة بما يرضيهم، ومن ذلك ان يدس في مدائحه لهم ابياتاً تعتمد ان يشير فيها الى الامام علي (رض)، ولم يتردد هذا الشاعر حتى عن الكذب حين زعم - وهو يمدح الوزير عضد الدين - بان في آباء هذا الوزير نزلت الآيات والسور^(١) وهو يعلم ان الوزير فارسي الاصل.

ولعل الادهي من هذا كله: ان ديوان الشاعر يوحي بانه كان يحفظ القرآن الكريم ولكن هذا الديوان نفسه يدل على ان الشاعر غير متدين^(٢).

١ - الدين والسياسة:

أ- تعد الحروب الصليبية من اكبر الحروب التي شنت باسم الدين على الرغم من الاهداف السياسية التي دفعت الاوربيين الى مهاجمة البلاد العربية^(٣) والاعتداء على المقدسات الاسلامية. لقد قيل ان تعصب السلاجقة للدين الاسلامي، ادى بهم الى ان اساءوا معاملته

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٨

(٢) نفسه ص ١٨٨، ٢٢٦، ٢٣١

(٣) أدب الحروب الصليبية ص ١٦

الحجاج المسيحيين لبيت المقدس، فعاد هؤلاء الحجاج من فلسطين وبالغوا في وصف الاهانات التي لحقتهم في اثناء قيامهم بفریضة الحج، وهنا ثار الرأي العام الاوربي^(١).

وعلى الرغم من ان العراق لم يكن طرفا مباشرا في ذلك الصراع، فان الخلافة العباسية، وعلى رأسها الخليفة، كانت تمثل في ذلك الحین اكبر سلطة دينية اسلامية يمكن ان يلجأ اليها حين يتعرض المسلمون، في أية جهة كانت، لخطر داهم كبير. ولذلك يحدثننا التاريخ بان الصليبيين حين اخذوا بيت المقدس، ووضعوا السيف في اهله، ووصلوا بخيولهم الى معبد سليمان، هاج اهالي دمشق - حين وصلتهم اخبار تلك المذبحة - وماجوا وخرج المستفرون منهم، ومعهم قاضي المدينة ابوسعيد الهروي، قاصدين بغداد، حيث حضروا في الديوان وقطعوا شعورهم واستغاثوا ويكوا. . فقال ابو المظفر محمد بن احمد الأبيوردی^(٢) يصف ذلك.

مَرْجْنَا دِمَاءً بِالدَّمُوعِ السَّوَاجِمِ ^(٣)	وَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عَرْضَةٌ لِلْمَرَاحِمِ
وَشَرُّ سِلَاحِ الْمَرْءِ دَمْعٌ يُفِضُهُ	إِذَا الْحَرْبُ شَبَّتْ نَارُهَا بِالصَّوَارِمِ ^(٤)
فَلَيْهَا بَنِي الْإِسْلَامِ إِنَّ وَرَاءَكُمْ	وَقَائِعَ يُلْحَقْنَ الذُّرَى بِالْمَنَاسِمِ ^(٥)
أَتَهْوِمَةُ ^(٦) فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَعِظَةِ	وَعِيشِ كَنُورِ ^(٧) الْخَمِيلَةِ نَاعِمٍ؟
وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مَلءَ جَفُونِهَا	عَلَى هَفَوَاتٍ ^(٨) أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمٍ؟
وَإِخْوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْحِي مَقِيلُهُمْ ^(٩)	ظُهُورَ الْمَذَاكِي ^(١٠) أَوْ يُطَوِّنُ الْقَشَاعِمِ ^(١١)
تَسْوِمُهُمُ الرُّومُ الْهَوَانُ، وَأَنْتُمْ	تَجْرُونَ ذَيْلَ الْخَفْضِ ^(١٢) فَعَلَّ الْمُسَالِمِ

... الخ^(١٣)

وفي سنة ٥٢٣ هـ حاصر الصليبيون دمشق، فخرج اليهم اهلهما وقتلوهما قتالا شديدا، وبعثوا عبد الله الواعظ ومعه جماعة من التجار يستغيثون بالخليفة وهموا بكسر منبر الجامع^(١٤)؛

(١) نفسه ص ١٥

(٢) مرت ترجمته ص ٩٥ هامش ١٠

(٣) السَّوَاجِم: المصبوبة.

(٤) الصَّوَارِم: السيوف.

(٥) لَمَنَاسِم: واحدها مَنَسِم: طرف خف البعير.

(٦) أَتَهْوِمَةُ: الزهر.

(٧) كَنُورِ: النور.

(٨) هَفَوَاتٍ: من هنا القلب من الحزن أي استظير.

(٩) أَلْقَبِلُ: المكان الذي يمضي فيه الناس وقت اشتداد الحر.

(١٠) الْمَذَاكِي: الخيول.

(١١) الْقَشَاعِم: لين العيش وسعته.

(١٢) الْخَفْضُ: لن العيش وسعته.

(١٣) ابن الأثير: ١٨٩/٨ - ١٩٠، أدب الحروب الصليبية ص ٣٠ - ٣١، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٢٩

(١٤) البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٠

وهذا الذي فعله اهل دمشق، فعله كذلك اهل بُرَاغَة (على ستة فراسخ من حلب) سنة ٥٣٢ هـ^(١).

وهذا الشعور بالوحدة بين المسلمين، وان بغداد تحتل مركز الزعامة الاسلامية لوجود خليفة المسلمين وزعيمهم الروحي فيها، هو الذي حمل جماعة من البغاددة من الفقهاء وغيرهم - ومنهم ابن الرَّاغُونِي^(٢) - على الخروج الى الشام لاجل الجهاد وقتال الفرنج، وذلك حين بلغهم انهم فتحوا مدائن عديدة. ثم رجع كثير منهم حين بلغهم كثرة الفرنج^(٣).

وحين دارت الدائرة على الصليبيين، واستطاع المسلمون بعد ان وحدوا صفوفهم بقيادة صلاح الدين الايوبي ان يستردوا المدن والقلاع الاسلامية الواحدة بعد الاخرى، كان الخلفاء العباسيون قد نجحوا في التخلص من سيطرة السلاجقة كما نجح صلاح الدين في اعادة الخطبة لهم بمصر سنة ٥٦٧ هـ^(٤). ولذلك صار صلاح الدين يرسل الخليفة ويشره بكل موقعة ينتصر فيها على الصليبيين، ذاكرا جهاده ومعاناته للحرب ومضايقاته للصليبيين وتدمير قلاعهم وحصونهم، وكان آخر وفد ارسله صلاح الدين الى بغداد سنة ٥٨٨ هـ، لان بطل الحروب الصليبية توفي سنة ٥٨٩ هـ بعد أن اخبر الخليفة بالهدنة التي عقدها مع الصليبيين ذاكرا اسبابها وأهميتها^(٥).

وكما شارك الشعر في اوقات الحزن والألم، حيث كان الشعراء يستنهضون الهمم ويشجعون المقاتلين ويذكرون المجاهدين بالجنة وحسن العاقبة، كذلك تسامع الشعراء بانتصارات صلاح الدين وجهاده في سبيل نصره الاسلام وانقاذ بلاد المسلمين فكانوا يتبعونه في كل هذه الفتوحات ويزدحمون على بابه طمعا في العطاء، حتى قال في ذلك شاعر بغداد سبط ابن التعاويذي:

فَلَا يُضْجِرُنَاكَ اَزْدِحَامُ الْوُفُودِ عَلَيْكَ وَكَثْرَةُ مَا تَبْدُلُ
فَاتَكَ فِي زَمَنِ لَيْسَ فِيهِ جَوَادُ سِوَاكَ وَلَا مِفْضَلُ
وَقَدْ قَلَّ فِي اَهْلِ الْمُتَعَمِّمُونَ وَقَدْ كَثُرَ الْبَائِسُ الْمُرْمِلُ^(٦)
وَمَا فِيهِ غَيْرُكَ مَنْ يُسْتَمَاحُ وَمَا فِيهِ اِلَّا مَنْ يُسَالُ^(٧)

(١) نفسه ٢١٢/١٢ - ٢١٣

(٢) البداية والنهاية ١٧٢/١٢

(٣) انظر الفصل الاول من هذه الرسالة ص ٨ - ٩

(٤) وفيات الأعيان ٢٠٢/٨، تاريخ العراق العباسي الأخير ص ٣٣ - ٢٤ (٦) العرمل: الفقير الذي لا زاد عنده.

(٧) ادب الحروب الصليبية ص ١٤٤، قارن ذلك بما ورد في ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٣.

وما كاد صلاح الدين الأيوبي يسترد بيت المقدس ويحررها من أيدي الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ^(١) حتى أسرع وزيره القاضي الفاضل بنقل هذه البشـرى إلى الخليفة الناصر لدين الله ، فقال - من رسالة طويلة :-

. . واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها - وإن كانت صخرة - قلوبهم ، كما يشفى الماء عـللهم ولما قدم الدين عليها عرق منها سويداء قلبه ، وهنأ كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه ، وكان الخادم^(٢) لا يسعى إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسي تلك البؤسى الأرجاء هذه النعمى^(٣) . . . كذلك كتب العماد الإصفهاني - كاتب صلاح الدين - إلى الخليفة - بمناسبة فتح بيت المقدس قائلاً :

أُبَشِّرُ بِفَتْحِ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّي وَصِيَّتُهُ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ جَوَابُ
وما كَانَ يَخْطُرُ فِي بَالٍ تَصَوُّرُهُ واستصعب الفتح لَمَّا اغْلَقَ الْبَابُ
وخام^(٤) عَنْهُ الْمُلُوكُ الْآقْدَمُونَ ، وَقَدْ مَضَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ بَلَوَاهُ أَحْقَابُ
وَجَاءَ عَصْرُكَ ، وَالْأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ فَكَانَ فِيهِ لِقَيْضِ الْكُفْرِ انْضَابُ^(٥)
نَصْرًا أَعَادَ صَلاَحُ الدِّينِ رَوْنَقَهُ إِيْجَازُهُ يَبْلِيغُ الْقَوْلَ إِسْهَابُ
... الخ^(٦) .

ويبدو أن الحماس والعاطفة الدينية هي التي حملت القاضي الفاضل ، في الجزء الذي نقلته من رسالته للخليفة ، على نعت المسيحيين بالكفر . وكذلك فعل العماد الإصفهاني في البيت الرابع من أبياته المتقدمة ، وابن التعاويذي في قوله من أبيات أشرت إلى أن جامع ديوانه اسقطها منه :

واضْمِدْ لِحَرْبِ الْمُشْرِكِينَ مُهْذَبًا بِالسَّيْفِ مَنْ بِسِوَاهُ لَا يَتَهَذَّبُ^(٧)
ومعروف أن الإسلام يعترف بالمسيحية ديناً سماوياً ، ولذلك لم يلزمهم بالدخول في

(١) وفيات الأعيان ١٧٤/٦ - ١٧٧

(٢) يريد به صلاح الدين الأيوبي .

(٣) وفيات الأعيان ١٨٠/٦ - ١٨١

(٤) خام : جبن ونكس .

(٥) أنضاب : نضوب ، اقلال .

(٦) الروستين ١٠٢/٢

(٧) انظر قسم المديح من الفصل الثالث ص ١١٤ - ١١٦

الاسلام، على حين ليس بين المشركين والمسلمين الا السيف.

والشعراء العراقيون الذين شاركوا في انتصارات صلاح الدين بشعرهم خلال الفترة التي ادرسها ثلاثة: اولهم واكبرهم سبط ابن التعاويذي. وقد أشرت في مكان آخر من هذه الرسالة^(١) الى انه كان يرسل قصائده الى القاضي الفاضل وهو الذي يعرضها على صلاح الدين. وفي ديوان الشاعر قصيدة مطلعها:

أَبْطِ اللُّثَامَ عَنِ الْعِذَارِ^(٢) السَّائِلِ لِيَقُومَ عُذْرِي فَيْتَبَّ عِنْدَ عَوَاذِلِي

قال فيها يخاطب القاضي الفاضل:

وَلَمَّا دَعَوْتُكَ مِنْ مَحَلٍّ شَاسِعٍ نَاءٍ مَدَاهُ عَلَى السُّرَى الْمُتَطَاوِلِ
فَالسَّحْبُ تَبَعْدَانِ تُنَالُ وَصُوبُهَا^(٣) دَانٍ قَرِيبٌ مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِ
فَارْفَعْ - إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْكَ قَصَائِدِي مَدَحِي إِلَى الْمَلِكِ الرَّحِيمِ الْعَادِلِ
وَاسْفِرْ^(٤) بِجَاهِكَ بَيْنَ حَظِّي وَالْغِنَى وَتَقَاضَ^(٥) لِي أَيَّامَ ذَهْرِي الْمَاطِلِ
وَأَنْهَضْ بِهَا أَكْرَمَةً قَعَدَ الْوَرَى عَنْهَا، فَمِنْ مُتَقَاعَسٍ أَوْ نَاكِلٍ^(٦)
إِنْ كُنْتَ أَكْرَمَ مَنْزِلٍ نَزَلَتْ بِهِ فَلِيَحْمَدَنَّ عَلَيْكَ أَفْضَلُ نَازِلِ
لَمْ ادْعُ - حِينَ دَعَوْتُ نَصْرَكَ - غَافِلًا عَنِّي، وَلَا اسْتَنْجَذْتُ مِنْكَ بِخَاذِلِ
قَدْ اخْصَبْتُ أَرْضَ الْعِرَاقِ، وَإِنِّي لَارُودُ^(٧) مِنْهَا فِي جَدِيبٍ مَاحِلِ
.. الخ^(٨).

والقصيدة واضحة الدلالة على ان العلاقة بين الشاعر المادح والوزير الممدوح لا تشبه العلاقات المعروفة بين الشعراء ومن يقصدونهم بالمديح. ان الشاعر واثق من مكانته عند القاضي الفاضل، ولذلك اباح لنفسه ان يخاطبه مخاطبة الصديق الذي يجب ان يسعى من اجل صديقه. والواقع ان قصائد ابن التعاويذي في صلاح الدين الايوبي ووزيره، تثير الاستغراب

(١) انظر: الفصل الثالث ص ١١٣

(٢) العذار: جانب اللحية.

(٣) صُوب السحب: مطرها.

(٤) اسفر: من السفرة وهي الصلح.

(٥) تقاض: أراد أعني أو ساعدني.

(٦) ناكل: من نكل أي تكص وجبن.

(٧) أرود: انجول.

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٦

والدهشة بسبب كثرتها اولا وتنوعها ثانيا، حتى يخيل للمرء ان ابن التعاويذي من شعراء مصر أو بلاد الشام القريين جدا من ملك الايوبيين.

ففي القاضي الفاضل توجد - غير اللامية المتقدمة - قصيدتان: رائية مطلعها:

مَرَّتْ بِجَمْعٍ لَيْلَةَ النَّفْرِ تَجْمَعُ بَيْنَ الْأَثَمِ وَالْأَجْرِ^(١)
وبائية اولها:

عَسَى قَاعِدُ الْحِطِّ يَوْمًا يَثْبُ فَيَسْفِرُ عَنْ وَجْهِهِ الْمُنْتَقِبِ^(٢)

وهناك قصيدتان يمدح فيها الشاعر رسول صلاح الدين الامير شمس الدين محمد بن ابي المضاء سنة ٥٧٠، ٥٧١^(٣)، وثمة قصيدة قافية يحذر فيه الشاعر صلاح الدين من ابن الحصين الذي هرب الى دمشق بعد ان استدان من جماعة من اهل بغداد ديونا كثيرة^(٤). وفي الديوان قصيدة بائية مطلعها:

حَتَامَ أَرْضِي فِي هَوَاكَ وَتَغْضَبُ؟ وَالِي مَتَى تَجْنِي عَلَيَّ وَتَعْتَبُ؟

قال ابن خلكان ان الشاعر: «اجاد فيها كل الاجادة»^(٥)، ولكن المؤرخ الكبير وكذلك الديوان لا ينصان على المناسبة التي نظمت فيها القصيدة، باستثناء القول انها نظمت سنة ٥٨٠ هـ، ويصف الشاعر فيها الخلع التي انفذت الى صلاح الدين من دار الخلافة^(٦). ويدوم قصيدة ثامنة ان الشاعر كان يرى نفسه متفوقا على زملائه من شعراء بغداد، ولذلك يعاتب صلاح الدين على مساواته ببقية الشعراء في العطاء، قال من قصيدة:

وَكَاْنَ يَا يَسُوْفَ السَّمَا حِ بِنَا
حَاشَاكَ أَنْ تُرْسَلَ الصَّلَاتِ عَلَى
سَوِيَّتِ بِي فِي الْعَطَاءِ مَنْ لَا يُجَا
وَعِغْرُ بَدْعٍ فَالْسُّحْبُ مَا بَرَحَتْ
وَالْحِذْقُ فِي مَا عَلِمْتُ مُكْتَسَبُ
أَلَى عَطَايَاكَ شَوْقُ يَعْقُوبِ
غَيْرِ نَظَامٍ وَغَيْرِ تَرْتِيبِ
رَيْنِي فِي مَذْهَبِي وَأَسْلُوبِي
يَقْلُ مِنْهَا حِطُّ الْأَهَاضِيبِ^(٧)
وَأَمَّا الْحِطُّ غَيْرُ مَكْسُوبِ

(١) الديوان ص ١٩٠، والنفر: اندفاع الحاج من منى الى مكة.

(٢) نفسه ص ٢٧

(٣) نفسه ص ٣٠٥

(٤) نفسه ص ١٨٥، ٤٨٠

(٥) الديوان ص ٢٢

(٦) وفيات الاعيان ٢٠٩/٨

(٧) الاهاضيب: الحساب، المرتفعات.

وَلِي عَلَيْهِمْ فَضِيلَةُ السَّبْقِ فِي مَدْحِكَ فَأَعْرِفْ سَبْقِي وَتَعْقِي
شَاؤُهُمْ سَابِقًا، وَصَلُّوا^(١) فَمَنْ أَوْلَى بِبِرِّ مَنِّي وَتَقْرِبِ؟
... الخ^(٢).

وعلى الرغم من ان شهرة صلاح الدين قائمة على انتصاراته في الحروب الصليبية وقد عبر شعر ابن التعاويذي عن هذه الحقيقة ابلغ تعبير، فان ديوان الشاعر لم ينص - في تقديم القصائد - سوى مرة واحدة على ان صلاح الدين قد انتصر على الفرنج وهزمهم سنة ٥٧٠ هـ، وهذه القصيدة هي التي مطلعها:

قَلْبِي فِي حُبِّكَ مَعْمُودُ^(٣) وَحَظُّ عَيْنِي مِنْكَ تَسْهِيدُ^(٤)

وقد اشار المحقق انه اسقط منها خمسة ابيات لعدم المنفعة كما قال^(٥).

وفي الديوان قصيدة واحدة اشار صاحب الروضتين^(٦) انها نظمت لتهنئة صلاح الدين لانتصاره في موقعة مَرَجُ عُيُون^(٧)، وهي من انتصارات صلاح الدين المشهورة على الصليبيين^(٨)، وقد التزم الديوان الصمت، فلم يشر الا الى ان القصيدة نظمت في مدح صلاح الدين وانها ارسلت اليه بدمشق سنة ٥٧٥ هـ^(٩). على الرغم من اشارة محقق الديوان الى ان الروضتين من مصادر شعر ابن التعاويذي وفي هذه القصيدة بالذات^(١٠)، وهذه القصيدة الفريدة هي التي مطلعها:

إِنْ كَانَ دِينُكَ فِي الصَّبَابَةِ دِينِي فَقَبِ الْمَطِيَّ بِرَمَلَتِي يَبْرِينِ^(١١)

وفيهما قال الشاعر:

كَأَدَ الْأَعَادِي أَنْ يَصِيكَ كَيْدُهَا لَوْ لَمْ تَكُنْكَ بِرَأْيِهَا الْمَافُونِ^(١٢)
تُخْفِي عَدَاوَتَهَا وَرَاءَ بَشَاشَةٍ فَتَشِفُّ عَنْ نَظَرِ لَهَا مَشْفُونِ^(١٣)
دَفَنْتُ حَبَائِلَ مَكْرِهَا، فَرَدَدْتُهَا تَدْوِي^(١٤) بِغَيْظِ صُدُورِهَا الْمَدْفُونِ

(١) صَلُّوا: أي جاءوا بعد السابق.

(٢) الديوان ص ٢١

(٣) المَعْمُود: الذي هُذِيَ العشق.

(٤) الديوان ص ١٠٨

(٥) نفسه ص ١١١ في الهامش، وانظر الفصل الثالث ص ١١٥ (٦) الروضتين ١٠/٢

(٧) مَرَجُ عُيُون: قال ياقوت أن موقع هذا المَرَجِ بسواحل الشام. (معجم البلدان ١٦/٨).

(٨) أدب الحروب الصليبية ص ١٢١

(٩) الديوان ص ٤٢٠ (١٠) نفسه ص ٧ من المقدمة.

(١١) يَبْرِين: قيل أنه رمل لا تترك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حَجَرِ الْيَمَامَةِ (معجم البلدان ٤٩٤/٨).

(١٢) الرأى الْمَافُون: الضعيف.

(١٣) النظر الْمَشْفُون: هو نظر الحاسد الحذر المترقب.

(١٤) تَدْوِي: تحمل الضغن، تمرض.

وَعَلِمَتْ مَا أَخْفَوْا كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ أَفْضَتْ إِلَيْكَ بِسَرِّهَا الْمَخْزُونِ
كَمِنُوا - وَكَمْ لَكَ مِنْ كَمِينَ سَعَادَةٍ - فِي الْغَيْبِ يَظْهَرُ مِنْ وَرَاءِ كَمِينَ
فَهَوْتُ نُجُومُ سُعُودِهِمْ، وَقَضَى لَهُمْ بِالنَّحْسِ طَائِرُ جَدِّكَ الْمَيِّمُونَ^(١)

اما الشاعر العراقي الثاني فهو محمد بن بختيار المعروف بالابله البغدادي، وله قصيدة واحدة اشار الديوان انه «قالها في صلاح الدين» ومطلعها:

سَقَى أَيَّامَنَا بِلَوَى زُرُودٍ. ضَحُوكُ الْبَرْقِ صَحَابُ الرُّعُودِ^(٢)

وهي خالية من أية اشارة الى سنة النظم، وكذلك من المناسبة التي نظمت فيها، وليس في ابيات القصيدة اية دلالة على سنة النظم او مناسبتها، وان كان البيت الاخير فيها يدل على تهينة بالصوم، وهو قول الشاعر:

وَهَنَيْتَ الصَّيَّامَ، وَلَا اسْتَحَالَتَ لَكَ الْإَيَّامُ عَنْ حَالِ حَمِيدٍ

ومن هذه القصيدة قول الابله - بعد المقدمة الغزلية -

فَأَقْسِمُ مَا عَلَى وَجْدِي وَجْدُورٍ^(٣) صَلَاحِ الدِّينِ يَوْمًا مِنْ مَزِيدٍ
أَحْيِ الْبَاسِ الشَّدِيدِ إِذَا تَرَاخَتْ كُمَاةُ الْحَرْبِ وَالرَّايِ السَّدِيدِ
مُبَاحِ حِمَى الْمَكَارِمِ، وَالْأَيَّادِي قَلَايِدُ جُودِهِ فِي كُلِّ جَيِّدٍ^(٤)
تُفَرِّجُ بَيْضُهُ^(٥) فِي كُلِّ نَفْعٍ^(٦) دُيُولُ قَسَاطِلٍ^(٧) كَاللَّيْلِ سُودٍ
وَتَلْقَى سُمْرَهُ^(٨) حُمْرًا وَرَادًا^(٩) إِذَا غَشِيَ الْوَعْيُ^(١٠) بِدَمِ الْوَرِيدِ
خَلِي الْعُطْفِ مِنْ عَجَبٍ وَتَبِيهِ وَمَلَأَ الدَّرْعَ مِنْ كَرَمٍ وَجُودٍ
بِضْنٍ^(١١) بَعْرُضِهِ كَرَمًا وَطُولًا^(١٢) وَيَسْمَحُ بِالطَّرِيفِ^(١٣) وَبِالتَّلِيدِ
... الخ^(١٤)

(١) في الروضتين رواية أخرى لعجز هذا البيت ولم يشر إليها المحقق وهي: ... بالنحس طائرهم بمزج عبون الديوان ص ٤٢٢

(٢) ديوان الابله و ١٠٢ (٣) الجدوى: العطاء. (٤) الجيد: العنق.

(٥) البَيْضُ: واحدها بَيْضَةٌ وهي الخوذة من الحديد، ويصح أن تكون السيوف. (٦) النَّفْعُ: الغبار.

(٧) الْقَسَاطِلُ: واحدها قَسَاطِلٌ: غبار الحرب. (٨) السمر: الرماح.

(٩) الورداد: التي يميل لونها الأحمر إلى صفرة. (١٠) الوعى: الحرب. (١١) بِيضْنٌ: ييخل.

(١٢) طَوَّلًا: تَرَفُّعًا. (١٣) الطريف والتليد: المال القديم والجديد.

(١٤) الديوان و ١٠٢

وواضح ان الشاعر مهتم بالبديع اكثر من اهتمامه بالمعنى ، ولذلك حشد في هذه الابيات عددا من الجناسات غير قليل مثل : استحالت وحال في البيت الاخير المتقدم ، ووجدني وجدوى في البيت الاول ، والشديد والسديد في الثاني ، وجود وجيد في الثالث ، ووراد ووريد في الخامس . ويلاحظ الطبايق بين خلي وملء ، والعجب والتيه والكرم والجود في البيت السادس ، وكذلك بين يضمن ويسمح والطريف والتليد .

ولولا ان الابله يكثر من البديع في جميع شعره (١) ، لكان من المحتمل ان يكون قد تعمد الاكثار من البديع في هذه القصيدة بالذات ، ليرضي القاضي الفاضل ومدرسته وهم المقربون من صلاح الدين والمحيطون به (٢).

واما الشاعر العراقي الثالث فهو الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان من اهل الحلة المزديّة (٣) ، وهو يختلف عن زميله ابن التعاويذي والابله لانه شهد الواقعة التي مدح صلاح الدين من اجلها بنفسه ، وهي فرصة يحسده عليها كثير من العراقيين ، قال :

هَنِيئاً صَلَاحَ الدِّينِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ وَنِيلَ الْأَمَانِي الْغُرَّ وَالْفَتَكَةَ الْبِكْرَ (٤)
وَمَا حُزَّتْ فِيهَا مِنْ فَخَارٍ وَمِنْ عُلَا وَحُسْنٍ ثَنَى يَبْقَى إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ
سَمَوَتْ لَهَا بِالْمَشْرِقِيَّةِ (٥) وَالْقَنَا (٦) سُمُو أَبِي لَا يَنَامُ عَلَى وَتَرِ (٧)
وَصَلَّتْ بِهَا حَبْلَ الْمَفَاخِرِ مِثْلَمَا قَطَعْتَ بِهَا يَوْمَ الْوَعَى دَابِرَ الْكُفْرِ
سَلَكْتَ بَيَاضَ الصُّبْحِ ، وَهُوَ صَوَارِمٌ (٨) وَخُضَّتْ سَوَادَ اللَّيْلِ ، وَهُوَ دَمٌ يَجْرِي
وَقَدْ عَرَفَ الْإِفْرَنْجُ بِأَسْكَ فِي الْوَعَى وَجَرَعَتْهُمْ مِنْهُ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ
وَطَنُّوا بِنَاءَ الْحُصْنِ (٩) صَوْنًا لِمُلْكِهِمْ فَأَصْبَحَ بِالشَّعْوَاءِ (١٠) مُنْهَتِكَ السَّتْرِ
... الخ (١١).

(١) انظر الدراسة الفنية في آخر هذه الرسالة .

(٢) أدب الحروب الصليبية ص ١٢٢ ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(٣) الروضتين ١٢/٢ ، ولم أعثر لهذا الشاعر على ترجمة في المصادر المتوفرة .

(٤) الفتكة البكر: الجديدة ، التي لم يسبقه إليها أحد .

(٥) المشرقية: السيف .

(٦) القنا: الواحدة قناة أراد بها الرمح .

(٨) الصوارم: السيف .

(٧) الوتر: الثار .

(٩) الحصن : هو حصن الداوية أو حصن الماخض أو بيت الأحران أو بيت يعقوب وقد خربه صلاح الدين . أدب الحروب الصليبية

ص ١٢٢

(١٠) الشعواء: أراد بها الحروب أو الغارة .

(١١) الروضتين ١٢/٢

وهكذا ساهم شعراء العراق مع اخوانهم من شعراء مصر وسوريا في الاشادة بمآثر صلاح الدين الايوبي وجهاده في سبيل اعلاء كلمة الاسلام والمسلمين ، فكان هذا الشعر العراقي خير تعبير عن الوحدة الاسلامية التي كانت السبب الاول في دحر الصليبيين وطردهم .

ب- ان الصراع بين العباسيين والفاطميين يمثل حلقة اخرى- بعد الحروب الصليبية- من حلقات الصراع الديني السياسي .

لقد كانت كل من الدولتين تطمح الى زعامة العالم الاسلامي استنادا الى اسباب دينية . فالعباسيون يستندون الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم محمد ﷺ ، على حين يقول الفاطميون انهم من ابناء فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ .

ومن هذا المنطلق الديني صار جمهور اهل السنة والجماعة من المسلمين يميلون الى الجانب العباسي . وصار عامة الشيعة يرون في الدولة الفاطمية فرصة لتقويض النظام العباسي ، وخلق المتاعب له ، او على الاقل رأي الشيعة في الدولة الفاطمية املا يمنون انفسهم في اللجوء اليه او الاستعانة به عندما تسوء الامور مع بعض العباسيين .

ولذلك حين فتح البويهيون بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، وهم من الشيعة الزيدية ، سمحوا للدعاة الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم في العراق وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ بني بُوَيْه . واستقبل رسول العزيز بالله الفاطمي لما وصل الى بغداد استقبالا حافلا . فقد اصطف الجند على جانبي الطريق وأخذ القواد وكبار رجال الدولة اماكنهم كل على حسب مكانته ، على حين جلس الخليفة الطائع وراء الستر^(١) . وعندما قطع ابو الحارث البساسيري^(٢) الخطبة للعباسيين ببغداد سنة ٤٥٠ هـ وخطب للمستنصر الفاطمي^(٣) ، مال اليه اهل الكرخ لكونهم من الشيعة ورحبوا بقدومه^(٤) .

اما حين استولى الاتراك السلاجقة- وهم سنيون- على مقاليد الامور ببغداد بعد سنة ٤٤٧ هـ فقد حرصوا على تعقب دعاة الفاطميين الذين قاموا بنشر دعوتهم في بلاد فارس والعراق ، كما تعصبوا للمذهب السني وبلغ من تعصبهم لهذا المذهب ان اقصوا غير السنيين من وظائف الحكومة^(٥) .

(١) النفوذ الفاطمي ص ٨٠ - ٨١

(٢) هو أُرْسُلان بن عبد الله مقدم الاتراك ببغداد ، قتله عسكر السلطان طغرل بك ببغداد سنة ٤٥١ هـ . وفيات الاعيان ١٧٢/١
النجوم الزاهرة ٢/٥ ، ٦٤ ، مقدمة ديوان داعي الدعاة ص ٤٠ - ٤٧

(٣) وفيات الاعيان ٣١٧/٤

(٤) نفسه ص ١٢٦

(٥) النفوذ الفاطمي ص ١١٧

وعلى الرغم من ان الصراع بين العباسيين والفاطميين هو من بعض جوانبه صراع بين مذهبين وعقيدتين تنتميان الى الدين الاسلامي ، وكان المفروض ان تتنافسوا من اجل نشر المبادئ الاسلامية وحياء التراث الاسلامي ، والوقوف صفا واحدا يوجه اعداء الاسلام من الصليبيين والروم البيزنطيين ، ولكن الهدف السياسي الذي يكمن وراء الشعارات والمبادئ الدينية ، هو الذي جعل اتباع الدين الواحد يقتل بعضهم بعضا ، ويحاول جاهدا ابادته واستئصاله بجميع الوسائل والطرق المتاحة ، ولذلك مرت الدعوة الفاطمية في اول امرها بدور الائمة المستورين في ذات الله خوفا من بطش بني العباس وتنكيلهم لانهم علموا ان فيهم من يروم الخلافة^(١) وهذا هو السر الأول ، وحين انتقل مركز الدعوة الى اليمن في عهد آخر ملوك الفاطميين بدأ دور السر الثاني^(٢).

ويذهب اكثر المؤرخين الى ان الفاطميين كانوا شديد التمسك لمذهبهم الديني وتطرفوا في عصبيتهم حتى انهم اكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم رهبة لا رغبة ، وانهم في سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب اهل السنة بل افنوهم تقتيلا^(٣) . بل ان الخوف من الفاطميين وانصارهم بلغ حدا لا يكاد يصدق حين رفض الشريف الرضي ، وهو في عاصمة الخلافة العباسية ان يوقع على وثيقة تدين الفاطميين خوفا من الاغتيال ، فعجب ابوه وقال له : الخاف ممن هو بعيد عنك وتراقبه ، وتسخط من هو قريب وانت بمرأى منه ومسمع وهو قادر عليك وعلى اهل بيتك^(٤) ؟

وكما يحدث دائما بين المتخاصمين ، نجد العباسيين قد استغلوا قضية الشك في نسب الفاطميين احسن استغلال وبدأوا يتوسعون ويبالغون في هذا الموضوع وربما اضافوا اليه اشياء تساعد على اخراج خصومهم من جملة المسلمين في نظر العامة الذين يصدقون كل شيء يصدر عن الخليفة ، اقول هذا ترجيحا وظنا حين وجدت ان الخليفة القادر بالله لجأ الى محاربة الفاطميين عن طريق التشهير بسمعتهم في العالم الاسلامي ، فعقد اجتماعا دعا اليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة واصدروا في شهر ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ محضرا - وكذلك صدر محضر آخر عن الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٤٤ هـ - يتضمن الطعن في نسب الفاطميين خلفاء مصر ، وفي شرعية امامتهم ، وما ورد في هذا المحضر : « . فشهدوا جميعا ان الناجم بمصر وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم . وهو من تقدمه ومن سلفه الارجاس الانجاس ، ادعياء ، خوارج ، لا

(١) وفيات الاعيان ٣٠١/٣٠

(٢) في ادب مصر الفاطمية ص ١٨٤

(٣) نفسه ص ١٢٦

(٤) النفوذ الفاطمي ص ٨٨ ، الحماسة في شعر الشريف الرضي ص ٦٨

(٥) النجوم الزاهرة ٥٣/٥

نسب لهم في ولد علي بن ابي طالب، وان ذلك باطل وزور، وانهم لا يعلمون ان احدا من الطالبين توقف عن اطلاق القول في هؤلاء الخوارج انهم ادعياء. وقد كان هذا الانكار شائعا بالحرمين^(١) في اول امرهم بالمغرب. ان هذا الناجم بمصر هو وسلفه. . قد عطلوا الحدود، وسفكوا الدماء، وسبوا الانبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية^(٢). .

وليس من المعقول، بعد هذا كله، ان يكون شعراء الطرفين المتنازعين بمعزل عن حلبة الصراع، وقد وجدنا شعراء العراق يساهمون في شعر الحروب الصليبية وهم بعيدون عن ميدانها، فكيف اذا كان احد المتخاصمين من ابناء العراق، وكان انصار الخصم، وهم الشيعة، ينتشرون في المدن والقرى العراقية، ومنهم شعراء كبار لا يخفون ضيقهم بالسلطان العباسي من جهة، وبعضهم يطمح الى الخلافة من جهة اخرى^(٣)؟

ولعل لا ا جانب الحقيقة حين لاحظ ان الشعراء هم الفئة التي وجد الخصمان المتنازعان في استمالتها وتشجيعها خير عون على دحر الخصوم وتسفيه آرائهم وجذب الانصار والمؤيدين وشدازرهم، خاصة وقد عرف الطرفان ان الشعر العربي منذ العصر الجاهلي كان من اهم وسائل الدعاية للقبيلة في العصر الجاهلي وللحزاب السياسية والفرق الاسلامية بعد ظهور الاسلام^(٤).

وعلى الرغم من قدرة الفاطميين وكياستهم في فن السياسة واصطنائهم كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء، حتى انهم اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الاحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه هذه الاحزاب وآرائها^(٥)، اقول على الرغم من هذا كله فقد كتب عليهم ان يخسروا في معركتهم الأدبية ضد بني العباس، مع ان الباحث المنصف لا يستطيع ان ينكر الاثر الفاطمي الواضح في شعر العراق في القرن السادس، بل وفي مدح خلفاء بني العباس بالذات، وخاصة المستضيء وابنه الناصر لدين الله، كما سيأتي بيانه بعد قليل ان شاء الله.

فاذا عدنا الى اسباب انتصار العباسيين وجدنا منها:

١ - كتب على الدولة الفاطمية ان ينتهي حكمها سنة ٥٦٧ هـ، وهوتا ريخ بدأت فيه الدولة العباسية تسترجع قوتها وتعود الى سابق عزاها. وتبعاً لقاعدة الويل للمغلوب، صار الأدباء

(١) الحرمان: مكة المكرمة والمدينة المنورة.

(٢) النجوم الزاهرة ٢٢٩/٤ - ٢٣٠

(٣) الحماسة في شعر الشريف ص ٦٧، ٤٠

(٤) في أدب مصر الفاطمية ص ١٥٨

(٥) في أدب مصر الفاطمية ص ١٥٨

والشعراء يتقربون الى بني العباس بثلث الفاطميين والتنديد بهم ، فقال العماد الاصفهاني يمدح المستضيء بعد الخطبة له بمصر سنة ٥٦٧ هـ :

قَدْ حَظَبْنَا لِلْمُسْتَضِيِّ بِمِصْرٍ نَائِبَ الْمُصْطَفَى إِمَامِ الْعَصْرِ
وَحَذَلْنَا لِنَصْرِهِ الْعُضْدَ الْعَامِ (م) ضِدًّا (١) وَالْقَاصِرَ الَّذِي بِالْقَصْرِ
وَأَشْعْنَا بِهَا شِعَارَ بَنِي الْعَبِ (م) بِاسٍ ، فَاسْتَبَثَرْتُ وَجْهَهُ النَّصْرِ
وَتَرَكْنَا الدَّعْيَ يَدْعُو بُورًا (٢) وَهُوَ بِالذَّلِّ تَحْتَ حَجَرٍ وَحَصْرِ
وَتَبَاهَتْ مَنَابِرُ الدِّينِ بِالْحُطِّ (م) بِنَةِ لِلْهَاشِمِيِّ فِي أَرْضِ مِصْرٍ
وَلَدَيْنَا تَضَاعَفَتْ نِعَمُ الدِّ (م) هِ ، وَجَلَّتْ (٣) عَنْ كُلِّ عَدُوٍّ وَحَصْرِ
فَاغْتَدَى الدِّينُ ثَابِتَ الرُّكْنِ فِي مِصْرِ (م) رَ ، مَحْوِطَ الْحِمَى ، مَصُونِ الثُّغْرِ
... الخ (٤).

واعادة الخطبة لبني العباس بمصر من احداث القرن السادس المهمة ، كما سبق ان اشرت (٥) ، وقد تبارى الشعراء في الاشادة بها ، فكان مما قاله حاجب الوزير ابن هبيرة من قصيدة اولها :

لَعَلَّ حُدَاةَ الْعَيْسِ (٦) أَنْ يَتَوَقَّفُوا لِيَشْفِيَ غَلِيلاً (٧) بِالْمَدَامَعِ مُدْنَفُ (٨)
قَالَ :
لِيَهْنِكَ يَا مَوْلَى الْأَنَامِ بِشَارَةً بِهَا سَيْفُ دِينِ اللَّهِ بِالْحَقِّ مُرْهَفُ (٩)
ضَرَبْتَ بِهِ هَامَ الْأَعَادِي بِهَمَّةٍ تَقَاصَرَ عَنْهَا السُّمَهْرِيُّ (١٠) الْمُتَقَفُّ
بَعَثْتَ إِلَى شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا بُعُوثًا مِنَ الْأَرَاءِ تُحْيِي وَتُتْلَفُ
فَقَامَتْ مَقَامَ السَّيْفِ ، وَالسَّيْفِ ، قَاطِر وَنَابَتْ مَنَابِرُ الرَّمْحِ ، وَالرَّمْحُ يَرْعَفُ (١١)

(١) العاضد : آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، وقد سماه بالقاصر لصغر سنه .

(٢) الثُّور : الويل والهلاك .

(٣) جلست : عظمت وكبرت .

(٤) دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ص ١٢

(٥) أنظر : الفصل الثالث ص ١١٦

(٦) العيس : الابل يخالط بياضها سواد خفيف .

(٧) الغليل : حرارة الحب أو الحزن .

(٨) المُدْنَف : المريض ، وهو هنا العاشق .

(٩) السُّمَهْرِيُّ : الرمح الصلب .

(١٠) سيف مرهف : دقيق الحد ، قاطع .

(١١) يَرْعَفُ : يقطر دما .

وَقُدَّتْ لَهَا جِيْشاً مِنَ الرُّوعِ هَائِلاً
لِيَهْنَكَ يَا مَوْلَايَ فَتَنْحَ تَتَابَعْتُ
أَخَذَتْ بِهِ مِصْرًا، وَقَدْ حَالَ دُونَهَا
إِلَى كُلِّ قَلْبٍ مِنْ عِدَاتِكَ يَرْحَفُ
إِلَيْكَ بِهِ خُوصُ^(١) الرُّكَائِبِ تُوجِفُ^(٢)
مِنَ الشُّرَكِ نَاسٌ فِي لَحَى^(٣) الْحَقِّ تَقْدَفُ
... الخ^(٤).

وهنا لابد من وقفة نقلب بها صفحات التاريخ، فسنجد ان مصر كانت تابعة لبني العباس قبل سنة ٣٥٨ هـ. وفي هذه السنة قطعت خطبة بني العباس بها بعد ان استولى عليها القائد جَوْهَر^(٥) مولى المعز لدين الله الفاطمي^(٦). فاين الشعر الذي قيل في هذه المناسبة؟ اذ لا يعقل ان تمتلئ كتب الادب والتاريخ بالشعر حين ينتصر العباسيون، ولكن الشعراء يلتزمون الصمت حين يفتح الفاطميون مصر.

ان المؤرخين من السنة اهلوا جميع الشعر الذي يشيد بالفاطمين ويؤرخ انتصاراتهم تقر بالبنى العباس وتغلقاهم. ومن ذلك ان ابن خلكان يشير الى ان القائد جوهر حين توفي سنة ٣٨١ هـ لم يبق بمصر شاعر الارثاء^(٧)؛ ولكن المؤرخ الكبير لم يورد من هذا الشعراي بيت. وكذلك فعل ابن الجوزي اذ قال: ان ابا علي ابراهيم بن محمد بن محمد... من اولاد زيد بن علي بن الحسين، سافر الى الاقطار واتصل بالخلافة الفاطمية بمصر وحصل له من المستنصر خمسة آلاف مصرية، ثم عاد الى الكوفة وتوفي بها سنة ٤٦٦ هـ^(٨)، ثم لا يذكر اي بيت لهذا الشاعر.

٢- ان الفاطمين وجميع من ايدهم وسارفي ركاهم ممن له عند العباسيين ثارات وديون، هؤلاء جميعا يمثلون اقلية ضئيلة اذا ما قورنوا بالاكثية التي صدمتها اراء الفاطمين وعقائدهم، خاصة وان هذه الآراء والعقائد تميل الى الجانب الفلسفي المصبوغ بالصبغة الاسلامية^(٩)، وكان الفاطميون في فترة ضعفهم محاطين بمد اسلامي شديد التعصب ضد المتفلسفة وآرائهم، وهو الماد الذي يمثلته الحنابلة في العراق^(١٠)، والايوبيون في مصر والشام^(١١)، اضعف الى ذلك ان الذين

(١) خوص: الواحدة خُوصاء: الناقة الغائرة العينين.

(٢) تُوجِف: تسرع.

(٣) لَحَى الحق: جانبه أو جهته.

(٤) المنتظم ٢٠٩/١٠

(٥) هو ابو الحسن جوهر بن عبدالله المعروف بالكتاب، الرومي المتوفي سنة ٣٨١ هـ استقل بحكم مصر أربع سنين وعشرين يوماً، وكان محسناً إلى الناس. وفيات الأعيان ٣٢٥/١، النجوم الزاهرة ٢٨/٤

(٦) وفيات الأعيان ٣٢٦/١ - ٣٣٠

(٧) نفسه.

(٨) المنتظم ٢٨٨/٨

(٩) في أدب مصر الفاطمية ص ٣٦، ١٤٦

(١٠) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٣٤ (١١) في أدب مصر الفاطمية ص ١٦٨

استطاع الفاطميون استمالتهم من العراقيين، وكان من المحتمل ان يقفوا الى جانبهم - ولو بالسنتهم - هؤلاء، كانوا تحت سيطرة العباسيين وفي مناطق نفوذهم، ولذلك يستحيل عليهم الافلات من عيون بني العباس وجواسيسهم. ولعل الشريف الرضي خير مثال على ما اقول. فعلى الرغم من منزلة الرجل العلمية والادبية، وانه عاش في فترة حكامها متعاطفون مع الفاطميين، وهم البويهيون، ولم تصدر عنه سوى بعض ابيات ضد بني العباس - ولعله قالها في اوقات لم يستطع فيها ان يكظم غيظه، مثل قوله:

وَيَا رَبُّ أَدْنَى مِنْ أُمِّيَّةٍ لُحْمَةً^(١) رَمُونَا عَلَى الشَّنَانِ^(٢) رَمَى الْجَلَامِدِ
طَبَعْنَا لَهُمْ سَيْفًا فَكُنَّا لِحَدِّهِ ضَرَائِبَ عَنْ أَيْمَانِهِمُ وَالسَّوَاعِدِ
أَلَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَوَّلِينَ وَإِنْ عَلَا عَلَى قُبْحِ فِعْلِ الْآخَرِينَ بَزَائِدِ^(٣)
وقوله:

مَا مُقَامِي عَلَى الْهَوَانِ، وَعِنْدِي مَقُولٌ صَارُمٌ وَائْتُ حَمِي
وَلِبَاءٌ مُحَلَّقٌ بِي عَنِ الضِّيِّ مِ كَمَا رَاغَ طَائِرٌ وَخَشِي
أَيُّ عُذْرٍ لَهُ إِلَى الْمَجْدِ إِنَّ ذَلِكَ^(م) لَ غُلَامٌ فِي غِمْدِهِ الْمَشْرِفِيُّ؟
الْبَسُ الذَّلُّ فِي دِيَارِ الْإِعَادِي وَبِمَصْرَ الْخَلِيفَةِ الْعَلَوِيِّ؟
مَنْ أَبَوْهُ أَبِي وَمَوْلَاهُ مَوْلَا ي، إِذَا ضَامَنِي الْبَعِيدُ الْقَصِي
إِنَّ ذُلِّي بِذَلِكَ الْحَيِّ عِزُّ وَأَوَامِي^(٤) بِذَلِكَ الرَّبْعِ رِي^(٥)

اقول على الرغم من مكانة الشريف، وان البويهيين هم حكام البلاد الفعليون، فان الشاعر لم يسلم من تعنيف الخليفة القادر بالله^(٦). فما ظنك بمن هم دون الشريف بدرجات كثيرة؟

ولعلي - بعد هذا الذي بسطت القول فيه - غير مبالغ ولا موغل في الافتراض والظن حين لاحظ انه من المستبعد ان يقف الشعراء العراقيون صامتين - كما تريد المصادر ان توحى الينا - وهم يرون ابا الحارث البساسيري يقتل وزير الخليفة ويدعو الى الفاطميين على منابر بغداد لمدة

(٢) الشَّنَان: البغضاء.

(١) اللُّحْمَةُ: القرابة.

(٣) ديوان الشريف ٢٨٢/١

(٤) الأوام: العطش.

(٥) ديوان الشريف ٩٧٢/٣ - ٩٧٣

(٦) النفوذ الفاطمي ص ٨٧، الحماسة في شعر الشريف ص ٦٨

سنة كاملة^(١). كذلك لا اكاد اصدق ان نهاية الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ - بعد كل ما بذلته من جهود وتضحيات استمرت عشرات السنين لتثبت موضع قدم لها في العراق^(٢) - تكون بهذا الشكل الذي يحاول المؤرخون اقناعنا به، وهوان جميع الشعراء العراقيين سارعوا الى الوقوف بجانب العباسيين، فرحين مستبشرين بزوال دولة الكفر والاحاد، على الرغم من الشواهد الكثيرة التي تثبت ان بعض هؤلاء الشعراء - ومنهم ابن التعاويذي والحيص بيص - لم يكونوا على علاقة طيبة ببني العباس في جميع الاحوال.

قال ابن التعاويذي من قصيدة مطلعها:

يا زَمَنَ السُّوءِ الَّذِي مَسَّنِي بَغْمَرَةٍ^(٣) لَيْسَ لَهَا كَاشِفُ
قال :

يَحْسُدُنِي النَّاسُ عَلَى مَوْرِدٍ مُكَدَّرٍ يَنْزَحُهُ الرَّاشِفُ
وصاحب هَمِّي ما سَرَّهُ وهو على ما سَاءَني عَاكِفُ
اِذَا بَدَتْ مِنِّي لَهُ هَفْوَةٌ اعْرَضَ لَا يُعْطِفُهُ عَاطِفُ
الى ان قال :

يا دولةً ما نالني خَيْرُها وَأَنني مِنْ شَرِّها خَائِفُ
نَاءَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ عَنْها، فَمَا يَطُوفُ لِلدُّعْرِ بِها طَائِفُ
فَارْقُبْ لَهَا إِنْ رَقَدَتْ فِتْنَةٌ نَكْبَاءُ^(٤) شَرُّ رِيحِها عَاصِفُ^(٥)

وقد اشار هذا الشاعر مرات الى انه يفكر في مغادرة العراق، بسبب ما يلاقى كقوله :

سَمِئْتُ مِنَ الثَّوَاءِ بِدَارِ ذُلٍّ أَجْرَرَذِيلَ مَنْقَصَةٍ وَوَهْنِ
ارِى مَنْ لَا تَشَاقُ^(٦) إِلَيَّ عَيْنِي واسمِعْ ما تَصُمُّ عَلَيْهِ أُذُنِي
وَأُمْسِي مُضْمِراً وَدَأَّ صَاحِباً لَطَوِيَّ عَلَى حَتِّي وَضِغْنِ^(٧)

(١) وفيات الأعيان ١/ ١٧٢

(٢) النفوذ الفاطمي - ابتداء من ص ٧٢ - ١٣٦

(٣) الغمرة: الشدة.

(٤) النكباء: الريح المنحرفة عن مهاب الرياح فتهب بين ريحين.

(٥) الريح العاصف: الشديدة. الديوان ص ٢٩٦

(٦) لا تشاق: بالاصل: لا تشناق، وهو كاسر للوزن.

(٧) الضغن: الحقد.

فَأَسْهَلْ جَانِبًا، وَالْيَنُ عِظْفَا لَأَجْبَاسٍ^(١) مِنَ الْمَعْرُوفِ خُشْنِ
أَنْفَاسُ فِي وَدَادِ أَخٍ مَشُوبٍ^(٢) بَغْلٍ^(٣) أَوْ سَمَاحٍ يَدٍ بِمَنْ
إلى ان قال:

تَنْقُلُ إِنَّ فِي النَّقْلِ اغْتِلَاءُ وَعِزًّا، وَالْهَوَانُ مَعَ الْمَبْنِ
لَكُنْ ضَاقَتْ بِي الزُّورَاءُ دَارًا فَمَا ضَاقَتْ بِبِلَادُ اللَّهِ عَنِّي
وَلِي فِي الْأَرْضِ مُضْطَرَبٌ وَسِيعٌ وَمُرتَكِضٌ إِذَا هِيَ لَمْ تَسْعِي
سَأْرَهُفُ مِنْ مَضَاءِ الْعَزَمِ عَضْبًا^(٤) إِذَا نَبَتِ الصَّوَارُمُ لَمْ يَخْنِي
.. الخ^(٥).

وقال من قصيدة ثانية:

فُسَدَ النَّاسُ، فَالْمَوَدُ^(م) دَاتٌ فِيهِمْ عَلَى دَخْنٍ^(٦) فَتَوَحَّدُ، وَلَا تَكُنْ
وَتَغَرَّبَتْ لَا تَحْمِلِ^(م) ضِيمَ فِي مَوْطِنٍ تَهُنْ ذَا سُكُونٍ إِلَى سَكْنٍ^(٧)
فَأَخُو الْفَضْلِ حَيْثُ كَا ضِيمَ فِي مَوْطِنٍ تَهُنْ
فَهُوَ كَالْمَاءِ مَا أَقَا نَ غَرِيبًا عَنِ الْوَطْنِ
وَالْفَتَى الْحَازِمُ الَّذِي مَ بِأَرْضٍ إِلَّا أَجْنُ^(٨)
سَبَرَ الدَّهْرَ وَامْتَحِنَ^(٩) سَبَرَ الدَّهْرَ وَامْتَحِنَ^(١٠)

وأما الحيف بيص فان دراسة شعره تثبت ان صلاته بزعماء الدولة العباسية ومنهم الخلفاء، محدودة ضيقة^(١١) وقد كان الرجل معروفا بميله الى الشيعة رغم انه شافعي المذهب^(١٢)، وقد خرج هذا الشاعر الى حرب الخليفة المسترشد بصحبة امير الحلة دُبَيْسَ المزيدي^(١٣). ويبدو ان ولاء الحيف بيص لبني العباس كان موضع شك، ولذلك كان هذا الشاعر ممن قبض عليهم

(١) الاجباس: واحدها جنس: اللثيم، الجبان.

(٢) مشوب: مزوج.

(٣) الغل: الحقد والغش.

(٤) الغضب: السيف.

(٥) الديوان ص ٤٤١

(٦) دخن: فساد.

(٧) السكن: الانقطاع عن الحركة ويراد بها هنا السكن او المنزل.

(٨) أجن الماء: تغير لونه وطعمه.

(٩) سَبَرَ الدهر: عرفه جيدا.

(١٠) الديوان ص ٤٢٧ - ٤٢٨

(١١) انظر - مثلاً - أسماء الممدوحين في الجزء الأول من الديوان المطبوع.

(١٢) الشعر العربي في العراق ٦٣/٢

(١٣) مقدمة الجزء الاول المطبوع ص ٤٧

حين ورد الخبر الى بغداد بوفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ، ولكنه اطلق بعد حين واعيد عليه ما أخذ منه^(١). وللحيص بيص مقطوعة في ديوانه المطبوع يعاتب فيها الخليفة المسترشد على قلة ما يصل اليه لقاء شعره أولها:

خَلِيفَةُ اللَّهِ مَا لِي كُلَّمَا بَسَطْتُ نَفْسِي الرَّجَاءَ طَوَى الْحِرْمَانُ آمَالِي؟
وَكُلَّمَا كَثُرَتْ - وَالْحَالُ شَاهِدَةٌ - وَسَائِلِي آذَنْتُ حَالِي بِإِقْلَالِ
الى ان يقول:

فَارْعُوا ذِمَامَ مُحِبٍّ دُونَ مَجْدِكُمْ مُقَارِعَ بَيْنَ قَوَالٍ وَصَوَالٍ
وَهَوِّنُوا الْمَالَ فِي إِحْرَازِ حَمْدِكُمْ فَالْحَمْدُ لِلْمُقْتَنِيِّ أَبْقَى مِنَ الْمَالِ^(٢)

والمقطوعة صريحة الدلالة على ان خلفاء بني العباس كانوا لا ينظرون الى الحيص بيص بارتياح، ولذلك يتعمدون التقدير عليه في العطاء.

مدح العباسيين بعقائد الفاطميين:

مر بنا ان جوهر الخلاف وسبب الصراع والقتال بين العباسيين والفاطميين الذي استمر اجيالاً طويلة، وخسر المسلمون جميعاً بسببه كثيراً من الارواح كان يمكن ان يستفاد منها في الذود عن بلاد المسلمين، اقول لقد شاع وعرف ان الخلاف بين الطرفين سببه الدين أو المذاهب الدينية بعبارة أدق.

فقد قال العباسيون - ومعهم جمهور اهل السنة والجماعة - ان غلو الفاطميين في عقائدهم - التي تدور كلها حول الامام الفاطمي وتمجيده اكثر من أي شيء آخر^(٣) - قد اخرجهم عن جماعة المسلمين، لان الاسلام لا يعرف هذه الصفات التي خلعها الفاطميون على أئمتهم، ولذلك اطلق عليهم بعض السنة القاباً منها «الكفار» و «الزنادقة» و «المجوس»^(٤).

وحين تدخل الشعراء في هذه المعركة، راحوا يكيلون الشتائم والسباب للفاطميين، حتى اضطر بعض مؤرخي السنة انفسهم الى اسقاط رواية هذا الشعر تخرجاً^(٥).

(١) ابن الأثير ٣٢٨

(٢) الديوان المطبوع ٣٤٣/١

(٣) في أدب مصر الفاطمية ص ٣٦

(٤) دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ص ١٤

(٥) اثر الصراع المذهبي ص ٣٠٥ - ٣٠٦

وقد استمرت المعارك سجالات بين الطرفين، كل طرف يحاول ان يثبت ويبرهن على ان رئيسه الأعلى أحق بالزعامة الدينية والدنيوية من خصمه لانه اقرب الى الرسول ﷺ من جهة أو لأن صفاته الدينية التي حباه الله بها وفضله لاجلها اكثر وأوضح مما هي عند الخصم. . وهكذا حتى سقطت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ، وبعد هذا التاريخ كان المفروض ان يعود المنتصرون- وهم الايوبيون والعباسيون- الى العقيدة التي حاربوا الفاطميين من أجلها. . ولكن ما حصل كان على النقيض تماما: فقد استمرت الصفات التي غلا الفاطميون فاطلقوها على خلفائهم استمرت تطلق على ملوك الايوبيين وخلفاء بني العباس، بل لقد قيل في هؤلاء من النعوت والصفات ما لم يقله الفاطميون^(١)، وهذا مما يؤكد ان الدين بريء مما نسب اليه، وانه كان ستارا لاهداف سياسية.

فاذا عدنا الى الشعر العراقي، موضوع هذه الرسالة، فسوف نجد ان مديح ابن التعاويذي للخليفتين المستضيء وابنه الناصر لدين الله، يكون اكبر مجموعة من القصائد تصلنا كاملة من مدائح خلفاء بني العباس في القرن السادس، وبدراسة هذه المجموعة الشعرية النادرة، ظهر واضحا ان شاعر الديوان العباسي كان يمدح الخلفاء بالصفات والنعوت والمعاي التي اشتهرت بانها من اختراعات الفاطميين وغلوهم في أئمتهم.

١ - من عقائد الفاطميين العقيدة التي كثيرا ما رددوها دعاء المذهب، والتي تنص على انه لا تقبل من عبد طاعة الا باعتقاد ولاية الامام. وقد نظم هذه العقيدة شاعر المذهب الفاطمي وداعيته المؤيد^(٢) في الدين، فقال يمدح امامه المستنصر:

يا وَلِيَّ الْاِلهِ يا مَنْ به تُقَرَّم) بَلْ مِنا صَلَاتُنَا وَالصَّيَامُ^(٣)

وقال تميم^(٤) بن المعز :

بِهْ يَقْبَلُ اللهُ فَرَضَ الصَّيَامِ وَحَجَّ الْحَجِيجِ وَأَهْلًا لَهَا^(٥)

وقوله :

(١) دراسات في الشعر ص ٣٦، ٣٩ - ٤٣، أثر الصراع ص ٤٥٢، ٤٥٣

(٢) هوهبة الله بن موسى بن داود الشيرازي، كان من أكبر علماء عصره، وتدلنا كتبه على أنه كان واسع الثقافتصلا إلامانا بجميع العلوم التي عرفت في العالم الاسلامي إذ ذاك. توفي في القاهرة سنة ٤٧٠ هـ.

مقدمة ديوانه ص ١٧ - ٦٤ - في أدب مصر الفاطمية ص ٨١ - ٨٨

(٣) ديوان داعي الدعوة ص ٢٣٤

(٤) هوا بوعلي تميم بن المعز بن المنصور، كان فاضلا شاعرا ماهرا توفي بمصر سنة ٣٧٤ هـ. يتيمة الدهر ٢٥٣/١، ٣٩٠ - ٣٩٧

(٥) (ط. الصاوي)، المنتظم ٩٣/٧، وفيات الأعيان ٢٦٩/١، مقدمة ديوانه.

(٥) ديوان تميم ص ٣٢٠

فَهَيَّئْهُ يَا مَنْ بِهِ اللَّهُ قَابِلٌ مِنْ الْخَلْقِ فِيهِ كُلُّ نُسْكِ مُقَدَّمٍ^(١)

وهذا المعنى الفاطمي هو نفسه الذي رده ابن التعاويذي في مدح خلفاء بني العباس، فقال يمدح الناصر:

خَلِيفَةُ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ طَاعَتُهُ حَقًّا وَعِصْيَانُهُ لِلَّهِ عِصْيَانٌ
إِذَا تَمَسَّكَتَ فِي الدُّنْيَا بِطَاعَتِهِ فَمَا لِسَعِيكَ عِنْدَ اللَّهِ كُفْرَانُ^(٢)
وقال يمدح المستضيء بأمر الله:

لَوْلَا تَمَسُّكُهَا بِطَاعَتِهِ لَمَّا صَحَّتْ عَقِيدَتُهَا وَلَا إِسْلَامُهَا
أَنْ لَهَا بُرَاغِمٌ عَنْ أَمْرِهِ لَوْ حَاوَلَتْهُ لَسَفَهَتْ أَحْلَامُهَا
وَبِهِ عِبَادَتُهَا تَتِمُّ، وَنُسْكُهَا وَنِكَاحُهَا، وَصَلَاتُهَا، وَصِيَامُهَا^(٣)
وقال أيضا يمدحه:

تَرْمِي الْعِدَى بِنَوَافِذِ^(٤) الْ عَزَمَاتِ مِنْ آرَائِهَا
لَا يُرْتَضَى مِنْ عَامِلٍ عَمَلٌ بِغَيْرِ وَلَائِهَا^(٥)
ومن قصيدة في مدح الناصر:

مِنْ مَعْشَرٍ وَرِثُوا النَّبِيَّ خِلَافَةً أَفْضَتْ إِلَيْهِمْ كَابِرًا^(٦) عَنْ كَابِرٍ
قَوْمٌ بِحَبِّهِمْ وَطَاعَتِهِمْ غَدَاً فِي الْحَشْرِ يُعْرِفُ مُؤْمِنٌ مِنْ كَافِرٍ^(٧)
وقال يمدح المستضيء:

وَطَاعَتُكَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْهُدَى وَعِصْيَانُكَ الْإِلْحَادُ فِي الدِّينِ وَالْكَفْرُ
وَلَوْلَاكَ مَا صَحَّتْ عَقِيدَةُ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ، وَلَمْ يُقْبَلْ دُعَاءٌ وَلَا نَذْرُ^(٨)

ويبدو ان الناس في الفترة التي ادرسها - أو العامة منهم على وجه التخصيص - كانوا

(١) ديوان تميم ص ٣٨١.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤١٤

(٣) نفسه ص ٤١٠.

(٤) الآراء النوافذ: المطاعة.

(٥) الديوان ص ٤٧٣ - ٧٤

(٦) الكابر: الجد الأكبر.

(٨) نفسه ص ١٧٣

(٧) الديوان ص ١٧٠

يعتقدون ان فروض الدين لا تقبل منهم الا اذا رضي عنهم الخليفة، جاء في المنتظم: ان العامة ببغداد كانوا يسبون الاتراك السلاجقة ويقولون يا باطنية، يا ملاحدة، عصيتُم أمير المؤمنين، فعمودكم باطلة وانكحتكم فاسدة^(١).

ومما يتصل بولاية الامام وانها احد اركان الدين، قال الفاطميون: ان الامام حجة الله على عباده وهاديتهم الى الطريق القويم، وهو جبل الله الممدود بينه وبين العباد^(٢). وقد وردت هذه اللفظة «حجة الله» و«جبل الله» عدة مرات في مدائح ابن التعاويذي للخليفين الناصر لدين الله ووالده المستضيء، كقوله في المستضيء:

أَنْتَ - فَلْيَرْغَمِ الْعِدَى - حُجَّةُ اللَّهِ - وَأَنْتَ الْمَحْجَّةُ الْبَيْضَاءُ
أَنْتَ حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي فَازَ مَنْ أَذْ - نَتَهُ مِنْهُ مَوَدَّةٌ وَوَلَاءٌ^(٣)
وقال في الناصر:

يَا مُبِيدَ الْعِدَى، وَيَا قَاتِلَ الْمَحْ - لِي نِدَاءُ وَطَارِدَ الْإِفْلَاسِ
حُجَّةُ اللَّهِ أَنْتَ وَالسَّبَبُ الْمَمْدُودُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ^(٤)

٢ - اعتقد الفاطميون بان الامام يتصف بما يتصف به الرسول، وان كانت مرتبة الامامة دون مرتبة النبوة، ولذلك قالوا بان الائمة لهم حق الشفاعة لاتباعهم يوم القيامة. وهذا يفسر قول ابن هانيء في مدح المعز:

هَذَا الشَّفِيعُ لَأَمَةٍ يَأْتِي بِهَا - وَجْدُودُهُ لِجَدُودِهَا شَفْعَاءُ
هَذَا أَمِينُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ - وَبِلَادِهِ إِنْ عُذِّبَ الْأَمْنَاءُ^(٥)

وهذه الفكرة ذاتها مدح بها ابن التعاويذي الخليفين الناصر لدين الله والمستضيء عدة مرات، قال يمدح المستضيء من قصيدة:

أَنْتُمْ لِلنَّاسِ أَعْلَامٌ هُدًى - يَلْتَجِي السَّارِي إِلَى نِيرَانِهَا
أَنْتُمْ فِي الْحَشْرِ دُخْرُ يَوْمٍ لَا - يَنْفَعُ النَّفْسَ سِوَى إِيْمَانِهَا
يَوْمَ لَا تَحْبُطُ أَعْمَالُ فَتًى - حُبُّكُمْ فِي كَفْتِي مِيزَانِهَا

(١) المنتظم ٢٥٩/٨

(٢) في أدب مصر الفاطمية ص ٢٢، اثر الصراع ص ٣٣٧

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٢

(٤) نفسه ص ٢٣٨

(٥) شرح ديوان ابن هانيء ص ١٨

وَذُنُوبٌ أَوْبَقْتَنِي^(١) كَثْرَةً بِكُمْ أَطْمَعُ فِي غُفْرَانِهَا^(٢)

وقال أيضا في مدحه:

يَا مَنْ عَلَيْهِ مُعَوَّلٌ فِي عَاجِلِ الْمَوْتِ (م) وفي الأخرى عليه أُعَوِّلُ
وَبِمَدْحِهِ مِيزَانُ أَعْمَالِي - إِذَا خَفَّتْ مَوَازِينُ الْقِيَامَةِ - تَثْقُلُ^(٣)

وقال يمدح الناصر:

أَيُّضِلْ أَوْ يَصْلِي لَظِي مَنْ أَنْتُمْ شُفَعَاؤُهُ وَآلِي الصَّرَاطِ هُدَاتُهُ؟
وَاللَّهِ لَا وَرَدَ الْقِيَامَةَ ظَامِيًّا مَنْ أَنْتُمْ آلَ النَّبِيِّ سُقَاتُهُ
كَلاَّ وَلَا خَابَ أَمْرُؤُ وَالْأَكْمُ فِي كَفَّتِي مِيزَانِهِ حَسَنَاتُهُ^(٤)

وقال فيه أيضا:

بِهِمْ تُحَطُّ الْأَوْزَارُ عَنَّا، فَإِنْ عَنْ بَلَاءٍ فَهَمُّ لَنَا وَزُرُ^(٥)
كُلُّ مُسِيءٍ إِلَى شَفَاعَتِهِمْ فِي الْحَشْرِ يَوْمَ الْمَعَادِ يَفْتَقِرُ^(٦)

وقال:

مَوَازِينُ أَعْمَالِي غَدًا بِلَوَائِهِمْ - إِذَا خَفَّتْ مِيزَانُ الْخَلَائِقِ - تَرْجُحُ
مَيَامِينُ مَنْ عَادَاهُمْ، فَهُوَ مُخْبِرٌ شَقِيٌّ، وَمَنْ وَالَاهُمْ فَهُوَ مُرْبِحٌ^(٧)

٣ - حين قال ابن هانئ الاندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي:

مَا شِئْتُ لَا مَا شَاءَتْ إِقْدَارُ فَاحْكُمْ، فَانْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٨)

فهم القدماء من هذا البيت وامثاله ان الشاعر يؤله امامه، وحكموا بان الائمة
الفاطميين ادعوا الالهية^(٩). ولم يشر احد الى ان ابن التعاويذي قد نقل هذا المعنى
حرفيا ليمدح به الخليفة العباسي الناصر لدين الله، فقال من قصيدة:

(١) أَوْبَقْتَنِي: أَهْلَكْتَنِي.

(٢) الديوان ص ٤٤٦

(٣) نفسه ص ٣٢٩

(٤) الديوان ص ٦٧

(٥) الوزر: أَرَادَ الْمَعِينُ وَالْمُسَاعِدَ، مِنَ الْفِعْلِ: أَزَرَ

(٦) الديوان ص ١٦٠

(٧) نفسه ص ٨١، وانظر أيضا ص ١٦٦، ١٧٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ١٧٠

(٨) شرح ديوان ابن هانئ ص ٣٦٥

(٩) في أدب مصر الفاطمية ص ٢٩

أَنْتَ رَبُّ الزَّمَانِ تَجْرِي بِتَصْرِيحٍ (م) فِكَ فِي أَهْلِهِ يَدُ الْمَقْدُورِ
والليالي خَوَادِمُ لَكَ، وَالْأَيَّامُ، فَاحْكُمُ حُكْمَ الْعَزِيزِ الْقَدِيرِ^(١)

وقد يكون شاعر الفاطميين معذورا، لانه انما يعبر عن عقيدة القوم وفلسفتهم، ولذلك قال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين عند بيت ابن هاني المتقدم: ولو كان القدماء يعرفون حقيقة العقيدة الفاطمية ما وجدوا في هذا القول تأليها ولا غلوا في العقيدة^(٢).

اما شاعر القرن السادس فما اظن سنيا واحدا يجد له اي عذر. لقد اراد أن يجدد ويطور في المعاني التي مدح بها الخلفاء، وقد وجد كأن القدماء لم يتركوا زيادة لمستزيد في هذا الميدان، فاضطر الى الكفر الصريح. وكما هي العادة دائما حين لا يجد الشاعر من يحاسبه او يناقشه في معاني شعره وانما يواجه بالصمت المطبق - ربما خوفا من الخليفة لان الشاعر من المقربين اليه - لذلك استمر الشاعر يمدح الخلفاء بهذه المعاني الدينية، فقال من قصيدة أخرى في الناصر:

.. تَبَقَّى بَقَاءُ الْأَيَّامِ حَالِيَةً بِالْعَدْلِ مِنْكَ الْأَنَارُ وَالسَّيَرُ
.. فَاحْكُمْ عَلَى الدَّهْرِ قَادِرًا فِيمَا تَشَاءُ يَجْرِي الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ
.. يَا صَاحِبَ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ وَمَنْ فِي يَدِهِ النَّفْعُ بَعْدُ وَالضَّرَرُ
.. وَمَنْ لَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا كَرًّا عَلَيْهِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
والْبَرُّ وَالْبَحْرُ وَالشَّوَاهِقُ وَالـ غُرُّ الْعَوَادِي وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ
.. عِتَادُ مُلْكٍ لَهُ زَيْتَرُ سَطَى تَكَادُ مِنْهَا الْجِبَالُ تَنْفَطِرُ
.. مِنْ مَعَشِرٍ تَخْضَعُ الْجِبَاهُ لَهُمْ وَتَقْشَعُرُّ الْجُلُودُ إِنْ ذُكِرُوا^(٣)

ومن قصيدة في مدح المستضيء:

مُرَ الدَّهْرَ يَفْعَلُ مَا تَشَاءُ، فَلِإِنَّهُ بِأَمْرِكَ يَجْرِي فِي تَصَرُّفِهِ الدَّهْرُ
.. وَكَيْفَ يُقَاسُ الْبَحْرُ جُودًا بِكَفِّهِ وَمِنْ بَعْضٍ مَا تَحْوِيهِ قَبْضَتُهُ الْبَحْرُ
وما لضيء البدر إشراف وجهه وَأَنْتَى، وَمِنْ إِشْرَاقِهِ خُلِقَ الْبَدْرُ؟
.. وَكَيْفَ يُهْنَى بِالزَّمَانِ، وَإِنَّمَا تُهْنَى بِهِ الْأَيَّامُ وَالْعَامُ وَالْعَصْرُ

(٢) في ادب مصر ص ٢٩

(١) الديوان ص ١١٥

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٥٨ - ١٦٠

ولكننا نُثْنِي عليه تعبداً وإنْ كَانَ عَنَّا ذَا غِنًى فَبِنَا فَقْرٌ^(١)

وعندي ان شعر ابن التعاوذي هذا، وهو شاعر الخليفة الرسمي، قد شجع بقية الشعراء على السير في هذا الاتجاه، ولذلك نجد كمال الدين النّبيه المتوفى سنة ٦١٩ هـ، يقول في مدح الخليفة الناصر:

بَغْدَادُ مَكْتَنَّا، وَاحْمَدُ أَحْمَدُ حُجَّوْا إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ وَاسْجُدُوا
يَا مُذْنِبِينَ بِهَا ضَعُوا أَوْزَارَكُمْ وَتَطَهَّرُوا بِتَرَابِهَا، وَتَهَجَّدُوا
فَهَنَّاكَ مِنْ جَسَدِ النَّبُوَّةِ بِضَعَةٍ^(٢) بِالْوَحْيِ جَبْرِيلُ لَهَا يَتَرَدَّدُ
... الخ^(٣).

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى لم يبق فيها زيادة لمستزيد، مدح بها القاضي الفاضل ومطلعها:

قُمْتُ لَيْلَ الصُّدُودِ الْآ قَلِيلاً ثُمَّ رَتَلْتُ ذِكْرَكُمْ تَرْتِيلاً^(٤)

ان القراءة الدقيقة لمدائح ابن التعاوذي في خلفاء بني العباس، تدل على أن الشاعر يريد اثبات تفوق الخليفة العباسي على منافسه الفاطمي من الناحية الدينية حتى بعد ان زال نفوذ الفاطميين السياسي، ولذلك كان من الطبيعي أن يصف حرص الخليفة الشديد على اداء شعائره الاسلام - ومنها الصلاة والصوم - حتى في اصعب الاوقات كقوله في مدح الناصر:

إِمَامٌ يُطِيعُ اللَّهَ فِي خَلَوَاتِهِ بِطَاعَتِهِ الْأَعْمَالُ تَزْكُو^(٥) وَتُصْلَحُ
.. هُوَ الْقَائِمُ الصَّوَامُ، وَاللَّيْلُ صَائِفٌ وَلِلْقَيْظِ زَنْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْدَحُ^(٦)
وقوله:

إِمَامٌ يَخَافُ اللَّهَ سِرّاً وَجَهْرَةً وَيُضْمِرُ تَقْوَى اللَّهِ فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ
.. يُقِيمُ حُدُودَ اللَّهِ غَيْرَ مُرَاقِبٍ بِقَائِمٍ مَطْرُورٍ^(٧) الشُّبَا بَاتِرِ الْحَدِّ^(٨)

(١) نفسه ص ١٧٣ - ١٧٦ ، وأنظر أيضا ص ١٧٢

(٢) البَضْعَةُ: القطعة من اللحم .

(٤) ديوان ابن النّبيه ص ٦٨

(٦) ديوان ابن التعاوذي ص ٨٠ ، ٨١

(٨) الديوان ص ١٤٩ ، ١٥٠

(٥) تزكو: تحسن وتصلح .

(٧) مَطْرُور الشُّبَا: مُعْدَد الطَّرْف .

وقال*

فَلِمَلِكِهِ رَأْدُ^(١) الضُّحَى تَثْقِيْفُهُ وَلِرَبِّهِ جُنْحُ^(٢) الدُّجَى إِنْجَابُهُ^(٣)
.. لَابِنِ السَّبِيلِ عَطَاؤُهُ وَجِبَاؤُهُ^(٤) وَلِذِي الْإِسَاءَةِ حِلْمُهُ وَأَنَاؤُهُ^(٥)

كذلك حرص الشاعر على القول - في جميع المدائح تقريبا - على ان الخليفة شديد القرابة من الرسول ﷺ فهو ابن عمه :

آلُ النَّبُوَّةِ بُرْدُهَا وَقَضِيْهَا لَكُمْ وَمِنْبَرُهَا مَعَا وَحُسَامُهَا

أبناء عمِّ المُصطفى الهادي وخيـ(م) رُ عَصَابِيَّةٍ وَطِيءَ الثَّرَى أَقْدَامُهَا^(٦)

ومن البديهي أن الشاعر لا يمكن ان يعيد ويكرر في جميع القصائد والأبيات وفي شتى المناسبات عبارة واحدة هي أن الخليفة ابن عم الرسول ﷺ ولذلك راح يتصرف في هذا المعنى ويردده بالفاظ مختلفات فمرة يقول :

آلُ الرِّسَالَةِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ وَالْحَمْدُ يُفْتَحُ^(٧) الصَّلَاةُ وَتُخْتَمُ
قَوْمٌ عَلَى أَبْيَاتِهِمْ تَنْزَلُ الـ أَمْلاكَ، وَالْمَبْعُوثُ أَحْمَدُ مِنْهُمْ^(٨)
وقال ايضا :

جَارٍ عَلَى سُنَنِ^(٩) وَسُنَّةِ (م) خُلَفَاءٍ مِنْ آبَائِهِ تُثَقِّلُ^(١٠)
شَرَفًا بَنِي الْعَبَّاسِ شَادَ بِنَاءُهُ لَكُمْ فَاعْلَاهُ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ
وَابُوكَ سَيِّدُ هَاشِمٍ طُرّاً وَخِيـ(م) رُ النَّاسِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ وَأَفْضَلُ
وَوَقَفَتْ مِنْ شَرَفِ الْخِلَافَةِ مَوْقِفًا مِنْ دُونِهِ سِرُّ النَّبُوَّةِ مُسْبَلُ^(١١)

والشاعر في هذا البيت الاخير يخاطب الخليفة المستضيء، ويلاحظ ان الشاعر - وهو يتصرف في التعبير عن القرابة بين الرسول ﷺ والخليفة - لا يتخرج من تجاوز المعروف والمسموح به دينيا في هذه الصلة، مما يكشف حقيقة تدين الشاعر من ناحية، وألدى الذي بلغته سلطة الدين على الناس في القرن السادس من ناحية اخرى، ففي البيت المشار اليه

(١) رَأْدُ الضُّحَى : وقت ارتفاع الشمس .

(٢) الْجُنْحُ : الناحية .

(٣) الْإِنْجَابُ : العطاء .

(٤) الدُّجَى : نفسه ص ٤٠٩

(٥) الدُّجَى : نفسه ص ٦٥ ، ٦٦

(٦) الدُّجَى : نفسه ص ٣٧٣

(٧) كَذَا بِالْأَصْلِ وَالصَّوَابِ : تَفْتَحُ .

(٨) تُثَقِّلُ : تَتَبَعُ ، وَهِيَ بِالْأَصْلِ بِالْبَاءِ تَقْبَلُ تَصْغِيفُ .

(٩) السُّنَنُ : الطَّرِيقُ .

(١٠) الدُّجَى : نفسه ص ٣٢٨ ، ٣٢٩

قال الشاعر «ستر النبوة» وهو يريد «ستر الخلافة» وهو متعمد في هذا التلاعب بالالفاظ - وهو غير جائز دينيا - لانه يريد ان يوحي للناس بان لا فرق بين الخلافة والنبوة، ولست هنا انطق الشاعر بما لم يقصد اليه، فقد قال في قصيدة اخرى:

أَرَدَيْتُمْ كِسْرِي وَتُبِعَ خَيْرِ وَالْمُلْكُ مَعْصُوبٌ بِكُمْ حَزْرَاتُهُ^(١)
وَكَفَاكُمْ شَرْفًا وَمُعْجَزَةً تَضَا وَلَهُ لَكُمْ حَتَّى هَوَتْ شُرَفَاتُهُ^(٢)

فقد زعم الشاعر ان الخلفاء من بني العباس لهم معجزات، وهي لم تصح الا للانبياء. وقال يمدح الناصر:

فَقُلْ لِمَلِكِ الْأَرْضِ دِينُوا لِأَمْرِهِ وَلَا تَتَوَلَّوْا حَائِرِينَ عَنِ الْقَصْدِ
وَلَا تُضْمِرُوا عِصْيَانَ أَمْرِ إِمَامِكُمْ مُخَالَفَةً عَنْهُ فَعَصِيَانَهُ يُرْذِي
أَطِيعُوهُ مِنْ حُرٍّ وَعَبْدٍ، فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ مَبْعُوثٍ إِلَى الْحُرِّ وَالْعَبْدِ^(٣)

ففي هذا البيت الاخير جعل الخليفة كالنبي فهو «مبعوث» الى الحر والعبد ولعل ابن التعاويذي في ابياته هذه ومحاولاته للتقريب بين النبي والخليفة أراد ان يقلد الفاطميين الذين يعتقدون ان الامام يقوم مقام النبي^(٤).

٥ - وما دام الشاعر ابن التعاويذي حريصا على ابراز المكانة الدينية للخليفة العباسي - وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة من مدائح الشاعر كلها - لذلك لا بد أن يستعين بآيات والفاظ القرآن الكريم في اشاعة الجو المقدس والاطار الروحي لتلك القصائد، فمثلا حين يمدح المستضيء بعد اعادة الخطبة للعباسيين بمصر قال:

مَلَكَتْهَا يَدَاكَ، وَاللَّهِ يُؤْتِي مُلْكُهُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ^(٥)

وقال ايضا في القصيدة ذاتها:

نَزَعَ الْغُلَّ^(٦) مِنْ صُدُورِهِمْ عِنْدَ ذِكِّ جُودٍ لَا يُبْتَغَى وَعِطَاءُ^(٧)

(١) الحزرات: الجيار من كل شيء.

(٢) الديوان ص ٦٦

(٣) نفسه ص ١٥٠، وأنظر ص ٢٨٣ البيتان ٩، ١٠

(٤) في ادب مصر الفاطمية ص ١٨٦

(٥) الديوان ص ٢

(٦) الغل: الحقد.

(٧) الديوان ص ٥

وواضح ان البيت الاول من قوله تعالى في الآية ٢٤٧ (سورة البقرة): وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. والبيت الثاني من قوله تعالى في الآية ٤٣ (سورة الاعراف): وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ.

ومن قصيدة ثانية قال الشاعر يمدح الناصر:

وَبِهِ يُرْتَجَى النِّجَاهُ إِذَا حُصِّدَ صِلَ يَوْمَ الْحِسَابِ مَا فِي الصُّدُورِ^(١)
وهو من قوله تعالى في الآية ١٠ (سورة العاديات): أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ.

ومن قصيدة في مدح المستضيء قال:

بَذَفْتَهُمُ بِالرُّعْبِ مِنْ كُلِّ مَسْلَكٍ فَكُلُّ سَبِيلٍ أَمَّ رَائِدُهُمْ وَعَرُ^(٢)

وهو من قوله تعالى في الآية ٢٦ (سورة الأحزاب): وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، ولست أشك ان الشاعر اظهر براعة في ادخال الالفاظ القرآنية الى مدائح الخلفاء وساعد بذلك على الايماء بالجو الديني المقدس الذي يحيط بمركز الخليفة، ولكن الشاعر لا يريد لمدح الخليفة ان يقف عند حد، وهو يعلم ان الاستعانة بالقرآن الكريم في المدح عموماً ومدح الخلفاء خصوصاً ليس جديداً، ومن هنا لا بد من تجاوز هذا القديم المعروف. فكان ان انجبه الشعر الى الغلو والافراط في صفات الخلفاء، فالتقى في نهاية المطاف مع شعراء الفاطميين، لقد اراد ابن التعاويذي أن يعبر عن عظم مكانة الخليفة، فكان ان زعم بأن القرآن الكريم مدح الخليفة وأثنى عليه:

يَا مَنْ لَهُ مِدْحٌ يَقْصُرُ نَاطِقاً عَنْهَا لِسَانُ الْمَادِحِ الْوَصَافِ
نَطَقَتْ بِهَا آيُ الْكِتَابِ فَكَيْفَ تَبْ لُغَهَا يَنْظُمُ قَلَائِدُ وَقَوَافِ^(٣)؟

وقال ايضا:

يَا إِمَاماً اغْنَتْ عَنْهُ عِلَاهُ عَنْ الْأَشْ عَارِطُهُ وَالنَّمْلُ وَالشُّعْرَاءُ
مَدَحَتُهُ السَّبْعُ الْمَثَانِي فَمَا تَبْ لُغُ غَايَاتِ مَدْحِهِ الْبُلْغَاءُ^(٤)؟

وقال من قصيدة ثالثة:

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٥

(٢) نفسه ص ١٧٥

(٣) نفسه ص ٢٨٧

(٤) نفسه ص ٢

عَنْ جَوْدِهِمْ رُوِيَ أَحَادِيثُ النَّدَى وَبِفَضْلِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ
إِنْ كُنْتَ تُنْكِرُ مَآثِرَاتِ قَدِيمِهِمْ فَاسْأَلْ بِهَا «يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ»^(١)

ان اصل الفكرة التي يرددها ابن التعاويذي هنا موجود عند شعراء الفاطميين منذ القرن الرابع، وما اظن احدا مدح خلفاء بني العباس بها بهذا الشكل قبل شاعر القرن السادس. فمن الشعر الفاطمي قول ابن هاني بمدح المعز:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْلَمْ حَقِيقَةَ فَضْلِهِ فَسَأَلْ بِهِ الْوَحْيَ الْمُنَزَّلَ تَعْلَمُ^(٢) *
وقال ايضا:

نَطَقْتَ بِكَ السَّبْعُ الْمَثَانِي السُّنَا فَكَفَيْتَنَا التَّعْرِیْضَ وَالتَّصْرِیْحَا
شَهِدْتَ بِمِفْخَرِكَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا وَتَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِيكَ مَدِيْحَا^(٣)

ان النتيجة الحتمية التي يخرج بها الباحث بعد دراسة مدائح ابن التعاويذي في خلفاء بني العباس هي ان الشاعر جعلهم فوق مستوى البشر وان العالم مدين لهم ببقائه ووجوده، ولا يحق لاحد ان يعترض عليهم او يقف في وجوههم، لأنه بذلك يعترض على ارادة الله سبحانه.

واظن ان هذا المفهوم هو نفسه الذي اراده الفاطميون حين غلوا في أئمتهم فاتهموا بالكفر والالحاد والخروج على المبادئ الاسلامية.

ومن البديهي ان ابن التعاويذي ليس الشاعر الوحيد الذي مدح الخلفاء في القرن السادس، بل ان مديحهم يأتي في مقدمة الشعر العراقي كله، كما سبق ان اشرت^(٤). ولعل الابله البغدادي يأتي في هذا الباب بالمرتبة الثانية^(٥).

كذلك من البديهي ان التأثير الفاطمي في الشعر العراقي لهذه الفترة لم يقتصر على شعر ابن التعاويذي وحده، فقد اثبت احد الباحثين المحدثين ان قصيدة ابي الفرج ابن الجوزي في مدح الخليفة المستضيء، والتي مطلعها:

يَا سَيِّدَ الْخَلْقِ وَعَيْنَ الْاَكْوَانِ خَلِيفَةَ اللَّهِ الْعَظِيمِ السُّلْطَانَ^(٦)

(١) نفسه ص ٣٢٨، وانظر أيضا ص ١٧٤، ١٥٨، ٦٧ (٢) شرح ديوان ابن هاني ص ٦٦٦

(٣) شرح ديوان ابن هاني ص ١٦٠ - ١٦١

(٤) أنظر دراسة شعر المديح في الفصل الثالث.

(٥) له في الخلفاء تسع قصائد. أنظر الديوان ١ - ٩ (٦) المنتظم ٢٦٣/٨٠ - ٢٦٤

فيها آراء فاطمية كما في هذين البيتين:

حُبُّ بني العباسِ أَصْلُ الإيمانِ بَنَى الإلهَ وَدَّهُم في الجُثمانِ
الحجرُ والبيتُ لَهُم والأركانُ أَصْبَحَتْ كالرُّوحِ وَنَحْنُ أُبدانُ

فقال الدكتور صلاح الدين محمد: ألا تراه قد جعل حب خلفاء بني العباس اصلاً للإيمان، وجعلهم في عالم الدين كالأرواح بالنسبة للابدان، أي انه يفضلهم على سائر البشر، وقد رأينا هذه المعاني نفسها تتردد على السنة الشعراء الفاطميين^(١)

ولكن رغم هذا يلاحظ ان الآراء الفاطمية واضحة وكثيرة في شعر ابن التعاويذي حين يمدح الخلفاء فقط، وكثرتها في هذا الديوان تلفت النظر وتجعله متميزاً عن بقية شعر العراق في القرن السادس كله، مما يحمل المرء على البحث عن اسباب هذه الظاهرة، خاصة وكان المفروض ان يحدث العكس ما دام ابن التعاويذي من شعراء ديوان الخلافة، وهو يعلم ان عقائد الفاطميين وآراءهم من اكبر واهم اسباب نقمة اهل السنة عليهم. ولا يخفى ان خليفة بغداد هو الرئيس الديني الاعلى للمسلمين من غير الشيعة.

ج - ظن خلفاء بني العباس ان خضوع البلاد للسلاجقة السنيين بدل البويهيين الشيعة سيغير الامور الى صالحهم، ولكن الايام اثبتت بطلان هذا الظن. فبدأ الخلفاء ينتهزون الفرص للانقضاض على السلاجقة وتخليص البلاد من شرهم، لا سيما وقد كانوا السبب في مقتل خليفتي^(٢).

وكان سلاح العباسيين لطرد السلاجقة وحمل العراقيين على التخلص منهم ذا حدين:

اولهما الدين وقد حمل لواءه اول خليفة عباسي يقود جيشاً لمحاربة السلاجقة وهو المسترشد بالله حين قال يحرص الناس ويصف الاتراك: فوضنا امورنا الى آل سلجوق، فبغوا علينا فطال عليهم الامد، فقس قلوبهم وكثير منهم فاسقون^(٣). وواضح ان الخليفة تعمد الضرب على وتر الدين الحساس حين اختار الفسوق ليصف السلاجقة به مستشهداً بنص من القرآن الكريم.

وفي سنة ٥٤٧ هـ امر الخليفة المقتفي لامر الله باراقة الخمر من مساكن اصحاب السلطان، ووجد في دار مسعود بلال شحنة^(٤) بغداد كثير من الخمر فأريق، ولم يكن الناس

(١) أثر الصراع المذهبي ص ٤٥١

(٢) انظر دراسة الحياة السياسية من الفصل الاول لهذه الرسالة.

(٣) جهاز مقاله ص ٣١، والعبارة الاخيرة من الآية ٢٦ (سورة الحديد):

فَجَبْتُمْ مَهْنَدًا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاقِبُونَ. (٤) عن معنى «الشحنة» انظر: الفصل الاول ص ١٦ هامش ٧

يظنون انه شرب الخمر بعد ان حج^(١).

وهكذا يستغل الخليفة الدين للتشهير بكبار السلاجقة امام العامة فاذا كان من حج منهم يشرب الخمر فما ظنك بالآخرين؟

ويسخر احد علماء الحنابلة من تدين بهروز بن عبد الله الغياثي^(٢) الذي ولي العراق من قبل السلاجقة نيفا واربعين سنة حتى توفي سنة ٥٤٠ هـ قائلا: عجباً لبهروز منع ان يجتمع الرجال والنساء في السفن وجمع بينهم في المواخير^(٣).

ويبدو لي ان خلفاء بني العباس لم يلاقوا صعوبة في مهاجمة سلاطين السلاجقة من الناحية الدينية، لان الناس - قبل القرن السادس بزمان طويل - قد الفوا واعتادوا ان يكون الخليفة هو الحاكم الذي يذكر الدين اذا ذكر، على حين لم يستطع الناس ان يربطوا بين السلطان والدين برباط متين، فكان السلاطين هم اصحاب الدنيا، والخلفاء اصحاب الدنيا والدين معا. ولعل دواوين الشعر وقصائد المديح خير من أوضح هذه الحقيقة.

ان الحيص بيص هو اشهر شاعر مدح سلاطين السلاجقة بين شعراء العراق في القرن السادس، ففي الجزء الاول من ديوانه المطبوع - على سبيل المثال - نجد سبع قصائد في مدح السلطان مسعود^(٤)، وقصيدة واحدة في مدح طغرل^(٥) واخرى في مدح سنجر^(٦). وفي هذه القصائد كلها نجد الشاعر يحرص على نعت هؤلاء السلاطين بالشجاعة والهيبة وسعة الملك وضخامة الجيش وشدة الفتك بالاعداء والخصوم، ولكنه - وهو الشاعر الذي يمه رضى الممدوح - لم يصف ايا منهم بالدين والتقوى والورع وكثرة الصوم والصلاة، وهي الصفات التي اعتاد الشعراء ذكرها عند مدح الخلفاء وحدهم.

وثانيهما: ان السلاجقة اعاجم اتراكاً. وعلى الرغم من ان التيار الديني هو السائد في هذه العصور، فان الباحث يحس بوجود اشارات يمكن ان ترشدنا الى احساس بالقومية بدأ يظهر على نتاج الادباء بصورة خاصة: فمثلاً قال العماد الاصفهاني عن الخليفة المقتفي لامر الله وفي خلافته انتصر العباسيون على السلاجقة لأول مرة: «وهو الذي اقام حرمة دار

(١) تاريخ ابن الاثير ٣٢٨

(٢) نسبة إلى مولاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه. المختصر المحتاج إليه ٢٦٥/١

(٣) المتظم ١١٧/١٠

(٤) انظر ص ٨٤، ٢٦٧، ٣٣٠، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٨٣

(٦) ض ٢٢٨

(٥) ص ١٧٩

الخليفة واعاد رونقها وحفظ رمقها وقطع طمع الاعاجم عنها وحكم بأسهم منها^(١)، وقال
طلحة بن محمد النعماني يمدح قاضي قضاة شيراز عماد الدين ابا محمد طاهر بن محمد
الفزاري من قصيدة:

حَمَايَ نَدَاهُ مِنْ زَمَانِي، وَصَانِي فَلَيْسَ يَرَى وَجْهِي أَيْازُ وَقِيمَازُ^(٢) .
وَسَائِجُ قُرْبَى قَدْ رَعَاهَا بِجُودِهِ وَحَمْدُ تَلَاهُ نَازِحُ الدَّارِ مُجْتَازُ
وَقُرْبَى أَصُولٍ بَيْنَنَا عَرَبِيَّةٌ رَعَاهَا فِزَارِيُّ الْأُرُومَةِ مُتَمَازُ^(٣)
ولابن الخراساني في الخليفة المستضيء:

إِمَامَ الْهُدَى دَمٌ لِلْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ عَلَى رَغَمِ انْفِصَالِ الْأَعَاجِمِ وَالتُّرْكِ
بَقِيَتْ لَهَا حَتَّى الْمَعَادِ خِلَافَةٌ لَهَا نَبَأُ بَيْنَ الْخِلَائِقِ كَالْمِلْكِ
وَمَا الْحَسَنُ الْوَضَّاحُ لِلَّهِ دَرَّةٌ سَوَى رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مَا شَكَّ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا ذُرُّ شَارِقُ^(٤) وَمَا مَخْرَتُ^(٥) فِي الْبَحْرِ جَارِيَةُ الْفُلْكِ^(٦)

وقال الابله البغدادي يمدح الوزير ابن هبيرة - وهو ساعد الخليفة المقتضي في قتال
السلجقة - من قصيدة مطلعها:

وَهَوَاكِ أَقْسَمُ أَنَّهُ أَوْفَى الْقَسَمِ مَا كُنْتُ فِي السُّلُوفِ إِلَّا مُتَّهَمُ
قَالَ فِيهَا:

وَعَدَا تَعُودُ إِلَى الْعِرَاقِ مُظْفَرًا وَالْعُرْبُ قَدْ أَوْلَيْتَهَا مُلْكَ الْعَجَمِ^(٧)

وواضح من هذا البيت ان الوزير كان يقود حملة خارج العراق ضد السلجقة وان لم يشر
الديوان الى ذلك.

ومن المحتمل ان يكون الوزير ابن هبيرة قد أثار متعمدا الشعور بالقومية العربية لدى
البغداديين خاصة، ليضمن تعاونهم معه - على اختلاف مذاهبهم الدينية - ضد السلجقة حين
وجد ان العامل الديني وحده ليس مقنعا بدرجة كافية لاثارة السنة ضدهم، لاسيما وقد امتدت

(١) الخريدة ٣٥/١

(٢) أياز وقيماز: أرجح أن الشاعر أراد بها مجرد الإشارة الى الأتراك، ولم يرد اشخاصاً معينين.

(٣) الخريدة ١٣/٢ - ١٤

(٤) ذرُّ شارق: طلع وأشرق.

(٥) نخرت: كذا بالأصل المصور، والصواب «نَحَرَتْ»

(٦) الخريدة / نسخة إيران ق ٢ و ٥

(٧) ديوان الابله و ٥٥

سيطرة السلاجقة على العراق لمدة تقارب قرناً من الزمان . والذي يرجح هذا الاحتمال ان نسب ابن هبيرة - في وفيات الاعيان - قد اوصل الى مَعْدَ بن عدنان ، وعلق ابن خلكان على سلسلة النسب هذه بقوله : « وانما اخرج له هذا النسب بعد سنين من وزارته ^(١) . فلماذا اراد الوزير ان يكون عربياً صليبية في عصر كانت العجمة فيه هي السائدة؟

اضف الى ذلك ان مجموعة الادباء التي احاطت بابن هبيرة اثناء وزارته والتي شرد او قتل بعضها بعد وفاته من قبل استاذ ^(٢) الدار عضد الدين - على الراجح - كان البعض منهم معروفاً بنسبه العربي الصريح مثل الشاعر الضرير نَصْرُ النُّمَيْري ^(٣) ، والبعض الآخر كان عربي النسب عربي الاسلوب وطريقة الانشاد والاياد مثل الشاعر مَفْلِح بن علي الانباري ^(٤) . فاذا صح هذا الاحتمال كانت العدواة والمعروفة بين ابن هبيرة وعضد الدين بن رئيس الرؤساء ، والتي اشار اليها ابن خلكان ^(٥) ، ترجع الى اسباب قومية وصراع بين التيار العربي والتيار الفارسي أو الاجنبي داخل البلاط العباسي ، لان عضد الدين من اسرة فارسية معروفة ^(٦) .

فاذا عدنا الى موضوع الدين والسلاجقة ، فسوف نجد سؤالاً مهماً هو : اين الشعر العراقي الذي يفضح ادعاء السلاجقة الدين ، ويؤيد الخلفاء في حملتهم ضد المنكرات التي جلبها السلاجقة معهم الى العراق؟ .

ان سعي الشعراء للحصول على مكانة لدى الخلفاء - وخاصة بعد ان اصبح زمام البلاد بأيديهم - لا بد ان يحملهم على المبالغة والتهويل من شأن الاضرار التي لحقت بالاسلام بعد احتلال السلاجقة بغداد .

وللاجابة على السؤال المتقدم لا بد من ملاحظة ما يلي :

١ - ان اتخاذ الدين سلاحاً بوجه السلاجقة ، كان يهدف الى غرض سياسي ولذلك لا بد من ملاحظة التطرف في استعماله .

٢ - ان الحيف بيبص - وقد اشرت الى انه اشهر من مدح السلاجقة - رجل دين غلب عليه الشعر ^(٧) ، ولذلك من غير المنتظر ان يشير هذا الشاعر باصبع الاتهام الى دين من عرفهم من رجال

(١) وفيات الاعيان ٢٧٤/٥

(٢) انظر عن الأستاذ دارية الفصل الثاني ص ٧٢ هامش ٢

(٣) وفيات الاعيان ١٩/٥ ، وقد مرت ترجمة هذا الشاعر ص ٢٠٢ هامش ٨

(٤) الخريدة ٣٠١/٤ - ٣٠٢ (٥) وفيات الاعيان ٢٨٥/٥

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٤ ، ٢٢٢ ، ٤٠٤ ، ٤٧٦ ، ٤٦٧ ، ٤٣٣ ، ديوان الابله و ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٧

(٧) وفيات الاعيان ١٠٦/٣

السلاجقة، بل العكس هو الذي تشير اليه بعض قصائده، كقوله في مجاهد الدين بهروز:

لما غدا بهروز مُتَقِيًّا رَبُّ الْعُلَى فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ
أَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ مَهَابَتِهِ سِرًّا مُطَاعَ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ
فَنَجَّاحُهُ فِي كُلِّ مُطْلَبٍ فَرَضَ عَلَى الْآيَامِ وَالذَّهْرِ^(١)
وقال من قصيدة في وزير السلطان مسعود:

لا يَخْتَشِي عَضَبَ الْعَسَاكِرِ بَعْدَمَا صَرَفَ الزَّمَانَ إِلَى رِضَا الرَّحْمَنِ^(٢)
وقال في بهروز ايضا:

لِيَهْنِ التُّقَى وَالذَّيْنَ كَوْنُكَ سَالِمًا فَلَا دِينَ إِلَّا حَيْثُ أَنْتَ مُجَاهِدُ
تَسَاوَى فِصَاحُ الْحَيِّ فِيكَ وَلَكِنَّهُ^(٣) مَدِيحًا، فَكُلُّ الْقَوْلِ فِيكَ قَصَائِدُ
كَمَا أَنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ شَاعَ، فَمَا لَهُ -وَلَا الرَّجُلُ الْأَعْمَى- مِنَ النَّاسِ جَاوِدُ
... الخ^(٤).

وهكذا لا يمكن أن يفيدنا شعر الحيص بيص الا في اثبات تدين رجال الدولة السلجوقية الذين مدحهم، وهو امر ربما اشار الى زيف اتهام السلاجقة بركة الدين.

(١) ديوان الحيص بيص المطبوع ٣١٣/١

(٢) نفسه ٣١٥/١

(٣) اللُّكْنُ: الواحد أَلْكَنُ: وهو ألمي العمي اللسان.

(٤) الديوان المطبوع ٣٠١/١، وأنظر ايضا ٣٠٧/١

٢ - بين الفكر والدين :

درست في الصفحات الماضية ما كان من أثر لاختلاط الدين بالسياسة في شعر القرن السادس العراقي ، فدرست اثر الحروب الصليبية ، والصراع بين العباسيين والفاطميين ، ثم بين السلاجقة والعباسيين من خلال النصوص الشعرية .

وفي الصفحات الآتية سأحاول دراسة أثر الخلاف المذهبي او الفكري على شعر العراق هذه الحقبة من الزمان .

وعلى الرغم من وجود المذاهب الاسلامية قبل تدخل الاجانب - من بويهين وسلاجقة - في الحياة العباسية ، فقد كان تدخل هؤلاء سببا مباشرا في اذكاء العصبية المذهبية ، وتحولها من خلافاات فكرية نافعة الى معارك دموية مدمرة ، كان المتفجع الوحيد منها هو ذلك الاجنبي الدخيل الذي استطاع عن طريقها اطالة أمد احتلاله للبلاد . فحين وجد السلاجقة ان بني بويه قد شجعوا الاتجاه الشيعي على حساب اهل السنة قاموا هم بالاجهاز على الجماعة التي قويت شوكتها ، وهكذا عمت المصائب جميع العراقيين .

ولا بد ان الكوارث والمعارك المذهبية التي عانى منها الناس مدة طويلة هي التي حملت معتنقي المذهب الواحد على التجمع والسكن في مناطق متجاورة متلاصقة كي يواجهوا الاعداء متراسين متحدين فيخفف اثر المصيبة على المجموع . وهذا هو التعليل المعقول للنصوص التي تدل على ان معظم اهل الجانب الغربي من بغداد من الحنابلة^(١) ، على حين كان اهل الكرخ كلهم شيعة امامية لا يوجد فيهم سني البتة^(٢) .

وعلى الرغم مما شاع وعرف من ان نظام الملك ، الوزير السلجوقي ، كان يهدف الى محاربة التشيع عن طريق المدارس النظامية التي بثها في كثير من مدن الامبراطورية السلجوقية^(٣) ، فقد ثبت ان هذه المدارس كانت سببا في تفريق اهل السنة انفسهم ، وتعميق الخلافات وبذر بذور الحسد والبغضاء بين الشوافع من جهة ، وكل من الحنابلة والحنفية من جهة اخرى^(٤) . فلما رأى الحنفية ما عزم عليه نظام الملك الشافعي من تأسيس المدارس النظامية في امهات مدن الاقطار .

(١) المتظم ١٤٥/١٠

(٢) معجم البلدان : كرخ بغداد (٧/٢٣٤) .

(٣) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٢

(٤) نفسه ص ٢٢٦

أسرعوا إلى تربة الإمام أبي حنيفة وأنشأوا مدرسة بازائها افتتحت قبل نظامية بغداد بما لا يقل عن خمسة أشهر^(١).

وقد اشترت في أول هذه الرسالة^(٢) إلى وجود مدارس خاصة للحنابلة منها مدرسة ابن هبيرة الوزير الحنبلي المشهور.

وكان طموح بعض الفقهاء للوصول إلى بعض المراكز المرموقة، ومنها التدريس في النظامية، سببا في شيوع بدعة تغيير المذهب التي كثرت في هذه الفترة كما سبق أن اشترت^(٣).

وعلى الرغم من إشارة بعض المؤرخين إلى أن الخلاف بين مذاهب أهل السنة يعد شكليا إذا قورن بالخلاف بين السنة والشيعة عامة^(٤)، فإن الأمور قد ساءت إلى حد كبير في القرن السادس بين السنة أنفسهم حتى قال ابن هبيرة الوزير: إن اختصاص المساجد ببعض أرباب المذاهب بدعة محدثة، فلا يقال هذه مساجد أصحاب أحمد فيمنع منها أصحاب الشافعي ولا بالعكس، فإن هذا من البدع وقد قال تعالى في المسجد الحرام - وهو أفضل المساجد -: «سَوَاءٌ فِيهِ الْعَاقِبُ وَالْبَادُ»^(٥).

وذكر عن محمد بن محمد البغوي ويقال الدوي - وكان قد قدم بغداد في أول عهد المستضيء ووعظ بالنظامية، ونصر مذهب الأشعري^(٦) - أنه بالغ في ذم الحنابلة حتى أنه قال: لو كان الأمر له لوضع عليهم الجزية وقيل أنه مات بسم دسه له أحد الحنابلة^(٧).

ومن الغريب أن جهود السلاجقة لضعاف الفكر الشيعي وتفتيت قوة الشيعة في العراق قد باءت بالفشل: فإن نشاط هؤلاء وكثرة انصارهم ووفرة ما خلفوه من أخبار وأشعار، يدل كل ذلك أن للشيعة في العراق نفوذا كبيرا في القرن السادس.

ولعل من الأسباب التي جعلت الفكر الشيعي يتميز بنشاط واضح في هذه الحقبة: وجود مشاهد واضحة أئمة الشيعة في عدة مدن عراقية منها: مقابر قریش في بغداد، وقبر الحسين بن

(١) دليل خارطة بغداد المفضل ص ١٥٦

(٢) أنظر ص ٤١ من الفصل الأول.

(٣) أنظر ص ٤٠ - ٤١ من الفصل الأول. تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٣٨

(٤) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٢

(٥) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٠، والنص من سورة الحج آية ٢٥

(٦) نسبة إلى أبي الحسن علي بن اسماعيل. الأشعري. قال ابن خلكان عنه: «صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة... كان معتزليا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن... توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ (على قول). وفيات الأعيان ٤٤٦/٢، طبقات

الشافعية الكبرى ٢/ ٢٤٥، البداية والنهاية ١١/ ١٨٧.

(٧) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٤٠

علي في كربلاء، وقبر الامام علي (رض) في الكوفة. ومن المعروف ان زعماء الشيعة يوصون ان يدفنوا في هذه المشاهد: فقد دفن سيف الدولة صدقة بن منصور الأسدي (ت ٥٠١ هـ) في مشهد الحسين عليه السلام^(١)، بينما دفن الوزير انوشروان بن خالد (المتوفى سنة ٥٣٢ هـ) في مشهد علي (ع)^(٢)، وكذلك دفن علاء الدين تنامش المتوفى سنة ٥٨٤ هـ، وهو من كبار الامراء الاثرياء الايام المستضيء، دفن في مشهد الحسين عليه السلام^(٣) ومن الذين دفنوا بمشهد الامام موسى بن جعفر^(٤) بالجانب الغربي من بغداد ابو طالب يحيى بن سعيد بن زبادة الشيباني الكاتب المتوفى سنة ٥٩٤ هـ^(٥).

كما ان اسناد بعض المناصب الكبيرة ايام المستضيء وابنه الناصر الى رجال من الشيعة مثل مجد الدين هبة الله بن علي المعروف بأبن الصاحب المتوفى سنة ٥٨٣ هـ استاذ الدار ايام المستضيء^(٦)، ونصير الدين ناصر بن مهدي المتوفى سنة ٦١٧ هـ وزير الناصر لدين الله^(٧)، ساعد على شعور القوم بان في دار الخلافة من يعتمدون عليه اذا ساءت الامور وحاول خصومهم ان يفعلوا شيئاً. ولذلك تميزت خلافة الناصر بالذات بنشاط شعبي ملحوظ يكاد يشبه ما كان عليه الحال ايام البويهيين.

فحين نقل الناصر الفتوة وجددها سنة ٦٠٤ هـ جاء في المنشور الصادر بهذه المناسبة ما نصه: «باسم الله الرحمن الرحيم، من المعلوم الذي لا يتمارى في صحته، ولا يرتاب في براهينه وادلته، ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه - هو اصل الفتوة ومنبعها، ومنجم اوصافها الشريفة ومطلعها، وعنه تروى محاسنها وآدابها، ومنه تشعبت قبائلها واحزابها، واليه دون غيره ينتسب الفتيتان»^(٨).

وفي سنة ٥٨٢ هـ قال سبط ابن الجوزي: «... وفي يوم عاشوراء فرش الرماد في الاسواق... وخرج النساء حاسرات يلطمن وينحن... والخلع تفاض عليهن وعلى المنشدين من الرجال... وكان اهل الكرخ يصيحون ما بقي كتمان... تحت منظره الخليفة...»^(٩). وكان للشيعة قصائد خاصة تقرأ في مواسم زيارة مشاهد اهل البيت، وقد احجم المؤرخون عن

(١) المنتظم ١٥٩/٩

(٣) تاريخ ابن الاثير: ١٩٨/٩

(٢) نفسه ٧٧/١٠ - ٧٨

(٤) هو الامام موسى الكاظم بن جعفر الصادق، أحد الأئمة الاثني عشر. توفي ببغداد سنة ١٨٣ هـ (على قول). وفيات الاعيان ٤/

(٥) وفيات الاعيان ٥/٢٨٨

(٦) انسان العيون ٨٠ - ٨١، شذرات الذهب ٢٧٩/٤

(٧) تاريخ ابن الاثير: ٢٩٠/٩، ٢٩٧، ذيل الروضتين ص ٥٨، ٦٠

(٩) مرآة الزمان ٨/٣٨٦

(٨) الجامع المختصر ٢٢٣/٩

روايتها، ولكنهم ذكروا اسماء بعض اصحابها من شعراء الشيعة ومنهم محمد بن محمد بن المبارك الكرخي ابو منصور المقرئ المؤدب المتوفى سنة ٥٩٨ هـ^(١) وعلي بن حمدون ابو الحسن بن ابي القاسم الكاتب من اهل الحلة السيفية^(٢). . . ولذلك لا نعجب اذا ما قيل ان الخليفة الناصر نفسه كان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية^(٣).

وبدولي ان سوء الحياة الاقتصادية، وعدم الاستقرار والقلق وانعدام الشعور بالأمن في الحياة الاجتماعية، اضافة الى الكوارث التي اصابته العراق ومنها الفيضانات المدمرة^(٤)، وتكالب الاعداء على بلاد المسلمين وخاصة الصليبيين والبيزنطيين، كل ذلك ساعد على اشاعة الحزن والميل الى الكآبة في نفوس الناس، ومن هنا وجدوا في النوح والبكاء على الحسين بن علي - رض - متنفسا عما يعانون ويكابدون من آلام وأوجاع^(٥). وبذلك تحولت مأساة كربلاء من قضية خاصة بالشيعة، الى مأساة اسلامية عامة^(٦)، يجد المسلمون في ترديد ها و ذكر المآسي التي حلت بأهل البيت خير ما يهون عليهم مصائبهم ويصغر عندهم عظام الخطوب.

ولذلك نجد شاعرا سنيا هو ابن التعاويذي، يرثي عينيه ويندب حظه في قصيدة قال فيها:

وَأَصْبَتْ فِي عَيْنِي الَّتِي	كَانَتْ هِيَ الدُّنْيَا بَعِينَ
عَيْنُ جَنَيْتُ بِنُورِهَا	نُورَ الْعُلُومِ، وَأَيُّ عَيْنٍ؟
حَالَانَ مَسْتَنِي الْحَوَا	دْتُ مِنْهُمَا بِفَجِيعَتَيْنِ
إِظْلَامُ عَيْنٍ فِي ضِيَا	ءِ مَشِيبَ رَأْسٍ سَرَّ مَدِينِ
صُبْحُ وَإِمْسَاءُ مَعَا	لَا خِلْفَةٌ ^(٧) ، فَاعْجَبْ لِذَيْنِ
أَوْ رُحْتُ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّ	سَرَاءِ صِفَرِ الرَّاحَتَيْنِ
فِي بَرَزَخٍ مِنْهَا أَخَا	كَمَدٍ حَلِيفَ كَأَتَيْنِ
أَسْوَانُ ^(٨) لَا حَيٍّ وَلَا	مَيِّتٍ كَهَمْزَةٍ بَيْنَ بَيْنِ

... الى أن يقول:

(١) ابن الدبيثي (المصور) ١/ ١٢٨، الجامع المختصر ٨٥/٩

(٢) انسان العيون ١٥٣

(٣) شذرات الذهب ٩٨/٥، تاريخ العراق في العصر العباسي ص ٤٣٥، الفكر الشيعي ص ٥٢.

(٤) أنظر: الفصل الأول: الحياة السياسية والاجتماعية.

(٥) الفكر الشيعي ص ٥٠ هامش ٤٣ أ.

(٦) المدائح النبوية ص ٦٥ والهامش ٤١.

(٧) خِلْفَةٌ: أي واحد خلف الآخر.

(٨) أَسْوَان: حزين.

وَالذَّمُّ بِالْأَرْزَاءِ (م) نَكَبَاتٍ مَبْسُوطٌ^(١) الْيَدَيْنِ
 أَرْسَى عَلَى عُمْدَانٍ وَالْإِيوَانِ مِنْهُ بِكَلْكَلَيْنِ^(٢)
 وَأَنَاخَ فِي آلِ النَّبِيِّ (م) يَ مُجَاهِرًا بِرَزِيئَتَيْنِ
 قَبَدَا بِرُزْءٍ فِي أَبِي حَسَنِ وَثْنَى بِالْحُسَيْنِ
 الطَّيِّبِينَ، الطَّاهِرِينَ، الْخَيْرِينَ، الْفَاضِلِينَ
 الْمَذْلِيلِينَ إِلَى النَّبِيِّ (م) يَ، مُحَمَّدَ بِقَرَابَتَيْنِ
 .. الخ^(٣).

ان ابن التعاويذي في هذه الابيات الاخيرة يحاول أن يهون على نفسه نكبته في فقدان عينيه- وضيق الدنيا عليه، فلم يجد عزاء وسلوى الا في ما اصاب الامام عليا وابنه الحسين، وهما من اقرب الخلق الى الرسول الكريم ﷺ.

ولابن المُعَلِّم الواسطي من مرثية:

لَعَمْرِي لَثْنٌ غَالَتْ عَلَيَا، وَطَوَّحَتْ^(٤) بِهِ عَنْكَ مِنْ جَوْرِ الْقَضَاءِ الطَّوَائِعُ
 فَقَدْ غَالَتْ^(٥) خَيْرَ الْأَوْصِيَاءِ وَنَجَلَهُ (م) حُسَيْنٌ بِكُوفَانِ الْخُطُوبِ الْفَوَادِحِ^(٦)
 تَعَزَّى، فَكَمْ فِي الطُّفِّ^(٧) مِنْ آلِ أَحْمَدٍ دَمٌ وَلَعَتْ فِيهِ الْكِلَابُ النَّوَابِخُ؟
 دَمٌ فِيهِ لِلْبَاغِي النَّاسِي أُسُوءُ^(٨) وَنُورٌ لِمَنْ يَتَغَيَّيْهِ الْهَدَايَةُ لَانْحُ
 ... الخ^(٩).

ان مقتل الامام علي واستشهاد ابنه الحسين واهل بيته في النصف الثاني من القرن الاول للهجرة، من حوادث التاريخ الاسلامي الدامية التي اذا ذكرت رفع الشيعة رؤوسهم وتطلعوا كالباحثين عن قتلة الحسين بين معاصريهم، وهم انما يفعلون ذلك ليفخروا على خصومهم من ناحية ويهددوا اعداءهم من ناحية اخرى. ومن هنا أرجره لمن ظهور مأساة كربلاء في قصائد

(١) مبسوط اليدين: كريم، جواد.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٣٦ - ٤٣٧

(٢) الكَلْكَل: أراد به هنا ثقل مصائب الزمن.

(٤) طَوَّحَ: أهلك.

(٥) غَالَتْ: أخذ وأهلك على حين غرة.

(٦) الخطوب والفواديح: المصائب الشداد.

(٧) الطف: كربلاء.

(٨) أسوء: قدوة.

(٩) ديوان ابن المعلم و ٢٣ (نسخة دار الكتب).

الشعراء فيه ما يدل على أن التشيع بدأ يغزو حياة الناس ويسيطر على مشاعرهم ، وصار الشيعة احرارا في التعبير عن مشاعرهم التي عانت من الكبت طويلا ، ولذلك وجدنا ابن التعاويذي - بتأثير العوامل التي مرت - يرثي الحسين بقصيدة طويلة قال فيها :

وَقَفْتُ عَلَى الدِّيَارِ ، فَمَا أَصَاخَتْ^(١) مَعَالِهَا لِمُحْتَرِقٍ بَكِيٍّ
أُرْوِي ثَرْبَهَا الصَّادِي^(٢) ، كَأَنِّي نَزَحْتُ الدَّمَعَ فِيهَا مِنْ رَكِيٍّ^(٣)
وَلَوْ أَكْرَمْتَ دَمْعَكَ يَا شُرُونِي بَكَيْتَ عَلَى الْإِمَامِ الْفَاطِمِيِّ
عَلَى الْمَقْتُولِ ظَمَانًا فَجُودِي عَلَى الظَّمَانِ بِالْجَفْنِ الرَّوِيِّ
عَلَى نَجْمِ الْهُدَى السَّارِي ، وَنَجْمِ الدِّ عُلُومٍ ، وَذُرْوَةِ الشَّرَفِ الْعَلِيِّ
عَلَى الْحَاجِي بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي^(٤) حَمَى الْإِسْلَامِ ، وَالْبَطْلِ الْكَمِيِّ^(٥)
وَخَيْرِ الْعَالَمِينَ ، أَبَا وَأُمًّا وَأَطْهَرَهُمْ ثَرَى عِرْقٍ زَكِيِّ
... الخ^(٦)

ان ابن التعاويذي ليس شاعرا سنيا فحسب ، بل هو من شعراء البلاط الرسميين - كما يقال بلغة اليوم - وراثؤه لابي الشهداء يبدو مستحيلا لو لم يشعر - وهو القريب من دار الخلافة - بان السياسة العامة للدولة الى جانب الشيعة ، ولذلك راح يتقرب الى ولاة الامور برثاء ائمة الشيعة وترديد بعض افكارهم وآرائهم كقوله في القصيدة المتقدمة يخاطب خصوم الامام علي :

فَجُوزِيتُمْ لِبُغْضِكُمْ عَلَيَا عَذَابَ الْخُلْدِ فِي الدَّرَكِ الْقَصِيِّ

وقال ايضا :

فَذُخِرِي لِلْمَعَادِ وَلَاءُ قَوْمٍ بِهِمْ عُرِفَ السَّعِيدُ مِنَ الشَّقِيِّ

وهذا البيت الاخير يجيب ان يذكرنا بآيات كثيرة سبقت الاشارة اليها^(٧) ، كان الشاعر فيها يزعم ان ذخره ليوم القيامة كان ولاء بني العباس .

ومهما يكن فان ابن التعاويذي حاول التقرب الى زعماء الشيعة في عصره - وكذلك فعل زميله الحليص بيص كما سيأتي - بذكر مناقب الامام علي وهو يمدح اولئك الزعماء ، تملقا لهم

(١) اصاحت : اصغت . (٢) الصَّادِي : الظَّمَان .

(٣) الرَّكِيَّ : واحدها ركية : البر ذات الماء . (٤) الْعَوَالِي : الرماح .

(٥) الْكَمِيِّ : الشجاع او لابس السلاح . (٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٥٦ - ٤٦٠

(٧) انظر قبل صفحات : الصراع بين العباسيين والفاطميين ص ٢٢٨

واستدرازا لافهم، وكذلك مشايعة للسياسة التي اتبعت في عصره تجاه الشيعة والتشيع .
قال ابن التعاويذي يشكر الموفق ابا علي^(١) بن الدوامي ، ، وقد استنهضه لحاجة فقضاها ،
من قصيدة مطلعها:

لأبي علي مُرتَقَى في ذُرِّهِ العَلِيَاءِ شَاهِقٌ
قال فيها:

قَسَمًا بُمَزَجِي^(٢) السُّحْبُ نَحْ
دُوهَا^(٣) الرُّوَاعِدُ وَالصُّوَاعِقُ
وَمُسِيرُ الشُّهْبِ الثُّوَا
قَبٍ فِي الْمَغَارِبِ وَالْمَشَارِقُ
وَبِسِنَاطِحِ الْأَرْضِ الْمَهَا
دِ وَرَافِعِ السَّبْعِ الطَّرَائِقُ
وَبَسِيفِهِ الْمَسْلُولِ صِدْ
و^(٤) نَبِيَّهِ، خَيْرِ الْخَلَائِقُ
الْمُعْمِدِ الْبَيْضِ، الصُّوَا
رَمَ فِي الْجَمَاجِمِ وَالْمَفَارِقُ
مَنْ قَالَ لِلدُّنْيَا أَذْهَبِي
عَنِّي^(٥) إِلَيْكَ، فَأَنْتِ طَالِقُ
بِرُّ، التَّقِيُّ مِنَ الْمُنَافِقُ
بِوَلَايَتِهِ^(٦) يَتَمَيِّزُ الـ
وَبُحْبِهِ تُسْتَدْفَعُ الـ
نِقَمُ النَّوَازِلِ وَالْبَوَارِقُ
إِنَّ الْمَوْفِقَ - إِنَّ عَرَّتْ
لَكَ خِصَاصَةً^(٧) خِلَ مُوَافِقُ
... الخ^(٨).

وواضح من هذه الابيات ان الشاعر تعمد الاشارة الى الامام علي - لان المدوح شيوعي -
وقد عرف الشاعر ان هذه الاشارة كفيلا بتحقيق الغرض من القصيدة .
وفي الديوان قصيدة اخرى يعاتب فيها الشاعر نقيب مشهد الكوفة ومطلعها:

يَا سَمِيَّ النَّبِيِّ يَا ابْنَ عَلِي قَاتِلِ الشَّرِكِ وَابْتُولِ الطُّهُورِ^(٩)

(١) هو الحسن بن هبة الله بن الحسن : أحد الأعيان وحاجب الحجاب توفي في رجب سنة ٦١٦ هـ . المختصر المحتاج إليه ٢٩٧

(٢) المَزَجِي : السائق . (٣) تحدوها : تسوقها .

(٤) الصُّنُو : الأخ الشقيق .

(٥) في شرح نهج البلاغة ٢٧٦/٤ قول الامام علي : يا دنيا يا دنيا إليك عني . . لا حاجة لي فيك قد طلقك ثلاثا لا رجعة فيها .

(٦) في مسند الامام أحمد بن حنبل ٥٧/٢ قول الرسول ﷺ : يَا عَلِيُّ لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ .

(٧) الخِصَاصَة : الحاجة الشديدة .

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٣١٧ - ٣١٨

(٩) ديوان ابن التعاويذي ص ٢١٤

وعلى الرغم من اسقاط وحذف بعض ابياتها، كما يتضح من عدم اتصال البيت الثامن منها بما تقدمه^(١) - وقد يكون الشاعر هو الذي اسقط الجزء الناقص - فان ما بقي منها يوضح جانباً من الحياة الفكرية المذهبية التي عاصرها الشاعر، ومنها عيد الغدير^(٢) عند الشيعة، ومحاولة السنة زيارة قبر مُصْعَب بن النزير رداً على زيارة الشيعة لقبر الحسين (رض)^(٣).
والحيص بيص شاعر آخر من شعراء السنة، تقرب الى الشيعة - أولاً - بهجو بني امية^(٤) فهو القائل:

مَلَكْنَا، فَكَانَ الْعَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً^(٥) فَلَمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بِالْدَمِّ أَبْطَحُ^(٦)
وَحَلَلْتُمْ قَتْلَ الْأَسَارَى، وَطَأَلْنَا غَدَوْنَا عَلَى الْأَسْرَى نَعْفُ وَنَصْفُحُ
فَحَسْبُكُمْ هَذَا التَّفَاوْتُ بَيْنَنَا وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ^(٧)

- وثانياً - فعل ما وجدناه عند زميله ابن التعاويذي حين راح يعرج على الامام علي فيذكر مناقبه وفضائله عند مدحه لزعماء الشيعة طلباً للحظوة عندهم، وان كان الحيص بيص مشهوراً في ميله للعلويين. ولكنه ليس شيعياً كما توهم صاحب اعيان الشيعة^(٨).

ان الحيص بيص يشبه ابا تمام من هذه الناحية - وقد عد هو الآخر من اعيان الشيعة - فكلاهما «من الشعراء المتكسين الذين يتنسمون رائحة التكسب فيصطنعون الوسائل لاغتنامها أو الافادة منها، لا يلتزمون مذهباً بعينه ولا يخلصون لعقيدة أو مبدأ، وانما يتلونون بما يرضي السلطان ويقربهم الى الكسب»^(٩).

ففي قصيدة مدح بها الحيص بيص عميد الدين ابا جعفر بن المختار العلوي - وهو نقيب الكوفة والمشهد - مطلعها:

إِذَا مَا غَزَوْتُمْ - مُعَلِّمِينَ^(١٠) - فَرَاوَحُوا بَنِي دَارِمٍ^(١١) بَيْنَ الظُّبَى^(١٢) وَالْمَخَائِلِ^(١٣)

نجد الشاعر - بعد سبعة وأربعين بيتاً - يختم قصيدته بمدح الامام علي وذكر مناقبه فيقول:

(١) ولم ينته المحقق إلى ذلك.

(٢) سيرد الحديث عن هذا العيد مفصلاً بعد قليل. (٣) الفكر الشيعي ص ٥٠.

(٤) يغلب على الظن أن المراد هجاء بني العباس، ولكن الشاعر تجنب التصريح بذلك.

(٥) سَجِيَّةٌ: طبيعة، خلقاً.

(٦) الْأَبْطَحُ: مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى. (٧) وفيات الأعيان ٢/ ١٠٨.

(٨) أنظر ترجمة الحيص بيص في الجزء ٣٤ (٩) التشيع وائرثه ص ١٥٥.

(١٠) أي ذوي علامات يضعها الفرسان ليعرفوا بها في الحرب. (١١) بنو دارم: قبيلة الشاعر من تميم.

(١٢) الظبى: واحدتها ظبة، وهي حد السيف أو السنان. (١٣) المخائل: السحب المنذرة بالمطر.

وَأَنْزَعُ^(١) مِنْ شِرْكِ الْإِلَهِ مُبْرَأً
شَدِيدُ مَضَاءِ الْبَاسِ يُغْنِي بَلَاؤُهُ^(٢)
لَهُ عَضْفَةٌ بِالْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهَا
صَدُوفُ^(٣) عَنِ الزَّادِ الشَّهِيِّ فُوَادُهُ
جَرَى إِلَى قَوْلِ الصَّوَابِ لِسَانُهُ
أَعِيدَتْ لَهُ شَمْسُ الْأَصِيلِ^(٤) جَلَالَةٌ
وَنَصُّ حَدِيثٍ بِالْغَدِيرِ دَلَالَةٌ
... الخ^(٥)

ومن قصيدة كتب بها الى بعض امراء العلويين ومطلعها:

أَبَا عُمَارَةَ إِنْ شَطَطَتْ^(٦) مَنَازِلُنَا فَمِنْ مَعَالِيكَ إِدْنَاءٌ وَتَقَرِيبُ
نجد الشاعر يخطبها بذكر الامام علي قائلا:

وَعَاصِفٍ بِكَمَاءِ^(٧) الشَّرِّكَ صَارِمُهُ
غُرَّتَانُ^(٨)، وَالْعَامُ خِصْبٌ مِنْ مَكَارِمِهِ
وَلِلرَّوِيَّةِ تَصْعِيدُ^(٩) وَتَضْوِيبُ^(١٠)

(١) الانزع: الذي انحسر الشعر عن جانبي جبهته. (٢) البطين: العظيم البطن.

(٣) النوافل: وأحدثها نافلة وهي العطية، والعبادة الزائدة على الغرض.

(٤) البلاء: الاختبار.

(٥) القنا: الرماح.

(٦) القنابل: جماعات الخيول.

(٧) الزعازع: الرياح الشديدة.

(٨) الخرق: الأرض الواسعة.

(٩) سوفت: كذا بالاصل، جاء في الديوان لعلها: أسفيت أي حملت السفا وهو ما تحمله الريح.

(١٠) الفلاقل: ما تحمله الريح.

(١٢) رغب: شديد الرغبة.

(١١) صدوف: مفرس، مُتَجَنَّب.

(١٤) حال: تغير وتبدل.

(١٣) الأصيل: وقت غروب الشمس.

(١٦) المساجل: المماثل والشبيه.

(١٥) الأضراب: الواحد ضريب، وهو الشبيه.

(١٨) شططت: بعدت.

(١٧) ديوان حيض بيض المطبوع ١٣١/٨

(٢٠) الجحاجيح: السادة.

(١٩) الكماء: الأبطال - مفردة كمي.

(٢٢) أنغوب: سائل، كثير.

(٢١) غرَّتَان: جائع.

(٢٤) التصويب: النظر إلى أسفل.

(٢٣) التصعيد: النظر إلى أعلى.

رَدَّتْ لَهُ الشَّمْسُ حَيْثُ اللَّيْلُ مُقْتَرَبٌ وَأَحْسَنَ الْقَوْلَ فِي تَكْلِيمِهِ الذَّبُّ^(١)

ولست أشك ان هذه النصوص لا تكفي ليصبح الحيص بيص من شعراء الشيعة، لاسيما وقد اكد ابن خلكان على ان الشاعر شافعي المذهب^(٢).

شعر العقائد:

في فترة تتميز بالتساهل مع الشيعة وعدم التعرض لهم حين يجهرون بأرائهم ويظهرون معتقاداتهم، حتى اضطرب بعض السنة - كما مر - الى ادعاء التشيع والحرص على تضمين اشعارهم شيئا من آراء الشيعة، اقول في فترة مثل التي اشرت الى جوانب منها، لا بد أن يكون الشعر الشيعي هو السائد المتميز في الجانب الادبي من حياة الناس العقائدية.

وفي الوقت الذي تبدو فيه كثرة الشعر والشعراء من الشيعة معقولة ومقبولة اذا صحت الصورة التي رسمتها للحياة العقائدية في هذه الفترة من تاريخ العراق - فان ندرة شعر الجانب السني الى هذا الحد تبدولي غير طبيعية. فلم يصلنا من شعر السنة العقائدي سوى القليل جدا، حتى انه لا يكفي لتصوير الجانب الادبي من عقائد اهل السنة، وقد مرت الاشارة الى انها كانت تتميز بنشاط ملحوظ.

ان اشهر ما وصلنا من شعر اهل السنة مقطوعة للحسين بن جعفر بن عبد الصمد الهاشمي المقرئ المتوفى سنة ٥٥٤ هـ، قال:

يَا ذَا الَّذِي أَضْحَى يَصُولُ ببدعة وَتَشِيعُ، وَتَمُشِعُ^(٣)، وَتَمُزِلُ^(٤)
لَا تُنَكِّرَنَّ تَحْنَبِلِي، وَتَسْنِي فَعَلَيْهَا يَوْمُ الْمَعَادِ مُعَوِّي
إِنْ كَانَ ذَنْبِي حُبَّ مذهبِ أحمدٍ فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلَانِ^(٥)، أَنِّي حَنْبَلِي^(٦)

وليس بين يدي - بعد الابيات المتقدمة - سوى قصيدة في ٢١ بيتا نظمها ابو محمد (وقيل ابو عبد الله) ابن الباطوخ^(٧) البغدادي، يمدح فيها فقيها حنفيا قدم بغداد مع سلطان السلاجقة سنة ٥٣٨ هـ، ومطلعها:

(١) يشير إلى بعض فضائل الامام علي التي ذكرتها كتب الحديث. الغدير ١٢٦/٣، الديوان المطبوع ١٨٩/١

(٢) وفيات الأعيان ١٠٦/٢

(٣) تمشع: أي اعتقاد مذهب أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، وقد مر ذكره ص ٢٦٥

(٤) تمزول: أي القول بأراء المعتزلة. الفرقة الاسلامية المشهورة. انظر عنهم: المعتزلة. لزهدي حسن جارا الله.

(٥) الثَّقَلَانِ: الجن والانس.

(٦) ذيل طبقات الحنابلة ٢٣٥/١، شذرات الذهب ١٧١/٤

(٧) في الخريدة ٣٤٦/٢: «ألمعين بن الباطوخ... وفي المنتظم ١٠٧/١٠: «أبو محمد بن الباطوخ... وفي الوافي بالوفيات ١/١٧١: «ابن الباطوخ الواعظ، محمد بن محمد... أبو عبدالله... توفي سنة ٥٤٤ هـ، وانظر هامش محقق الخريدة.

صَرَفُ^(١) الْعُيُونِ إِلَيْكَ يَحْلُو وَكَثِيرٌ لَفْظُكَ لَا يُؤْلُ

قال في ختامها:

مَا تَمَّ غَيْرُ أَبِي حَنِيفٍ وَفَقِيهِ طَيِّبَةٍ^(٢) مَالِكٍ
وَفَقِيهِ طَيِّبَةٍ^(٣) لَهُ زُهْدٌ وَفَضْلٌ
وَفَتَى ابْنِ حَنْبَلٍ، وَالْحَدِيدِ
وَالشَّافِعِيِّ، وَمَنْ لَهُ
فَهُمْ أَدْلَتُنَا، وَمَنْ
كُنَّا نَعُدُّ خِلَافَهُمْ^(٤)
حَتَّى بُلِينَا بِالْخِلَالِ^(٥)، وَزَادَ فِي الشَّطْرَنْجِ بَغْلُ
وَالْجَنْسُ يَضْبِطُ فِي الْبَهَا ثُمَّ أَصْلَهَا، وَالْبَغْلُ بَغْلُ^(٦)

اظن ان وجود نصين يمثلان «معظم» شعراهل السنة المذهبي، هو امر لا يصدق. وقد يكون القسم الاكبر من هذا الشعر من تراث القرن السادس الذي فقد ولم يصلنا.

اما شعر الشيعة فيلاحظ ان المؤرخين حين يصفون مذهب شاعر ما بانه كان شيعيا رافضيا^(٧)، او انه كان شيعيا غالبا^(٨)، وبالرغم من علم هؤلاء المؤرخين بان الشيعة فرق متعددة، فلم اجد احدا يذكر الفرقة التي ينتسب اليها الشاعر بين فرق الشيعة، كما اعتادوا أن يميزوا بين اهل السنة بالقول ان المترجم له شافعي او حنفي او حنبلي. ولعل سبب هذا التمييز بين الطائفتين يعود الى:

١- ان اهل السنة ينظرون الى الشيعة- على اختلاف فرقهم- على انهم مجموعة واحدة، لها عقائد متقاربة، وهي - اجمالا - مخالفة لمذاهب اهل السنة.

٢- ان اطلاق لفظ الشيعة يراد به- في الغالب- فرقة الامامية الاثنا عشرية، وهو المذهب

(١) صَرَفَ الْعُيُونُ: ميلها وتطلعها.

(٢) طَيِّبَةُ: المدينة المنورة.

(٣) طَوْدٌ: جبل.

(٤) خِلَافُهُمْ: أي الاختلاف بين آرائهم.

(٥) الْخِلَالُ: المقارنة بين المذاهب الفقهية.

(٦) الْمُنتَظَمُ ١٠٧/٨٠

(٨) الرافي بالوفيات ١٥/٨ مصوره.

(٧) النجوم الزاهرة ٢١٤/٥

الذي كان سائدا في العراق خلال الفترة التي ادرسها^(١).

ان ابرز الظواهر في شعر التشيع الذي ادرسه ما يلي:

١ - خلوه خلوا تاما من أية اشارة الى هجاء الصحابة (رض) ، مع أن كثيرا من شعراء الامامية يفعلون ذلك^(٢) . وقد حذف مؤرخو السنة طائفة من شعر القرن السادس لتعرضه للصحابة^(٣) ، ولكن مؤرخا شيعيا هو ابن شهر آشوب لم يذكر هو الآخر اي نوع من هذا الشعر لاشهر شعراء الشيعة في القرن السادس : وهو الشاعر المعروف بابن العُودِي النُّبَلي^(٤) . فهل اتفق الشيعة والسنة في هذا الموضوع ، فيما يخص القرن السادس وحده؟ .

٢ - على الرغم من وفرة عدد شعراء الشيعة في هذه الحقبة^(٥) ، فان الشعراء الذين رويت لهم اشعار مذهبية قلة ، من اشهرهم ابن العُودِي السالف الذكر ، وسعيد (وقيل سعد) بن مَكِّي النُّبَلي^(٦) .

ان نعت اي شاعر بالتشيع مع عدم الاشارة الى اي شعر مذهبي له قد يعني اما انه لم ينظم شعرا مذهبيا ابدا ، واما ان شعره المذهبي قد حذف دون ان يشير المؤرخون الى ذلك .

ويبدو لي ان مؤرخي السنة لم يكتفوا بوصف بعض الشعراء بانهم من الشيعة دون صفة او صفات اخرى ، الا لأن هؤلاء المؤرخين لم يعثروا على دليل شعري يدل على مقدار هذا التشيع ، ارجح هذا لأن بعض الشعراء قد وصف بانه شيعي فقط : قال ابن شاکر عن الحسن بن علي بن نصر بن عَقِيل ابي علي العَبْدِي الواسطي البغدادي المنعوت بألهمام : «مدح طائفة بالشام والعراق وأقام بدمشق ، وكان شيعيا . توفي سنة ٥٩٦ هـ^(٧) . على حين قال مؤرخ آخر عن علي ابن علي بن حمدون بن الحسن بن ابي القاسم الكاتب من اهل الحِلَّة السَّيفِيَّة : «وكان فاضلا اديبا مدح الاكابر وسافر الى الشام ، وكان غالبا في التشيع ، مبالغافي الرفض ، خبيث العقيدة مجاهرا بتكفير الصحابة ، رضي الله عنهم وارضاهم^(٨)» . .

٣ - يغلب على ادب الشيعة الحزن ويتميز بكثرة البكاء على اهل البيت حتى قيل «أرق من

(١) تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٤٣٣

(٢) التشيع وأثره ص ١٤٩ ، نشأة التشيع وتطوره ص ٢٩٨

(٣) الخريدة ٢٠٨/٤ ، الوافي بالوفيات ١١١/٨ ، مصوره ، انسان العيون ١٥٣

(٤) مناقب آل أبي طالب ٢١٧/١ ، ٢٣١ ، ٣١٧ ، ١٤٦/٣ ، ٤٤٥ . .

(٥) المختصر المحتاج إليه ١٨/٢ ، الوافي بالوفيات ١٥/٨ ، مصوره ، فوات الوفيات ٢٤٣/٨ ، النجوم الزاهرة ٢١٤/٥

(٦) الخريدة ٢٠٨/٤ ، معجم الأدباء ١٩٠/١١ ، فوات الوفيات ٢٤٤/١

(٧) فوات الوفيات ٢٤٣/١

(٨) انسان العيون ١٥٣

دَمْعَة شِيعِيَّة» ، ورأى أئمة أهل البيت انفسهم ان المحن والعذاب كأس كتب عليهم تناولها^(١) ، ولكن شعر الشيعة في القرن السادس خلا من رثاء اهل البيت ، ولذلك خلا ايضا من الحزن والبكاء .

وهذه الظاهرة تؤكد ما سبق ان اشرت اليه من ضياع وفقدان قسم كبير من شعر هذه الفترة ، لا سيما وقد نص صاحب المعجم الادباء على ان سعيد بن مكي النيلي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ بعد ان عاش زهاء مائة عام : «كان اكثر شعره في مديح اهل البيت»^(٢) ، ونحن اليوم لانملك من هذا الشعر الا تنفا قليلة ، تعتمد مؤرخو السنة ان تكون من الشعر الذي لم يشتهر به ، بحجة انه كان مغاليا في التشيع . وشاعر الشيعة الآخر : ابن العودي النيلي ، الذي قال عنه الدكتور مصطفى جواد : «ان شعره في المذهب الشيعي كان شائعا جدا في اواسط القرن السادس»^(٣) ، لم يشر العماد الكاتب حين ترجم للشاعر في الخريدة^(٤) الى انه من شعراء الشيعة ، وقد تابعه في هذا محقق الكتاب ، وليس من المعقول ان يجهل صاحب الخريدة مكانة ابن العودي بين شعراء الشيعة ، وقد كان من معاصريه ، ونص انه لقيه سنة ٥٥٤ هـ^(٥) ، فلعل في نص الخريدة نقضا كان على المحقق ان ينبه اليه . أما شعر الشيعة الذي وصلنا من القرن السادس فان معظمه يتناول مناقب الامام علي بقصد الرد على الخصوم وتسفيه آرائهم ، لان تلك المناقب تعتمد على احاديث رسول الله ﷺ من وجهة النظر الشيعية .

ومن تلك المناقب حديث غدير خم ، وهو مكان بين مكة والمدينة وقف فيه الرسول ﷺ بعد حجة الوداع ، فكان ما قاله عليه الصلاة والسلام : « . مَنْ كُنْتُ مَوْلَاَهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذِلْ مَنْ خَذَلَهُ ، وَأِدِرْ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ . . »^(٦) .

وهذا الحديث «اعتقده الشيعة سندا صريحا لهم في القول بامامة علي ، وقد اعترف اهل السنة جزئيا بصحة هذا الحديث ، واولوه بان المقصود من الولاية هنا الولاية الروحية . . اما السلف من الحنابلة المتقدمين فقد اولوا الموالاتة بعدم الكراهية ، وانكر السلف المتأخرون الحديث انكارا تاما»^(٧) . ومهما يكن فان شعراء الشيعة يؤيدون وجهة نظرهم ، ولذلك قال سعيد بن مكي :

(١) نشأة التشيع وتطوره ص ٥ ، التشيع واثره ص ٢٤٩ (٢) معجم الادباء ١٩٠/١١

(٣) انظر مقالاته عن ادب العراق وادبائه في القرن السادس/ مجلة الغرى السنة السابعة .

(٤) الخريدة ١٨٩/٤ (٥) نفسه .

(٦) مسند الامام احمد بن حنبل ١٩٥/٢ ، نشأة التشيع ص ١١ (٧) نشأة التشيع ص ١١

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
وَقَالَ لَهُمْ، وَالْقَوْمُ فِي خُفٍّ حُضْرًا^(٢)
عَلَيَّ كَزَّرِي مِنْ قَمِيصِي، وَإِنَّهُ
وَقَالَ ابْنُ الْعُودِي:

وَكُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ قَبْلِي وَصِيَّهُ
فَفَعَلْتُكُمْ فِي الدِّينِ أَضْحَى مُنَافِيًا
وَقُلْتُمْ مَضَى عَنَّا بِغَيْرِ وَصِيَّةٍ
نَصَبْتُ لَكُمْ بَعْدِي إِمَامًا يَدُلُّكُمْ
وَقَدْ قُلْتُ فِي تَقْدِيمِهِ وَوَلَانِهِ
عَلَيَّ غَدًا مِنِّي مَحَلًّا وَقُرْبَةً
عَلَى رَسُولِي فَاتَّبِعُوهُ، فَإِنَّهُ

مُطَاعٌ، وَأَنْتُمْ لِلْوَصِيِّ عَصِيَّتُمْ
لِفَعْلِي، وَأَمْرِي غَيْرُ مَا قَدْ أَمَرْتُمْ
أَلَمْ أَوْصِ لَفُظًا؟ رُغِمْتُ^(٤) وَغَفَلْتُمْ
عَلَى اللَّهِ، فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَضَلَلْتُمْ
عَلَيْكُمْ، بِمَا شَاهَدْتُمْ وَسَمِعْتُمْ
كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى فَلَمْ عَنْهُ مِلْتُمْ؟
وَلَيْكُمْ بَعْدِي إِذَا غَبَّتْ عَنْكُمْ^(٥)

ومن المناقب أيضا ما عرف بحديث المباهلة : وذلك «حين أتى وفد نجران الى الرسول (ص)، وسألوه عن حقيقة المسيح، نزل القرآن «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٦). إِنْ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ^(٧). ثم دعا الى المباهلة «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»^(٨). ورضي الوفد بالمباهلة فاتى الرسول (ص) أخذا بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلي بين يديه والقي عليهم الرسول بكسائه. ثم جثا رسول الله (ص) على ركبتيه وركع، فانسحب الوفد النجراني هاربا ورفض المباهلة»^(٩).

وقد أشار ابن العودي الى المباهلة فقال:

هُمْ بَاهَلُوا نَجْرَانَ مِنْ دَاخِلِ الْعَبَا
وَأَقْبَلَ جَبْرِيلُ يَقُولُ مُفَاخِرًا
فَعَادَ الْمُنَادِي عَنْهُمْ، وَهُوَ مُفَحِّمٌ
لِمِيكَالَ مَنْ مِثْلِي، وَقَدْ صِرْتُ مِنْهُمْ

(١) الرُّؤْس: القبر.

(٢) كَذَا بِالْأَصْلِ، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ حُضْرًا بِالضَّادِ.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢/٢٢١

(٤) رُغِمْتُ: انحرقت.

(٥) سورة الزخرف آية ٥٩

(٥) مناقب آل أبي طالب ١/٢١٧

(٨) آية ٦١ سورة آل عمران.

(٧) سورة آل عمران آية ٥٩

(٩) نشأة التشيع ص ٦ - ٧، وانظر مسند أحمد بن حنبل ٩٧/٣ - ٩٨

فَمَنْ مِثْلُهُمْ فِي الْعَالَمِينَ وَقَدْ غَدَا لَهُمْ سَيِّدُ الْأَمَلَاكِ جَبْرِيلُ يَخْدُمُ^(١)؟

وقال العلاء بن علي . . بن السَّوَادِي الواسطي المتوفى سنة ٥٥٦ هـ يذكر المباهلة في ختام قصيدة:

وَيْحَ نَفْسِي إِنْ لَمْ يَكُنْ لِي وَلَاءٌ كَانَ مِنِّي فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ
فِعِمَادِي وَعِدَّتِي فِي مَعَادِي عِنْدَ حَشْرِي إِذَا جُنَا الْخُصْمَانِ
يَوْمَ عَرْضِي مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَابْتِئُولُ الزَّهْرَاءِ وَالْحَسَنَانِ
خَمْسَةٌ فِي الْعَبَا اسْتَجَارَ بِهِمْ جَب رَيْلُ يَبْغِي الزُّلْفَى^(٢) إِلَى الْمَنَانِ^(٣)

ان الصفة الغالبة على معظم النصوص المتقدمة من الشعر العقائدي هي ان هذا الشعر سهل غاية السهولة في الفاظه ومعانيه ، وقد يكون غير متماسك النسيج مفككا يكاد يقرب من لغة العامة واساليها . واذا عرفنا ان هدف الشعر العقائدي هو التبشير بالعقيدة والتغلغل بها بين كل طبقات الامة ، مادركنا سر هذه السهولة وهذا الوضوح والحرص الذي يظهره الشعراء في الابتعاد عن التعقيد وتجنب الغريب .

اضف الى ذلك ان شاعر العقيدة كان يجهد نفسه في ان يأتي في شعره ببعض العقائد ، وان يلائم بين هذه العقائد والالفاظ التي يختارها لشعره ، ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر^(٤) . وشيء آخر يجب ان يذكر هنا وهو التزيد والانتحال والتلفيق من المتحمسين والمتعصنين للعقائد الاسلامية ودورهم في وضع الشعر وانطاق الشعراء بما لم يخطر لهم ببال .

٣ - الدين الصَّرف:

شعر القرن السادس يدل على ان الناس في هذه الفترة كانوا فريقين من ناحية التمسك بالدين واتباع اوامره ونواهيه :

(٦)
الفريق الاول :حاول ان يوفق بين الدين والدنيا ، لم يدخر وسعا في تمتع بطيبات هذه الحياة ، ولم ييخل بجهد في سبيل ارضاء الذين بيدهم مفاتيح الأموال ومقاليد السلطة والجاه .

(١) مناقب آل أبي طالب ١٤٦/٣

(٢) الزُّلْفَى : القُرْبَى .

(٣) الحريدة ٣٧٧/٤ - ٧٨ ، المَنَان : الله سبحانه .

(٤) في أدب مصر الفاطمية ص ١٩٤ ، التشيع وأثره ص ١١٨

ولو كان ذلك على حساب التمسك بالتعاليم الدينية- عن طريق الايحاء للناس بان الدين يسر، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ولذلك خاض هؤلاء معارك ضارية، سفكت فيها دماء، وازهقت أنفس، تحت ستار اعلاء كلمة الدين والقضاء على المفسدين.

واظن انني بذلت ما استطيع، وما اسعفتني به النصوص، في الصفحات الماضية، كي ارسم صورة للدين كما فهمه هؤلاء.

اما الفريق الثاني: فقد سار في الاتجاه المضاد: اختار طريق الدين والتقوى، وآثر تعاليم الاسلام واحكام الشريعة، وفضل الاخرة الباقية على هذه الدنيا الفانية. ولذلك تجنب هؤلاء السلطة والسلطين وراحوا ينادون: بأن ما عند الحاكم دراهم معدودة، زينة الحياة الدنيا، وان لله خزائن السماوات والأرض.

وقد تطرف بعض هؤلاء في الابتعاد عن الدنيا والتعلق بالأخرة، قال ابن الجوزي: ان «يحيى بن عيسى بن ادريس ابا البركات الانباري، كان ورعا، حتى انه عطش فجيء بماء من بعض دور الحكام فلم يشرب»^(١). وقال في ترجمة احدهم: «... سمع الحديث الكثير وتفقه... الا انه اشتغل بالعمل مع السلطان»^(٢).

وعلى الرغم من علامات الاقبال على الدنيا، وتلك الاشارات الدالة على ان حزب العاجلة يوشك أن ينتصر، بدليل الصراع المخيف بين العباسيين والسلاجقة من جهة، وكذلك بين العباسيين انفسهم على الوزارة والمناصب العليا من جهة ثانية^(٣). اضيف الى ذلك غرام بعض الخلفاء- ومنهم المستضيء- ببناء القصور والاكثار منها^(٤). ثم هناك شرب الخمر والتغني بصفاتها وسقاتها ومعاصرها، وهوامر شائع جدا في شعر هذه الفترة حتى يخيل للمرء ان الخمرة ليست محرمة ولم يقل الفقهاء انها ام الخبائث، والا وقعنا في حيرة اذا اردنا معرفة سر الاقبال على التغني بذكر الخمر جهارا امام الخلفاء، وفي مجالسهم الحاشدة.

ولكن على الرغم من هذا كله، فان من الخطأ الاعتقاد بأن الطبقة المتدنية في ورطة، او ان رجال الدين مضطرون على التحايل والتسامح وغيض النظر والتوسع في تفسير النصوص الدينية. ان الكتب التي اهتمت بالنشاط الديني وذكر رجال الدين والاشارة الى كتبهم ومناظراتهم واخبارهم ومنها: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، وطبقات الشافعية الكبرى، والذيل على طبقات الحنابلة، والمختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الديبشي،

(٢) نفسه ١٠/١١٤

(١) المنتظم ١٠/١٨٠

(٣) أنظر: الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٢٦، ٣٧٧، ٤٥٢

والتكلمة لوفيات النقلة للمُنذري، وغاية النهاية في طبقات القراء، وغيرهامما سبقت الإشارة اليه^(١)، كل ذلك يدل على ان الدين بخير، وان رجاله يتمتعون بنفوذ كبير، وبغداد القرن السادس كانت قلعة من قلاع الاسلام الحصينة. وان ملاحظة ابن جبير عن بغداد «وان أهلها لا تكاد تنظر من خواصهم بالورع العفيف، ولا تقع من اهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف^(٢)». . ليست سوى نظرة مسافر متعجلة.

ان الظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية التي تعرض لها العراق والتي أشرت اليها في الفصل الأول من هذه الرسالة، وكذلك ميل الناس عامة لاحترام الزهاد وتوقيرهم والنظر اليهم باكبار واجلال^(٣)، هذان العاملان ساعدا على اتساع موجة الزهد والعزوف عن الدنيا، بحيث اصبحت ظاهرة اجتماعية عامة شملت جماعات كانت تعد بعيدة عن الزهد والزهاد: فقد جاء عن الامير سليمان بن نظام الملك متولي المدرسة النظامية انه حضر مجلس ابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، فتواجد وخرق ثيابه وكشف رأسه وقام واشهد الواعظ والجماعة انه قد اعتق جميع ما يملك من الرقيق ووقف أملاكه^(٤). وقال ابن الديبشي: «ان الحسن بن عبد الله بن أبي الفوارس الحاجب كان خصيصا بخدمة الوزير ابي الفرج بن رئيس الرؤساء ملازما له، وانقطع في آخر عمره الى الصوفية واقام برباط^(٥) الزُّوزني مدة^(٦). .» وقال عن «الحسن ابن محمد بن علي. . الشيرازي الاصل، البغدادى المولد والدار ابي منصور، كان كاتباً في الاعمال السلطانية مدة، وترك ذلك واشتغل بطريقة التصوف، وتولى خدمة الصوفية برباط^(٧) الأرجواني بدرب زاخي^(٨) مدة. . توفي سنة ٥٩٦ هـ^(٩)».

وهذه الظاهرة التي شاعت وانتشرت في الحياة الاجتماعية، يمكن ان ترشدنا الى تعليل لظاهرة ادبية تطالعنا في شعر طائفة من كبار شعراء القرن السادس الا وهي وجود قطع وقصائد في الزهد والوعظ، مع أن احدا لم يذكر هؤلاء الشعراء بين الزهاد اورجال الوعظ.

(١) أنظر الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٢) رحلة ابن جبير ص ١٧٤ (ط. دار التراث).

(٣) تليس ايليس ص ١٦٦

(٤) تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٣٩٧.

(٥) عن رباط الزوزني، أنظر الفصل الأول ص ٤٦ هامش ٦

(٦) تاريخ ابن الديبشي و ٣١٩

(٧) ويعرف أيضا بـ «رباط أَرْجَوَان»، منسوب إلى السيدة أرجوان الأرمينية، والدة الخليفة المقتدي بأمر الله، وموقعه في بغداد

الشرقية في شارع المنشي الحالي، دليل خارطة بغداد ص ١٦٥

(٨) وفي رواية «زاخا» ويرجع الدكتور مصطفى جواد أنه في موقع شارع المنشي اليوم من بغداد الشرقية (الرصافة). دليل خارطة

بغداد ص ١١٥.

(٩) تاريخ ابن الديبشي و ٣٤٥ - ٣٤٦

قال ابن التعاويذي يعظ نفسه ويذكرها الموت :

نَعِمْتُ زَمَاناً مَعَ الْمُتَرَفِّينَ وَعَشْتُ أَخَا ثَرَوَةٍ مُوسِيراً
وَقَضَيْتُ عُمَرَ الْهَوَى بِالْوَصَالِ وَلِيلَ الصَّبَى بِالدَّمَى مُقْمِيراً
طَلَيْقُ الْعِنَاقِ (١) خَلِيعُ الْعِذَارِ (٢) أَهْوَى الْعِزَالَ إِذَا عَذَّرَا (٣)
وَلَمْ أُعْصِرْ فِي حُكْمِهَا غَاذَةً كَعَاباً، وَلَا رَشْأً (٤) أَحْوَرَا (٥)
وَيَا رَبِّ صَفْرَاءَ مَشْمُولَةٍ (٦) أَهَنْتُ لَهَا الْمَسْجَدَ الْأَحْمَرَ
وَعَالَيْتُ فِي اللَّهِو لَا نَادِماً لِصَفْقَةِ غَبْنٍ، وَلَا مُخْسِراً
وَنَادَمْتُ كُلَّ سَخِيٍّ (٧) الْبَنَانِ يُطْعِمُ نِيرَانَهُ الْعَنْبَرَ
وَجَالَسْتُ كُلَّ مَنِيعِ الْحِجَابِ يَفْرُقُ مِنْهُ أَسْوَدُ الشَّرَى
إلى ان يقول :

فَقِفْ بِي مُعْتَبِراً إِنْ مَرَرْتَ عَلَى جَدَّتِي (٨)، وَإِنْكَ مُسْتَعْبِرَا (٩)
وَلَا تُخْذَعْنَ بِمُغْتَرَةٍ حَدِيثُ مَوَدَّتِهَا مُفْتَرَى (١٠)
وَلَا تَرْكَنْتُ إِلَى ثَرَوَةٍ مَقِيلُكَ (١١) مِنْ بَعْدِهَا فِي الثَّرَى (١٢)
وقال في الزهد :

خُذْ مِنْ شَبَابِكَ، وَانْتَهِزْ أَيَّامَ صِحَّتِكَ الْفُرْصَ
تَشْرَى الْمَائِمَ مُغْلِيّاً وَتَبِيعُ دِينَكَ مُرْتَخِضَ
أَوْ مَا تَرَى ظِلَّ الشَّيْبِ بَةِ عَنْ عِذَارِكَ قَدْ قَلَصَ (١٣)
اعرض عن الدنيا المشو (م) بَةِ (١٤) بالنوائب والغصص (١٥)
كَمْ جَرَعْتُ أَبْنَاءَهَا مِنْ فَتْكِهَا بِهِمِ النَّغْصِ

-
- (١) العناق: كذا بالأصل، والصواب العنان.
(٢) خليع العذار: له مطلق الحرية.
(٣) عذّر: ظهر عذاره، وهو لحته.
(٤) الرشاء: ولد الظبية.
(٥) أحور: من المحور، وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها.
(٦) الصفراء المشمولة: الخمر.
(٧) سخي البنان: غنى كريم.
(٨) الجدث: القبر.
(٩) مستعبر: أخذ عبرة.
(١٠) مفترى: من الافتراء، وهو الكذب.
(١١) المقيل: المنزل.
(١٢) مقيلك: الديوان ص ٤٨١ - ٨٢
(١٣) قلص: انحسر.
(١٤) المشوبة: المزوجة.
(١٥) الغصص: الواحدة غصة: ما يقص به الإنسان، الحزن، الهم.
(٩) النغص: تكدير الحياة.

وَاعْلَمَ - إِذَا مَا زِدْتَ مَا لَا - أَنْ عُمْرَكَ قَدْ نَقَصَ
... الخ^(١).

ان ندره شعر الوعظ والزهد في ديوان ابن التعاويذي تدل على أن الرجل ليس من فرسان
هذا الميدان، وان الدنيا من حوله بكل ما فيها من منغصات ومتاعب هي التي دفعته الى العزف
على قيثارة المحزونين.

وقال الحيص بيص:

ما لي وَلِلدُّنْيَا؟ وَيَا غَفْلَتِي إِذَا تَفَكَّرْتُ؛ وَيَا سَهْوِي
أَضْحَكُ مِمَّا لَوْ تَأَمَّلْتُهُ بَكَيْتُ مِنْهُ أَبَدًا شَجْوِي^(٢)
ونعيمي عندها صحي إِنْ هِيَ جَادَتْ لِي بِالصَّفْوِ-
صحتي مجموعها أني مرتَهَنُ بِالْأَكْلِ وَالنَّجْوِ
وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ مِنْ بَعْدِهَا إِنْ لَمْ تُصَادِفْ شَرَفَ الْعَفْوِ^(٣)

ومن شعر محمد بن محمد بن عمر . . . ابي الفتح النُّعْمان الشاعر المشهور، ويعرف
بابن الأديب المتوفى سنة ٥٦٩ هـ^(٤):

كَلَا السَّوَادَيْنِ مِنْ قَلْبِي وَمِنْ بَصْرِي فِدَاءُ مَا بَيَّضَ الْقَوْدَيْنِ^(٥) مِنْ شَعْرِي
صُبَّغَ عَلَى الرَّأْسِ مَوْقُوفٌ قَضِيْتُ بِهِ مَا شِئْتُ مِنْ لَذَّةٍ تُلْهِي وَمِنْ وَطْرِ
مَرَّ الْجَدِيدُ^(٦) بِهِ حِينًا، فَأَخْلَقَهُ^(٧) وَأِنَّمَا ذَلِكَ الْأَخْلَاقُ لِلْعُمَرِ
مَا سَاعَةً تَنْقُضِي إِلَّا وَقَدْ أَخَذْتُ شَطْرًا مِنَ السَّمْعِ أَوْ شَطْرًا مِنَ الْبَصَرِ
لَوْ فَكَّرَ الْمَرءُ فِي أَطْوَارِ خِلْقَتِهِ مَا كَانَ فِي غَيْرِهَا يَوْمًا بِمُعْتَبِرٍ^(٨)

وقال ابو الحسن علي بن احمد البغدادي المعروف بقبلة الادب المتوفى سنة ٥٧٠ هـ^(٩):

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٤٨، وأنظر أيضا ص ٣٢٠

(٢) الشُّجُو: الحزن

(٣) النَّجْو: ما يخرج من البطن.

(٥) أورد العماد الكاتب كثيراً من شعره، وأثنى على جودة خطه في القسم المخطوط من الخريدة/نسخة ايران/في خزنة المجمع

العلمي العراقي.

(٦) الْقَوْدَان: جانباً الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام. (٧) الجديد: الليل أو النهار.

(٨) أَخْلَقَهُ: أبلاه. (٩) الروابي بالوفيات ١٢٦/٨ (١٠) أنظر دراسة الهجاء ص ١٤٢

قُلْتُ لِلْفَرَقْدَيْنِ^(١)، وَاللَّيْلُ مُلْتِي فَضْلٌ^(٢) أَرْوَاهِ^(٣) عَلَى الْأَفَاقِ
إِبْقِيَا مَا بَقِيَتْمَا سَوْفَ يُرْمَى بَيْنَ شَخْصَيْكُمَا بِسَهْمِ الْفِرَاقِ^(٤)

وقال الضحاك بن سليمان بن سالم ابو الازهر المتوفى سنة ٥٦٣ هـ:

مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ بِنِعْمَةٍ أَوْفَى مِنَ الْعَافِيَةِ
وَكُلُّ مَنْ عُوْفِي فِي جِسْمِهِ فَأَنْهُ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ
وَالْمَالُ حُلُوٌّ، حَسَنٌ، جَيِّدٌ عَلَى الْفَتَى لَكُنْهُ عَارِيَةً
وَأُسْعِدُ الْعَالَمَ بِالْمَالِ مَنْ أَذَاهُ لِلْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ
مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهَا مَعَ حُسْنِهَا عَدَارَةٌ فَإِنَّهُ^(٥)

وبعد: فلست ارى فائدة من الاستمرار في عرض الشواهد، لانها كثيرة(٧) وكثرتها خير دليل على الظاهرة التي اشير اليها.

مدح الرسول ﷺ :

اظن ان موجة الزهد واذم الدنيا وسوء الظن بالناس وما ادت اليه من شيوع الاتجاه الى السماء والدعوة الى رفض الاستعانة بغير الواحد الاحد، لان حكام الارض بدوا عاجزين عن اسعاد البشر وادخال الطمأنينة الى نفوسهم، اظن ان هذه الموجة كان يمكن ان تنحسر وتزول، لو قدر للأسباب التي خلقتها - وهي اسباب اجتماعية واقتصادية كما اشرت - ان تختفي فيعم الوثام ويحل السلام، بعد ان يقضى على اسباب الحروب التي دمرت الاقتصاد وفتكت باسباب الرخاء والنعيم. ولكن الدلائل مجمعة على ان الامور في العراق والدول المجاورة كانت تسير من سيء الى اسوأ، وكل سنة جديدة تنذر الناس بمزيد من المتاعب ومزيد من الفقر والهم^(٨).

(١) الفرقدان: نجمان يهتدى بهما.

(٢) الفضل: الزيادة.

(٣) الأرواق: واحدها رَوْق: الطائفة من الليل.

(٤) تلخيص معجم الألقاب ق ٤ ج ٣ ص ٥٧٢ - ٥٧٣، وهامش ١١٥.

(٥) عارية: مستعار، غير دائم. (٦) الحريدة ١٢١/٤، المختصر المحتاج اليه ١١٨/٢.

(٧) انظر شواهد أخرى في: ذيل الروضتين ص ٥٨، الجامع المختصر ٩٣/٩، الوافي بالوفيات ١١٢/٨، مصوره، ١٠١/٢.

مستدرك المختصر المحتاج اليه ص ٣٨

(٨) بدليل أن الموجة الصليبية التي بدأت تنحسر تدريجياً، حلت محلها أخبار الزحف المغولي من الشرق، وقد استطاع هؤلاء الاتيان

على الخلافة العباسية من الجذور.

وهكذا وجد الادباء انفسهم - وهم الذين عرفوا برهافة الحس ورقة الاحساس - في عالم كئيب، تسوده شريعة الغاب، ويقتل الناس فيه من اجل مكاسب تافهة . فماذا كانت النتيجة؟ لقد بدأ الادباء يشكون في امكانية اصلاح هذا العالم، وظهر ان المستقبل مظلم، فازدادت موجة الزهد اتساعا، وزحف الوعظ والشعر الديني الى ميادين لم يعرفها من قبل، واشتدت الحاجة الى مثل اعلى يقصده الشعراء ويستعوضون بمدحه عن مدح الزعماء والحكام، فكان ان تطلعوا بابصارهم الى الحجاز حيث مهبط رسالة السماء .

لقد شاعت في هذا العصر فكرة المجاورة في الديار المقدسة : وهي نوع من الهروب من هذا العالم ومحاولة البحث عن السكينة والطمأنينة بالالتجاء الى قبر الرسول ﷺ، ومن الذين قصدوا الحجاز لهذا الغرض ابو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، وجار الله الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ، الذي عرف بهذا اللقب «جار الله» بعد ان جاور في مكة زمانا^(١) . ومن الذين جاؤوا بمكة ايضا في الفترة التي ادرسها «الحسن بن علي بن ابي سالم» . بن ناهوج الإسكافي الاصل، البغدادي المولد والدار . من اهل باب الأزج^(٢)، احد الكتاب المتصرفين في خدمة الديوان الإمامي هو وابوه، وكان فيه فضل وأدب بارع وعربية وتصرف في فنونها . وكان خرج من بغداد حاجا في سنة ٥٨٩ هـ أو نحوها، فجاور بمكة ثم صار منها الى الشام واقام بحلب مدة، ثم انتقل الى مصر فسكنها الى ان مات بها سنة ٥٩٦ هـ . ومن شعره يتشوق الى الحجاز بعد مجاورته بمكة :

خَلِيلِي هَلْ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ وَقْفَةٌ بَخِيفٍ^(٣) مَنِي، وَالسَّامِرُونَ هُجُوعُ؟
وَهَلْ لِلَّيَالِ الْمُحْصَبِ^(٤) عَوْدَةٌ وَعَيْشٍ مَضَى بِالْمَأْزَمِينَ^(٥) رُجُوعُ؟
وَهَلْ سَرَحَةٌ^(٦) بِالسَّفْحِ مِنْ أَيْمَنِ الصَّفَا^(٧) وَعَتَّ مِنْ عُهْدِي مَا أَضَاعَ مُضِيعُ؟
وَهَلْ قَوَّضَتْ خَيْمٌ عَلَى أَبْرِقِ الْحَمَى^(٨) وَمَا ذَاكَ مِنْ غَدْرِ الزَّمَانِ بَدِيعُ^(٩)

(١) وفیات الاعيان ٤/ ٢٥٥

(٢) تعرف اليوم باسم «باب الشيخ»، نسبة الى الشيخ عبد القادر الكيلاني، وفيها ضريحه .

(٣) خَيفَ مَنِي : خيف : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن سيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من مَنِي . (معجم البلدان ٣/ ٤٩٩) .

(٤) المحصب : موضع فيها بين مكة ومَنِي، وهو الى مَنِي أقرب . (معجم البلدان ٧/ ٣٩٥) . وهذا الشطر مكسور الوزن، ولعله :

وهلا . .

(٥) المأزمان : موضع بمكة بين الشعر الحرام وعرفة . (معجم البلدان ٧/ ٣٦٢) (٦) سرحة : شجرة .

(٧) الصفا : مكان مرتفع من جبل أبي قبيس . (معجم البلدان ٥/ ٣٦٥) .

(٨) أبرق الحمى : لم يذكره ياقوت بين «الابارق» التي ذكرها في معجمه .

(٩) بدیع : جديد .

وَهَلْ تَرَدُّنْ مَاءَ بِشْعَبِ ابْنِ عَامِرٍ^(١) حَوَائِمُ لَوْ يُقْضَى لَهِنَّ شُرُوعُ؟
وما ذاك إلا عارضٌ مِنْ طَمَاعَةٍ لَهُ بِقُلُوبِ الْعَاشِقِينَ وَلُوعُ
... الخ^(٢).

وقد عاصر ابن ناهوج «ابو نزار الحسن بن ابي الحسن . . النحوي المعروف بملك النحلة . ولد ببغداد في الجانب الغربي . ثم سافر الى بلاد خراسان وكرمان وغزنة . . . وقدم دمشق ثم خرج منها وعاد اليها واستوطنها الى ان مات بها سنة ٥٦٨ هـ . وكان قد ناهز الثمانين . ومن شعره يمدح النبي ﷺ :

يا قاصداً يَثْرِبُ الْفِيحَاءُ^(٣) مُرْتَجِياً - أَنْ يَسْتَجِيرَ بَعْلِيَا خَاتَمِ الرُّسُلِ
خُذْ عَنْ أَحْيِكَ مَقَالاً إِنْ صَدَعْتَ^(٤) بِهِ - مُدَحَّتْ فِي آخِرِ الْأَعْصَارِ^(٥) وَالْأَوَّلِ
قُلْ: يَا مَنْ الْفَخْرُ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ، فَإِنْ - تُذَوِّكِرُ الْفَخْرَ لَمْ يَصْدِفْ^(٦)، وَلَمْ يَمِلْ
صَبِيْتُ إِذَا طُلِبْتُ غَايَتُهُ خَرَقْتُ - سَبْعاً طِبَاقاً، فَبَذْتُ كُلَّ ذِي أَمَلٍ
عَلَوْتُ وَازْدَدْتُ، حَتَّى عَادَ مُتَزَحِّحَا - جَبْرِيلُ عَمَّا لَهُ قَدْ كَانَ لَمْ يَطُلْ
وَعُدْتُ - وَالْكِبَرُ قَدْ نَافَى عُلَاكَ - عَدَوْتُ شَيْمَةَ سَبِطِ^(٨) الْخَلْقِ، مُبْتَهَلٍ
أَتَيْتُكَ غَرْ قَوَافِي الْمَدْحِ خَاضِعَةً - لَدَيْكَ، فَاقْبَلْ ثَنَاءً غَيْرَ مُتَحَلٍّ
ثَنَاءً مَنْ لَمْ يَجِدْ وَجْنَاءً^(٩) تَحْمِلُهُ - إِلَيْكَ، أَوْصَدْ بِالْأَقْتَارِ^(١٠) عَنْ جَمَلِ^(١١)
وقال ايضا يمدح الرسول ﷺ :

لِلَّهِ أَحْلَاقٌ مَطْبُوعٌ عَلَى كَرَمٍ - وَمَنْ بِهِ شَرَفُ الْعُلِيَاءِ وَالْكَرَمِ
أَغْرُ اِبْلُجُ^(١٢) يَسْمُو عَنْ مُسَاجِلِهِ^(١٣) إِذَا تُذَوِّكِرُ الْإِحْلَاقُ وَالشُّيْمُ

(١) شعب ابن عامر: ارجح أنه «شعب جيلة» الذي كانت فيه الوقعة المشهورة بين بني عامر ونعيم وعبس وذبيان وفزارة، إذ لم يذكر

ياقوت شعباً بهذا الاسم في معجمه. (معجم البلدان ٥١/٣، ٢٧٠/٥)

(٢) معجم الأدباء ٨٨/٩ (ط. دار المأمون)

(٣) الفيحاء: الواسعة.

(٤) صدعت: جهرت.

(٥) الأعصار: واحدها عصر وهو الزمن.

(٦) صدف: يعرض.

(٧) لم يطل: من القول أي القدرة، أي أن جبريل لم يصل إلى ما وصل إليه الرسول ولعل الشاعر يشير إلى ما ورد في كتاب (الاسراء

والمعراج) من أن الرسول ﷺ صعد إلى سموات لم يصل إليها جبريل.

(٨) سبط الخلق: كريم الشرائع، متواضع.

(٩) الوجناء: الناقة القوية.

(١٠) الأقتار: الفقر.

(١١) الالنج: المفترق الحاجبين، وقيل الأبيض الحسن الواسع الوجه.

(١٢) المساجل: المنافس.

سَمَتْ عُلاكَ رَسُولَ اللَّهِ، فَارْتَفَعَتْ
 لَا مَنْ رَأَى الْمَلَأَ الْأَعْلَى، فَرَأَعَهُمْ
 ... الخ^(٢).
 عَنْ أَنْ يُشِيرَ إِلَى إِثْبَاتِهَا كَلِمٌ^(١)
 وَعَادَ، وَهُوَ عَلَى الْكُونَيْنِ، يَحْتَكِمُ

وَقَالَ يَمْدَحُ الرَّسُولَ أَيْضًا:
 مَنْ حَامِلٌ عَنْ أَخِيهِ سَبَطُ مَأْلَكَةٍ^(٣)
 يَقُولُ، وَالْحُجَرَاتُ الْغَرُّ تَسْمَعُهُ
 هَلْ سَامِعٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ لِمَنْ
 ... الخ^(٥).
 يَهْزُهَا إِنْ أَفِضَ^(٤) الْقَالَ وَالْقِيلُ
 وَالْوَفْدُ كُلُّ بِمَا يَعْنِيهِ مَشْغُولُ
 وَلَاؤُهُ لَكَ مَزْوِيٍّ وَمَنْقُولُ؟

وَلَا بِي نَزَارِ ثَلَاثَ قِصَائِدَ أُخْرَى فِي مَدْحِ الرَّسُولِ أَيْضًا: أَحَدَاهَا قَافِيَةٌ وَمُطْلَعُهَا:
 يَا خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ قَاطِبَةً أَنْتَ لَفْظُ الثَّنَاءِ يَسْتَبِيحُ^(٦)
 وَالْأُخْرَى دَالِيَةٌ وَمُطْلَعُهَا:
 رَأَى الْبَرْقَ غَوْرِيٍّ الْوَمِيزُ فَأَنْجَدَا وَأَصْدَرَ رُكْبٌ بِالْعَقِيقِ فَأُورِدَا^(٧)
 وَالثَّلَاثَةُ رَائِيَّةٌ وَمُطْلَعُهَا:

لِمَنْ النَّارُ عَلَى مَرْفُوعَةٍ مِنْ يَفَاعٍ^(٨) جَبَلٍ عَلَيْهَا مَغَارٌ^(٩)؟

إِنْ مَلِكُ النِّحَاةِ - فِيمَا أَعْلَمَ - هُوَ أَوَّلُ شَاعِرٍ يَمْدَحُ الرَّسُولَ ﷺ بِهَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْقِصَائِدِ،
 وَعِنْدِي أَنْ لَشَخْصِيَّةٍ مَلِكِ النِّحَاةِ عِلَاقَةٌ بِهَذَا الْوَلَعِ وَالْإِكْثَارِ مِنْ مَدْحِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ . فَقَدْ كَانَ
 أَبُو نَزَارٍ عِنْدَهُ عَجَبٌ بِنَفْسِهِ وَتِيهِ، وَهُوَ الَّذِي أَطْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ هَذَا اللَّقَبَ «مَلِكُ النِّحَاةِ» وَكَانَ
 يَسْخَطُ عَلَى مَنْ يَخَاطِبُهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ^(١٠)، حَتَّى أَنَّهُ قَالَ عَنْ مَقَامَاتِهِ الَّتِي وَضَعَهَا عَلَى غِرَارِ مَقَامَاتِ
 الْحَرِيرِيِّ: «مَقَامَاتِي جَدٌ وَصَدَقَ، وَمَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ هَزْلٌ وَكَذِبٌ»^(١١).

وَالْمَهْمُ أَنْ شَخْصِيَّةَ أَبِي نَزَارٍ هِيَ الَّتِي أَمَلْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَجَّهَ بِمَدِيحِهِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ،
 بَعْدَ أَنْ خَابَ ظَنُّهُ فِي الزَّعْمَاءِ مِنْ مُعَاَصِرِيهِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ الرَّجُلَ جَالَ جَوْلَةً كَبِيرَةً بَيْنَ
 حَوَاضِرِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ: بَدَأَتْ بِبَغْدَادَ وَوَسَاطَ، ثُمَّ أَرَبِلَ وَخِرَاسَانَ وَكُرْمَانَ . . . وَانْتَهَى بِهِ

(١) الْكَلِمُ: الْكَلَامُ، وَلَعَلَّهَا: قَلَمٌ.

(٢) تَهْذِيبُ تَارِيخِ دِمَشْقَ ١٦٧/٤

(٣) الْمَأْلَكَةُ: الرِّسَالَةُ.

(٤) أَفِضَ: كَثُرَ، اتَّسَعَ.

(٥) نَفْسُهُ ١٦٨/٤

(٦) نَفْسُهُ ١٦٨/٤

(٧) نَفْسُهُ: ١٦٩/٤

(٨) الْيَفَاعُ: الْمُرْتَفِعُ، وَفِي هَذَا الْعَجْزِ اضْطِرَابٌ.

(٩) أَنْبَاءُ الرِّوَاةِ ٣٠٩/١، حَاشِيَةُ ١١٠.

(١٠) وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ٣٧١/١

ولعل الوقوف على شعراي نزار في مدح الرسول الكريم مما يعين على معرفة الاصل الذي الهم البوصيري^(٢) نظم قصائده الذائعة الصيت في مدح الرسول ﷺ وهو موضوع ظل يشغل بال المحدثين، اذ ليس من المعقول ان يكون البوصيري المتوفي في اواخر القرن السابع، قد ابتكر هذا الفن دون ان يستعين بأحد سبقه اليه، لأن هذه الفترة يغلب عليها التقليد، فكيف استطاع صاحب البردة الخروج على سمة عصره وطابعه؟

لقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تحليل الطريقة التي اهتدى البوصيري بها الى المدائح النبوية: فمن قائل ان مدح الخلفاء العباسيين، وزعماء الشيعة والفاطميين، بسبب قرابتهم للرسول، كانت البداية التي اوحى للبوصيري بالفكرة^(٣)، وقال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين: ان الشعراء في أواخر العصر الفاطمي، وفي العصر الايوبي وما بعده في غزلهم، كانوا يحرصون على ان يذكروا بعض الاماكن والبلاد التي في الحجاز. وكانت هذه الظاهرة اللافتة في العصر الايوبي هي السبب الاول في ظهور فن جديد في الادب العربي هو فن المدائح النبوية^(٤).

اما المرحوم الدكتور مبارك فعلى الرغم من دراسته لموضوع المدائح النبوية في الأدب العربي في كتاب خاص، قال عنه: «انه اول من يرسم خصائص المدائح النبوية في الادب العربي. .»^(٥) ولكن الدكتور الفاضل لم يتطرق الى العوامل التي ساعدت البوصيري على النبوغ في هذا الفن فجأة، على الرغم من اشارته الى قصائد الشريف الرضي ومهيار في رثاء الحسين ﷺ واهل البيت^(٦). . وهي اشارة ربما اغنت عن العبارة.

التصوف:

يمثل المتصوفة اقصى درجات الزهد والمبالغة في الانصراف للدين والاعراض عن كل ما يمت الى هذه الدنيا بصلة، ولذلك عرفوا بالميل الى الوحدة والابتعاد عن الناس وما يشغلهم، كما شهروا بالاكثفاء بما يسد الرمق من الطعام، وبما يستر الجسم من اللباس. وقد عاش في العراق خلال الفترة التي ادرسها زعيمان مشهوران من شيوخ الصوفية،

(١) وفيات الأعيان ١/ ٣٧١

(٢) هو محمد بن سعيد بن حماد. . الصنهاجي، كان يعاني صناعة الكتابة والتصوف، وشعره في غاية الحسن واللطافة. توفي سنة

٦٩٥ هـ. فوات الوفيات ٢/ ٤١٢، الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٥، المدائح النبوية ص ١٧١

(٤) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٩٣ - ١٩٤

(٣) الأدب في بلاد الشام ص ٤١٢

(٦) نفسه ص ١٤٢ وما بعدها.

(٥) المدائح النبوية ص ٩

وهما الشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ في بغداد: « . . . وكان سكوته أكثر من كلامه . . . فظهر له صيت عظيم وقبول تام . . . وتاب على يده معظم أهل بغداد، واسلم معظم اليهود والنصارى . . . »^(١) وفي جنوب العراق، في البطائح اشتهر شيخ الطريقة الرفاعية أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ، وقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة^(٢) إلى ما كان يعتقد من أن سبب لطافة شعرا بن المعلم الواسطي هو بركة انفاس المتسبين إلى الشيخ أحمد الرفاعي، لأنه عاش بينهم فترة طويلة.

إن انصراف المتصوفة عن الدنيا، وانشغالهم بالدين، قد لفت نظر الحكام اليهم، فحاولوا بذل كل ما يستطيعون للسيطرة على هذه الحركة، واستمالة زعمائها. فاصبح الصوفية فئة مميزة في المجتمع، واصبح لرؤسائهم مكانة عند الحكومة كالقضاة والشهود والوجوه، فكانوا يحضرون مجالس الوزير اسوة بكبار رجال الدولة^(٣)، وحين يذكر المؤرخون كبار المدعويين إلى الوليمة التي اعتاد الخليفة المستضيء اقامتها في مستهل رجب من كل سنة، يذكرون من بين المدعويين الكبار « . . . مشايخ الربط والصوفية وأهل الدين » . . .^(٤)

إن هذه العلاقة بين الصوفية والحكومة قد أثارت سخط العارفين بأصل التصوف، المدركين لحقيقة أهدافه^(٥).

كذلك استغل أعداء التصوف هذه العلاقة، وراحوا يشنعون على الصوفية بأن أوائلهم كانوا ينفرون من السلاطين والأمراء، ولكنهم الآن صاروا أصدقاء^(٦). وقال أحد الباحثين: كان لهذه الطبقة (المتصوفة) أثر كبير على الناس، إذا شاعت فيهم روح التوكل والاستجداء، وأصبحت السلبية طابع تلك العصور عند الشعوب أو المحكومين، ولم تقم بينهم دعوات للتححر لأنها كانت تكبت لأول ظهورها^(٧). . . ، وقال باحث آخر: « . . . إن التصوف في الحقيقة حركة اتخذت الجانب السلبي من المثل . . . فقد كان قائماً على الاعتراف بالعجز، بل على التسليم بالضعف وقلة الحيلة والاعراض عن المادة كلها، وعن الاجداد والطموح وعن الشرف . . . »^(٨).

وللانصاف يجب أن يشار إلى وجوب التأكد من التهم التي يهاجم بسببها التصوف فليس جميع المتصوفة كانوا يقبلون هبات الحكومة ونقودها، فقد ورد أن كمال^(٩) الدين عبد الرحمن بن محمد بن الانباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ: « كان تقياً عفيفاً، خشن العيش خشن الملبس، لم يتلبس

(٢) أنظر: الفصل الثاني ص ٨٩

(١) مرآة الزمان: ٢٦٤/٨ - ٢٦٥

(٣) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٣٩٧

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٢٩

(٥) الرسالة القشيرية ص ٣.

(٦) تلبس البليس ص ١٦٦

(٨) الفكر الشيعي والنزعات الصوفية ص ٧١.

(٧) الأدب في العصر الأيوبي ص ٤٩ - ٥٠

(٩) هو صاحب الانصاف في مسائل الخلاف، ونزعة الالباء، وأسرار العربية.

من الدنيا بشيء . . . وكان يحضر في نوبة الصوفية بدار الخلافة، فينفذ إليه بالتشريف والذهب فيعيده ولا يقبله . . . وكان بابه مفتوحاً لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله تعالى^(١). كذلك يجب الحذر من التعميم في اتهام الصوفية بالسلبية، قال سبط ابن الجوزي عن الشيخ عبد القادر الكيلاني، « . . . وكان يصعد بالحق على المنبر، وينكر على الظلمة، ولما ولي المفتي القاضي ابن المرخم^(٢) الظالم، قال على المنبر: «وليت على المسلمين أظلم الظالمين، فما جوابك غدا عند رب العالمين؟»^(٣).

أما شعر التصوف في الفترة التي أدرسها فيجب أن يقسم إلى ضربين:

الأول:

شعر أولئك الشعراء الذين اتصلوا بالتصوفة وعرفوهم عن كتب وعاشوا بينهم فترات ربما طالت - كما سبق عن ابن المعلم الواسطي مثلاً - ولكن هؤلاء الشعراء لم يعتنوا بالمبادئ الصوفية، ولا صاروا من جملة المريدين والاتباع لشيخ التصوف واقطابه، ولذلك يغلب على شعر هؤلاء روح التصوف ونفحاته دون غموضه واصطلاحاته، فتحس بخشوع ورهبة تجاه فنائهم وتعلقهم بالخالق سبحانه، ولا تملك نفسك من الاعجاب بهذا الحب الذي ملك عليهم جوارحهم، كقول سعد الله^(٤) بن نصر بن سعيد، الذي كان يخالط الصوفية ويحضر معهم السماعات:

لي لَذَّةٌ في ذِلَّتِي وَخُضُوعِي	وَأَجِبْ بَيْنَ يَدَيْكَ سَفْكَ دُمُوعِي
وَتَضَرَّعِي فِي رَأْيِ عَيْنِكَ رَاحَةً	لِي مِنْ جَوِّ قَدْ كُنَّ ^(٥) بَيْنَ ضُلُوعِي
مَا الدُّلُّ لِلْمَحْبُوبِ فِي شَرِّعِ الْهَوَى	عَارٌ، وَلَا جَوْرُ الْهَوَى بِبَدِيعِ ^(٦)
هَبْنِي أَسَأْتُ، فَأَيْنَ عَفْوُكَ سَيِّدِي	عَمَّنْ رَجَاكَ لِقَلْبِهِ الْمَوْجُوعِ ^(٧)
جُدْ بِالرِّضَا مِنْ عَطْفٍ لُطْفِكَ، وَاغْنِهِ	بِجَمَالِ وَجْهِكَ عَنْ سُؤَالِ الشَّفِيعِ ^(٨)

إن البيت الأول من هذه الأبيات لا تصل إلى روعته وصدقه قصائد طوال ينظمها المفتونون بالحكام ودنانيرهم، ولست أشك أن الشاعر لم يكن يستطيع أن يتوصل إلى فكرة الجمع بين اللذة

(١) الروضتين ٢٧/٢، فوات الوفيات ٥٤٧/١.

(٢) بالأصل: ابن المجرم . . . تحريف، وانظر عن ابن المرخم القاضي الفصل الأول ص ٢٦.

(٣) مرآة الزمان: ٢٦٥/٨.

(٤) كُنَّ: اختياً وتواری.

(٥) انظر الفصل الأول ص ١٧ هامش ٧.

(٦) بدیع: بجديد، غير مألوف.

(٧) المَوْجُوع: الذي أصابه الوجع.

(٨) المختصر المحتاج إليه ٧٧/٤ وهامش المحقق رقم ١٥٤، فوات الوفيات ٣٤١/٨.

والذل والخضوع، ولا بين الحب وسفك الدموع، لولا الصوفية وطوقتهم وحياتهم التي رآها بعينه وسمعاها بأذنه.

وليس في الأبيات من ألفاظ التصوف واصطلاحاته - بحسب علمي - سوى لفظة «المحجوب» في البيت الثالث، وواضح أن المراد بها الخالق سبحانه وتعالى^(١).

وقال ابن الباطوخ^(٢) المتوفي سنة ٥٤٤ هـ:

بِحَقِّكَ إِنِّ عَائِنْتُ مَنْ أَنَا عَبْدُهُ فَقُلْ: قَالَ ذَاكَ الْعَبْدُ: قَدْ مَسَّنِي الضَّرُّ
تَرَفَّقْتُ بِصَبٍّ قَدْ عَزَّ صَبْرُهُ وَصِلْتُ دَنِفًا^(٣) قَدْ شَفَّهَ^(٤) الْبُعْدُ وَالْهَجْرُ
أَعْلَلُ قَلْبِي فِي وَصَالِكَ بِالْمُنَى وَأَسْأَلُ عَنْ صَبْرِي، وَقَدْ عُذِمَ الصَّبْرُ
فَكَيْفَ سَلَوَى عَنْ حَبِيبٍ إِذَا بَدَتْ مَحَاسِنُهُ لِي غَابَ عَنْ حُسْنِهَا الْبَدْرُ؟
ذَلَّلْتُ لَهُ، وَالْحُبُّ عَارٌ وَذِلَّةٌ وَصَرْتُ لَهُ عَبْدًا، وَفِي يَدِهِ الْأَمْرُ^(٥)

وكما نعجب بالشعر الصوفي لما يتردد فيه من نفحات الحب الالاهي - وهو حب لم يعرفه الشعر العربي لولا المتصوفة - كذلك قد وفق بعض هؤلاء الشعراء - بسبب عقائد الصوفية وعاداتهم - إلى افكار طريفة، تبدو غريبة نوعا ما بالنسبة للأكثرية الساحقة من الناس، كقول قوام الدين أبي الفرج هبة الله بن أحمد... الاعرابي البغدادي الصوفي المحدث المتوفي سنة ٥٧٦ هـ:

مَنْ كَانَ مُتَفَرِّدًا فِي ذَا الزَّمَانِ، فَقَدْ نَجَا مِنَ الذَّلِّ وَالْأَحْزَانِ وَالْقَلْبِ
تَزَوَّجْنَا كَرُكُوبِ الْبَحْرِ، ثُمَّ إِذَا صِرْنَا إِلَى وَلَدٍ صِرْنَا إِلَى الْغَرَقِ^(٦)

إن فكرة البيت الثاني ليست مما ألفه الناس، بل العكس هو المألوف، فالزواج والانجاب من طبييات هذه الدنيا التي يحرص على التمتع بها الرجال والنساء على السواء، ولكن المتصوفة وحدهم ألفوا الوحدة والعزلة والانصراف إلى العبادة والترهب، ولذلك رأى هذا الصوفي أن الزواج بداية المصائب والكوارث، أما إنجاب الذرية فالدهاية الدهيئة والموت الأحمر.

أما الضرب الثاني من الشعر الصوفي:

فهو شعر المتصوفة أنفسهم وهو يعكس أفكارهم، ويعبر عن مجموعة المصطلحات

(٢) أنظر هامش ٣ ص ٢٧٨ من هذا الفصل الرابع.

(٤) شَفَّهَ: أنحله.

(٥) تلخيص معجم الألقاب ق ٤ ج ٤ ص ٨٦٥ - ٦

(١) الرسالة القشيرية ص ١١، ١٣

(٣) الدنف: العاشق.

(٥) الوافي بالوفيات ١٧١/١

والألفاظ التي كثر استعمالها بينهم، وصارت لها مدلولات خاصة بهم، ومن هنا بدت لغير المتصوف أشبه بالطلاسم والمعميات، فاكسبت الشعر غموضاً لا سبيل إلى إزالته إلا بالرجوع إلى كتب التصوف وفي مقدمتها الرسالة القشيرية لعبد الكريم^(١) بن هوازن القشيري المتوفي سنة ٤٦٥ هـ. ومن هذا الضرب قول أبي الفتح البغدادي وهو من أهل التصوف في التصوف، كما يقول العماد الاصفهاني:

تَقْضَى العُمْرُ، لَا وَصْلٌ فَيَرْجَى وَلَا هَجْرٌ مَرِيحٌ بِالْأَيَّاسِ
تَجَلَّى الْأَمْرُ لِلْأَبْصَارِ، لَكِنْ تَغْطِي الْحَقُّ عَنَّا بِالتَّبَاسِ
فَكَمْ مِنْ مُوقِفٍ، وَالذَّهْنُ لَا؟ وَكَمْ مِنْ مُذَكِّرٍ، وَالْقَلْبُ نَاسِي؟^(٢)

إن البيت الأول يدل على عشق وغرام بدليل الوصل والهجر، ولكن البيت الثاني يوضح أي محبوب هذا الذي يتحدث عنه الشاعر. إنه الحق، وهو الله سبحانه في اصطلاحات التصوف^(٣). وفي البيت الثاني اصطلاح صوفي آخر هو التَّجَلَّى، وقد الفوا - على ما يبدو - ان يجمعوا بينه وبين مصطلح السر، فيقولون: السر والتجلي^(٤).

وقال أبو الفتح أيضاً:

يَا قِبْلَةَ الْقَلْبِ، يَا مَنْ حَلَّ فِي فِكْرِي وَجَلَّ^(٥) عَنْ أَنْ يَحِلَّ الرَّبُّ فِي الْفِكْرِ
خَلَقْتَنِي مِنْ تُرَابٍ أَنْتَ خَالِقُهُ حَتَّى إِذَا صِرْتُ تِمَثَالاً مِنَ الصُّورِ
أُجْرَيْتَ فِي قَالِبِي رُوحاً مُنَوَّرَةً تَمَرُّ فِيهِ كَجَرِّي الْمَاءِ فِي الشَّجَرِ
جَمَعْتَ بَيْنَ صَفَا رُوحٍ مُنَوَّرَةٍ وَهَكَذَا صَنَعْتَ مِنْ مَعْدِنِ كَدِرِ
يَا مَالِكاً مُهَجَّتِي، يَا مُنْتَهَى أَمَلِي يَا حَاطِراً^(٦) بِي فِي بَدْوِي وَفِي حَضْرِي
إِنْ احْتَجَبْتَ، فِسْرِي مِنْكَ فِي وَلَهٍ^(٧) وَإِنْ حَضَرْتَ، فَقَلْبِي مِنْكَ فِي خَطَرِ
تَبْدُو فَتَمَحُو رُسُومِي، ثُمَّ تَنْبِئُهَا فَمَاذَا تَغَيَّيْتُ عَنِّي عِشْتُ بِالْأَثَرِ

(١) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن . . القشيري، الفقيه الشافعي، كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والاصول والادب والشعر والكتابة وعلم التصوف، توفي ببسبور سنة ٤٦٥ هـ. تاريخ بغداد ٨٣/١١، وفيات الاعيان ٣٧٥/٢، طبقات السبكي ٢٤٣/٣، وانظر مقدمة الرسالة القشيرية ط. بولاق.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٥، ٨

(٣) الحريدة/ نسخة إيران ق ٢ و ١٥

(٤) جَلَّ: عَظُمَ وَتَعَالَى.

(٥) الرسالة ص ٥١

(٦) حَاطِرًا: التَّحِيرُ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ.

(٧) حَاطِرًا: كَذَا بِالْأَصْلِ بِالضَّاءِ. وَالضَّوَابُّ «حَاضِرَةٌ».

يَلُوحُ شَاهِدٌ وَجَدَانِ، فَيُنْعِشُنِي نَسِيمُ رُوحٍ عَلَى رَوْضٍ مِّنَ السَّحْرِ
... الخ^(١).

إن هذه الأبيات لا سبيل إلى فهمها دون الرجوع إلى رسالة القشيري؛ لكثرة ألفاظ واصطلاحات التصوف بها، مثل: يا حاضراي... في البيت الخامس فهو من المحاضرة، وهي اصطلاح شرحه عبد الكريم القشيري^(٢). وفي البيت السادس: إن غبت... وإن حضرت، وهما من الغيبة والحضور، كما فهمهما المتصوفة^(٣) وفي السابع اصطلاح السر^(٤)، وفي الثامن اصطلاح المحو والاثبات^(٥)، وفي البيت الأخير اصطلاح الشاهد^(٦).

وهكذا يبدو أن هذا الشعر كتب للمتصوفة وحدهم، فلا سبيل إلى فهمه دون شرح يقوم به شيخ من شيوخهم. وقد وجدت كتب التصوف ذاتها، ومنها الرسالة كما أشرت، تشرح الغامض بألفاظ تزيد غموضاً، حتى يخيل لك أن القوم يتحدثون بلغة أخرى. ولعل هذا الغموض هو الذي حمل أعداء التصوف - ومنهم ابن الجوزي الواعظ المشهور - على القول «بأن جمهور التصانيف الصوفية لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودونوها، وقد سموها بالعلم الباطن»^(٧).

(١) الخريدة/ نسخة إيران ق ٢ و ١٤

(٢) الرسالة القشيرية ص ٥٢

(٣) نفسه ص ٤٨

(٤) نفسه ص ٥٩

(٥) نفسه ص ٥١

(٦) نفسه ص ٥٧

(٧) تلبس ابليس ص ١٦٦

الفصل الخامس
الخمرو والغزل بالمدكر والمجون

يمثل هذا الشعر الجانب اللاهني والعآبث من حياة الناس ، فكما اتجهت طائفة من الناس - بسبب عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية^(١) - إلى الدين والزهد والتصوف والاعراض عن هذه الدنيا ، اتجه آخرون وجهة أخرى ، فاقبلوا على الدنيا وتمسكوا بها واداروا ظهورهم للآخرة وامعنوا في نسيانهم ، فكان هؤلاء عشاق المواخير والحانات ، وأولئك الذين اتجهوا بعواطفهم نحو الذكور .

ولا بد لمن يشرب أو ينحرف في سلوكه الجنسي ويخرج على تقاليد المجتمع وعرفه ، لا بد له من الفاظ أو عبارات تدل على الانحراف والشذوذ ، وتشير إلى عدم المبالاة بالأخلاق وأصحابها ، وهو ما سمي بالمجون أو السخف .

١ - شعر الخمر :

ورث شعراء القرن السادس ، مع ما ورثوا من اسلافهم شعراء القرون السابقة ، شعر الخمر ، وهذا الهيام بينت الحان ، والتغزل بسقاتها من الاناث والذكور والسعي إلى حاناتها آناء الليل وأطراف النهار ، وتلك الصفات البراقة الاسطورية التي وصفوا بها رائحتها ، ورقتها ، وشعاعها ، وما تفعله في عقول الشاربين وأبدانهم . فليس من المعقول أن يكون التقليد هو الصفة الغالبة على جميع النماذج الشعرية باستثناء الخمريات .

لقد وجد شعراء هذه الحقبة أن وصف الخمر قد صار غرضاً تقليدياً من أغراض الشعر العربي مثل المديح والهجاء والثناء . . ولذلك لا بد أن يقول الشاعر فيه شيئاً ، كي يثبت شاعريته في ميدان كثر فرسانه . وظاهرة التقليد هذه ، هي السبب في تلك التنف والمقطوعات الخمرية المنتشرة في تراجم طائفة من شعراء القرن السادس في خريدة العماد الأصفهاني ، ووفيات الأعيان ، وفوات الوفيات وغيرها من كتب الأدب والتراجم .

(١) انظر الفصل الرابع من هذه الرسالة .

ولا شك أن قسماً غير قليل من شعر الخمر هذا - ربما زاد على ما وصل إلينا - قد ضاع، أو أهمله المؤرخون عمداً: لأنه خلا من مقومات الشعر باستثناء الوزن والقافية من ناحية، ولأنه يخالف الاتجاه الشعري العام والسمعة الأدبية لأولئك الذين أضيف إليهم من الناحية الأخرى، فمثلاً قال العماد عن ثقة الدولة ابن الدريني أنه: «من أركان دولة المقتفي . . مجموع الكرم والفضل والورع والدين»^(١). ثم يروي له من الخمرات قوله:

إِذَا مَا حَسَاها فِي الدُّجْنَةِ^(٢) شَارِبٌ ظَنَّنَاهُ بِالْبَذْرِ الْمُنِيرِ تَلَثَّمَا
وَكَمْ لَيْلَةٍ، لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكْبٌ أَقَمْنَا حَبَابَ^(٣) الْكَاسِ فِيهِنَّ أَنْجُمًا^(٤)

وقال عن سديد الدولة محمد بن عبد الكريم الانباري أنه: «منشئ ديوان الخلافة، من بيت السؤدد والكرم والفضل، وهو شيخ الدولة . . وما كان يتعاطى الشعر، تغانيا عنه . .» ثم يروي له قوله:

الآن، وما رَوْضُ^(٥) الْعُمَرِ نَدِي لَا تُخْلِ مِنْ الْكُؤُوسِ وَالرَّاحِ يَدِي
فِي بَاقِي الْعُمَرِ فُرْزُ بَعِيشٍ رَغْدٍ إِنَّ الدُّنْيَا إِذَا مَضَتْ لَمْ تَعُدْ^(٦)

وقال أحد القضاة:

نَبَةَ الْعَوْدِ ضَجَّةَ الْمِزْمَارِ وَبَدَتْ جَهْرَةً كُؤُوسُ الْعَقَارِ^(٧)
وَعَدَا الصُّومُ هَازِئاً يَنْشُرُ الرُّوْ عَةً، يَتْلُوهُ عَسْكَرُ الْإِفْطَارِ
وَمَضَى النَّسْكُ وَالتَّرَاوِيعُ^(٨) وَالتَّسْدُ بَيْحُ طَرًّا، مُهْتَكُ الْأُسْتَارِ
فَاشْرَبُوا الْخَمْرَ مِنْ يَدَيِ فَاتِرِ الْمُقْدِ لَعَةٍ، عَذْبُ لُمَاءُ^(٩) لِلْمُشْتَارِ^(١٠)

ويبدو لي أن كثرة شعر الخمر في القرون التي سبقت القرن السادس، وكذلك البصور التي رسمت لآثرها في الشاربيين، والهالات التي أحيطت بها مجالس الشرب والمنادمة، واعتياد الناس على الاعجاب بأسلافهم، والنظر إلى القدماء على أنهم القدوة والسابقون إلى كل حسن وجديد

(١) الخريدة: ١٤٤/١

(٢) الدجنة: الظلمة.

(٣) الحبيب: الفقاع التي تملو الخمر.

(٤) بالاصل: روضه، ولعل الصواب ما أثبتته.

(٥) العفار: الخمر.

(٦) الخريدة: ١٤٤/١

(٧) التراويح: نوع من الصلوات التي تصل في ليالي شهر رمضان.

(٨) اللمي: (بتثنية اللام) سواد أو سمره في باطن الشفة يستحسن. المشتار: الذي يجني العمل.

(٩) الخريدة: ٦٨٢/٤

مبتكر، لاسيما وقد حاول المتأخرون أن يبالغوا في المكانة التي بلغتها الخمرة عند الاسلاف حتى نسب إلى الخلفاء والقادة والقضاة وكبار أصحاب المناصب شعر أو قصص أو حكم ومواعظ تتصل بالخمير وتحض على الخلاعة وإطراح الوقار^(١).

إن جميع هذه العوامل والأسباب، مع عوامل أخرى سبقت الإشارة إليها في هذه الرسالة، أعني سوء الحياة الاقتصادية، وتفكك المجتمع، وتغلب الأجانب والدخلاء من فرس وترك على مقاليد الأمور، كل ذلك ترك أثره على تفكير الناس، ونظرتهم إلى القيم والأخلاق. فصار الشعراء أكثر جرأة في صورههم وأفكارهم وألفاظهم وأخذوا يجهرون ويصرحون بمعان وآراء، كانوا يترددون في التفكير بها من قبل من ناحية، وبالغوا وتطرفوا في تهافتهم وهيامهم وغرامهم بالخمير من ناحية ثانية. حتى ليعجب المرء كيف تصل الأمور إلى هذا الحد في بلاد يحرم دينها الخمر، ويشدد فقهاؤها النكير على باعة الخمر وشاربيها؟.

لقد كان للتقليد دور كبير في ولع شعراء القرن السادس ولعا شديداً بالخمير: فالأبلة البغدادي يقول:

لولا كِبَارُ كُؤُوسِهَا مَا كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ^(٢)
وقال:

قَمِ فَاجْلُ فِي جُنْحِ^(٣) الدُّجَى فَجُنْحُهُ قَدْ بَرَدَا
صَفْرَاءَ لَوْ كَانَتْ سِوَى الْخَمْرِ، لَكَانَتْ عَسْجَدًا^(٤) (٥)
ويشارك ابن التعاويذي زميله في غرامه بالخمير، فيقول:

وَأَلَقَ بَرْدَ الشِّتَاءِ مِنْهَا بِنَارٍ وَأَزِمَ جُنْحَ الظَّلَامِ مِنْهَا بِنُورٍ
وَأَسْقِنِي بِالصَّغِيرِ مِنْهَا، فَمَا أَبْغَى الْهَوَى فِي فَضْلَةٍ^(٦) لِلْكَبِيرِ^(٧)
وقال:

تَفْتَضُّ عَذْرَاءَ بِنْتِ كَرَمٍ أَنْحَلَهَا الْمَكْتُ فِي الدَّنَانِ

(١) الديارات ص ١٦٦، ١٦٨، ٦٣، ٧٢، ٧٦، حلبة الكمي ص ٢١، ٢٤، ٦٣، ٩٩ تطور الخمرات ص ١٤٦-١٤٩

(٣) جُنْحُ الدُّجَى: جانب الظلام.

(٢) ديوان الأبلة و ١٧٤

(٥) ديوان الأبلة و ٧٧

(٤) العسجد: الذئب.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٣

(٦) فَضْلَةٌ: بقية.

تَضَحُّكَ فِي كَأْسِهَا سُورُوا إِذَا بَكَتْ أُعْمِنُ الْقَنَانِي
 مَا رَقَصَتْ فِي الْكُؤُوسِ إِلَّا نَقَطَهَا الْمَرْجُ بِالْجُمَانِ^(١)
 حَتَّى تَرَاهَا مِنَّا عَقَالاً^(٢) لِّلِيدِ وَالرَّجُلِ وَاللَّسَانِ^(٣)

وفي هذه الأبيات الأخيرة، تحولت الخمر إلى فتاة، ضعفت من بقائها في الدنان ثم أكمل الشاعر تجسيم الخمر بالزعم أنها بدأت تضحك، ثم ترقص. وهو تجسيم أخذه الشاعر من أبي نواس، حين راح يحاور الخمر وتحاوره، تشكو إليه فيحاول أن يهون عليها المصاعب:

فَاسْتَوْحَشْتُ وَبَكَتْ فِي الدَّنِّ قَائِلَةً: يَا أُمُّ وَيْحَكَ أَخْشَى النَّارَ وَاللَّهْبَا
 فَقُلْتُ: لَا تَحْذَرِيهِ عِنْدَنَا أَبَدًا قَالَتْ: وَلَا الشَّمْسُ، قُلْتُ: الْحَرَقُ ذَذَبَا
 قَالَتْ: فَمَنْ خَاطَبِي هَذَا فَقُلْتُ: أَنَا قَالَتْ: فَبْعَلِي؟ قُلْتُ: الْمَاءُ إِنْ عَذَبَا^(٤)

كذلك ظلت الفكرة القديمة بأن الخمر تذهب الهموم شائعة في شعر القرن السادس، قال ابن التعاويذي:

حَمَرَاءُ صِرْفًا لَا يَطُورُ فُ بِرَحْلِهَا لِلْهَمِّ طَائِفٌ^(٥)
 وقال:

أَتَتْ عَلَيْهَا فِي الدَّنَانِ الْأَعْوَامُ تَنْفِي الْهُمُومَ وَتُدَاوِي الْأَسْقَامَ^(٦)
 وقال الأبله:

وَأَدْرِهَا حَمَرَاءَ تَذُرُ^(٧) عَنَّا خَنْدَرِيساً^(٨) لَهَا مِنَ الْمَزْجِ تَاجٌ
 تَتَلَاشِي الْهُمُومَ مُنْطَوِيَاتٍ حِينَ تُجَلِّي وَتُنَشِّرُ الْأَفْرَاحَ^(٩)

(١) الجمعان: ضرب من الجواهر.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٤٣

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٨٢

(٧) تذراً: تدفع، تبعد.

(٨) البرحاء: الشدة.

(٩) برّاح: خلاص.

(١٠) الخندريس: من أسماء الخمر، وهي الخمر القديمة.

(١١) ديوان الأبله و ١٤١، وانظر أيضاً و ٨١

(٢) العقال: الخيل.

(٤) ديوان أبي نواس (أصاف) ص ٢٤٦ - ٢٤٧

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٨٢

وظل الشعراء عيالاً على أبي نواس في بقية معاني وصفات الخمر التي ترد كثيراً في الشعر الخمري، ومنها المبالغة في نعتها بالقدم^(١)، والمبالغة في نعتها بالبريق واللمعان^(٢). ففي المعنى الأول قال أبو نواس:

رَأَتْ نُوحًا، وَقَدْ شَمِطَتْ^(٣) وَشَابَتْ وَقَدْ شَهِدَتْ قُرُونًا قَبْلَ نُوحٍ^(٤)
ومن المعنى الثاني قوله:

تَرَى حَيْثُمَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَغْرِبًا^(٥)

ولقد أعاد شعراء القرن السادس - بلا جدوى - هذين المعنيين في عشرات الأبيات والكثير من القصائد.

ولعل ظاهرة التقليد هذه، لم تتضح في شعر شاعر كوضوحها في شعر الحيص بيص، لقد أشرت في الفصول السابقة من هذه الرسالة^(٦) إلى أن هذا الشاعر عرف بالجد والحشونة والتقوى والصلاح والورع والاعتزاز بالأصل العربي التميمي، وهي صفات جعلته يخرج على العرف السائد في عصره من افتتاح بعض المداخل بوصف الخمر والتغني بصفاتها، والاشادة بمجالسها، فليس في شعره أية قصيدة افتتحت بالخمر، بل أن هذا الشاعر افتتح إحدى مدائحه بغزل غلب عليه الدين، وهو مطلع نادر في الشعر العربي فيما أظن:

عَفَى اللَّهُ عَنْهَا هَلْ يُلْمُ خِيَالُهَا؟ فَيَقْضَى عَلَى رَغَمِ الرَّقِيبِ وَصَالُهَا^(٧)

ومن تدين الحيص بيص أيضاً: قوله - وهو يمدح دُبَيْسَ بْنِ صَدَقَةَ -

ظَفِرَتْ فَأَوْفِ اللَّهُ شُكْرًا، فَإِنَّهُ يَزِدُّكَ عِلَاءً إِنْ تَزِدُّهُ تَصْرُعًا
وَصَفْحًا عَنِ الْجَانِي، فَكُلُّ خَلِيقَةٍ تَقِلُّ عَنِ الْغُفْرَانِ وَالْجِلْمِ مَوْضِعًا
وَمَا بَاتَ يُرْضِي رَبُّهُ مِثْلُ قَادِرٍ تَجَاوَزَ عَنْ جُزْمٍ جَلِيلٍ تَوْرُعًا^(٨)

إن تذكير الممدوح بأن يشكر الله على الظفر، مما انفرد به هذا الشاعر في الفترة التي أدرسها

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٣، ٣٨٢، ٤٤٣، ديوان الابله ٩٦، الخريدة ٣٧٥/٤

(٢) الخريدة ٢٦١/٤، ٣٧٥، ديوان ابن التعاويذي ص ٤٠٠، ٤٠٨، ديوان الابله ٥٩

(٣) شَمِطَتْ: اختلط سواد شعرها ببياضه.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٦٣

(٥) ديوان أبي نواس ص ٢٤٤

(٦) انظر الفصل الثاني ص ٥٧، والفصل الرابع ص ٢٦١

(٧) الديوان المطبوع ٨٤/١

(٨) نفسه ١٧٢/١

وقال أيضا بمدحه :

في طاعةِ اللهِ أسبابٌ مُجَنِّبَةٌ تَظَلُّ مِنْهَا لِبُوثُ الغَابِ فِي وَهَلٍ ^(١)
وَكَمْ بِخَيْلٍ بِتَسْلِيمٍ لِعِزَّتِهِ يُعَقِّرُ ^(٢) الحَدَّ لِلرَّحْمَنِ فِي وَجَلٍ
إِذَا أَتَى الدِّينَ ، فَالْإِقْدَامُ مُنْقَصَةٌ وَمَا لَنَا بِقِرَاعِ اللهِ مِنْ قِبَلٍ ^(٣)

. . إن هذا الشاعر هو نفسه الذي يقول :

أَقَامَ بِهَا الشَّرْبُ ^(٤) الْكَرَامَ عَشِيَّةً وَقَدْ هَجَمَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ فَأَمْتَعَا
إِذَا أَمْسَكَ الْغَيْثُ الْمِلْثُ ^(٥) ، بَارِضَهَا سَقَوْهَا مِنَ الْأَيْدِي عُقَارًا ^(٦) مُشْعَشَعَا
وَإِنْ دَارَتْ الصَّهْبَاءُ فِيهِمْ تَجَادَبُوا أَحَادِيثُ مَجْدٍ يَجْعَلُ ^(٧) النَّكْسَ ^(٨) أَرَوْعَا ^(٩)
فَمَا الْهُجْرُ ^(١٠) مَسْمُوعًا لِهِمْ عِنْدَ سَكْرَةٍ وَمَا الْحِلْمُ فِيهِمْ بِالسُّرُورِ مُضَيِّعَا ^(١١)

ويقول :

وَمَا نَشْوَةٌ مِنْ قَرْقَفٍ ^(١٢) صَرَّخَدِيَّةٍ ^(١٣) تَدْفِقُ مِنْ ضَنْكِ الْجِرَانِ ^(١٤) مُقَدَّمٍ ^(١٥)
إِذَا سَكَبَتْ فِي الْكَاسِ خَلَتْ شُعَاعَهَا - عَلَى غَسَقِ الظُّلُمَاءِ - جَذْوَةٌ مُضْرِمٍ
لَهَا حَبٌّ يَرْفُضُ عَنْهَا كَأَنَّهُ عُيُونُ جَرَادٍ أَوْ زَوَاهِرَ أَنْجُمٍ
أَتِيحَتْ لِمَشْعُوفٍ ^(١٦) الْفُؤَادِ مِذْلَةً رَمَتْهُ الْغَوَانِي عَنْ قِسْيِ التَّصْرُمِ
فَعَادَتْ بِأَشْجَانٍ ، وَهَاجَتْ صِبَابَةً لَهُ وَتَمَشَّتْ فِي مُشَاشٍ وَأَعْظُمٍ ^(١٧)

إن هذه المقاطع من شعر حيص بيص : تخالف الصبغة العامة لشعره - أولا - ، وتخالف أخبار الشاعر وطابع حياته - ثانيا - ، وهي تختلف - ثالثا - عن المؤلف المشهور من خمریات معاصريه ، وخاصة في النص الأول لأن أحاديث المجد التي تجعل النكس أروع ، ونجالس الخمر

(٢) يُعَقِّرُ : يُلْصِقُ خَدَّهُ بِالتُّرَابِ .

(٤) الشرب : جماعة الشاربين .

(٦) العقار للمشعشع : الخمر المزوجة بالماء .

(٨) النَّكْسُ : المقصر عن غاية النجدة والكرم .

(١٠) الهُجْرُ : الكلام الفاحش .

(١٢) الْقَرْقَفُ : الخمر .

(١٣) صرخدية : منسوبة إلى صرَّخَد ، وهي بلد في بلاد الشام .

(١٤) الجران : مقدم عليه مصفاة .

(١٧) (١٧) الْخَزِيذَةُ ٣١١/١ ، أَلْشَاشُ : رُؤُوسُ الْعِظَامِ .

(١) الْوَقْلُ : الْفَرْخُ .

(٣) الدبوان المطبوع ٢٣٦/١

(٥) الملت : القيم .

(٧) كذا بالأصل ولعلها : تجعل .

(٩) الاروع : الذي يعجبك بحسن المنظر والشجاعة .

(١١) الخريدة ٢٦٨/١

(١٣) صرخدية : منسوبة إلى صرَّخَد ، وهي بلد في بلاد الشام .

(١٤) الجران : مقدم عليه مصفاة .

(١٧) (١٧) الْخَزِيذَةُ ٣١١/١ ، أَلْشَاشُ : رُؤُوسُ الْعِظَامِ .

التي لا يسمع فيها هجر الكلام، ولا يضيع فيها الحلم، لم ترد في القرن السادس إلا في شعر الحليص بيص، ولعلها نادرة في الشعر العربي عامة، لأن المرء «في الساعة التي يعكف بها على كأسه يتحرر من تقاليد المجتمع . . ونراه يأتي أفعالاً ما كان ليأتي بها لو كان صاحباً، ويتخلق باخلاق ويتأدب بأداب ما كان ليتخلق بها لو كان واعياً، فهو في ساعة السكر هذه لا يأبه للمجتمع، ولا يحسب لأعماله ونتائجها»^(١) حسباً واكل عاطفة تثور في نفسه تأخذ طريقها إلى الخارج . .»^(٢).

لهذه الأسباب جميعها أرجح أن الشاعر اضطر إلى الاستعانة بأوصاف الخمر ليرضي ممدوحه، إذ في أيامه صار من البديهي أن الخمر المعتقد لا يفوقها شيء في طيب الرائحة، وإن تشبيه طيب ذكر الممدوح وحسن أخلاقه بالخمر، يمثل الغاية التي لا سبيل إلى تجاوزها. فكيف يراد من شاعر يكسب رزقه من مدائحه أن يبخل على هذه المدائح بأبلغ التشابه وأجود المعاني؟.

وإذا كان الحليص بيص معذوراً في تطعيم بعض مدائحه بذكر الخمر، فإن بعض شعراء القرن السادس الآخرين لا عذر لهم في تقليد خمريات أبي نواس في شعرهم الذاتي الذي لا يبعون منه جائزة أحد كالأمير حسام الدولة أبي الغيث محمد بن المغيث بن حفص الحنفي، الذي يقول في خمرية له:

ما شاقني حاتم ^(٣) ولا صرد	ولا شجاني ربع به وتد
ولا نويت الوقوف في عرص ^(٤) الـ	دار عليها السراب يطرد
والعيس ^(٥) في اليد لا أكلفها	تعنق ^(٦) بي راكباً ولا تحد ^(٧)
لا أمتطي في الفلا الجدیل ^(٨) ولا	تنقل رجلي عيرانة ^(٩) أجد ^(١٠)
لم تبك عيني دار بكاطمة ^(١١)	ولا استباني العليا ^(١٢) والسند
مالي وللمهمه القفار، وقد	جمع لذات عيشنا البلد؟
أصبح بين الصحاب منتشياً	من خمرة كالشعاع تنقد
قد عقت في دنائها، ومضى	لها - وما فض ختمها - أبد

(٢) تطور الخمريات ص ١٤

(١) بالأصل: ونتائج.

(٣) الحاتم: الغراب. الصرد: طائر أكبر من العصفور.

(٤) عرص: أراد جمع العرصة وهي الفسحة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء.

(٦) تعنق: تسرع.

(٥) العيس: كرام الابل.

(٨) الجدیل: فحل من الابل.

(٧) تحد: تسرع.

(١٠) أجد: موثقة الخلق.

(٩) العيرانة: الناقة الصلبة.

(١١) كاطمة: منخفض من الأرض على شيف البحر في طريق البحرين من البصرة (معجم البلدان ٢٠٢/٧)

(١٢) العليا: والسند: موضعان في البادية، ذكرهما النابغة الذبياني في قوله: يا دار مئة بالعليا فالسند.

رَوَى لَنَا الْقَسُّ حِينَ نَاطَرْنَا
 أَنْ أَبَا جَدِّهِ، وَكَانَ بِهَا
 أَقْضَى إِلَى ابْنِ ابْنِهِ بِأَنَّ لَهَا
 فَحِينَ أَبْدَى لَنَا سَرَائِرَهَا^(١)
 وَقَامَ يَمْشِي مُحْدَوِّبًا، وَعَلَى
 ثُمَّ تَوَخَّى بِمَبْزَلٍ^(٢) مَعَهُ
 فَأَقْبَلْتُ كَالِدَمِ الْمُرَاقِ، فَهَلْ
 وَضَاعَ^(٣) فِي الْبَيْتِ نَشْرُ رَائِحَةٍ
 وَابْتَدَرَ الْقَوْمُ بِالرَّقِينِ^(٤) وَبَالَ
 وَقَامَ يَسْعَى بِكَأْسِهَا رَشَاءً
 يُدِيرُ مِنْ طَرْفِهِ، وَمِنْ يَدِهِ
 وَمِنْ رُضَابٍ بِفِيهِ ثَلَاثَةٌ
 ... الخ^(١٠).

فِيهَا، وَثَارَ الْجِدَالُ وَاللَّدْدُ^(١)
 يَضُنُّ عَنْ مِثْلِنَا إِذَا رَقَدُوا
 فِي الدَّنِّ مَذْكَانَ بِيضَةً لُبْدُ^(٢)
 حُلْتُ لَنَا مِنْ نَقُودِنَا الْعُقْدُ
 عَصَاهُ بَيْنَ الدَّنَانِ يَعْتَمِدُ
 فَوَادَ دَنْ لِرُوحِهِ زَبْدُ
 رَأَيْتُ دَنًا - يَا صَاحِبَ - يَنْقُصِدُ؟
 يَهْرُبُ مِنْهَا الزُّكَامُ وَالرَّمْدُ
 عَسَجِدٍ لَا يَحْفُلُونَ مَا وَجَدُوا
 مُسَلَّطًا مَا لِعَمْدِهِ^(٣) قَوْدُ^(٤)
 خَمْرَيْنِ يَنْحَازُ عَنْهُمَا الرَّشْدُ
 تَجْرِي بِشَغْرِ كَأَنَّهُ بَرْدُ^(٥)

إن القصيدة تقليد لضرب من الشعر الخمري يسمى بـ «القَصَصُ الخمري»^(١١) أو قصص
 الخمر، بدأت بذوره عند الأعشى ثم نما واكتمل وبلغ أوجه عند أبي نواس. والشاعر في قصة
 السكر هذه - كما فعل شاعرنا حسام الدولة - يحكي ما فعله في إحدى الحانات، وكيف تارجدل بين
 الشاعر وأصحابه من جهة وبين القس - أراد به صاحب الحان - من جهة أخرى، حول قدم خمرته
 إذ روى لهم إنها كانت في الدن «مذكان بيضة لبْد» ثم وصف - على طريقة أبي نواس - الساقى :
 وقام يسعى بكأسها رشا . ثم ختمت القصة - كما في الجزء الذي أسقطته من القصيدة -
 بالمجون، إذ يخبرنا الأمير أنه فعل ما لم يره إلا المهيمن الصمد مع الساقى . وهي طريقة أبي نواس
 التي اعتاد أن يختم بها قصصه الخمري^(١٢)، وزيادة «المهيمن الصمد» التي دلت على أن شاعر

(١) اللدد: الخصومة الشديدة.

(٢) الراتر: واحدتها سريرة وهو السر.

(٣) ضاع: فلاح وانتشر.

(٤) الرقین: الدرهم ونحوه.

(٥) القود: القصاص.

(٦) البرد: هو الحالوب عند أهل العراق.

(٧) العمْد: أراد القتل العمْد، أي إن هذا الساقى يقتل الناس متعمدا.

(٨) الخريدة ٧١٧/٤ - ٧٢١

(٩) تطور الحمريات ص ٢٣١، اتجاهات الشعر ص ٤٩٦، لحظة البرمكي ص ١٥٠

(١٠) تطور الحمريات ص ٢٣٥، لحظة البرمكي ص ١٥١

القرن السادس لم يدرس خريات أبي نواس جيداً، ولذلك لم يحسن تقليدها، إذ أن أشهر المجان في الأدب العربي لم يجرؤ على ذكر المولى سبحانه في هذا الموطن:

إن التقليد في قصيدة حسام الدولة يبدأ من بيتها الأول، لأنه - لفظاً ومعنى - إعادة لمطالع جملة من قصائد أبي نواس المشهورة والتي بدأها بالسخرية من حياة الأعراب وكلفهم بالوقوف على الاطلاع وبكاء الظاعنين كقوله:

عَاجَ الشَّقِيَّ عَلَى رَسْمٍ يُسَائِلُهُ وَعُجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَارَةِ الْبَلَدِ^(١)
أو قوله:

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسَ^(٢) واقِفاً، ما ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسَ^(٣)؟
وقوله:

دَعِ الرَّبْعَ مَا لِلرَّبْعِ فِيكَ نَصِيبٌ وَمَا إِنْ سَبَّتَنِي زَيْنَبُ وَكَعُوبُ^(٤)

ومن المعروف المشهور أن أبا نواس نظم ما نظم، وقال ما قال لاسباب كثيرة منها الشعوية وبغض العرب^(٥). ولكن الأمير حسام الدولة كان من أمراء العرب والعربية. فهو من أمراء ربعة بالبصرة^(٦)، ولذلك ليس من المعقول أن يقف في صف الشعويين، وإنما أوقعه التقليد في هذا المأزق.

لقد حمل التقليد شاعر القرن السادس على الزعم بأن رجل الدين المسيحي (القس) هو الذي روى للشاعر وجماعته قصة تعتيق الخمر، نقلاً عن أبي جده عن ابن ابنه، وأن القس هو الذي قام بمشي محدودباً. وعلى عصاه بين الدنان يعتمد. وكل ذلك لم يرد مثله حتى في خريات أبي نواس ذاتها، لأن رجال الدين المسيحي لم يكونوا يديرون حانات الخمر وبيوت الريبة، وإنما عرف بذلك بعض عوام النصارى. والذي أوقع شاعرنا في هذا الوهم أنه وجد طائفة من الشعراء - عند ذكر الخمر - تزعم أنها بنت الشماس أو الاسقف:

فَاسْتَجَلِهَا كَرَحِيَّةً بِنْتَ الشَّمَامِسِ وَالْأَسَاقِفِ^(٧)

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٦٦

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٩٩

(٣) العمدة ٢٣٢/١

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٤٥

(٥) الخريدة ٧٠٢/٤

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٨٢

أو كما قال أبو نواس :

وَقَهْوَةٌ عُتِقَتْ فِي دَيْرِ شَمَّاسٍ تَقْتَرُ فِي كَاسِهَا عَنْ ضَوْءِ مِقْبَاسٍ^(١)

فسبق إلى ظنه أن رجال الدين ربما قاموا بأنفسهم بإدارة الخانات، فنسج قصته على هذا الوهم.

وفي نسج القصيدة مآخذ أخرى منها : إن جملة (إذار قدوا) في البيت العاشر لا موجب لها سوى القافية، ولفظة (الرمد) في البيت السادس عشر، اجتلبت هي الأخرى للقافية، إذ لم يقل أي سكير بوجود علاقة بين الخمر ومرض الرمد. أما البيتان الأخيران من القصيدة فهما من قول أبي نواس :

تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا، وَمِنْ فَمِهَا خَمْرًا، فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدٍّ
لِي تَشْوَتَانِ، وَلِلنَّدْمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِّصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنَهُمْ وَخِدي^(٢)

أما الخمر الثالثة، وهي خمرة العيون، فيجب الاعتراف أنها من مخترعات القرن السادس، ولم ترد في شعر أبي نواس ولا في شعر غيره، بحسب علمي.

هل من جديد في شعر الخمر؟

مر بنا أن التقليد واتباع مشاهير شعراء الخمر السابقين هو الطابع الغالب المميز لخمريات القرن السادس، سواء من حيث الأسلوب أو الأفكار أو الصور وهو ما يتفق والخصائص العامة لشعر هذه العصور المتأخرة، التي يخيّل للباحث أن القرائح فيها قد أصيبت بالعقم، فلم يعد هم الأدباء سوى الاعادة والتكرار والترديد لتناج الاسلاف.

ان غلبة التقليد على الشعر عامة، ومنه شعر الخمر، لا يعني عدم وجود فكرة أو صورة جديدة بين اكوام الافكار والصور المعادة المكررة. ولكن كيف السبيل الى الفصل في هذه المسألة الفنية الدقيقة دون الرجوع الى مشاهير الشعراء السابقين ودراسة شعرهم؟

ان دراستي لشعر جحظة^(٣) البرمكي ومقارنته بشعر ابي نواس في رسالتي للماجستير

(١) ديوان ابي نواس ص ١٨٥ (مط. الحجر)

(٢) نفسه ص ٢٦٦

(٣) هو ابو الحسن احمد بن جعفر : الملقب بجحظة، من أبناء البرامكة، كان شاعرا، مغنيا نديما. توفي سنة ٣٢٤هـ (على قول)،

تاريخ بغداد ٦٥/٤، معجم الادباء ٣٩١/١ (ط. ماركليت الثانية)، وفيات الاعيان ١١٦/١، جحظة البرمكي الاديب الشاعر (رسالة ماجستير):

واطلاعي من خلال ذلك على اشهر قصائد الخمر ومعانيها في القرنين الثاني والرابع للهجرة، ربما ساعدتني على التمييز والترجيح بين المعاني والصور التي كررت في القرن السادس، وتلك التي لم تعرف قبل هذا القرن.

وقبل الخوض في هذا الموضوع لاحظ ان شعر الخمر في القرن السادس قد تقلص وانكمش عما كان عليه في القرون السابقة، سواء من حيث كثرة النصوص ام تنوعها واتساعها، وكذلك الامر في شعراء الخمر الذين اكثر الشابستي من ذكر اخبارهم واشعارهم في دياراته^(١).

ان شعر الديارات^(٢) - على سبيل المثال - يكاد يلفظ انفاسه في الفترة التي ادرسها، لاننا لا نملك منه سوى قول ابن التعاويذي في دير الثعالب^(٣):

وَعَزَالَ عَلِقْتُهُ يَوْمَ ذِيرِ الثَّعَالِبِ
مِنْ طِبَاءِ الصَّرِيمِ يَخُ طِرُ فِي زِي رَاهِبِ
كَالْقَضِيبِ الرُّطِيبِ يُو^(٤) هِيَه حَمْلُ الذَّوَابِ
شَدَّ زُنَّارَهُ فَحَلَدَ لَ عُقُودَ الْمَذَاهِبِ
مَا رَمَى طَرْفُهُ بَسَهَ مَ هَوَى غَيْرِ صَائِبِ
بَتُّ مِنْ حُبِّهِ عَلَى مِثْلِ شَوْكِ الْعُقَارِبِ^(٥)

وابيات مفرقة هنا وهناك، لا نعلم في اي دير نظمت، منها قول الابله في اول قصيدة

مدح:

وَحَانَةُ الْعُمَرِ^(٦) فَمَعْمُورَةٌ بِاللَّهْوِ، وَالذَّيْرُ لَنَا دَارُ
وَالْخَمْرُ وَالْخَمَّارُ مَا يَتَنَا لَا عُدِمَا عِطْرٍ وَعَطَارُ
وَقَدْ صَفَا إِبْرَيْقُنَا، وَاعْتَدَى يَرَوْقُنَا عُوْدٌ وَمِزْمَارُ
فَطُفَّ^(٧) بِهَا حَمَرَاءُ مَشْمُولَةٌ كَالنَّارِ عُقْبَى شُرْبِهَا النَّارُ

(١) الديارات ص ٥١، ٦٣، ٦٩، ١٧٢

(٢) انظر دراسات مفصلة عنه في: تطور الحمريات ص ١٩٠، اتجاهات الشعر ص ٤٩٧، حجة البرمكي ص ١٩

(٣) كان يقع بالجانب الغربي من بغداد بالموضع المعروف بباب الحديد. الديارات ص ٢٤

(٤) بوهيه: ينقله.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٢ - ٥٣

(٦) بالاصل: الغمر بالغين المعجمة، والصواب ما اثبت، والعمر: البيعة والكنيسة.

(٧) فطف: بالاصل بالقاف: قطف، تصحيف.

ذاتِ نَسِيمٍ أَرَجِ نَشْرُهُ يَغَارُ مِنْ نَفْحَتِهِ الْغَارُ^(١)
لَهَا إِذَا أَظْلَمَ جُنْحُ الدُّجَى فِي الْكَاسِ أَضْوَاءُ وَأَنْوَارُ
يُكْفَرُ الشَّرْبُ لَهَا مَا بَدَتْ تُجْلَى كَأَنَّ الْقَوْمَ كُفَّارُ
فِي سُحْرَةٍ أَرَشَفَنِي مِثْلَهَا مِنْ رَيْقِهِ أَهْيَفُ سَحَارُ
بَذَرُ دُجَى يَزْدِي بِشَمْسِ الضُّحَى مَطْلَعُهُ جَيْدٌ وَأَزْرَارُ
قَدْ شَدَّ فَوْقَ الْخَصْرِ زُنَارُهُ وَالْخَصْرُ فِي الدَّقَّةِ زُنَارُ

... الخ^(٢).

ان مقطوعة ابن التعاوذي وأبيات الابله ليستا من شعر الديارات القديم الا على سبيل المجاز، لان شعر الدير لا بد فيه من اجتماع ثلاثة عناصر هي : الغزل بالمذكر، والخمر، ووصف الطبيعة المحيطة بالدير^(٣). وليس في نص ابن التعاوذي سوى الغزل بالمذكر، ونص الابله كان التركيز فيه قد انصب على الخمر. اصف الى ذلك ان افتتاح قصائد المدح بوصف الدير والخمر التي فيه، لم يعرف قبل القرن السادس فيما ظن، لان المعروف ان ادب الدير مستقل عن المدح تماما.

وهذا الذي اصاب شعر الديارات امتد الى بقية الفنون الخمرية، حتى ان اكبر شعراء القرن السادس وهو سبط بن التعاوذي، لم تذكر الخمر في ديوانه الا بضع مرات، تعد عدا، مع ان الرجل شَرِيب خمر، وصاحب لهو، وليال حمراء^(٤). وقد ابعدت الخمر تقريبا عن ديوان ابن المعلم الواسطي في اكثر من ثلاث من نسخ الديوان التي اطلعت عليها، سواء في مقدمات المدائح - وهو من شعراء المدح الكبار - ام في قصائد الخمر الذاتية المستقلة عن المدح مع العلم ان الشاعر كان من عشاق بنت الحان واخذانها^(٥). وقد مر قبل صفحات ان ديوان الحيص بيص - بالشكل المتوفر منه حاليا - هو الآخر لا يكاد يذكر الخمر الا في التدرية.

وهكذا يحق لنا أن نتساءل عن أسباب قلة هذا الفن الشعري العريق في القرن السادس؟

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد من ملاحظة ما يلي :

١ - ان الاقبال على مجالس الشراب، والحرص على توفير ما تحتاجه من خمر جيدة

(١) الغار: شجر طيب الرائحة، كانوا يصفرون من أوراقه أكاليل للمتصدين.

(٢) ديوان الابله و ١١، وانظر أيضا الخريدة ٢٤٣/٢ (٣) تطور الحمريات ص ١٩٥

(٤) ديوان ابن التعاوذي ص ٢٥٨، ٢٣٠، ٣٩٩

(٥) ديوان ابن المعلم (نسخة دار الكتب) و ٩١، ٤٦، ٤٥

وآلات لشراب ذات صفات خاصة، وسقاة مدربين على هذا العمل، وندامي من النوع الذي يروق الشاربين. كل ذلك وغيره كصنوف الرياحين والازهار التي لا بد ان تكثر في مكان الشرب، ووجود المغنين او المغنيات الذين لا يطيب الشرب الا على اصواتهم^(١). ان هذه المجالس-وهي التي يصورها الشعراء في قصائدهم عادة-لا بد أن تنهض بها-بسبب تكاليفها الباهظة-الطبقة العليا من المجتمع، فهل كانت الطبقة العليا في الفترة التي ادرسها تملك من المال والوقت والاستعداد النفسي ما يساعدها على احياء سنة الآباء والاجداد، وخاصة المتوكل وابنه المعتز وحفيده عبد الله^(٢)؟

٢- هل كانت الزراعة في العراق، ومنها زراعة الكروم بالذات، وكذلك نباتات الزينة الدائمة الخضرة، وزراعة البساتين والحدايق التي لا بد منها لتشجيع قيام الحانات واماكن اللهو والشرب. اقول هل كانت الخضرة والمزارع هي السائدة في القرن السادس أم ان الاراضي الجرداء القاحلة هي الاوسع والاكثر انتشارا؟.

٣- من المعروف ان بيع الخمر والارتزاق منها وادارة حاناتها، من الاعمال التي يمارسها غير المسلمين كالمسيحيين واليهود والمجوس، فهل كان هؤلاء في وضع يشجع على ازدهار تجارة الخمر؟ وهل كان عددهم في ازدياد أم في تناقص؟

٤- ان خريدة العماد الاصفهاني، والكتب التي نقلت منها واشهرها وفيات الاعيان، وفوات الوفيات، والوافي بالوفيات، ومعجم الادباء وكذلك دواوين الشعر التي وصلتنا، هذه المصادر هل ادت دورها تاما في ايصال تراث القرن السادس اليها؟ وهل شخصية العماد الكاتب- كما تصورها نماذج الخريدة في النصوص واسماء الاعلام- من الشخصيات التي يمكن الوثوق بها في موضوع كالخمر؟

فاذا انتقلنا من هذه الملاحظات السريعة، والاسئلة العامة، الى التفاصيل والحقائق المؤكدة بالادلة والبراهين، فسوف نجد: بخصوص الملاحظتين الاولى والثانية، ان الدول والممالك كالافراد لها أعمار، ولها فترات قوة وضعف تشبه مراحل العمر المختلفة عند الانسان، فليس من المعقول ان تكون الدولة العباسية في اواخر القرن السادس واولائل السابع، من حيث سعة الرفعة وكثرة الموارد ووفرة الغلات والحاصلات، هي ذات الدولة التي كانت ايام الفتوة والشباب في القرن الثاني او الثالث، بل وحتى القرن الرابع. لقد بدأت معاول السنين تفعل فعلها وتركت آثارها على جسم الدولة واعضاءها المهمة،

(١) حقة البرمكي ص ٢٧، ١٣٥ - ١٣٨

(٢) الديارات ص ٧، ١٥٠ - ١٥٦، ١٦٦ - ١٧٠، معجم البلدان: المطبعة.

فتقلصت رقعتها، وانحسرت سيطرتها عن كثير من الممالك والدول التي كانت في يوم ماتابعة لها، ولو بالاسم دون الحقيقة، بل ان ضعف الدولة العباسية بلغ حدا لا يكاد يصدق، ! حتى وجدنا بعض المدن العراقية ذاتها لم تكن تابعة لخليفة بغداد في النصف الثاني من القرن السادس، ومن هذه المدن تكريت وداقوقا^(١).

وقد يقال ان الناصر لدين الله استطاع أن يعيد للدولة العباسية هيبتها وقوتها وهو امر اختلف حوله المؤرخون. كما اشرت في الفصل الاول من هذه الرسالة. ومع افتراض صحة هذا القول، فان اعادة الدولة من عصر الشيخوخة الى عز الشباب او الى قوة الكهولة وتماسكها، يكاد يكون مستحيلا، والدليل على ذلك هو سقوط الدولة العباسية السريع والمفاجيء على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ.

ان العراق بلد زراعي يعتمد رخاء سكانه على الزراعة بالدرجة الاولى والزراعة لا بد لازدهارها من شبكة ارواء منظمة تخضع باستمرار للعناية والصيانة ولا بد للفلاحين من استقرار يستطيعون في ظلها ادامة الانتاج والاكثر منه. فاذا علمنا ان الحروب لم تكن تتوقف في الفترة التي ادرسها^(٢)، ادر كنا ماصاب الزراعة وشبكات الري والفلاحين من اضرار فادحة.

ان قرية بنارق - مثلا - الواقعة على طريق خراسان بين النعمانية وبغداد كانت خرابا في اوائل القرن السابع - كما يقول ياقوت - وكان السبب في خرابها مداومة العساكر السلجوقية على المرور عليها ونزولهم فيها^(٣). وجيش السلاجقة هذا خرب (٢٧٠) دولا با في الجانب الغربي من بغداد عند حصاره للمدينة سنة ٥٥٢ هـ^(٤).

وكان من اثر اهمال مشاريع الري، بسبب الانشغال بالحروب، ان انهيار سد العظيم حوالي القرن السادس الهجري^(٥)، وتحول مجرى دجلة بين بغداد وسامراء الى مجراه الشرقي الحالي في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي، فأدى ذلك الى خراب كثير من الاراضي، ومنها مدينة عكبرا فقد زالت بزيال دجلة^(٦)، وفي معجم البلدان: «ان النهر وانهارا كثيرة فسدت ولم تتفرغ الملوك لاصلاحها الى الآن. .» وكان ذلك في حدود سنة ٥٤٥ هـ^(٧).

وربما يقال هنا بأنه الى جانب هذه المظاهر السلبية، وجدت طائفة من الاصلاحات ومنها القنطرة التي اقامها الخليفة المستنصر على نهر دُجَيْل عند مدينة حَرْبِي سنة ٦٢٩ هـ^(٨).

(١) انظر الفصل الاول من هذه الرسالة: الحياة السياسية.

(٢) انظر الفصل الاول من هذه الرسالة: الحياة السياسية.

(٣) معجم البلدان: بنارق.

(٤) تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٣٣٩

(٥) نفسه ص ٢٤٥

(٦) دليل خارطة بغداد ص ١٨٣

(٨) دليل خارطة بغداد ص ١٨٣

(٧) معجم البلدان: بنارق.

ولكن هذا التاريخ متأخر عن الفترة التي ادرسها بضع سنوات.

ويسبب وفرة المعلومات عن بغداد في عصرها المتأخر قياسا الى المدن العراقية الاخرى، يمكن ادراك ما اصاب المدن الاخرى قياسا اليها، على الرغم من عناية السلطات في العادة بالعاصمة اكثر من سواها.

ان بغداد في أواخر العصر العباسي تغيرت كثيرا عما كانت عليه في فترة قوة العباسيين وقمة رخائهم وسعة سلطانهم، لقد صغرت مساحة المدينة أولا، حتى ان ابن جبير حين زارها في أواخر القرن السادس قال: «ان الجانب الشرقي من المدينة هو الجانب العامر، اما الجانب الغربي فقد عمه الخراب، واستولى عليه»^(١). ولم يمض زمن طويل على انتهاء الدور السلجوقي حتى تهدمت اكثر المحلات الشمالية القديمة في بغداد الشرقية، عدا الربض الخارجي الذي يحيط بمشهد ابي حنيفة، وجامع الرصافة الشهير، وتهدمت اكثر المحلات والعمارات في الجانب الغربي من المدينة بحيث اصبح جامع المنصور في جانب باب البصرة بعد ان كان وسط العمارة، وقد تهدمت ايضا قصور بني بويه والسلاجقة، ثم ازال ما بقي منها الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٣ هـ وأمر بتسويته مع سطح الارض^(٢).

وفي بغداد محلة تعرف باسم «باب المراتب» كان يسكنها الاغنياء وكبار الشخصيات من ذوي المناصب، وقد خربت هذه المحلة في ايام ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) وكانت بقاياها في طرف من البلد بعيد، وقد حاول اهلها بيع انقاض دورهم بعد هدمها فلم يرغب احد في شرائها^(٣).

وعلى ضوء ما تقدم اظن ان المرء يستطيع ان يتصور الحالة العامة للدولة العباسية في أواخر الفترة التي ادرسها، وهي صورة لا تدل على غنى اوترف ولا تشجع الا على حياة الكفاف.

اما الموقف من اهل الذمة، وهم الذين يرتزق قسم منهم من الاتجار بالخمور، فان بعض المصادر التاريخية تشير الى ان اهل للذمة كان من بينهم ذوو النفوذ في دار الخلافة ذاتها كالطبيب هبة الله بن صاعد المعروف بابن التلميذ^(٤)، كذلك تدل اخبار اخرى على ان بعض القيود قد رفعت عن اهل الذمة ومنها ازالة الغيار^(٥) عنهم سنة ٤٩٨ هـ^(٦).

(١) رحلة ابن جبير ص ٢١١ (ط. دار مصر للطباعة).

(٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٧

(٣) معجم البلدان: باب المراتب.

(٤) وفيات الاعيان ١١٩/٥، وانظر الفصل الثاني (شعر العلماء).

(٥) كان علامة لاهل الذمة كالزوار للمجوس.

(٦) المنتظم ١٤٣/٨

ولكن الاخبار الاخرى- وهي الاكثر- تدل على ان اهل الذمة كانوا مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة^(١) - كما يقال بلغة اليوم-. وعلى الرغم من صعوبة الجزم في مسألة مثل هذه، بسبب شحة المصادر والمعلومات المتوفرة، فان بوسع المرء ان يتصور الحالة التي كان عليها اهل الذمة في فترة ساد فيها المذهب الحنبلي في العراق^(٢) من ناحية، وكانت الحروب الصليبية فيها لما تزل مشتعلة تثير العالم الاسلامي كله على المسيحية والمسيحيين من ناحية اخرى.

بقيت الملاحظة الاخيرة المتعلقة بالمصادر وأهمها الخريدة ودواوين شعراء الفترة، وهي من العوامل المساعدة في شحة شعر الخمر. اما الخريدة فيمكن اجمال اثرها بما يلي:

١- ان التقوى والصلاح والاستقامة هي الصفات التي تغلب على رجال الطبقة العليا من المجتمع العباسي، كما صور العماد حياتهم في خريدته، ومن هؤلاء الخلفاء والوزراء وابنائهم وكبار الشخصيات في دار الخلافة^(٣)، ولست اشك في اقوال العماد من هذه الناحية، لانه قد عرف القوم عن كثب وعاشرهم وجالسهم سنين طوالا، ولم تنقطع صلته ببعضهم حتى بعد ان ترك العراق الى الشام^(٤)، ولكن ما يعاتب عليه صاحب الخريدة هو انه اقتصر على تصوير ناحية واحدة عرف بها عليّة القوم هؤلاء، فلم يحاول ان يدس قلمه في الجوانب اللاهية المرحلة البعيدة عن الانظار من حياة هؤلاء، فلم يتطرق الى مجالس الشراب والمنادمة، ولا عرج على اوقات اللهو واطراح الحشمة والوقار، وهذه جوانب عودنا اسلاف هؤلاء انهم كانوا فيها من السابقين المبرزين^(٥). وليس في الخريدة ولا في سواها ما يدل على ان الجانب اللاهية من حياة الكبار قد تولى وأزيح جانبا، لان ذلك يخالف المألوف المعروف من منطق هذه الدنيا.

وقد اعترف العماد نفسه - ربما دون قصد منه - بان اوقاته ببغداد لم تكن كلها جدا ووقارا، حين قال من قصيدة ارسلها من الشام الى عماد الدين ابن الوزير عضد الدين:

فَلْيَالِي الْعِرَاقِ بِيضُ مِنَ الْبَيْدِ ضِرْ غَوَانٍ مِنَ الْغَوَانِي غَوَانٍ
وَزَمَانِي مُسَاعِدٌ وَرَفِيقِي فِي الْهَوَى مُسْعِدٌ وَدَهْرِي مُسَالِمٌ

(١) مرآة الزمان: ٣٧٨/٨، وفيات الاعيان ٤٢٤/٤، تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ١٥١

(٢) تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٤٣٤

(٣) الخريدة ٩٧/١، ١٠١، ١٤١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٧

(٤) نفسه ١٦٨/١

(٥) الديارات ص ١٠٩، ٣٤، ٦٣، حلبة الكميت ص ٧٥، ٨٣، ٩٩

وَمُنَادِي الْمُنَى مُجَابِبُهُ الْإِسْدَ عَافُ وَالسُّؤَالُ لِلنَّجَاحِ مُنَادِمُ
وَمِنْ الْأَكْرَمِينَ كُلِّ نَدِيمٍ لَسْتُ مِنْ قُرْبِهِ مَدَى الدَّهْرِ نَادِمُ
مَا فَقَدْنَا السُّرُورَ إِلَّا هَدَانَا^(١) كُلُّ هَادٍ لِمَا بَنَى الْهَمُّ هَادِمُ
وَمَيِّتِي مَا بَيْنَ كَاسٍ وَتَغْرِيرٍ رَاشِفًا مِنْهُمَا مَتَى شِئْتُ لَائِمُ
وَرُدُّ خَدِّ نَدٍ وَغُضُّ قَوَامٍ ذَا جَنِيٍّ غَضُّ وَذَلِكَ نَاعِمُ
فَأَنَا الْيَوْمَ بِالشَّامِ وَجِيدُ لَسْنَا الْبَارِقِ الْعِرَاقِيَّ شَائِمُ
... الخ^(٢).

٢ - وهناك طبقة أخرى من كبار الشخصيات ذوي النفوذ، لم يصفهم العماد بالتقوى والدين - كما فعل مع سابقيهم - بل بالعكس لمح الى جوانب من حياتهم لا تدل على التمسك بتعاليم الدين، او على الاقل انهم لا ينظرون الى الدين كما ينظر اليه المتدينون المتمرنون، ومن هنا يعاتب صاحب الخريدة ايضا لأنه ترك جوانب من صور الحياة في القرن السادس، مبتورة ناقصة، ومن المرجح انه كان يستطيع ان يضيف الى النصوص التي اوردها اخبارا او نصوصا اخرى، هي اجدى على الادب واهله من تلك الصفحات العديدة التي سودها في اثبات شعر طائفة من الشعراء مدحوه شخصيا من باب التزلف والتملق والرياء^(٣).

ومن تلك النصوص والاخبار التي وددت لو توسع فيها قلم العماد قوله - ما معناه - : ان شاعرا - يسميه ابن الرِّيفَةِ - كان من رؤساء الراذان^(٤)، قعد به الزمان وحاربه الحدثان، فقصده الامير ديبس بن صدقة بن منصور، وكان لا يهب الا وقت سكره، فأنشده قصيدة منها:

فَلَمْ يَبْقَ، يَا تَاجَ الْمُلُوكِ، وَسِيلَةٌ يَمْتُ بِهَا ذُو حَاجَةٍ وَهُوَ مُضْطَرُّ
سِوَى الْخَمْرِ أَنْ أَضْحَى لَدَيْكَ مَنَارُهَا فَوَاسَوَاتَا إِنَّ قِيلَ: شَافِعُهُ الْخَمْرُ
وَحَاشَا وَكَلًّا أَنْ يُقَالَ: ابْنُ مَزِيدٍ كَرِيمٌ إِذَا مَا هَزَّ أَعْطَاهُ السُّكْرُ^(٥)

ان العماد ترجم للامير المزيدي في خريدته^(٦)، ولكنه لم يشر الى موضوع الصلة بين

(١) بالاصل : بكسر الهاء وتنوين الآخر (كما يقول محقق الخريدة)، وهو سهو من الناسخ على الأرجح لان الفعل ماض اتصل به ضمير المفعول بدليل «كل هاد... هادم» في المعجز.

(٢) الخريدة ١/ ١٦٩ - ١٧٠

(٣) الخريدة ٤/ ٧٦٥ - ٧٧٤، ٤٥٧ - ٤٦٥

(٤) منطقة من سواد بغداد، وراذان أيضا قرية بنواحي المدينة (معجم البلدان ٤/ ٢٠٤).

(٥) الخريدة ٤/ ١٧٠

(٦) الخريدة ٤/ ١٠٧ - ١٠٨

سكره وكرمه . وقد تكون للامراء المزيديين او غيرهم كآل ابي الجبر مثلانواح تهم الباحث في ادب هذه الفترة، ولكن العماد طواها عن الباحثين، وهذا الذي حدث في اخبار الامير المزيدي، حدث مثله للشريف ابي هاشم اسماعيل بن المؤمل بن الحسين العباسي الرشيدي الواسطي، وصفه العماد بأنه : «من بيت الخطابة والنقابة بواسط . . » ثم اختار من شعره، وهو اكثر من ستة آلاف بيت - كما يقول العماد - قوله :

مَضَى الْوَدُّ، وَالْأَيَّامُ مَا سَمَحَتْ لَنَا بِشْرَبِ مُدَامٍ أَوْ بِقُرْبِ نَدِيمٍ
وَنَحْنُ عِطَاشٌ، وَالْمَوَارِدُ جَمَّةٌ يُوطِّئُهَا قَوْمٌ لِكُلِّ لَثِيمٍ
عَلَى الرَّاحِ وَالْأَقْدَاحِ مِنِّي تَحِيَّةٌ إِلَى أَنْ أَرَاهَا فِي بَنَانِ كَرِيمٍ^(١)

والايات - وخاصة الاول والثالث كما قال العماد - لا نظير لها، وهي تدل على ان هذا الشريف ذو طبيعة اوقالبية مواتية في شعر الخمر، وربما كان في اثبات قطع اخرى له - لا سيما وقد نص العماد انه رأى شعره كله في مجلدة - فائدة للناحية التي اشكو من قلة النصوص عنها .

اما دواوين الشعراء، فقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة^(٢) الى ان الضائع المفقود منها يفوق كثيرا المتيسر المعثور عليه، سواء أكان مطبوعا مثل ديوان ابن التعاويذي وقسم من ديوان الحيص بيص، ام مخطوطا مثل ديوان ابن المعلم وديوان الابله البغدادي .

وهذه الدواوين، وخاصة المخطوط منها، لا يمكن الوثوق الى انها تجمع جميع شعر الشعراء من اصحابها، بسبب الاختلاف بين النسخ المتوفرة، ولذلك يفترض ان قسما من شعر الخمر ربما غاب عنا بسبب نسخة او اكثر لا تزال مجهولة وخاصة فيما يتعلق بديوان ابن المعلم وكذلك ديوان الابله . فليس من المعقول ان يدل ديوان ابن المعلم - عن طريق مقدمات القصائد - بان الشاعر كان يشرب الخمر، وفي الوقت نفسه ليس في الديوان من شعر الخمر سوى بيتين، جاء في تقديمهما ما نصه : «وقال ايضا، وهو في مجلس الشراب، وقد اخذ السكر منهم، فكشفوا رؤوسهم :

وَمَعَاشِرٍ رَضَعُوا الْمُدَامَ، فَأَصْبَحَتْ تَحْكِي^(٣) خَلَاتِقَهُمْ حَبَابُ مُدَامٍ
كَشَفُوا الرُّؤُوسَ، فَأَقْشَعَتْ مِنْ فَوْقِهَا سُحْبُ الْعَمَائِمِ عَنْ بُدُورِ^(٤) تَمَامٍ

اما الابله، فان نسخة ديوانه التي عندي، وهي من اجود النسخ واكبرها^(٥)، تدل على

(٢) الفصل الثالث ص ١٤٢ - ١٤٣

(٤) ديوان ابن المعلم (نسخة دار الكتب) و ٩١

(١) الخزينة ٤/ ٤٠٥

(٣) كذا بالاصل باهمال نقط الحروف .

(٥) اخبرني بذلك صاحبها المرحوم الاستاذ عبد الكريم الدجيلي .

ان هذا الشاعر من اكثر شعراء الفترة ولعا وشغفا بافتتاح مدائحه بالخمير^(١)، ولكن نسخة الديوان هذه خلت خلواتا من اية قصيدة او مقطوعة خميرية مستقلة عن المدح، وهو امر لا اراه معقولا؛ فلا بد ان الشاعر كانت له سكرات خاصة مع اصدقائه واخوانه، ولكن الديوان خلا من ذكرها لسبب لا نعرفه. وليس في سيرة الشاعر واخباره ما يحتمل الباحث على الافتراض انه كان مضطرا على افتتاح طائفة من مدائحه بذكر الخمير، لا سيما وقد دلت هذه الخمريات على ان الرجل خَمِير من الطراز الأول.

وبعد هذا العرض الموجز لظروف العراق في القرن السادس، وخاصة ما يتصل منها بالجانب المترف اللاهوي ذي الصلة الوثيقة بشعر الخمير، وكذلك بعد ايضاح دور المصادر المتوفرة في هذا الموضوع، اقول بعد هذا كله يمكن ان تكون الاجابة عن السؤال المتقدم: هل من جديد في شهر الخمير؟ اكثر سهولة لان القارئ اصبح على معرفة بالظروف المحيطة بفن الشعر الخميري في هذه الفترة مقارنة بما كان عليه الامر في عصور الأدب العباسي المتقدمة.

وبناء على ما تقدم لا بد من الحذر والوقوف الطويل الدقيق امام النصوص التي تلوح للباحث من خلال معانيها او صورها او اسلوبها بارقة جدة، وسيماء حداثة غير مطروقة من قبل، لان شعراء القرن السادس - في شعرهم الخميري بالذات - لم يكونوا في وضع يمكنهم من التجديد والابتكار، ومع ذلك بدت لي بعض ابيات لم استطع ارجاعها الى اصول قديمة فهي من مبتكرات هذه الفترة الى ان يثبت العكس، وكذلك تصرف الشعراء في اساليب القصائد التي يذكر فيها الخمير - وخاصة من ناحية مقدمة القصيدة وخاتمها - فبدت بعض القصائد بشكلها الجديد مبتكرة، يمكن ان تضاف الى تراث القرن السادس.

فعلى سبيل المثال، قال الابله متغزلا:

لَاثِمًا مِنْ خَدِّهِ الْوَرْدَ دَ وَمِنْ فِيهِ الْأَفَاجِي
مَازِجًا مِنْهُ رُضَابًا يُسْكِرُ الرَّاحَ بِرَاحٍ^(٢)

ان معنى هذا البيت الثاني، وهو ان رضاب الحبيب كالحرير، ولكنها يخمّر جديدة غير مألوفة، لانها لا تسكر الانسان بل تسكر الخمرة نفسها. وهو نوع من المبالغة فيه طرافة وفيه تشخيص للخمير، فصارت كالبشر يمكن أن تشرب وأن تسكر. والتشخيص او التجسيم من معاني الخمير معروف مطروق - كما اشرت قبل صفحات - ولكن الراح التي تسكر الراح من المعاني الجديدة.

(٢) ديوان الابله و ١٦١

(١) ديوان الابله و ٤٦، ٥٩، ٦١، ٧٠، ٧٧، ٧٩...

ويبدوا ان الابله قد اعجبه هذا المعنى الجديد فكرره في مطلع قصيدة مدح، بعد أن تصرف فيه قليلا، فقال:

بَاكَرَ يَجْلُو مُدَامَةً بِكَرَا مُعِيرُهَا مِنْ لِحَاطِهِ السُّكْرَا^(١)

ان الخمر هنا - كما كانت في البيت السابق - هي الشخص الذي يسكر، ولكن المسكر في هذا البيت هو لحاظ الساقى، التي صارت - لفرط سحرها وشدة اثرها - تعير السكر للخمرة، وهي اصل السكر ومصدره، وقد الم ابن التعاويذي بهذا المعنى حين قال:

وَالْكَأْسُ قَدْ أَعْدَاهُ سُكْرٌ مِنْ لَوَاحِظِ حَامِلِهِ^(٢)

وقد الف شعراء الخمر، وفي طليعتهم ابونواس، ان يصفوا نداماهم اي الافراد الذين اعتادوا أن يشربوا معهم بكرم الاصل وحسن الخلق^(٣)، ومن المشهور قول طَرْفَة ابن العبد: نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنَّجُومِ ..

وفي القرن السادس بالغ الابله البغدادي في صفة هؤلاء الندامى وحسن خلقهم فقال:

نَفَرُ لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ لُطْفِهِمْ نَادُمُوا ظَبْيِي فَلَاةٍ مَا نَفَرُ^(٤)

ان المعنى ليس جديدا - كما اسلفت - ولكن طريقة العرض او التصوير المبالغ فيها هي الجديدة.

ومن الطريف ان شعراء القرن السادس، وهم يحاولون العثور على معان غير مطروقة للخمر، لم يتورعوا حتى ان يستفيدوا من الدين في هذا الموضوع، رغم البعد الكبير بل التناقض بين الدين والخمر، وهو تناقض اكسب الصور والتعابير جدة وطرافة، قد يغضب لها رجال الدين، ولكن الشاعر الفنان تهمة اللقطة المبتكرة، وكل ما سواها هين يسير، قال ابن التعاويذي:

وَنَادٍ فِي نَدْمَانِهَا حَيٌّ عَلَى الْفَلَاحِ^(٥)

وكرره فقال:

(١) نفسه و١٤٨

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٦٩

(٤) ديوان الابله و ٤٦

(٣) تطور الخمرات ص ٢٠١ - ٢٠٢

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٦

قُمْ يَا نَدِيمُ فَنَادِ فِي الدَّ نَدْمَانِ حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ^(١)
 وواضح ان «حي على الفلاح» ليس مكانها بعد الندمان او النديم ابدًا، وان الشاعر
 قد تجاوز حدود الظرف فاستعمل نداء المؤذن للصلاة بالمساجد استعمالا غير لائق ومن
 الدين ايضا اخذ ابن التعاويذي قوله في خمرة اخرى:

وَدَعْنِي، وَالصَّلَاةَ اِذَا تَدَانَتْ فَلَيْسَ عَلَى خَرَابٍ مِنْ خَرَاكِ^(٢)
 فقد شبه الصلاة بالخراج الذي فرضه الاسلام على الاراضي الزراعية، وشبه نفسه
 بالارض الخراب او البور وهي التي لا خراج عليها، وبين التشبيهين اسقط عن نفسه
 فرض الصلاة.

ومن الصور التي اختلط فيها الدين بالخمرة، قصيدة للحسين بن شبيب الطيبي
 نديم الخليفة المستنجد بالله، قال العماد الكاتب انه «يستطرد فيها بمؤذن يعرف بعبّاس
 جهير الصوت، كان يصل صوته إلى أقاصي المحال ببغداد وقت الصباح:
 وَشَى بِالصُّبْحِ عَبَّاسُ وَثُوبُ اللَّيْلِ أَدْرَاسُ^(٣)
 ومنها:

وَقَدْ مَجَّ قُمْ الْإِبْرِدِ قِ مِمَّا قَهَقَهُ الْكَاسُ
 ويقول في آخرها:

فَمَا أَطْيَبَ لَيْلَ الْوَضِّ لَ لَوْ يَخْرُسُ عَبَّاسُ^(٤)
 ومن اختلاط الدين بالخمرة قول البارع:

كُفِّي عَنِ الْعَذْلِ كُفِّي خَلَفْتُ رُشْدِي خَلْفِي
 مِنْ بَعْدِ حَجِّي وَنُسْكَي عَاوَدْتُ لَهْوِي وَقُصْفِي
 فَحَجَّتِ الْكَاسُ ثَغْرِي عَلَى مَطِيَّةٍ كُفِّي

قال في آخرها:

(١) نفسه ص ٨٩

(٢) نفسه ص ٧٧

(٣) ثوب الليل أدراس: أي وقد كاد الليل ينقضي، أدراس واحدها دُرْس: الثوب البالي.

(٤) الخريدة ١٨٨/١

هَاتِ اسْقِنِيهَا وَدَعْنِي يَلُومُنِي كُلُّ جِلْفٍ^(١)
 إِنْ كُنْتَ تُبْتُ، فَإِنِّي مِنْ تَوْبَتِي مُسْتَعْفِي
 لِيَهْنُ إِبْلِيسُ أَنِّي صَبَوْتُ مِنْ بَعْدِ عَزْفٍ^(٢)

وليس من المستبعد ان يعتمد بعض الشعراء اقحام الدين في شعر الخمر للتعبير عن شعورهم بالاثم من ناحية، وتمردهم على تعاليم الدين من ناحية اخرى، وهكذا تعبر الخمريات عن صراع بين روح الفنان المرفهة التي تساعد الخمر على الوقوف والصمود في هذا العالم القاسي الذي لا يرحم، وفي الوقت نفسه تثير الخمرة حقيقة يحاول الشاعر تجاهلها وهي ان الخمر حرام وانما اكبر من نفعها. تأمل - مثلا - قول العلاء بن علي السوائي الواسطي:

الصَّبُوحُ الصَّبُوحُ فِي شَعْبَانٍ لَا تُخْلَوُا بِهِ مَعَ الْإِمْكَانِ
 طُمِئِنُوا بِالْمُدَامِ جَاشَ نَفْسٍ رَوَعْتُ بِالصَّيَامِ فِي رَمَضَانَ
 إِذْهَقُوهَا^(٣) بِالطَّاسِ وَالْكَاسِ حَتَّى لَا يُحَقِّقَ الصَّاحِي مِنَ السُّبْحَانَ

ومنها:

وَاسْقِنِيهَا مِنْ بَعْدِ تِسْعٍ وَعَشْرِي نَ صَبَاحاً خَلَوْنَ مِنْ شَعْبَانِ
 وَاسْقِنِيهَا يَوْمَ الثَّلَاثِينَ فِي الشُّكِّ وَبَعْدَ السُّحُورِ قَبْلَ الْأَذَانِ
 وَارْصِدِ الْوَقْتَ لَا تُفْرِطْ فِي سُكِّ رِي حَتَّى يُبَيِّنَ الْخَيْطَانِ
 وَأَقْمِنِي إِلَى الصَّلَاةِ وَلَا تُسْ رِفْ فِي يَفْظَةِ الْفَتَى الْوَسْنَانِ
 أَتَصَدَّى لَهَا، وَاسْعَى إِلَى الْمَسِّ جِدْ جَهْدِي إِنْ كَانَ لِي رُكْبَتَانِ
 ... الخ^(٤)

ان قصيدة ابن السَّوَادِي هذه تمثل ضربا فريدا وجديدا من قصائد الخمر لان الشاعر، وقد بدأها بالخمر، يختتمها بالدين قائلا:

نَيْتِي غَيْرُ مَا سَمِعْتَ وَمَا كَانَ لِسَانِي عَنْ نَيْتِي تُرْجُمَانِي
 وَيَحْ نَفْسِي إِنْ لَمْ يَكُنْ لِي وَلَاءٌ كَانَ مِنِّي فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ

(١) جلف: أحمق.

(٢) الحريدة/ نسخة ايران ٢٣٤، عَزْف: توبة وإعراض.

(٣) ادھق: أعجل.

(٤) الحريدة ٤/ ٣٧٦ - ٣٧٧

فَعِمَادِي وَعُدَّتِي فِي مَعَادِي عِنْدَ حَشْرِي إِذَا جَثَا الْخَصْمَانِ
يَوْمَ عَرَضِي مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَالْبَتُولُ الزَّهْرَاءُ وَالْحَسَنَانِ
... الخ (١).

ان المشهور في قصائد الخمر نوعان: الاول ان تكون الخمر بداية القصيدة ومنها ينتقل الى المدح. والثاني ان تكون القصيدة كلها من الخمریات. وقد عرف الضربان في خمریات القرن السادس - كما سيأتي - وقصيدة العلاء ليست قصيدة مدح، كما انها ليست مقصورة على الخمر وحده، لانها ختمت بالدين كما رأينا فهل تعتمد الشاعر الجمع بين الضدين؟ ولماذا؟

ولابن التعاويذي قصيدة تشبه هذه من ناحية الخروج على الاسلوب المعروف في قصائد الخمر، سوى ان ابن التعاويذي بدأ قصيدته بالمدح وختمها بالخمر وهو عكس الاسلوب المعروف في افتتاح المدائح بالخمر واختتامها بالمدح، وهو اسلوب اتبعه شاعر القرن السادس لان الممدوح من اصدقائه المقربين، على ما أظن.

كتب ابن التعاويذي لابي علي (٢) بن الحسن بن الدؤامي وقد قدم من سفره بعد مدة اطال فيها وكانت بينهما مودة:

لَا أَوْحَشَ اللَّهُ مِمنْ بِهِ يَتِمُّ السُّرُورُ
وَمَنْ مُرَادُ ذَوِي الْفَضْ لِرَبِّعِهِ الْمَغْمُورُ
وَمَنْ تَخَفَ حُلُومَ الرِّ رِجَالٍ هُوَ وَقُورُ
وَمَنْ أَنَامِلُ كَفِّي بِه بِالْعَطَايَا بُحُورُ
وَمَنْ سَجَايَاهُ مِسْكُ مِنْ طِيْبِهَا وَعَبِيرُ

وبعد نهاية هذا المديح، ينتقل الشاعر الى الخمر فيقول - مخاطبا الممدوح -

فَانْهَضْ لِأَمْرِي، فَإِنِّي عَلَى النَّدَامَى أَمِيرُ
وَعَاطِنِيهَا كُؤُوساً عَلَى الْكَرِيمِ تَجُورُ
مِثْلَ النُّجُومِ، وَلَكِنْ فِي الشَّارِبِينَ تَغُورُ
يَزِيدُهُنَّ خَبَالاً مِنْ مُقْلَتِيهِ الْمُدِيرُ

(٢) انظر: الفصل الرابع ص ٢٧٢ هامش ٢

(١) الخريدة ٤/ ٣٧٧ - ٣٧٨

مِنْ بِنْتٍ مِعْصَرَةٍ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهَا الْعُصُورُ
حَمَرَاءُ فِي الْكَأْسِ مِنْهَا نَارٌ وَفِي الْبَيْتِ نُورٌ
... الخ (١)

ضربا الشعر الخمري:

ان اكثرية شعر الخمر في القرن السادس، يمكن ان تقسم الى قسمين:

١ - شعر الخمر في مقدمات المدائح، وهو اكبر القسمين وأهمهما، ومن البديهي ان كبار شعراء المدح، وخاصة الابله وابن التعاويذي، كانا في طليعة شعراء الخمر بهذا المفهوم.

٢ - خمريات مستقلة عن المدح، ويعد ابن التعاويذي وبعض شعراء البصرة (٢) من فرسان هذه الحلبة. وهذا القسم الثاني صغير لا يعتد به اذا ما قورن بالقسم الاول.

وهناك ضرب ثالث غفل لا يمكن القطع حول انتماؤه الى اي من القسمين السابقين، وهو عمل يحمل تبعته الادباء والمؤرخون الذين اولعوا بالمختارات والمقاطع المبتورة من شعر الشعراء، وفي مقدمتهم عماد الدين الاصفهاني، فقد اورد للكمال ابي عبد الله الحسين بن ابي الفوارس (٣) قوله:

صَبَا إِلَى اللَّهِ فِي هُبُوبٍ صَبَا (٤)
هَـا أَنْجُمُ الصُّبْحِ مِنْ مَخَافَتِهَا
وَقَالَ: قُمْ، فَالْصَّبُوحُ قَدْ وَجَبَا
وَأَذْهَمُ اللَّيْلِ كُلَّمَا حَاوَلَ الـ
مِيلُ إِلَى الْغَرْبِ تَطَلُّبُ الْهَرَبَا
وَالذِّيكُ قَدْ قَامَ فِي مُمَرَّجَةٍ (٦)
حُظُوءَةٍ مِنْ أَشْهَبِ الصَّبَاحِ كَبَا (٥)
يَصِيحُ إِمَّا عَلَى الدُّجَى أَسْفَا
شَمَرَ أَذْيَالَهَا، وَشَدَّ قَبَا (٧)
مَنْهُ، وَإِمَّا عَلَى الضُّحَى طَرَبَا (٨)

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٦ - ١٨٩

(٢) الخريدة ٤/ ٧١٧، ٧١٣، ٤٠٥

(٣) لم يوضح العماد شخصية هذا الشاعر، ولم يذكر سنة وفاته ولا ما يدل عليها على وجه التقريب.

(٤) صبا: الاولى بمعنى مال، والثانية اسم لريح باردة تهب على نجد في الصيف.

(٥) كبا: انكب على وجهه.

(٦) الممرجة أو الممزوجة واحدة المُرَج وهو نسيج فيه حرير بذهب، وكان يصنع ببغداد.

(٧) القبا: مقصور القباء: ثوب يلبس فوق الثياب، أو القبيص، ويتمنطق به.

(٨) الخريدة ٢/ ١٨٤

وهي ابيات لا ندري: هل هي جزء من قصيدة مدح، ام هي من الخمریات المستقلة، لان العماد لم يصف اليها ما يزيل الابهام. وعلى الرغم من تنبه العماد الى هذه الناحية، بدليل النصوص الكثيرة التي اوضح فيها ان ما ينقله من شعر المدح^(١)، او من الخمریات^(٢)، فان صاحب الخريدة ربما سها احيانا فترك الباحثين في حيص بيص^(٣).

١ - مقدمات المدائح:

كما اعتاد الشعراء ان يبدأوا قصائدهم بالغزل، كذلك نجد طائفة من المدائح يتقدمها شعر الخمر. وبعد الابله البغدادي اكثر شعراء القرن السادس استعمالا للمقدمات الخمرية في قصائد المديح.

ولا يوجد سبب واضح يحمل الشاعر على تفضيل المقدمة الخمرية على سواها من المقدمات، ولكن قلة المقدمات الخمرية في القرن السادس - قياسا الى مقدمات الغزل مثلا - تحمل الباحث على افتراض وجود عوامل - ومنها الدين على الأرجح - كانت وراء هذه القلة. ولعل مما يقوي هذا الافتراض ان وصف الخمر في مقدمات مدائح الخلفاء لا يكاد يذكر، قياسا الى مدح سواهم من رجال الطبقة الحاكمة العباسية^(٤).

ان المقدمات الخمرية تكون عادة حديثا عاما عن الخمر دون التركيز على ناحية على حساب النواحي الاخرى: فلا يطنب الشاعر مثلاً في وصف الساقى أو الساقية ويمر مسرعاً بوصف مكان الشرب او زمانه او صفات الخمر ذاتها، وعندي ان مقدمات ابن التعاويذي من احسن الامثلة على ما اقول:

حُتْ كُؤُوسَ الرَّاحِ	واشربْ على الأقاحي
وعاصِ في النُّشْوَةِ	كُلْ لائِمٍ ولاخِ
ونادِ في نَدْمَانِهَا	حَيَّ على الفَلاحِ
واجتَلِهَا قَبْلَ انْجِلَا	عِ غُرَّةِ الصُّباحِ
مَشْمُولَةً ^(٥) تَلْعُبُ بالـ	عُقُولِ والأرواحِ

(١) الخريدة ٢/ ٢٤٤، ٢٣٩

(٢) الخريدة ٤/ ٧١٧، ٧١٣

(٣) الخريدة ٢/ ١٦٢، ١٦٣، ١٨٥

(٤) لم اعثر في ٩ قصائد مدح بها الابله خلفاء بني العباس إلا على بيت واحد في الخمر، انظر ديوانه و ٥

(٥) مشمولة: من الشمول، وهي من أسماء الخمر.

تَكَادُ مِنْ مِزَاجِهَا تَرْقُصُ فِي الْأَقْدَاحِ
... الخ^(١).

ويمكن ادراك الفرق بين مقدمات ابن التعاويذي ومقدمات سواه من شعراء المديح، باستعراض نماذج من شعر زملائه، ومنهم ابن حَكِينَا، الذي يقول في أول قصيدة مدح بها سديد الدولة ابن الأنباري:

أَدْرِهَا مُدْعَدَّةً^(٢) يَا نَدِيمِي بِمَاءِ الْكُرومِ وَبَيْنَ الْكُرومِ
وَكُنْ أَرْقَى النَّاسِ - تَحْتَ الظُّلَا م - بِيْزَلِ^(٣) الدَّنَانِ^(٤) وَفَضُّ الْخُتُومِ
إِلَى أَنْ تُرِيكَ طُلُوعَ الصُّبَا ح فِي حَبِّ كَانْقِضَاضِ النُّجُومِ
وَوَكَّلْ مَصَابِيحَهَا الزَّاهِرَاتِ بِإِحْرَاقِ شَيْطَانِ هَمِّي الرَّجِيمِ
وَحُذِّهَا عَلَى أَنَّهَا لُقْطَةٌ إِذَا اشْتَرَيْتَ بِدُخُولِ الْجَحِيمِ
هِيَ الرُّوحُ أَوْ مِثْلُهَا فِي الْقِيَا س مَخْلُوقَةٌ لِقُومِ الْجُسُومِ
... الخ^(٥).

إن الشاعر هنا مغرم بالخمير، ولذلك ظل يدور حولها ويسلط أضواءه على صفاتها فهي رقيقة لا تحتل الخشونة، ولذلك يوصي النديم أن يكون «أرقى الناس» وهي شديدة التوهج «تريك طلوع الصباح»، أما حبابها فيشبه انقضااض النجوم، وهي رخيصة حتى إذا كان الثمن دخول جهنم. وهذه المبالغة الأخيرة تعيد إلى الأذهان ما سبق أن اشترت إليه من تعمد السكاري ادخال الأفكار والألفاظ الدينية في خمرياتهم، لأنهم يعانون صراعا حادا بين حبهم للخمير وتحريم الدين لها.

أما الأبله فيبدو في مقدمات مدائحه هائما بالطبيعة، مفتونا بجمالها، ولذلك يمر بالخمير مسرعا في بيت أو بيتين أو ثلاثة^(٦)، ولكنه يطيل الوقوف في محراب الطبيعة، كالعابد المبتل لا يريد مبارحة معبوده، أو كالعاشق رأى من يحب فأفلت من يده زمام اعصابه، واخذته الدهشة من كل جانب.

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٦، وانظر أيضا ص ٨٩، ٨٢، ٧١.

(٢) مدعدة: من ددع الشيء، ملأه.

(٣) البزل: الشق.

(٤) الدنان: واحدها الدن، وهو وعاء ضخم للخمير.

(٥) الخريدة ٢/ ٢٣٩.

(٦) ديوان الأبله و ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٣٦، ١١١، ١٢١، ١٥٧.

ان اجود مقدمات الابله الخمرية ثلاث^(١)، سأكتفي هنا بعرض واحدة منها فقط .
قال من قصيدة مدح مطلعها:

يا مَنْ تَوَرَّدَ مِنْهُ خَدٌ واهتزَّ هَزُّ الغُصَنِ قَدْ
وبعد المقدمة الغزلية قال:

يا طيِّبَ يومٍ مرٌّ لي بنهر عيسى^(٢) لَوْ يُرَدُّ
والزَّهْرُ سَبَطُ والريَّا ضُ أريضةً والماء جَعْدُ^(٣)
والطَّلُّ مَنْثُورٌ، وفي جيد^(٤) الشَّقَائِقِ مِنْهُ عِقْدُ
ومَعَ الْبَنَفْسِجِ مَنْ خُدُو دِ سُقَاتِنَا آسَ وَوَرْدُ
حيثُ النَّسِيمُ مُعَنْبَرٌ وضبابُ ذاك الأفق نَدُّ^(٥)
والغُصْنُ يَرْقُصُ والغَدِيدُ رُ مُصَفَّقُ والوُرُقُ^(٦) تَشْدُو
والشَّمْسُ تَخْفَى في نِقا بِ الغَيْمِ أحيانا وتَبْدُو
والجَوُّ بَعْضُ مِنْهُ كا فورٌ وَبَعْضُ لا زَوْرْدُ
فَالْخُلْدُ مَنْ يُمْسِي آخا راحٍ يَروحُ لَهَا وَيَغْدُو
... ألخ^(٧).

ان هذه الابيات كادت ان تكون-وصفا للطبيعة، ولا علاقة لها بالخمير لولا لفظ «سقاتنا» في البيت الرابع، وكلمة «راح» في البيت الاخير ومنهما علمنا ان الشاعر يصف مجلس شراب «بنهر عيسى». ولم ينس الشاعر ادق التفاصيل المحيطة بمجلس الشراب، فقد وصف الارض وما فيها من صنوف الزهور ومنها الشقائق والبنفسج، ولون السماء بأن بعضه اسود كالكاפור، وبعضه ازرق كاللازورد، والشمس متنقبة بنقاب من الغيم، حتى رائحة الجوقال انها عنبر، ولفرط غنى الشاربين قال ان الند كالضباب كثرة، وهي مبالغة من شاعر نشوان، أطلقت الخمرة لخياله العنان.

(١) نفسه و ١٦٧، ١٧٣، ١٦٠

(٢) انظر الفصل الاول ص ١٩ هامش ٢

(٣) ماء جعد: أي مجتمع مترابك بعضه فوق بعض.

(٤) الجيد: العنق.

(٥) الند: عود يتبخر به.

(٦) ديوان الابله و ١٦٧

(٧) الورق: الحمام.

وهكذا يتضح انه من بين اربعة شعراء كانوا اشهر شعراء المديح في القرن السادس كله^(١)، تبارى ابن التعاويذي والابله في افتتاح طائفة من مديحهما بذكر الخمر. وقد ظهر ان الابله متفوق من ناحية الكم، لان عدد قصائده التي اشير في مقدماتها الى الخمر تفوق كثيرا قصائد ابن التعاويذي في هذا المجال. كذلك نجد الابله يطيل في مقدماته الخمرية ويبدو محبا مولعا بهذا النوع من الوصف، اكثر من زميله ابن التعاويذي، اذ نجد هذا الاخير قصير النفس، ضجرا، لا يتدفق شاعرية حين يفتتح بعض قصائده، بذكر الخمر، كما عودنا في معظم شعره. ومع ذلك لا بد من القول ان مقدمات ابن التعاويذي- على قصرها وقلتها- بدت الصق وأقرب الى شعر الخمر من مقدمات الابله، لان هذه ظهرت وكأن الشاعر لم يرد ذكر الخمر اصلا وانما نظم قصيدته في وصف الطبيعة والتغني بجماها، ثم استدرك على نفسه فدرس بين الأبيات بيتا أو بيتين في الخمر.

وأكد ألمح من بين ابيات ابن التعاويذي، وخاصة تلك التي افتتح بها بعض مدائح الخلفاء^(٢)، ان الشاعر ذكر الخمر أو وصفها في هذا الموضع ليشكو الى الخليفة من خلالها سوء حاله، وضيق ذات يده، وهو بذلك يخلط الحقيقة بالخيال والشكوى بجو المنادمة والسكر والعريضة. ولعله وجد - وهو شاعر الخلفاء - ان هذه الطريقة مجدية اكثر من سواها في الاستماع الى شكواه، وازالة اسباب تدمره، لان المفروض بالمقدمة الخمرية ان تكون فاتحة المدح وطلية غرض القصيدة الاصل، ومن هنا لا بد ان يوفر لها الشاعر كل اسباب النجاح ولفت الانظار وشد الاسماع، وفي مقدمة هذا كله الحديث المرح الخفيف، والوصف البارع الجذاب لدنيا خيالية، براق، ساحرة غير التي يعرفها الناس - اما الشكوى والمبالغة في تصوير الهم والغم ومصائب الدنيا وآلام الكبر ومتاعبه، فلست اشك ان ابن التعاويذي يعرف ان مكانها ليس المقدمات الخمرية.

٢- الخمریات المستقلة :

وهي شعر خمري صرف، لا علاقة له بالمدح، ويفترض ان عشاق الخمر ينظمونه تعبيرا عما يشعرون به حين تدور الكؤوس. ويمكن تمييز الضروب التالية من هذه الخمریات :

أ- وصف جلسة شراب او ساعة لهو يشارك فيها عادة جماعة اعتادوا أن يشربوا معا، فلا يطيب الشرب ولا تحلو الجلسة اذا تخلف أحد منهم، ولذلك قال ابن التعاويذي لأحد اصحابه :

(١) انظر الفصل الثاني من هذه الرسالة.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٣، ٤١٣

أَبَا عَلِيٍّ عَدَاكَ الْ مَخُوفُ وَالْمَحْذُورُ
 وَلَا تَخْطِي مَرَامِي مَرَامُكَ الْمَقْدُورُ
 بَعُدْتَ عَنَّا فَطَرَفُ الْ لَذَاتِ خَاسٍ^(١) حَسِيرُ
 وَأَعَيْنُ الْلَهُو شَوْقاً إِلَى أَيْدِيكَ صُورُ^(٢)
 وَلِلْخَلَاعَةِ مَغْنَى مُعْطَلٌ مَهْجُورُ
 وَجَنَّةُ الْخُلْدِ بَغْدَا دُمُذُ نَأَيْتَ سَعِيرُ
 عَادَ النَّسِيمُ سَمُوماً وَالظَّلُّ وَهُوَ خَرُورُ^(٣)

... الخ^(٤).

ومن شعر الشعراء نعرف ان امثال هذه الجماعات يلتئم شملها في العادة ايام تلبد السماء بالغيوم، وكذلك في الايام الممطرة المكفهرة الجوحيث لا يجد الناس بدا من ملازمة البيوت^(٥)، ولا يخلو المجلس من ساق ذكر أو انثى - وهم يفضلون الذكور - ومن مغنية، لان الشراب والغناء متلازمان لا يطيب احدهما اذا فقد الآخر، حتى لقد نسبوا الى هارون الرشيد انه قال: «النَّكْسُ الَّذِي يَشْرَبُ عَلَى غَيْرِ سَمَاعٍ»^(٦).

وفي مجالس الشراب هذه، يحدث ان يعربد احد السكارى على زميله، وربما وقعت فيها جراحات، كذلك قد تسمع فيها الفاظ وعبارات تدل على فساد العقيدة واطراح القيود الاجتماعية، ولكن جماعة الشاربين - وخاصة الشعراء منهم - يتعمدون ابراز الجوانب الحسنة من مجالس الشراب، ويخفون الجوانب السيئة^(٧).

ويلاحظ ان الشعراء، وهم يصورون ويصفون مجالس الشراب الخاصة هذه يحلقون بعيدا على اجنحة الخيال، فيرسمون صورا للمجالس لم توجد على هذه الأرض منذ عرف الناس الخمر، انها او هام، واحلام لا يعرفها الا السكارى. تأمل - على سبيل المثال - قول ابن التعاويذي:

يَا عَلِيَّ يَوْمَنَا أَوْ وَلَّ يَوْمٍ مِنْ شُبَاطِ
 فَاَعْكِفِ الْيَوْمَ عَلَى الرَّاحِ تُعَاطَى وَتُعَاطِي

(٢) أعين صور: مطلعات، مائلات.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٨

(٦) محاضرات الادباء ٢/١٩١

(١) طرف خاس: كليل، عمي.

(٣) الحرور: نقيض الظل.

(٥) نفسه ص ٢٣٠ - ٢٣١

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٨، الخريدة ٤/٣٣٥

لَا تَرُغْنَا بِتَوَانٍ فِيهِ عَنَا وَتَبَاطٍ
 أَنَا فِي مَجْلَسٍ لَهَوٍ وَسُرُورٍ وَأَنْبَسَاطٍ
 نَازِلٌ مِنْ نَهْرٍ عَيْسَى بَيْنَ دُولَابٍ وَرَاطٍ^(١)
 قُبَّتِي الْغَيْمُ وَأَزْهَا رُ الرِّيَاحِينَ بِسَاطِي
 حَلَيْتُ أَوْرَاقُهَا بِيَدِ مَن جِعَادٍ^(٢) وَسِبَاطٍ^(٣)
 بِشُنُوفٍ^(٤) نَظَمَ الطَّاءُ لُ عَلَيْهَا وَقِرَاطٍ
 وَقُدُودِ السَّرُورِ فِي خُضْدٍ^(٥) ر مُلَاءٍ^(٦) وَرِبَاطٍ^(٧)
 وَنَدِيمٍ مِنْ شُيُوخِ الدِّ كَرَّخٍ مَخْلُولٍ^(٨) الرِّبَاطِ
 حَنَكْتُهُ^(٩) أُمُّهُ بَالِدٍ خَمِرٍ طِفْلًا فِي الْقِمَاطِ
 وَغُلَامٍ مِنْ بَنِي الْأَصْدِ غَرَّ كَالثُّوبِ الْقُبَاطِي^(١٠)
 رَذْفُهُ عَالٍ، وَلَكِنْ خَضْرُهُ النَّاحِلُ لِاطِي^(١١)
 وَضَجِيجٍ كَهَدِيرِ الدِّ طَيْرٍ حَوْلِي وَاخْتِلَاطِ
 وَرَذَاذٍ نَحْنُ مِنْهُ فِي نِثَارٍ وَلِقَاطِ
 ... الخ^(١٢)

وليس من شك ان الشاعر نجح نجاحا باهرا في تصوير مجلس الشراب تصويرا
 اسطوريا عن طريق مجموعة من الاستعارات والمجازات التي احسن الشاعر بثها في انحاء
 القصيدة، ف لعبت دورا كبيرا في اصفاء صبغة سحرية على كل ركن من اركان القصيدة
 والصورة معا، حتى يخيل للمرء ان المكان الذي يتحدث عنه الشاعر لن يتكرر وجوده على

(١) الرَاط: لم أقف على معناها.

(٢) جعاد: واحدها جعد وهو من الشعر خلاف المسترسل.

(٣) سباط: واحد سباط وهو ضد الجعد.

(٤) الشنوف: واحدها شُنْف: ما علق في الاذن أو علاها من الخلي.

(٥) خضر: بالاصل بالصاد: خضر.

(٦) ملأ: الواحدة مُلَاءة وهي ثوب يلبس على الفخذين.

(٧) الرباط: الواحدة رِبْطَة وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ونسجا واحدا.

(٨) محلول الرباط: أي غير مبال بشيء كالحيوان. (٩) حنكته: هذبه.

(١٠) القُبَاطِي: ثياب من كتان منسوبة للقبط. (١١) لاطي: لاصق.

(١٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٨ - ٥٩، وانظر: قصيدة أخرى للشاعر مثل هذه ص ٢٣٠

هذه الأرض ، بسبب استحالة اجتماع هذه العناصر - بالشكل الذي صوره الشاعر - مرة ثانية . فابتداء من البيت الاول : يا علي يومنا . . . اوحى الشاعر للقارئ عن طريق ايصال الضمير «نا» بكلمة يوم ، بأن لهذا اليوم فضلاً وميزة على سواه من الايام ولذلك لا بد من الاحتفال به احتفالاً يليق بمقامه ، ثم اندفع الشاعر يصف لصديقه المكان الذي وقع عليه الاختيار لقضاء ذلك اليوم الكبير ، فاذا هو قرب نهر عيسى ، ويبدو ان هذا مكان مشهور في القرن السادس بالنسبة لاهل بغداد ، اذ سبق ان مر بنا قول الابله :

يا طيبَ يومٍ مرَّ لي بنهرِ عيسى لو يُردُّ

وبعد هذا التحديد للزمان والمكان ، جاء دور الاستعارات لتجسم وتشخص وتكبر عناصر الصورة وتظهرها بالشكل الذي تمناه الشاعر وحلم به ، لا بالشكل الموجود فعلاً ، ولذلك توهم ان السماء ليست غائمة ، وانما هي قبة ضربت ليشرب فيها الشاعر ، وان الأرض لم تكن مزدانة بالزهور ، وانما هو بساط من الرياحين خاص بالشاعر ، ولذلك قال : بساطي ، وتوالى الاستعارات التي تشهد للشاعر بالبراعة وخصوبة الخيال ، فاذا الاوراق فتيات قد لبست شنوفاً واقراطاً ، واشجار السرو قد ارتدت ملاءات ورياطا خضرا . . اما نديمه فهو شيخ «محلل الرباط» وكفى بذلك فخراً .

ب- والضرب الثاني من هذا الشعر الخمري يتكون من مقطوعات او نتف توصف فيها الخمر وحدها دون اشارة الى مجلس شراب او جماعة متنادمين وهكذا اخلت هذه المقطوعات - تبعاً لذلك - من وصف للطبيعة او مكان الشرب . ويمكن تشبيه هذه المقطوعات الخمرية بمقطوعات الغزل القصار التي اولى بها المغنون^(١) ، سوى ان المتغزل به هنا هو الخمر ، ومن هذا الغزل الخمري قول ابن التعاويذي :

أدر كاسَ المُدامِ عليَّ صِرْفاً ولا تُفسِدْ كُؤُوسَكَ بالمزاجِ
فقد حانَ الصُّبُوحُ وَحَنَ قلبي الى عَذراءَ تَرْقُصُ في الزُّجاجِ
ودونكَ فاقْتَبَسَ بالرُّطلِ^(٢) منها سَنِي يُغْنِيكَ عَنْ ضَوْءِ السَّراجِ
فهذا الدَّيْكَ من طَرَبٍ يُنادي وَيَخْطُرُ بَيْنَ إكْلِيلِ وتاجِ
وَدَعَنِي والصَّلَاةُ اذا تَدانَتْ فليسَ على خَرابٍ من خَراجِ^(٣)

(١) انظر دراسة الغزل في الفصل الثاني .

(٢) الرطل : أراد به الكاس .

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٧٦ - ٧٧

وقول ابن شُعَيْبَانَ^(١) البغدادي :

مَرْحَباً بِالتِّي بِهَا قُتِلَ الْهَدْ
وَهِيَ فِي رَقَّةِ الصَّبَابَةِ وَالشُّوْ
لَسْتُ أَذْرِي : أَمِنْ خُدُودِ الْعَوَانِي
مُ ، وَعَاشَتْ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ
ق ، وَفِي قَسْوَةِ النَّوَى وَالْفِرَاقِ
سَلَبُوهَا ، أَمْ أَدْمَعُ الْعُشَاقِ^(٢) ؟

ج - والضرب الثالث من شعر الخمر هذا قريب من الغلاميات ، ويمكن القول انه حائر بين وصف الغلمان ونعت الخمر ، ولا يخلو من شيء من المدح في بعض نماذجه ، كقول ابن الطوايقي^(٣) :

مُولاَيَ ، قَدْ زَارَنِي غُلامٌ
يَمِيسُ كَالْغُصْنِ جَاذِبْتُهُ
مَرْقُوقٌ بِالْهَجْرِ ثُوبٌ عُمْرِي
وَهُوَ جَلِيسِي فِي صَحْنِ دَارِ
وَقَدْ تَحَيَّلْتُ فِي طَعَامِ
وَالْغَيْرُ فِي دَارِهِ قُدُورُ
قَدْ أَحْكَمْتُ طَبْخَهَا طُهَاءُ
فَانْعَمَ بِهَا قَهْوَةٌ حَرَاماً
يَنْظُرُ مِنْ مُقْلَتِي غَزَالِ
فِي دَوْجِهِ نَسْمَةُ الشَّمَالِ
وَعَادَ يَرْفُوهُ بِالْوِصَالِ
مِنْ كُلِّ مَا يَشْتَهِيهِ خَالِ
يُغْنِي أَكِيلاً عَنِ الْخِلَالِ^(٤)
فَوْقَ الْأَثَافِي^(٥) بَيْنَ الْمَقَالِي
وَصُفَّقَ^(٦) الْخَمْرُ بِالزُّلَالِ
لِزَاهِدِ الدِّينِ فِي الْحَلَالِ^(٧)

وقول ابن التعاويذي :

يَا صَدِيقِي مَسْعُودُ حَقّاً وَمَا كُ
قَدْ أَحَاطَتْ بِي الْهُمُومُ ، وَمَا أَحَدُ
وَشِفَائِي فِي نَشْوَةٍ تَذْراً^(٨) الْأَحَدُ
لُ صَدِيقِي دَعْوَتُهُ بِصَدِيقِ
سَبُّ أَنِّي مِنْ دَائِهَا^(٩) بِمُفِيقِ
زَانَ عَنِّي مِنْ سَلْسِيلِ رَحِيقِ

(١) هو أبو طاهر محمد بن حيدر بن عبد الله بن شعيبان البغدادي ، قال العماد عنه : « كان شاعراً بليغاً مجيداً ، حسن الشعر ، رقيقه ، يسكن الثلاثاء ، اعوره . اختلف حول سنة وفاته ، والمراجع أنها سنة ٥١٧ هـ . الخريدة ٢/ ٢١٩ ، فوات الوفيات ٢/ ٣٩٨ »
(٢) الخريدة ٢/ ٢٢٦ ، ونص العماد على أنها تنسب له ، وفي وفيات الوفيات ٣٩٨/٢ نص أنها له ، وانظر هامش محقق الخريدة . وهناك أمثلة أخرى على هذا النوع من الخمريات في الخريدة ٢/ ٢٢٠ ، ٢/ ٣٧٥ ، ٢/ ١٨٠
(٣) هو القاسم بن الحسين أبو شجاع ، البغدادي ، الشاعر توفي سنة ٥٧٦ هـ . الخريدة ٢/ ٣١٨ ، وانظر فوات الوفيات ٢/ ٢٥٨
(٤) الخلال : الواحدة خَلَّةٌ وهي الحاجة والفقر .
(٥) الأثافي : واحدها أَثْفِيَّةٌ : حجارة يوضع عليها القدر .
(٦) صفق : مزج .
(٧) الخريدة ٢/ ٣١٩ - ٣٢٠
(٨) بالاصل دأها ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتته .
(٩) بالاصل تذر ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتته .

أَمْ لَهُوَ كَأَنْ يَأْقُوتَهُ فِي الدَّ
عَنَيْتُ مِنْ صَفَاءِ جَوْهَرِهَا الذَّا
مِنْ عَتَادِ الرُّهْبَانِ لَمْ يَخُلْ عُمَدُ
مَذْهَبِ الْقَسِّ مَذْهَبِي فِي صَبَوحِ
فَارِخِنِي مِنْ شَاغِلِ الْهَمِّ وَاعْتَقِ
لَا أَلَمْتُ بِكَ الْهُمُومُ وَلَا زِلْ
كَاسٍ مِنْهَا عَلَتْ^(١) بِمِسْكِ فَتَيْقِ^(٢)
تَيِّ عَنْ أَنْ تُرَاقَ فِي رَاوُوقِ^(٣)
رَ الدَّهْرِ مِنْهَا قِلَائِيَّةُ^(٤) الْجَانَلِيْقِ
أَنَا فِيهَا مُغْرَى بِهِ وَغَبُوقِ
مِنْهُ رَقِي بِدَنْ خَمْرِ عَتَيْقِ
تَ سَمِيرًا لِلْكَاسِ وَالْإِبْرَيْقِ^(٥)

وابيات ابن التعاويذي هذه من الاخوانيات، وكذلك النماذج الاخرى الموجودة في ديوانه، والتي اشرت اليها في الهامش. وبذلك تجمع هذه الخمريات بين الغزل بالمذكر ونعت الخمر والاخوانيات.

٢ - الغزل بالمذكر :

عرف هذا الغزل في الشعر العربي لأول مرة عند شعراء بني العباس، وقد كان من اسباب ظهوره الاتصال بالفرس وتأثر المجتمع العربي العباسي بعاداتهم وافكارهم ومنها هذا الغزل الشاذ، حتى روي ان ابامسلم الخراساني - حين سئل عن الذ العيش - قال : «طعام احبر ومدام اصفر و غلام احور»، ولما سئل عن تقديم الغلام على الجارية قال : «لانه في الطريق رفيق، وفي الاخوان نديم، وفي الخلوة اهل»^(٦).

وكان الى جانب السبب الرئيسي المتقدم، اسباب ثانوية ساعدت على تفشي هذه الافة الاجتماعية، ومن تلك الاسباب : هو ان مركز المرأة بسبب كثرة الجواري، وايغال الطبقة العليا العباسية في الحضارة والترف مما دفعهم الى البحث عن متع جديدة مبتكرة^(٧).

ولست ادري لم يتجاهل الباحثون في هذا الموضوع عاملين كبيرين لعبادورا كبيرا في شيوع الشذوذ الجنسي وهما بعد الطبقة المترفة العباسية عن الخلق العربي الاصيل، وضعف الوازع الديني الذي يحول بينهم وبين الانحراف. فلم يعرف العرب اللواط الا بعد ان تخلوا عن اخلاقهم وقلدوا الاجانب، كذلك يستحيل على المسلم ان ينحرف في سلوكه وهو يعلم ان القرآن الكريم نص على أن هذا الشذوذ فاحشة من الفواحش^(٨).

(١) علت: من الغلل وهو الشرب الثاني.

(٢) فتَيْقِ : شديد الرائحة.

(٣) الراووق: مصفاة الخمر.

(٤) القلاية: مسكن الاسقف (يونانية)

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٠٨، وانظر نماذج أخرى فيه ص ٣٩٩ - ٢٥٨، ق ٢٥٩

(٦) اتجاهات الغزل ص ١٩٧، الادب في ظل بني بويه ص ٢٦٦ وما بعدها.

(٧) اتجاهات الشعر ص ٥١٧ - ٥٢٠، اتجاهات الغزل ص ٢٠٩ - ٢١٣

(٨) سورة العنكبوت، الآية ٢٨ - ٢٩. سورة الاعراف، الآية ٨٠ - ٨١

ومن اشهر شعراء بني العباس لجاجة في الغزل بالمذكر ابو نواس الحسن بن هاني والحسين بن الضحّاك المشهور بالخليع، ووالبة بن الحُباب الكوفي، استاذ ابي نواس، وفيه يقول الدكتور شوقي ضيف: «انه هو الذي يتحمل وزر افساد ابي نواس، بل هو في رأينا الذي يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخنق كرامة الشباب والرجال خنقا»^(١).

وفي القرن الرابع، ايام بني بُوءه، شاعت عادة اللواط بحيث اصبح حب الغلمان والتولع بهم شأن العامة والخاصة فكانا سببا في حدوث قصص غرامية شائقة. . واكثر الادباء من القول في هذا الباب حتى ليندران نجد بينهم من لم يقل شعرا في غلام بل لقد ذهب بعضهم الى ابعد من ذلك فقصر تشبيهه على الغلمان دون النساء كأبي الحسن السّلامي^(٢) ونَصْر^(٣) بن أحمد الخُزّارزي^(٤).

أما في الفترة السابقة للفترة التي ادرسها، فقد اشار الدكتور علي جواد الطاهر الى كثرة التغزل بالغلمان فيها، ثم قال: «ولا شك في ان بين هذه الاشعار ما قيل نظرفا. . ولكن هذا يعني ان المجتمع، وحتى مجتمع المتزمتين والمؤدبين والفقهاء، يقبل هذا النوع من التطرف ويستسيغه ويستحسنه، وربما يتطلبه، حتى ليشك المرء في مدلول التطرف هذا. . وقد يخرج العصر عن قواعد الذوق في استساغة هذا اللون من الشعر»^(٥).

وحكاية التطرف هذه، والتي شك فيها الدكتور الطاهر، وهو منصف في شكه ذاك، استمرت في الفترة التي ادرسها واتسعت، جريا على عادة الشعراء في تقليد اسلافهم وتلقف ما عرف عند هؤلاء الاسلاف من فنون شعرية، وهكذا يمكن ان يكون من هذا الغزل قول الحيص بيص في العذار:

شَكُّوا أَشْمَسُ أَنْتَ أَمْ قَمَرٌ؟ وَلَفَرَطٍ حُسْنِكَ أَشْكَلَ الْأَمْرُ
فَانْجَابَ لَيْلُ الشَّكِّ حِينَ قَضَى لَيْلُ الْعِذَارِ بِأَنْتِكَ الْبَدْرُ^(٦)

(١) العصر العباسي الاول ص ٧٣، وانظر ايضا حياة الشعر في الكوفة ص ٦١٥

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد. . المخزومي، السّلامي، الشاعر المشهور، نشأ ببغداد ونسب إليها وكانت ولادته بالكرخ، وتوفي سنة ٣٩٩ هـ. قال الثعالبي: «هو من أشعر أهل العراق قولاً بالاطلاق». بئمة الدهر ١٥٧/٢-١٨٨، (مط. الصاوي). وفيات الاعيان ٣٥/٤

(٣) أبو القاسم نصر بن أحمد، البصري، الشاعر المشهور. كان أمياً، وكان ينشد أشعاره المفصورة على الغزل بعربد البصرة. توفي سنة ٣١٧ (على قول). بئمة الدهر ٣٣٧/٢ (المط. الحفنية). وفيات الاعيان ١٢/٥

(٤) الادب في ظل بني بويه ص ٢٦٧ - ٢٦٨ (٥) الشعر العربي ١٣١/٢ (٦) الخريدة ٢٥٩/١

وقول علاء الدين أبي الفتوح نصرين منصور التيمي المؤدب ويعرف بالحكم المتوفى

سنة ٥٨٨ هـ:

وَلَمَّا رَأَى وَرَدًا بِخَذْيِهِ يُجْتَنَى وَيُقَطَّفُ أَحْيَانًا بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ
أَقَامَ عَلَيْهِ حَارِسًا مِنْ جُفُونِهِ وَسَلَّ عَلَيْهِ مُرْهَفًا مِنْ عِذَارِهِ^(١)

وقول محمد بن احمد بن فتح الدين البغدادي الحنفي المتوفى سنة ٥٨١ هـ، في مליح عليه قباء، كمه مطرز:

ضَمَمْتُ مُعَذِّبِي لَمَّا أَتَانِي وَرَقُمَ طِرَازِهِ قَدْ رَاقَ عَيْنِي
فِيَا طَرْزِيهِ هَلْ يُدْنِي زَمَانِي لِيَالِي وَضَلِينَا بِالرَّقَمَتَيْنِ^(٢)

ولعل من الصواب ان يلاحظ بان صفة التغزل بالمذكر تظرفا، تكون الصق بالنصوص الشعرية كلما قل عدد أبياتها، فلم تتجاوز البيتين او الثلاثة، وكذلك لا بد ان تكون خالية من عاطفة طاغية تدل على ميل فطري الى الغلمان، وبذلك تكون غزلا تقليديا نظم للتسلية او قضاء الوقت ومجاملة الاخوان في جلساتهم ومسامراتهم، اما اذا طال هذا الغزل، كما في قول ابن الاديب^(٣):

قَامَ بِالْعَذْرِ فِي هَوَاكَ الْعِذَارُ فَسُلُوِيْ عَنْ حُسْنِ وَجْهِكَ عَارُ
أَدْلَالُ هَذَا التَّعَبُ أَمْ أَنْ لَمْ يُغَيِّرْ تِلْكَ النَّمُوْدَةَ بُعْدُ
وَمُعِينِي عَلَى فِرَاقِكَ عَيْنُ أَفْنَتِ الدَّمْعِ وَاضْطِبَارُ مُعَارُ
كُلِّ يَوْمٍ لَنَا عِتَابٌ جَدِيدُ فِي نَوَاحِيهِ يَخْلُقُ^(٤) الْإِعْتِذَارُ
وَانْتِظَارُ لِلْيَوْمِ وَالْغَدِ يَأْتِي أَوْ كُلُّ الزَّمَانِ فِيكَ انْتِظَارُ؟
إِنْ أَبَتْ سَاهِرَ الْجَفَوْنَ وَدَمْعُ الْهَمِّ عَيْنٍ فِي الْخَدِّ وَكَفَّ^(٥) مِذْرَارُ
فَبِمَا بَتُّ رَاقِدًا وَعَلَى جِسْمِ^(٦) مِي يَمِينُ مَعْطُوفَةٌ وَبَسَارُ
تَسَاقَى كَأْسًا مِنَ الْعَتَبِ صَرْفًا وَلِخَمْرِ الْعِتَابِ أَيْضًا خُمَارُ^(٧)

(١) تلخيص معجم الالفاظ ق ٤ ج ٢ ص ١١٠٨

(٢) النجوم الزاهرة ١٠٠٨، وانظر نماذج أخرى في الخريدة/نسخة ايران ٢٠١١، عيون الأنباء ٢٦٤/٢، وفيات الأعيان ١٧٦/٥

(٣) انظر: الفصل الرابع ص ٢٩١ هامش ٥

(٤) يَخْلُقُ بيل.

(٥) وَكَفَّ: سائل قليلا قليلا.

(٦) جَسْمِي: بالأصل جسدي، ولا يستقيم بها الوزن.

(٧) الخمار: صداع الخمر.

فلست ادري هل هذا من التظرف؟ وكيف يكون الهيام والغرام اذن؟

كذلك ليس تظرفا شعر كبار رجال الدولة الذي تفوح منه رائحة الشهوة مثل قول الحسين ابن شبيب الطَّيِّبِ، نديم الخليفة المستنجد المتوفى سنة ٥٨٠ هـ:

وأغيدُ لم تَسْمَحْ لنا بِوَصَالِهِ يدُ الدَّهرِ حتَّى دَبَّ في عَاجِهِ النَّمْلُ
تَمَنَيْتُ - لَمَّا اخْتُطُّ - فُقْدَانُ نَاطِرِي ولم أَرْ إِنْسَانَا تَمْنَى العَمَى قَبْلُ
لِيَبْقَى عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ خَيَالُهُ حَيَالِي، وَفِي عَيْنِي لِمَنْظَرِهِ شَكْلُ^(٢)

وكذلك قول ابي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب السَّيِّبِ^(٣) ناظر قُوسان^(٤)

المتوفى سنة ٥٦٥ هـ:

يَا نَاجِيَا مِنْ عَذَابِ قَلْبِي وسالما من رَسِيسِ^(٥) وَجْدِي
لَا تَتَقَرَّبْ إِلَى ثِيَابِي فَإِنَّ دَاءَ الْغَرَامِ يُعْدِي
تَزْعُمُ أَنَّ الْفُؤَادَ عِنْدِي لَوْ كُنْتُ عِنْدِي لَكَانَ عِنْدِي
قَدْ غَيَّرَ الدَّهْرُ كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَ جَفَاكُمُ وَحُسْنَ عَهْدِي^(٦)

وهي ابيات برغم ان الخطاب فيها للمذكر، يا ناجيا ولا تتقرب . . فقد يقال انها في مؤنث. ولكن الطبقة العليا العباسية - ومنها صاحب الأبيات - كانت هي الرائدة في الغزل بالمذكر - كما تقدم - ولذلك لا يستبعد ان يبدو بعض غزلها في المذكر وكأنه قيل في مؤنث.

ان شعراء القرن السادس، وخاصة ابن التعاويذي والابله البغدادي، يميلون ميلا شديدا الى التذكير من ناحيتي الخطاب واستعمال الضمائر في مقدمات المدائح على وجه التخصيص، على الرغم من احتمال دلالة المعنى على انثى.

ان الحديث - في امثال هذه القصائد - يدور بخطاب المذكر، وكذلك الضمائر كلها للمذكر، ومع ذلك يترك الشاعر القارىء في حيرة لا يدري هل المتغزل به انثى أم ذكر، لان

(١) الخريدة/ نسخة ابران ١٤٣

(٢) المختصر المحتاج إليه ٧/٢، فوات الوفيات ٢٧٦/١

(٣) السبي: نسبة إلى السَّيِّب، وهي اسم لاكثر من موضع - كما في معجم البلدان ١٩٠/٥ - فالسَّيِّب كورة من سواد الكوفة، وهما سيان الاعلى والاسفل . . والسَّيِّب نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة. والسَّيِّب ايضا بخوارزم. ولست ادري إلى أيها نسب صاحب الأبيات.

(٤) قُوسان: كورة كبيرة ونهر عليه مدن وقرى بين النعمانية وواسط (معجم البلدان ١٨٢/٧).

(٥) الرسيس: الثابت.

(٦) تلخيص معجم الالفاظ في ٤ ج ١ ص ١٣٧

الشاعر يتعمد عدم الإشارة الى الجنس فلا يذكر مثلاً الشارب أو العذار، كما يفعل في قصائد أخرى تغزل فيها بالمذكر صراحة، ومن الأمثلة على ما أقول، أبيات الابله:

وَرُبُّ مُرِّ الْهَجْرِ حُلُو الْعِتَابِ مُعْتَدِلٌ يَثْنِيهِ سَكْرُ الشَّبَابِ
عَاطِيَتُهُ صَهْبَاءٌ مَمْرُوجَةٌ بَدْمَعَةُ الصَّبِّ وَدَمْعُ السَّحَابِ
فَانْتَقَبَتْ وَجَنَّتُهُ حُمْرَةٌ يَا حُسْنَهَا مِنْ وَرْدَةٍ فِي نِقَابِ
وَسُمَّتُهُ فِي سُكْرِهِ قُبْلَةٌ وَدُونَهَا فِي الصُّحُورِ شَيْبٌ^(١) الْغُرَابِ
... الخ^(٢).

وتستمر المقدمة على هذا المنوال حتى نهايتها، دون اية إشارة الى جنس المتغزل به، اللهم الا هذه الضمائر المذكورة: عاطيته، وجنته، وسمته... وتأمل قول ابن التعاويذي:

بَاتَ يَجْلُوهَا عَلَى نَدٍّ مَانِهَا وَاللَّيْلُ دَاجِي
رَشَاءً^(٣) حَرَكَ أَشْجَا نِي بِطَرْفٍ مِنْهُ سَاجِي^(٤)
وَبَثْغَرٍ طَيِّبِ النَّفِّ حَةٍ^(٥)، مَغْسُولِ الْمُجَاجِ^(٦)
قَامَ مَعْصُوبًا بِأَكْلِي لِي مِنَ الْوَرْدِ وَتَاجِ
بَيْنَ عُصْنِي ذِي اهْتِزَازٍ وَقُضِيبِ ذِي اُرْتِجَاجِ
قَبْلَ أَصْوَاتِ النُّوَاقِي سِ وَتَغْرِيدِ الدُّجَاجِ
... الخ^(٧).

وهي لا تختلف عن مقدمة الابله السابقة، فالضمائر للمذكر ولكن الشاعر لم يشر صراحة الى ان المتغزل به ذكر.

وكما حدث في الغزل بالمذكر نظرفا، حدث ايضا في هذه الظاهرة التي اشرت اليها، فقد اكثر شعراء القرن السادس - قياسا الى سابقيهم - من اللجوء الى ضمير المذكر في غزلهم، فطالت المقدمات التي فيها هذا الغزل^(٨)، بعد ان كانت قصيرة، قليلة الابيات وربما لم تزد على ستة^(٩).

(١) شيب الغراب: مثل يضرب للامر الذي لن يحدث أبدا.

(٢) ديوان الابله و ٣٣، وانظر أيضا و ٧٨، ٩٨، ١٧٩، ١٦٧، ١٦٤.

(٣) الرشأ: ولد الطيبة.

(٤) الطرفة الساجي: الساكن الفاتر.

(٥) طيب النفضة: عذب الرائحة زكيا.

(٦) المجاج: الرقيق ترمي به من فمك.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٧١ وانظر أيضا ص ٣٦٢، ٣٦٣، ٢٥٤.

(٨) نفسه.

(٩) الخريدة ١/ ١٢٥.

ولعل مما يدل على قلة هذا اللون من الغزل في الفترة المتقدمة على الفترة التي ادرسها، ان نجد الدكتور الطاهر - وهو يدرس تلك المرحلة - يعجب من مدح الخليفة المستظهر بالله بأبيات كان فيها الضمير للمذكر، وقد عد الباحث الفاضل هذا الغزل من خروج العصر على قواعد الذوق^(١)، فليت الاستاذ الكريم قرأ قول الابله في مدح اقضى القضاة^(٢):

أوجوه غيد أم رياض ربيع وكؤوس خمير أم نجوم هزيع^(٣)؟
والماء قد صقل النسيم متونه أم في جداوله متون دروع؟
والطلّ يجلوه الشقيق كلؤلؤ أم وجنة مظلولة^(٤) بدموع؟
أو ما ترى برّد النسيم وقد ونى^(٥) سحراً وبرّد الليل في توشيع^(٦)
فاربغ أشاطرك السُرور، وخلني من ذكر أطلال عفت^(٧) وربوع
واقطع أقاويل الوشاة، فإنها سبب لوصلة جيلنا المقطوع
واشرب بكف أغن، مقتبل الصبا خنت الشمال والدلال بديع
ساجي اللحظ تريك صنعة عينه فتكات مسنون الغرار^(٨) خليع
ما تم مسك عذاره في خده إلا ليظهر عذر كل خليع
... الخ^(٩).

ان الابيات التي اغضبت الدكتور الطاهر، يحتمل ان تكون في مؤنث، وغزلها خفيف لا يكاد يحس. اما مقدمة الابله هذه فان المتغزل به مذكرون شك، وحديث الشاعر اوصفه لهذا الذكر، فيه وقاحة وجراة على الاخلاق الكريمة لا سيما وهو يفتتح قصيدته في مدح «اقضى القضاة». ولعل من حسن حظ الابله ان غزله في غير مقدمات المدح لم يصل الينا. ضربان من الغزل بالمذكر:

- ١) معظم الغزل بالمذكر في الفترة التي ادرسها، يمكن أن يحصر في لونين من الشعر:
- (١) مقدمات قصائد المدح.
- (٢) الغزل المستقل عن المدح.

(١) الشعر العربي ١٣٧٢

(٢) اقضى القضاة: هي رتبة دون رتبة قاضي القضاة. تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ١٩٢

(٣) هزيع: بالاصل بالراء هربع. والهزيع: الطائفة من الليل أو نحو ثلثه أو ربعه.

(٤) مظلولة: من الطل وهو المطر الخفيف.

(٥) ونى: فتر وضعف.

(٦) التوشيع: التفرق والانقسام.

(٧) عفت: درست.

(٨) الغرار: حد السيف.

(٩) ديوان الابله و ٢٢

هذا اذا اغفلنا ضرباً ثالثاً سبقت الإشارة اليه وهو الذي اسميته «الغزل الغامض» وهو الذي تعتمد الشعراء فيه عدم الابانة عن جنس المتغزل به . ويدولي ان وجود هذا الضرب في مدائح ابن التعاويذي للخلفاء العباسيين^(١)، يدل على ان نظرة القوم الى هذا اللون من الغزل، تختلف عن نظرهم الى الغزل الصريح بالمذكر، لان هذا الاخير لم اجده في مدائح الخلفاء . وعلى ضوء هاتين الحقيقتين يمكن أن يكون الغزل الغامض قد اوجد دفعا لآراء وانتقادات رجال الدين والمحافظين عامة، الذين وقفوا في وجه تيار الغزل بالمذكر، وفي الوقت نفسه كان هذا الغزل الغامض، يرضي بعض الاذواق التي ملت الغزل بالمؤنث، وبدأت تضيق به .

مقدمات المدائح:

ان التقديم لقصائد المديح بالغزل بالمذكر، من الظواهر التي تلفت النظر وتستوقف الباحث، بسبب شيوعها وانتشارها من ناحية، وبسبب دلالة هذا النوع من المقدمات على اخلاق الناس، وخاصة الطبقة العليا، من ناحية اخرى .

وعلى الرغم من وجود هذا اللون من المقدمات في الفترات السابقة للفترة التي ادرسها^(٢)، فان احدا لم يشر الى وجود «ظاهرة» تستوقف الباحث، وهو مما يوحى بان النماذج قليلة جداً، لا توجب القلق ولا تثير الذعر، على عكس الحال في الفترة التي ادرسها . لقد احصيت في ديواني ابن التعاويذي والابله وحدهما تسع عشرة قصيدة مصدرة بهذا الغزل الشاذ، وكان من بين الممدوحين في هذه القصائد ابن هُبَيْرَة الوزير الحنبلي الكبير^(٣)، ونائب الوزير ابن البخاري^(٤)، واقضى القضاة^(٥)، وبعض امراء الاشراف^(٦)، والفاضل^(٧).

ان الشاعر في امثال هذه المقدمات، يصف الذكر ويتغزل به وكأنه انثى لا فرق بين الاثنين سوى ان الشاعر هنا يشير صراحة الى ان المتغزل به ذكر بذكره العذار^(٨)، او الشارب^(٩)، او العارض^(١٠)، او الكفل^(١١)، وكأنه يخشى ان يجهل محبوبه المقصود، فيظن انه انثى، ولذلك يقطع الشك باليقين .

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٦ ، ٢٨١

(٢) اتجاهات الغزل ص ٩٤ ، الشعر العربي ١٣١/٢

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧٩

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٢

(٨) ديوان الابله و ١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٦٠

(١٠) العارض: صفحة الحمد . ديوان ابن التعاويذي ص ١٢٤ ، ١٥١

(١١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٤

(٣) ديوان الابله و ٦٢

(٥) ديوان الابله و ٢٢ ، ٢٣

(٧) نفسه ص ٣٣٣

(٩) نفسه و ٦٢

وفي بعض هذه المقدمات عند ابن التعاويذي، يأبى هذا الشاعر الا أن يضيف الى صفات محبوبة صفة اخرى، فيها دلالة اكبر من الصفات السابقة على الرجولة والقوة، التي لم تدر ابدا ببال النساء، كقوله في قصيدة مطلعها:

جَدُّ بِقَلْبِي وَمَرْخٌ ظَبْيٌ مِنَ التُّرْكِ سَنَحْ
قال فيها عن حبيبه:

فَزَارَنِي، وَالسُّكْرُ^(١) قَدْ جَارَ عَلَيْهِ وَطَفَحَ^(٢)
يَهْزُ عِطْفِيهِ الشُّبَا بٌ بِالذَّلَالِ وَالْمَرْخُ
جَاءَ، وَفِي يُسْرَاهُ قَوْ سٌ، وَبِئْمَنَاهُ قَدْخُ
كَأَنَّهُ الشَّمْسُ بَدَا مِنْ حَوْلِهَا قَوْسُ قَرْخُ
يَا لَائِمِي فِي حُبِّهِ مَا كُلُّ مَنْ لَامَ نَصَحْ
.. الخ^(٣).

ان ذكر القوس ها هنا قد يشير الى معنى خاص اراده الشاعر، وفيه دليل على ان هذا الغلام فارس من الفرسان.

ان وقوف شاعر ما في محفل حاشد يضم وجوه المجتمع واعيان الناس ليبدأ قصيدة مدح، واصفا محاسن غلام او شاكيا من صده ودله، وما يعانیه في حبه من ويلات.. اقول ان ظاهرة كهذه لا بد ان تثير فينا الاشتمزاز وتدلنا على الهاوية التي انحدر اليها اولئك القوم، حتى صارت الفواحش والرذائل تتلى على رؤوس الناس فيهتزون لها، وربما طلبوا الاعادة والمزيد.

لقد كانت المقدمات الغزلية وسيلة يلجأ اليها الشاعر من اجل لفت الانظار وشد الاسماع. ولذلك اعتاد الشعراء ان يختاروا المقدمات شعرهم ارق الالفاظ واجمل الاخيلة والمعاني واعف الصور الدالة على الهيام والوجد والم الفراق والبعاد.. مما يناسب مقام الممدوح ويحرك كرمه وأريحيته.. ولكن الدنيا في آخر العصر العباسي تبدلت، وأذنت شمس الحضارة العربية بالأفول، فصارت العادات الغربية الشاذة يفتن في عرضها وتتصدر مدائح الكبار ويبتغى من ورائها الجوائز والصلوات. وقد صدق من قال: «ان هذا النوع من الشذوذ ينشأ في العصور التي تبلغ فيها الحضارة ذروتها، ولكنه لا يمثل قمة التحضر، وانما يمثل قمة الفساد المادي في هذه الحضارة وبداية السقوط والانحدار»^(٤).

(٢) طغى السكران: ملاء للشراب.

(٤) انجماوات الشعر ص ١٩٩

(١) والسكر: بالاصل بالشين: والشكر، تصحيف.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٩ - ١٠٠

ومهما يكن فقد تبارى الشاعران ابن التعاويذي والابله البغدادي في هذا النوع من المقدمات لقصائد المديح، وكان لكل منهما أسلوبه الخاص وطريقته المتميزة في كيفية تناول الموضوع والتدرج فيه ثم التخلص منه الى غرض القصيدة الاصيلي.

ويلاحظ ان الشاعرين أدركا العلاقة الوثيقة بين الخمر والغزل بالمذكر، ولذلك اتفقا على ان هذه المقدمات لا يصح ان تخلو من افتنان في وصف الخمر واشادة بدورها في تضيق شقة الخلاف بين الشاعر ومن يحب، وكذلك اتفقا على ان وصف المساقى او التغزل به والاعجاب بشمائله من لوازم تلکم المقدمات.

اما في الجوانب الاخرى من مقدمات هذين الشاعرين، فكان الابله البغدادي اكثر ولعا وتعلقا بهذه المقدمات من زميله لانها بلغت في ديوانه ثلاث عشرة مقدمة، وقد يكون سبب هذا الولوج ما عرف عن الشاعر من ميل للغلمان وتعلق بهم^(١). ولا يستبعد ان يكون ابن التعاويذي - وقد اشرف على جمع ديوانه ورتبه بنفسه^(٢) - قد تناول هذا الديوان بالتهذيب، فاسقط بعض الابيات او غير في طائفة من القصائد. ولم يشر احد - بحسب علمي - الى ان الابله قد اشرف على جمع شعره.

وتتميز مقدمات ابن التعاويذي بصورة عامة بالطول، والغالب على الشاعر فيها حديثه عن حبيبه، والمبالغة في ذكر محاسنه، والشكوى مما يعاني ويقاسي من دلاله وصده. اما مقدمات الابله فاقل طولاً من ناحية، ويغلب عليها وصف الطبيعة والهيام بها اكثر من الغزل وذكر صفات وشمائل من يحب، وهي صفة سبق ان اشترت اليها عند دراسة خمريات هذا الشاعر.

ومن امثلة مقدمات ابن التعاويذي، هذه المقدمة:

نَارُ جَوَى فِي الضُّلُوعِ تَتَّقِدُ	وَمُهْجَةٌ قَدْ أَذَابَهَا الْكَمَدُ
فِي حُبِّ لَذَنِ الْقَوَامِ تَمْلِكُهُ	يَدِي، وَمَالِي بِالْهَجْرِ مِنْهُ يَدُ
مُنْفَرَّدٌ بِالْجَمَالِ عَاشِقُهُ	فِي حُبِّهِ بِالْغَرَامِ مُنْفَرَّدُ
عَرَضَنِي لِلْسَّقَامِ عَارِضُهُ ^(٣)	وَمُذْ وَهَى خَضْرُهُ وَهَى الْجَلْدُ
كَيْفَ اضْطَبَّارِي عَنْهُ وَقَدْ فَنَيْتُ	دَخَائِرُ الصَّبْرِ فِيهِ وَالْعُدْدُ؟
أَمْ كَيْفَ يَخْبُو لِلشُّوقِ فِي كَيْدِي	نَارُ لَهَا نَارُ خَدِّهِ مَدْدُ؟

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦

(٢) انظر مقدمة الديوان المطبوع.

(٣) العارض: صفحة الخد.

وهل على مثل ما أكابدهُ في الحبِّ يَتَّقِي لعاشقٍ كَبِدُ؟
 أنجزَ وَعْدِي بِزُورَةٍ طالَمَا كَانَ غَرِيمُ الهَوَى بها يَعِدُ
 فباتَ يَجْلُو حَمراءَ تحسبُها . مِنْ وجنتيه في الكأسِ تَتَقَدُّ
 وَسَدَّتْهُ سَاعِدِي ووسَدَنِي خَدًّا لَهُ سَيْفٌ لَحْظِهِ رَصَدُ
 ... الخ (١).

وهي مقدمة تعكس الصفات الغالبة على هذا النوع من مقدمات الشاعر وتدور غالبيتها على وصف ما يعانيه الشاعر ويقاسيه من حب هذا الغلام: ففي البيت الاول «نار في الضلوع» . ومهجة ذابت»، وفي البيت الثاني يتحدث الشاعر عن «هجر هذا الغلام، وفي الرابع يوازن الشاعر بين «جلده الواهي» وخصر الغلام الواهي ايضا، وفي الخامس حديث عن نفاذ صبر الشاعر، وفي السادس يحدثنا عن «نار الشوق» التي يزيد بها اشتعالا خد الغلام الذي يحاكي النار في الحمرة والانتقاد .

اما مقدمات الابله فمنها قوله:

نَبَّهْنِي، والنَّجْمُ قد غارا (٢)
 مُهَفِّفٌ (٤) شَعَّعَ مِنْ خَدِّهِ
 قد حَلَّ زَرُّ النَّوْمِ عن جَفْنِهِ
 وقَامَ مِنْ رَقَدَتِهِ سُحْرَةٌ (٥)
 يُبْدِي على غُصْنٍ لُجَيْنٍ نَدٍ
 له عِذارٌ مَذْبُودَةٌ نُبْتُه
 يُصْبِحُنِي (٦) عَائِيَّةٌ (٧) أَنْفَدَتْ
 في رَوْضَةٍ أَضْحَكَ مِنْهَا الْحَيَا
 قد عَاتَقَ الْمُخَضَّرُ مِنْ نَبْتِهَا
 وانحَلَّ خَيْطُ الطَّلِّ (٩) فيها ضَحَى
 ... الخ (١٠).

- (١) ديوان التعاويذي ص ١٥١ - ١٥٢
 (٢) غار النجم: غاب .
 (٣) سفر الصبح: أضواء وأشرق .
 (٤) مهفف: ضامر البطن، دقيق الخصر .
 (٥) السحرة: السحر الأعلى، وهو ما قبل انصداع الفجر .
 (٦) يصبحني: يسقيني الصبح، وهو شرب الصباح .
 (٧) عائية: بالأصل غائية (بالغين)، وعائية منسوبة إلى مدينة عانة العراقية وقد يقال عانات أيضا .
 (٨) العُمَر: البيعة والكنيسة . (٩) الطل: المطر الخفيف . (١٠) ديوان الابله و ١٥٤

في كل عصر لابد ان يوجد منحرفون ، خارجون على قيم المجتمع وتقاليده ، وهؤلاء لا يكونون الا اقلية ضئيلة نبذها الناس وخافوا من شرها ، ولذلك اختار لهم المؤرخون نعوتاً تدل عليهم وتشير الى شذوذهم ، فقالوا انهم خلعاء حيناً ، أو أنهم ماجنون حيناً آخر .

ولكن لابد من الاحتياط والاحتراز في هذا المجال ، فليس كل من وصف بالخلاعة او المجنون ، عرف عنه الميل الى الغلمان ، اورويت له اشعار في هذا الموضوع . فمثلاً جاء في وصف ابن السَّوَادِي الواسطي انه كان : شاعراً فاضلاً ظريفاً خليعاً^(١) . ، ولكنني لم أقف لهذا الشاعر على غزل بالغلمان في اوسع ترجمة له وصلت اليها^(٢) .

ومن ناحية اخرى وصلت اليها اشعار في الغلمان لشعراء لم يقل احد انهم منحرفون السلوك ، ولا يمكن عد هذا الشعر من غزل الظرفاء ، الذي مردكره ، بسبب خلاعة معناه^(٣) .

ولعل الغريب حقاً أن تتباين الاحكام تبانياً كبيراً حول اشهر من تغزل بالغلمان في القرن السادس ، وهو ابو المعالي سعد بن علي . . الوارق الحَظِيرِي - المعروف بدلال الكتب المتوفى سنة ٥٦٨ هـ : ففي مرآة الزمان ، قال سبط ابن الجوزي ما معناه ان الاشعار التي اوردها العماد في خريدته ، تدل على انه كان خليعاً^(٤) . اما ابن الديبشي فقد قال عنه : « . . واشتهر بين الناس بالدين والثقة والعلم وكان دكانه مجمع العلماء^(٥) » .

ان نص الخريدة المطبوع^(٦) ، يؤيد ما ذهب اليه صاحب مرآة الزمان ، وفي الوقت نفسه لا يمكن الطعن في رواية مؤرخ ثقة كابن الديبشي .

ان اكثر الذين رويت لهم اشعار في التغزل بالغلمان هم من علماء الفترة التي ادرسها ، ومن هؤلاء سعد بن علي الحظيري ، السالف الذكر وهبة الله بن الحسين بن احمد البغدادي ، المعروف بالبديع الاصطرابي المتوفى سنة ٥٣٤ هـ^(٧) ، ومحمد بن سعد بن عبد الله . . ابو عبد الله البغدادي ، توفي بحلب سنة ٥٦٠ هـ^(٨) ، وهبة الله بن صاعد بن هبة الله . . موقف الملك امين الدولة المعروف بابن التلميذ البغدادي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ^(٩) ، والحكيم

(٢) الخريدة ٣٦٩/٤ وما بعدها .

(١) وفيات الاعيان ١٥٠/٣

(٤) مرآة الزمان : ٢٩٧/٨

(٣) الخريدة ٤٨٨/٤

(٦) انظر الخريدة ٣٣/٤ وما بعدها .

(٥) المختصر المحتاج إليه ٨١/٢

(٧) معجم الأدباء ٢٤١/٧ ط . مار كليوت الأولى ، وفيات الاعيان ١٠١/٥

(٨) المحمدون ص ٣٦١ - ٣٦٢

(٩) معجم الأدباء ٢٤٣/٧ - ٢٤٧ ط . ماركليوت الأولى ، وفيات الاعيان ١١٩/٥ - ١٢٦

ابو العلاء محفوظ بن المسيحي بن عيسى النصراني النيلي^(١) الطبيب المتوفى سنة ٥٦٩ هـ^(٢).

واشتهار العلماء بالميل الى الغلمان والتغزل بهم، ظاهرة ليست من ابتكار القرن السادس، بل هي معروفة قبل هذا القرن، واستمرت بعده، وستأتي الإشارة الى اسباب ذلك قريبا.

ففي القرون التي سبقت القرن السادس، عرف ابو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى في اوائل القرن الثالث بالميل الى الغلمان، وكان لا يقبل شهادته احد من الحكام بسبب ذلك^(٣). وفي القرن الثالث ايضا اشتهر الفقيه محمد بن داود الاصبهاني المعروف بالظاهري^(٤) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، صاحب كتاب الزهرة، بالميل الى الغلمان^(٥).

وفي القرن الرابع عرف المفجع^(٦) البصري، صاحب ابن دُرَيْد ونائبه في البصرة وله قصيدة اوردها صاحب اليتيمة^(٧)، يصف فيها هذا العالم كيف كان يخدع الغلمان تحت ستار تدريسهم الدين والشعر في جامع البصرة

اما بعد الفترة التي ادرسها فقد اشتهر قاضي القضاة شمس الدين احمد بن خلّكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ بالميل الى بعض اولاد الملوك، وله فيه اشعار رائعة، ويقال انه اول يوم زاره بسط له الطَّرْحَة^(٨)، وقال له: ما عندي اعز من هذه، طأ عليها...^(٩).

وهكذا يتضح ان آفة الميل والتغزل بالغلمان، ليست مقصورة على علماء القرن السادس وانما هو داء قديم معروف

اسباب تورط بعض العلماء في الغزل بالمذكر:

(١) ان بعض العلماء يشتغلون في المهن التعليمية، او كمؤدبين لانباء الاغنياء او ذوي النفوذ، ومن هنا يكثر اتصالهم بصغار الشبان، في البيوت الخاصة، او في المدارس

(١) النيلي: نسبة إلى بلدة النَيل وكانت قرية من حلة بني مزيد (معجم البلدان ٨/ ٣٦٠)

(٢) الخريدة ٤٩٨/٤ - ٥٠٥

(٣) وفيات الاعيان ٤/ ٣٢٩

(٤) الظاهري نسبة إلى مذهب الظَاهِرِيَّة المجافي للتأويل والرأي والقياس، وهو مذهب انشأه والد محمد هذا المتوفى سنة ٢٧٠ هـ.

(٥) الوافي بالوفيات ٣/ ٥٩

(٦) المفجع البصري: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبيد الله، له مصنفات كثيرة، وشعره قليل كثير الحلاوة، يكاد يقطر منه ماء

الطرف. سنة ٣٢٠ هـ. يتيمة الدهر ٢/ ٣٣٤، (مط. الصاوي)، الاعلام ٦/ ١٩٨

(٧) يتيمة الدهر ٢/ ٣٣٥ (مط. الصاوي). (٨) الطرحة: لباس القضاة.

(٩) فوات الوفيات ١/ ١٠٠ - ١٠١

والجوامع، فإذا كان العالم منحرف السلوك، رقيق الدين نشأت بينه وبين تلميذه هذه الفاحشة^(١).

(٢) قد يكون بعض العلماء من الاغنياء ذوي اليسار، وفي العادة يكثر في بيوت هؤلاء او قصورهم اصناف من الغلمان يعملون في خدمة اهل البيت^(٢)، وفي العادة ايضا يكون هؤلاء من الروم او الفرس، ممن دربوا للقيام باعمال معينة، ويشترط فيهم الجمال والوسامة، ولذلك قد تنشأ بسببهم علاقات شاذة.

(٣) ان مكانة العالم الخاصة عند الخليفة، كأن يكون طبيبه مثلاً^(٣)، تمكنه من دخول قصور الطبقة العليا من اوسع ابوابها، وهذه القصور تضح في العادة بصنوف من الغلمان من اجناس شتى، وكلهم من المشهود لهم بالجمال البارع والظرف الارستقراطي، فتنشأ بينهم وبين بعض العلماء علاقات قد تبدأ بريئة خالية من الدنس والشذوذ، ولكنها ربما تطورت بعد ذلك حين يضعف العالم، فلا يستطيع تحمل الاغراء لمدة طويلة.

واذا كان تورط بعض العلماء في الغزل الشاذ، ربما اساء الى سمعة اكثرية علماء هذه المرحلة ممن لم تعرف عنهم هذه الرذيلة، اقول اذا كان هذا صحيحا فان اشتراك بعض العلماء في هذا النوع من الغزل - وهو قليل عموماً - قد يكون هو السبب في غلبة الوصف المعنوي عليه وابتعاده - بصورة عامة - عن الخلاعة وذكر المغامرات الجنسية او الدبيب على الغلمان. ان غزل العلماء هذا كايكون - في بعض الاحيان - فلسفة وليس غزلاً، وخاصة عند الحظيري، وهو اكثر هؤلاء العلماء غزلاً. تأمل مثلاً قوله:

يَا أَمْرِي بِالصَّبْرِ عَنْ رَشَايَ قَلْبِي يَحِنُّ إِلَى مَآرِيهِ
دَعْنِي، فَصَادُ الصَّبْرِ قَدْ قُسِمَتْ مَا بَيْنَ حَاجِبِهِ وَشَارِبِهِ^(٤)

وقوله في غلام اشقر الشعر:

مَا أَشَقَّرَ شَعْرُ حَبِيبِي، إِنَّ وَجَنَّتْهُ سَقَتُهُ مِنْ خَمَرِهَا صِبْغًا، وَلَا خَجَلًا
وَلِئَمَّا لَفَحَتْ خَدَيْهِ مِنْ كِبْدِي نَارُ، وَدَبَّتْ إِلَى صُدُغَيْهِ فَاشْتَعَلَا^(٥)
وقوله:

بِنَفْسِي مَنْ غَدَا يَعْجِجُ زُعْنُ إِدْرَاكِهِ الْفَهْمُ

(١) المحمدون ص ٣٦١، اتجاهات الغزل ص ٢٠٦ (٢) اتجاهات الغزل ص ٢٠٩

(٣) تنظر ترجمة ابن التلميذ في وفيات الاعيان ١٢٠/٥، ١٢٤

(٥) نفسه ٣٦/٤

(٤) الخريدة ٣٥/٤

غزالٌ كاذٌّ للرقِّية أن يجرحه الوهم^(١)

ان البحث عن غزل او عاطفة في هذه الابيات، جهد ضائع، لان قائلها ليس شاعرا ولا عاشقا، وانما هو مفكر او فيلسوف، اعجبته فكرة فحاول ان ينقلها شعرا.

ومن هذا الغزل الفلسفي، قول ابن التلميذ:

أبصره عاذلي عليه ولم يكن قبل ذا رآه
فقال لي: لو عشقت هذا ما لامك الناس في هواه
قل لي: الى من عدلت عنه وليس أهل الهوى سواه
فظل من حيث ليس يذري يأمر بالعشق من نهاه^(٢)

ان الفرق الشاسع بين غزل العلماء هذا وغزل الشعراء، قد يزداد وضوحا حين نقرأ ابيات ابن افلح وهو يتغزل بمذكر:

أخي، لم تزل في كل لأواء^(٣) متعشي^(٤)
فإن جحدت أجفائه سفكها دمي
ومال بعطفي الغرام، وقد بدا
بريان^(٥) ما يحويه عقد إزاره
ولما تلاقينا بقلبي وطرفه
ضعفت، وأعطاه الهوى فضل^(٦) قوة
ومن يتحرش، بالردى، وهو وادع
فخذ لي بثاري من لحاظ يرتش
فلي شاهد من خده غير مرقش^(٧)
لعيبي، حتى ظن أني متشي^(٨)
وغرثان^(٩) مقلق الوشاح معطش^(١٠)
على حذر ممن ينم ومن يشي
فاوثقي أسرا، ومن يقو يبطش
قري الرزايا، يلق غب التحرش^(١١)

وعندي ان ميل العلماء الى الاوصاف المجردة في غزلهم وابتعادهم عن الفحش والخلاعة، يتفق وسمعة العالم ومكانته كرجل وقور مهيب من ناحية، وكذلك يمثل هذا النوع من الغزل الحياة الجنسية الباقية لدى هؤلاء الشيوخ، لانهم غير قادرين في هذا المجال الا على اطلاق العنان لألستهم وعقولهم من ناحية ثانية.

(٢) معجم الادباء ٢٤٦/٧ ط. ماركليوت الأولى.

(٤) متعش: معيني ومنجدي.

(٥) مرقش: من رقص كلامه: زوره وزخرفته، ولا يوجد أرقش.

(٧) الريان: المثل.

(٩) معطش: ظمآن، وأراد به هنا ضامر الخصر.

(١١) الحريدة: ٦٤/٢

(١) نفسه ٤٠/٤

(٣) اللأواء: ضيق المعيشة، وشدة المرض.

(٥) مرقش: من رقص كلامه: زوره وزخرفته، ولا يوجد أرقش.

(٦) متشي: من الانتشاء وهو يده السكر.

(٨) الغرثان: الجائع، وأراد به هنا الضامر.

(١٠) الفضل: الزيادة.

هذا لون من الغزل شاع ذكره في مجالس الشراب ، فهو يتردد في مقدمات المدائح ، كما يذكر في القصائد والمقطوعات المستقلة عن المدح ، وإذا جاز لنا ان نستعير الفاظ اصحاب الرياضيات والحساب لقلنا : ان التغزل بالسقاة هو القاسم المشترك بين جميع ضروب الشعر الخمري والغزل بالمذكر .

ولعل هذه المنزلة الخاصة التي يحتلها الساقى هي التي حملت بعض شعراء المدح الكبار في القرن السادس على ان يفتتحوا بذكره قصائد مدحهم في كبار شخصيات العصر واقطابه ، مثل سينية ابن التعاويذي في مدح الخليفة الناصر لدين الله :

طَافَ يَسْعَى بِهَا عَلَى الْجُلَاسِ كَقَضِيبِ الْأَرَاكَةِ الْمَيَّاسِ^(١)
وجيمته في مدح مجد الدين بن صاحب :

بَاتَ يَجْلُوهَا عَلَى نَدٍّ مَانِهَا وَاللَّيْلُ دَاجِي
رَشَاءَ حَرَكِ أَشْجَا نِي بَطْرَفٍ مِنْهُ سَاجِي^(٢)
ومن مدائح الابله :

أَدِرِ الْمُدَامَةَ بَيْنَنَا يَا سَاقِي حَتَّى تَكِلَ يَدِي وَيَضْعُفَ^(٣) سَاقِي
وقوله :

بَاكِرَ يَجْلُو مُدَامَةً بِكِرَا مُعِيرُهَا مِنْ لِحَاطِهِ السُّكْرَا
أَحْوَرُ سَاجِي الْجُفُونِ مُقْلَتُهُ تُخَلِّقُ صَبْرِي وَتَخْلُقُ السُّحْرَا^(٤)

وللساقي - كما يذكر صاحب حلبة^(٥) الكميت - شروط وآداب يجب مراعاتها ، وفي مقدمة الجميع : « ان يكون بديع الجمال ، زائدا في الظرف والدلال ، يفوق بديع محاسنه الاتراب ، ويدهش بلطف شمائله عقول اولي الالباب . . » ومن نص النواجي هذا ، يدوان جمال الجسم وحده لا يكفي ليدخل الساقى البهجة والحبور الى قلوب السكاكزي ، بل لا بد من جمال الروح ايضا او « الظرف والدلال » كما قال .

وعلى الرغم من اجماع شعراء القرن السادس على جمال الساقى وبهاء طلعتة ولذلك

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٦

(٢) نفسه ص ٧١

(٤) نفسه و ١٤٨

(٣) ديوان الابله و ٧٠

(٥) حلبة الكميت ص ١٤٥ وما بعدها .

افتنوا في تصويره واختاروا له اروع الصفات واجمل التشبيهات، فقالوا: انه بدر^(١) حينا، او انه ظبي حينا آخر^(٢)، وقال ابن حَكِينَا:

يَدُورُ بِهَا مُسْتَدِيرُ الْعِذَا رِ أَسْلَبَ مِنْهَا لِعَقْلِ النَّدِيمِ
يُضِلُّ الْبَصِيرَ بِوَجْهِ مُنِيرٍ وَيُبْرِئِ السَّقِيمَ بِطَرَفِ سَقِيمِ^(٣)

ولكن بالرغم من هذا الميل الى وصف جمال الساقى عامة، فان اشعار القوم تدل على ان عيني الساقى هما اكثر اعضائه فتنة للشعراء، ولذلك قل أن يذكر الساقى دون اشارة الى سحر عينيه وسهامهما التي تشق القلوب قبل الجلود. قال الابله:

طَافَ عَلَيْنَا بِكَاسِ رَاحِ كَحِيلَ عَيْنِ خَضِيبِ رَاحِ
أَحْوَرُ تَلْقَاهُ مَا تَشْنَى لِلدَّلِّ نَشْوَانُ وَهُوَ صَاحِي^(٤)
وقال:

سَاجِي اللَّحَاطِ تُرِيكَ صَنَعَةَ عَيْنِهِ فَتَكَاتُ مَسْنُونِ الْغِرَارِ^(٥) رَضِيعِ^(٦)
وللامير حسام الدولة:

يُدِيرُ مِنْ طَرَفِهِ وَمِنْ يَدِهِ خَمْرِينَ يَنْحَازُ عَنْهُمَا الرَّشْدُ^(٧)
وقال العلاء الواسطي:

فَشَرِبْتُهَا مِنْ كَأْسِهِ، وَشَرِبْتُهَا مِنْ لَحْظِهِ رَشْفًا بَغِيرِ إِنْاءِ^(٨)

اما جمال الروح في السقاة، وهو الشرط الثاني اللازم لنجاح هذا النوع من الغلمان، فقد اشار اليه ابن التعاويذي:

حُبُّهُ قَدْ نَيْطَ^(٩) مِنْ حَبَّةِ قَلْبِي بِالنَّيَاطِ^(١٠)
قَابِلُ حُكْمِي عَلَى كَثَرَةِ سَوْمي وَاشْتِطَاطِي
فَهُوَ مَخْلُوقٌ عَلَى وَفَى اقْتِرَاحِي وَاشْتِرَاطِي^(١١)
وقال الابله:

جَاءَ بِهِ الْحُسْنُ بَدْرَ تَمِّ حُلُو الْفُكَاهَاتِ وَالْمُزَاجِ^(١٢)

(٢) نفسه ١٨٥/٢

(٤) ديوان الابله و ٣

(٦) ديوان الابله و ٢٢

(٨) نفسه ٣٧٩/٤

(١٠) النياط: الفؤاد.

(١٢) ديوان الابله و ١٠٣

(١) الخريدة ٢٥٨/٢

(٣) نفسه ٢٤٠/٢

(٥) الغرار: حد السيف.

(٧) الخريدة: ٧٢٠/٤

(٩) نيط: ربط وعلق.

(١١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٩

ومن استعراض النصوص الشعرية المختلفة، يلوح لي ان جمال الوجه واعتدال القوام يأتي بالمرتبة الاولى عند شعراء القرن السادس، وان جمال الحديث وحلاوة الروح، تكاد تكون من الكماليات.

٢ - التغزل بالعذار:

ان الذين تغزلوا بالمذكر- مثل العشاق في الغزل بالمؤنث- يكثر من ذكر الجوانب او الاعضاء التي فتنتهم في هذا الذكر، وكأنهم بذلك يلتمسون لانفسهم الاعذار، ويحاولون اقناع الناس بأن ليس في وسعهم الا الخضوع والطاعة لسلطان الجمال وتمثال الفتنة والاغراء.

لقد كان من بين صفات الذكور التي فتنت الشعراء: طول القامة ونحولها ولذلك شبهوا امثال هذا الغلام بالغصن حيناً^(١)، وبقصب الاراقة المياس حيناً آخر^(٢)، وربما قالوا: ان امثال هذا الغلام قد اقام قيامة الشاعر^(٣)، تعبيرا عن فرط الاعجاب وشدة الوله.

وكان للعيون نصيبها من هذا الغزل، فقالوا: انها كحيلة وحوراء^(٤)، أو أنها تشبه عين الطي:

يَحْكِي الْغَزَالَهَ جَيِّدًا وَمُقَلَّةً وَنِفَارًا^(٥)

ومن الجديد في فتنة العيون هذه، غرام ابن التعاويذي بعيون الجند الاتراك وهو غرام لم يعرفه الشعر العربي قبل هذا الشاعر، اذ لم يسبق ان تغزل شاعر بجندي، لان هذا الاخير رمز القوة والخشونة، وخوض المعارك ومصالوة الفرسان، ولكن يبدو ان كثرة الجند التركي في الجيش العباسي، وما عرف به هؤلاء من جمال هو الذي فتن اهل بغداد، فتطوع شاعرهم للتعبير عن هذه الفتنة بمثل قوله:

مِنْ كُلِّ رَامٍ عَن قَوْسٍ حَاجِبِهِ بِمُضْمِيَاتٍ^(٦) نِصَالُهَا الْحَوْرُ
مُؤَنَّثَ الزَّيِّ فِي لَوَاحِظِهِ مِنْ عُجَجٍ عَيْنِيهِ صَارِمٌ ذَكَرٌ^(٧)

وقوله:

وَبِغَلْمَةٍ مِثْلَ الشُّمُوسِ عَوَابِسٍ خَلَطُوا الْبَسَالَهَ بِالْجَمَالِ الْبَاهِرِ
فَلَهُمْ إِذَا اعْتَقَلُوا أَنْيَابَ الْقَنَا نَظَرُ الضَّرَاعِمِ مِنْ عُيُونِ جَاذِرِ

(١) نفسه و ١٠٣، ١٨١، ١٦٠

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٦

(٣) ديوان الابله و ١٠٣

(٦) بمضميات: من أصمى: أصاب مقتلا.

(٣) الخريدة ٢٠٥/٤

(٥) نفسه و ١٥١

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١١٥٩

اصمى الكُماةَ بِمَقْصِدٍ مِنْ كَفِّهِ وَرَمَى الْقُلُوبَ مِنَ اللَّحَاطِ بِعَائِرٍ^(١)
وقوله :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْ كَانَ يُنْصَفُ لَا كَتَفِي بِلِحَاطِهِ مِنْ ذَابِلٍ وَحُسامِ
يَصمى الرِّمَّةَ رَاشِقاً مِنْ كَفِّهِ طَوْرًا، وَمِنْ أَجْفَانِهِ بِسَهمِ
غُلْبٍ، وَلَكِنْ فِي الْمَغَافِرِ^(٢) مِنْهُمْ حَدَقُ^(٣) الْمَها وَسَوَالِفُ^(٤) الْآرامِ^(٥)
هَذَا يَكُرُّ بِذَابِلٍ مِنْ قَدِّهِ لَذَنْ، وَهَذَا بِاللُّوَحِظِ رَامِ^(٦)

ولعل اول ما نبئت من لحية الغلام او ما سمي بـ «العذار» هوفتنة العصر الكبرى التي تبارى الشعراء في ذكرها، حتى تعدى الامر مقدمات المدائح والمقطوعات المستقلة عن المدح الى نظم أبيات أو مقطوعات خاصة في العذار ومعانيه كما فعل الحظيري في الابيات العذاريات^(٧).

ومن المرجح ان موجة العذار هذه، قد شملت الخاص والعام، والجاد والهازل هي التي أوحى لابن قزمي^(٨) ان يختم بذكره احدى مقطوعاته الغنائية، وهي التي اولها:

مَدَامِعُهُ تُغْرِقُ وَأَنْفَاسُهُ تُحْرِقُ

قال في آخرها:

وَكَايِبُ خَطِّ الْعِذَا رِ فِي خَدِّهِ يَمْشُقُ^(٩)

ويعد سبط ابن التعاويذي والابله البغدادي وابو المعالي الحظيري، اشهر من لهج بذكر العذار ونعته بين شعراء القرن السادس قاطبة.

اما الشاعران الاول والثاني، فقد رددا ذكر العذار والتغزل به في مقدمات قصائد المديح، وقد يكون لهذا الذكر علاقة برغبات بعض الممدوحين، واثّر ذلك في جائزة الشاعر. وقد اتفق الشاعران في هذه المقدمات على القول بان عذار الغلام المتغزل به، هو سبب الفتنة وطليلة المصيبة.

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٩، العائر: السهم الذي لا يدري رامي.

(٢) المغافر: واحدها مغفر وهو زرد يلبيه المحارب تحت القلنسوة.

(٣) المها: واحدها مهاة وهي البقرة الوحشية.

(٤) السوالف: مفردها سالفة: صفحة العنق.

(٥) الآرام: مفردها رنم: الظبي الأبيض.

(٦) الحريدة ٣٣/٤

(٧) الحريدة ٣٣٦/٢

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٨٠

(٩) أنظر: الفصل الثالث (الغزل المفق).

قال ابن التعاويذي :

يَغْضَبُ إِنْ شَبَّهَتْهُ بِالْبَدْرِ عِذَارُهُ إِلَى الْعَذُولِ عُذْرِي^(١)
وقال :

أَقُولُ لِمَنْ لَامَنِي فِي هَوَاهُ رُوَيْدًا، فلي في عِذَارِيهِ عُذْرُ^(٢)
وقال الأبله :

وَحَطَّ فَوْقَ السُّورِ مَنْ خَدَّهِ آسَى عِذَارٍ أَوْضَحَ الْعُذْرَا^(٣)
وقال أيضا :

لَهُ عِذَارٌ مُذْ بَدَا نَبَتْهُ أَقَامَ لِي فِي الْحُبِّ أَعْذَارَا^(٤)

ومن المرجح ان الجمع بين العذار في امثال هذه الابيات، يحقق هدف الشاعر في الوصول الى الجناس، وهو من محسنات البديع التي راجت وشاعت في هذه الفترة^(٥).

وفي مجال الموازنة بين ابن التعاويذي والأبله في هذا الموضوع، يبدو الأبله مندفعاً جريئاً أكثر من زميله، وربما غير مبال باصحاب الاخلاق، لانه يقول :

حَاشَ لِي لَا أَرَى خَلِيعَ عِذَارٍ فِي هَوَى مَنْ لَهُ عِذَارٌ جَدِيدُ^(٦)
ويقول :

لَهُ جَدِيدُ عِذَارٍ خَلَعْتُ فِيهِ الْعِذَارَا^(٧)

ومن الطبيعي بعد ان وجدنا ابن التعاويذي والأبله يتفقان حيناً في موضوع العذار، اقول من الطبيعي ان نجد ههما يختلفان حيناً آخر حول جوانب جديدة من الموضوع ذاته . اما الأبله فقد انفرد عن زميله بالحاحه على تشبيه العذار بحرف اللام، وهو ما لم اعثر عليه في ديوان ابن التعاويذي .

قال الأبله :

وَعِذَارُكَ اللَّامُ الَّذِي مُذْ لَاحَ لَاحَ وَقَامَ عُذْرِي^(٨)

وقال :

فِي مِثْلِ خَطِّ عِذَارِهِ ذَاكَ الَّذِي كَاللَّامِ حُسْنًا تَعْذِرُ اللَّوَامُ^(٩)

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧٩

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٢ ، وانظر أيضا ص ٣٣٣ ، ٩٩

(٣) ديوان الأبله و ١٥٠

(٤) نفسه و ١٥٤ ، وانظر أيضا و ٢٢ ، ١٦٠ ، ١٧٣ (٥) انظر الدراسة الفنية في آخر هذه الرسالة .

(٦) ديوان الأبله و ٢٣ (٧) نفسه و ١٥١

(٨) نفسه و ١١٧ (٩) نفسه و ١١٨

وقال ايضا:

على لامي عذاريه غدا الائم لي عاذر^(١)

اما ابن التعاويذي فقد اختلف عن زميله بافتتانه - كما سبق ان اشرت - بجمال الجند الاتراك، ولذلك راح يوجد للعدار عند هؤلاء الجند «تشبيهات عسكرية» اذا صح التعبير، كأن يقول: ان زرد الدروع عند هؤلاء الجنود تحته زرد آخر هو زرد العذار:

أغيد^(٢) مصقولة ترائبه^(٣) أين الكمي الكرار والغيد؟
يحيد تيهأ الى فريسته والليث ما في صفاته حيد
من زرد محكم براقعه وتحتها من عذاره زرد^(٤)
وقال:

من ليوث الشرى^(٥) اذا دارت الحر ب، وفي السلم من طباء الخدور
فالعدار الطيرير^(٦) في حده أف تك من حد سيفه المطرور^(٧)
وقال:

كالطبي مصقول العذار له اذا اع ترك القوارس وثبه الصرغام^(٨)

ويبدولي ان ابن التعاويذي - لفرط حرصه على الاشادة بجمال الجنود - لم يعد يأبه للكلمات العربية ودلالاتها، فقد صار همه ان يقول شيئا جميلا أو جديدا عن ظاهرة ملكت عليه حواسه، ولا يهمه بعد ذلك غضب اهل اللغة وصراخهم، اقول هذا لانني لا اعرف كيف يكون للعدار زرد؟ وكذلك لا احسب رجال اللغة يوافقون على وصف ابن التعاويذي للعدار بأنه «مصقول».

اما الحظيري فقد عبر عن سبعة معان للعدار لم ترد في شعر زميله ابن التعاويذي والابله، وخصص بيتين أو ثلاثة للتعبير عن كل معنى، وبذلك اصبح مجموع ابياته العذاريات سبعة عشر بيتا.

ومن المألوف ان الغزل بالمذكر - مثل شعر الخمر - شديد العلاقة بالمجون والخروج

(١) نفسه و ١٨١

(٢) أغيد: من الغيد: النعومة.

(٣) يحيد: يميل.

(٤) الشرى: مأسدة.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٥

(٦) الترائب: واحدها تريبة: اعل الصدر.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١٥٤

(٨) الطيرير: المحدد كالسنان.

(٩) نفسه ص ٢٨٠

على القيم والاعراف الاجتماعية، بل ان الغزل بالمذكر يكاد يكون هو المجون بعينه، ولذلك جاء معنيان من معاني العذار السبعة عند الحظيري ماجنين خليعين، وهما اللذان شبه فيهما العذار بالدجى مرة وب اللجام في المرة الثانية^(١).

اما ابتعاد ابن التعاويذي والابله عن المجون في غزلهما بالمذكر، فسيبه أن غزلهما كان في مقدمات قصائد المديح، وهو غرض شعري له تقاليد واعراف لا تسمح للشاعر بالانحراف. والحظيري لم يكن يمدح احدا حين نظم معانيه، ولذلك ارسل نفسه على سجيته.

اما بقية معاني الحظيري - غير المعنيين الماجنين - فقد شبه فيها العذار بجسر من الشعر، وبالظلمات، وبالنمل، وبنقش فصوص الخواتم، وبنقطة من عثرة القلم^(٢).

قال مشبها العذار بالنمل:

قالوا: التحى فاصبُ الى غيره قلتُ لهم: لستُ إذنُ أسلو
لو لم يكن من عسلٍ ريقُهُ، ما دبَّ في عارضِهِ النَّمْلُ

وقال في التشبيه ب نقش فصوص الخواتم:

ومُهَفِّهَفٍ^(٣) شَبَّهُهُ شَمْسَ الضُّحَى فِي حُسْنِ بَهْجَتِهَا وَبُعْدِ مَكَانِهَا
قَدْ زَادَهُ نَقْشُ الْعِذَارِ مَحَبَّةً نَقْشُ الْفُصُوصِ يَزِيدُ فِي أَثْمَانِهَا

المجون والسخف:

اذا زاد الشاعر في هجائه وغزله وفي شعر الخمر على الحدود المسموح بها خلقيا سمي هذا النوع من الشعر مجونا او فحشا او إحماضا أو هزلا.

ولكن ملازمة المجون للهجاء والغزل بالمذكر والخمرات، لا تعني ان هذا الضرب من الشعر لا يوجد في سواها. فقد يعبر الشاعر عن معان ينفر منها الذوق السليم وتأباها الاخلاق الكريمة، فيكون شعر الشاعر - بسبب رداءة الموضوع مجونا، كقول ابن التعاويذي:

لم يبقَ لي في هَوَى الْعَوَانِي مُنْذُ تَقَضَّى الصَّبَا طَمَاعَهُ
أَعْرَضَنَ عَنِّي، فَكُنْتُ قِدْمًا فِيهِنَّ ذَا إِمْرَةٍ مُطَاعَهُ

(١) الخريدة ٣٣/٤ - ٣٤

(٢) الخريدة ٣٣/٤ - ٣٥

(٣) المهفف: الضامر البطن الدقيق الخصر.

خَلَعْتُ نَفْسِي مِنَ التَّصَابِي مَا لِأَخِي الشُّبِّ وَالْخَلَاعَةِ؟
 أَنْكَرَنْ مِنِّي شَيْباً وَعُدْماً وَلَا بِضَاعَ وَلَا بِضَاعَةً^(١)
 وقوله:

قَوَادَةُ فَاِرِهَةٌ لَطِيفَةُ التَّوَصُّلِ
 تَهْوِي^(٢) إِلَى أَغْرَاضِهَا مِثْلَ هَوِيِّ الْأَجْدَلِ^(٣)
 لَوْ شَهِدْتُ صَفَيْنَ أَوْ وَقَعَةَ يَوْمِ الْجَمَلِ
 نَوَصَّلْتُ فِي الصُّلْحِ مَا بَيْنَ ابْنِ هِنْدٍ^(٤) وَعَلِي
 وَأَصْبَحْتُ عَائِشَةً عَنْ حَرْبِهِ بِمَعَزِلٍ^(٥)

وأكد أجزم ان موضوع هذه المقطوعة الأخيرة، لم يحروء شاعر في العصر العباسي على طوقه، على الرغم من ان شعراء هذا العصر هم السابقون الى ضروب من شعر السخف لم تخطر ببال سواهم^(٦)، واكد اجزم ايضا ان شاعر القرن السادس تبع عمر بن ابي ربيعة في قوله:

وَأَنْتَهَا طَبَّةٌ مُخْتَالَةٌ تَمَزُّجُ الْجَدِّ مِرَاراً بِاللَّعِبِ
 تَرْفَعُ الصَّوْتُ إِذَا لَأَنْتَ لَهَا، وَتُرَاجِي عِنْدَ سَوَارِ الْقَضْبِ
 وَهِيَ، إِذْ ذَاكَ، عَلَيْهَا مِثْزُرٌ وَلَهَا بَيْتُ جَوَارٍ مِنْ لُعْبِ
 لَمْ تَزَلْ تَصْرِفُهَا عَنْ رَأْيِهَا، وَتَأْتَاهَا^(٧) بِرَفْقٍ وَأَدَبٍ^(٨)

ان التعرض لموضوع كالمجون في القرن السادس، لا بد ان يحمل الباحث على الشك فيما اورده مصادره الرئيسة ومنها خريدة القصر للعماد الاصبهاني ووفيات الاعيان لابن خلكان وذيل تاريخ بغداد لابن الديلمي، لان نعت شاعر ما بأنه ماجن أو خليع او انه عرف بشعر الهزل - كما فعلت تلك المصادر - يوحي للباحث بمجموعة من الافكار تغاير

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٦٩
 (٢) تهوي: تنقُصُ.
 (٣) الاجدل: الصقر.
 (٤) ابن هند: معاوية بن ابي سفيان.
 (٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٦٠، وانظر أيضا الخريدة ٦٩/٢
 (٦) انظر: يتيمة الدهر عن ابن سُكْرَةَ وابن خُجَّاج وغيرهما من شعراء القرن الرابع.
 (٧) تأتاهَا: أي تأتيها مترفقة.
 (٨) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٢٩

تماما ما يوحيه تجريد الشاعر من هذه الصفات والنعوت ، لا سيما ونحن لا نملك مجموعات كاملة او حتى شبه كاملة لشعر اولئك الشعراء - باستثناء ابن التعاويذي والابله - ولذلك لا مفر من الاعتماد على ما يقوله المؤرخون .

١ - ان شاعرا كبيرا كابن التعاويذي ، لم يشر احد اطلاقا الى انه خليع او ان له شعرا يضعه في مصاف الخلاء وربما في طليعتهم ، ولكن ديوان الشاعر - وهو مطبوع متداول - يوحى بان الرجل يختلف تماما عما صورته مؤرخونا سامحهم الله ، ولا يتفق ابدا مع مكانته الجليلة في كتبهم .

ان التنقيب في زوايا ديوان الشاعر وتببع تلك الاهاجي التي ضمها بين دفتيه^(١) ، لا بد أن يقنع الباحث باستحالة كون ابن التعاويذي صاحب الديوان هو نفسه الذي بالغ المؤرخون في الثناء عليه ، وقال عنه ابن خلكان : ان شاعرا لم يظهر مثله منذ مئتي سنة^(٢) . ولعل المستشرق مارجليوث ، ناشر ديوان الشاعر وجامعه ، قد تجاوز على اصول النشر والتحقيق حين اسقط « بعض ابيات » من مقطوعة^(٣) له في هجاء ابن المعلم زميله ، سبق ان نص صاحب وفيات الاعيان على بذائها^(٤) .

ولست اشك ان بعض المعاني والالفاظ التي اوردها ابن التعاويذي في أهاجيه لا يرددها الا السوق من عامة اهل بغداد حين يشتم بعضهم بعضا .

ولعل السؤال المهم هنا هو : اذا كانت اهاجي الشاعر بهذا الشكل ، وقد اشرف على جمع ديوانه بنفسه^(٥) ؟ فكيف كان هجاؤه قبل ان يعيد الشاعر النظر في ديوانه ؟ وكم عدد المقطوعات والأبيات التي اسقطها أو غيرها ؟

٢ - والشاعر الثاني الكبير الذي لم يلحح القدماء الى اتجاهاه وجهة سخيفة في طائفة من شعره ، هو الابله البغدادي . قال عنه صاحب الخريدة - بعد ان اثنى على جودة شعره - : وله مذهب في الهجوم مطبوع ، ومنهج في القلب مسلوک متبوع^(٦) . وهي عبارة توحى بان الابله قد ابتكر طريقة في الهجاء طريفة ، لا يملك المرء الا أن يعجب بها . وبالرجوع الى ديوان الشاعر ، وجدت له (٢٠) مقطوعة ، ليست من الهجاء ، او بعبارة اخرى : ان معظمها من الكلام الفاحش البذيء ، المشحون بذكر العورات والقذارات التي تزكم الانوف^(٧) ، فهل

(١) انظر الديوان ص ١٥ ، ٦٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٧ ، ١٤٢ ، ٢١٨ ، ٢٤٧ ، ٤٨٠

(٢) وفيات الاعيان ٩٠ / ٤

(٣) الديوان ص ٧٥

(٤) وفيات الاعيان ٩٨ / ٤

(٥) انظر مقدمة الديوان المطبوع ص ١١

(٦) الخريدة/ نسخة ايران ١٦٠

(٧) ديوان الابله و ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٨٨ ، ٦٦ ، ٦٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٥

هذا المجنون هو مذهب الابله «المطبوع» في الهجاء؟

وقد يقال ان صاحب الخريدة ربما اراد تلك المقطوعات الخالية من الافذاع والفحش. والجواب ان امثال هذه المقطوعات، قليلة جدا، لا تكون مذهباً، من ناحية، وحظها من الشاعرية والفن قليل، من الناحية الثانية. ومن امثلتها قول الابله:

أَقْسَمْتُ لَوْ مَاتَ مَحْمُودٌ، وَلَمْ
يَغْسِلُهُ إِلَّا بِمَاءِ الزُّرْدِ غَاسِلُهُ
وَمُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ سَائِلَانِ لَهُ
عَمَّا جَنَى، وَهُوَ قَبْلَ الْمَوْتِ فَاعِلُهُ
وَأَقْعَدَاهُ وَفَاحَتْ رِيحُ نَكْهَتِهِ
وَكَيْفَ يَبْقَى، وَذَاكَ الدَّاءُ قَاتِلُهُ؟
عَاذَى إِلَى اللَّهِ بَلْ عَاذَى وَقَوْلُهُمَا:
إِبْعَثْ إِلَيْهِ سِوَانَا مَنْ يُسَائِلُهُ^(١)
وقوله يهجو شريف الرَّحْبَةَ^(٢):

لَهُ يَدٌ يَابِسَةٌ فِي النَّدَى
وَمُقَلَّةٌ - لَا نَظَرْتُ - رَطْبَةً
لَا يَأْكُلُ اللَّقْمَةَ مَعَ عَرْسِهِ
فِي الدَّارِ حَتَّى تَدْخُلَ الْقُبَّةُ
يَقُولُ: إِنِّي هَاشِمِيٌّ، وَهَلْ
يَصْدُقُ مَنْ لَيْسَتْ لَهُ نِسْبَةٌ؟
وَمَالَهُ - إِنْ رُمْتُ تَعْرِيفُهُ -
أَبٌ وَلَا أُمٌّ سِوَى الرَّحْبَةِ
عَلِمْتُ فِي هَجْوِي لَهُ أَنَّهُ
إِلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى قُرْبَةً^(٣)

وبعد: فلعل الذين اهتموا بأدب القرن السادس لوقالوا: ان سبط ابن التعاويذي والابله البغدادي ليسا بعيدين كثيراً عن ابن الرومي في الهجاء، اقول لو ان مؤرخينا أضافوا هذه العبارة الى ما كتبوه، لا يفتن انهم منصفون، وانهم مطلعون فعلا على ديواني الشاعرين.

ان تيار السخف في الشعر العربي، وقد بلغ الغاية ايام بني بويه في القرن الرابع على يد ابن سُكْرَةَ وابن الْحَجَّاج^(٤)، هذا التيار استمر في القرن الخامس حتى قال الدكتور علي جواد الطاهر: ان لديه من النصوص في هذا الموضوع ما يكفي لكتابة فصل^(٥). وكان شيخ السخفاء في القرن الخامس ابن الهَبَّارِيَّة، وقد سار على نهج ابن الحجاج «وسبك في قالبه، وسلك اسلوبه وفاقه في الخلاعة والمجون»^(٦).

(١) ديوان الابله و ٦٤

(٢) الرحبة: في معجم البلدان ٢٣٤/٤ انها اسم لاكثر من مكان، فهناك رحبة بحذاء القادسية ورحبة قريبة من صنعاء اليمن، ورحبة خالد بدمشق. ولست أدري أية رحبة اراد الشاعر.

(٤) ينظر «الأدب في ظل بني بويه».

(٣) ديوان الابله و ١٨٧

(٦) الخريدة ٧٠ - ٧١

(٥) الشعر العربي ١٢٨/٢

اما في القرن السادس فقد اشتهر بالسخف كل من : ابي المعالي الحَظِيرِي الوراق^(١) والحسن بن احمد بن حَكِينَا،^(٢) وعلى بن أَفْلَح الكاتب^(٣)، وابو الفرج العلاء بن علي الواسطي المعروف بابن السَّوَادِي^(٤)، وابو الحسن علي بن الحسن المعروف بِشُمَيْم الجلي المتوفي سنة ٦٠١ هـ^(٥)، وانوشروان الضرير الشاعر المعروف بشيطان العراق^(٦)، وابو القاسم هبة الله بن الحسين البديع الاسطرلابي^(٧) .

ولكن هذه الوفرة في عدد الشعراء ، تقابلها شحة في كمية النصوص التي وصلت الينا ، وهكذا ليس بوسع الباحث الا ان يكتفي بسرد الاسماء .

اما اسباب هذه الظاهرة فقد ذكرتها في مكان آخر من هذه الدراسة^(٨) .

(١) نفسه ٤/ ٣٧ ، ٥١

(٢) المختصر المحتاج إليه ١/ ٢٧٥ - ٢٧٦

(٣) الخريدة ٢/ ٥٣

(٤) وفيات الاعيان ٣/ ١٥٠

(٥) نفسه ٣/ ٢٦

(٦) نكت الهميان ص ١٢٢

(٧) وفيات الاعيان ٥/ ١٠١

(٨) انظر: الفصل الثالث: الهجاء .

الفصل السادس الدراسة الفنية

١ - اللفظ والمعنى:

مرت بنا فصول طوال ونماذج كثيرة من شعر العراق في القرن السادس شملت أغراضا مختلفة من مدح وهجاء وغزل ورناء، وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول بأن الصفة الغالبة على الفاظ الشعر ومعانيه هي الوضوح الشديد والبعد عن التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي^(١)، فلا يحتاج القارئ المتوسط الثقافة الى اجتهاد فكر أو مراجعة معجم او كتاب من كتب اللغة، ليدرك ما يعبر عنه الشعراء.

لقد هجر الشعراء الالفاظ الغريبة التي لا يعرفها الا خاصة العلماء ومالوا الى التعبير عن معانيهم باقرب الالفاظ واسهلها، كذلك ليس بين شعراء العصر الكبار من اولع بالفلسفة والمنطق او ما سمي بعلوم الاوائل، بل ان دراسة هذه العلوم والميل الى مصنفاتها واخبار رجالها، كان من المحرمات في الفترة التي ادرسها^(٢)، ولذلك لا نعجب اذا رأينا معظم الشعراء ينظمون اشعارا خالية من المعاني والافكار التي لا يمكن التوصل اليها الا بعد جهد جهيد.

ومع طول الفترة، وكثرة الشعراء، وتبيان اساليبهم، لا بد من استثناءات:

أ- ان اساليب الشعراء - وخاصة الكبار منهم - تتباين تباينا شديدا بين غرض وآخر. انهم يدون اهتماما ملحوظا، فيجودون اشعارهم ويختارون لها الالفاظ والمعاني والاساليب التي تليق بكبار الشخصيات الذين يمدحونهم طمعا في الحصول على اكبر الجوائز وأسخاها، ولكن هؤلاء الشعراء انفسهم يخفقون اخفاقا شديدا ويعجزون حتى عن النظم المتماسك لا الجيد حين يطرقون غرضا آخر. لا ينتظر منه جائزة، ولا يراد منه الحصول على اعجاب احد، كالغزل على سبيل المثال

(١) لفظ السائر ص ١١٤ وما بعدها (المط. البهية). (٢) انظر: الفصل الاول من هذه الرسالة ص ٣١.

ان ابن' التعاويذي - مثلاً - يتغزل في مقدمات المدائح، فيحسن ويجيد، ويشد اليه الاسماع والقلوب شداً، حتى اذا جئنا الى مقطوعاته في الغزل المستقل عن المدح، كدنا ننكره، فليست هناك من صلة بين هذا الغزل المتكلف الهزيل، وبين مقدمات المدائح، وما فيها من شاعرية تلفت النظر، وتأخذ بمجامع الافئدة. تأمل هذه المقطوعة من غزله:

لَوْ لَانَ قَلْبُكَ فِي الْهَوَىٰ (١) لَرَثَيْتَ لِي مِنْ لَوْعَةِ الْحُبِّ
لَكِنْ قَسَوْتُ فَمَا رَثَيْتَ لِيذِي كَمَدٍ وَلَا تَحْنُو عَلَى صَبِّ
يَا مَنْ أَوَاصِلُهُ عَلَى مَلَلٍ فِيهِ، وَيَهْجُرُنِي بِلَا ذَنْبٍ
يُذَكِّي ضِرَامَ الشُّوقِ فِي كَبْدِي وَيَذودُنِي عَنْ رَيْقِهِ الْعَذْبِ
كُنْ كَيْفَ شِئْتَ، فَمَا أَمِيلُ إِلَى عَذْلٍ، وَلَا أَصْفِي إِلَى عَتَبِ
هَيْهَاتَ أَطْمَعُ فِي السَّلْوِ وَقَدْ أَخَذَ الْهَوَى بِمَجَامِعِ الْقَلْبِ
أَوْ أَنْ أَسَالَ عَلَى الْبِعَادِ رَضَى مَنْ كَانَ يَسْحَطُ بِي عَلَى الْقُرْبِ (٢)

قارن هذا الغزل بأية مقدمة من مقدمات مدائحه، فستجد البون شاسعاً والشعر متبايناً من جميع النواحي: اللغة، والخيال، والعاطفة، والفكرة، حتى يحار المرء، ويتساءل: لم اثبت الشاعر امثال هذه المقطوعة في ديوانه، ما دام قد اشرف على جمعه بنفسه (٣)؟

ب - ان ميل الشعراء عموماً الى الالفاظ الواضحة السهلة، يجب أن يستثنى منه المدرسة البدوية، او مدرسة الحبيص بيص، فقد كان هؤلاء خارجين على طابع العصر العام، وصفاته الاسلوبية البارزة، كما سبق ان اوضحت (٤).

ج - يمكن القول ان الشعراء كانوا يقسمون مدائحهم بحسب اقدار الممدوحين ومكانتهم الاجتماعية، فلا يصح ان يكون الاسلوب المتبع في مدح الخليفة هو نفسه الذي يصطنعه عند مدح السلطان السلجوقي او احد الوزراء ممن لا يكاد يعرف العربية.

كذلك يلاحظ ان مدائح الخلفاء تميل - بصورة عامة - الى الاسلوب البدوي القديم، فيكثر الشاعر من وصف حياة الاعراب، ويلجأ الى الالفاظ الجزلة، والمعاني البدوية، والخيال المشحون بروح الصحراء ورمالها وجمالها، وفي امثال هذه القصائد نفتقد الالفاظ

(١) ليس في هذا الشطر سوى تفعيلتين من تفعيلات الكامل الثلاث، ولعل الكلمة الساقطة هي (شغفا). ولم يشترع الديوان الى

هذا النقص.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٢ (٣) انظر: مقدمة الديوان المطبوع.

(٤) انظر: الفصل الثاني، شيوخ المحافظين ص ٥٢ وما بعدها

السهلة اللينة، والمعاني الواضحة القريبة المأخذ، لان الشاعر يحسب الف حساب لعلماء اللغة والنحو، وكبار المثقفين المحيطين بالخليفة عادة، ولذلك لا بد من التمييز، من ناحية الالفاظ والمعاني، بين مدائح الخلفاء، ومدائح سواهم من كبار الشخصيات.

قال ابن التعاويذي يمدح المستضيء بأمر الله :

رَفَرْتُ وَجِدَ مَا يَبُوحُ ^(١) ضِرَامُهَا	وَمَدَامُ مَتَاصِرُ ^(٢) تَسْجَامُهَا
وَهَوَى يُمَاطِلُ بِالْقَضَاءِ غَرِيمُهُ	وَصَبَابَةٌ مَا يَسْتَفِيقُ غَرَامُهَا
لَيْتَ الْبَحِيلَةَ يَهْتَدِي لِي طَيْفُهَا	إِنْ كَانَ لَا يُهْدِي إِلَيَّ سَلَامُهَا
بِيضَاءُ مَا عَرَفَ الْحِفَاطَ وَدَادُهَا	يَوْمًا، وَلَا صَحَبَ الْوَفَاءَ ذِمَامُهَا
يَنْضَى عَنِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ ^(٣) رِدَاؤُهَا	وَيُمَاطُ عَنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ لِثَامُهَا
تَثْنِي ^(٤) تَشْنِيهَا عَزَائِمَ سَلَوْتِي	وَيُقِيمُ عُذْرِي فِي الْغَرَامِ قَوَامُهَا

.. الى ان يقول:

أَتَعُودُ أَيَّامِي بِرَامَةٍ بَعْدَمَا	سَكَنْتُ بِجَرْعَاءِ ^(٥) الْجَمَى آرَامُهَا
وَأَحْلَهَا الْبَيْنَ الْمُشْتُ مَحَلَّةً	بَعَدْتُ مَرَامِيهَا وَعَزَّ مَرَامُهَا
سَارَقْتُهَا نَظَرَ الْوَدَاعِ فَمَا ارْتَوْتُ	نَفْسٌ يَزِيدُ عَلَى الْوُرُودِ هَيَامُهَا ^(٦)

... الخ^(٧).

ان اللغة والاسلوب في هذه القصيدة، يختلفان اختلافا كبيرا عما يتخذه الشاعر عن لغة واسلوب عند مدح غير الخليفة، كقوله في مجد الدين ابن الصاحب:

جَدَّ بِقَلْبِي وَمَزَحَ	ظَبِيٍّ مِنَ التُّرْكِ سَنَحَ
مُعَذَّرٌ قَدْ بَانَ عُذُّ	رِي فِي هَوَاهُ وَأَتَضَحَّ
مُسْلَطٌ عَلَى الْقُلُوبِ	بَ مَا يُيَالِي مَا اجْتَرَحَ

(١) ببوح: يبرد.

(٢) متناصر: ينصر بعضه بعضا، يريد أن المدام لا تكاد تنقطع.

(٣) الليل البهيم: الذي لا ضوء فيه إلى الصباح.

(٤) كذا بالأصل، والصواب يثنى مطابقة للفاعل (تشنيتها).

(٥) الجرعاء: زملة مستوية لا تثبت شيئا.

(٦) الهيام: أشد العطش.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٠٧ - ٤٠٨

يُمْسِي مُطَلًّا^(١) مَا أَرَا قَ وَجُبَارًا^(٢) مَا جَرَحَ
كَأَيَّ عَهْدٍ وَدَمٍ عَلَى يَدَيْهِ لَمْ يُطَحْ
ضَرَّ فَمَا يَسْمَحُ بِالْ وَضَلَّ وَلَوْ شَاءَ سَمَحَ

.. الخ^(٣).

ان القارىء لا يحتاج الى ذكاء شديد ليدرك الفرق الشاسع بين المقطوعتين من ناحية اللغة، وكذلك من ناحية الاسلوب. لقد اجاد الشاعر في تخير اللغة والاسلوب المناسب لكل ممدوح، فالخليفة تعمد ان يختار له الالفاظ الجزلة الفخمة ذات الجرس القوي: بيوخ، ضرام، تسجام، رامة، جرعاء الحمى. . . كذلك تعمد الشاعر ان يختار وزنا موسيقيا فيه وقار وهيبة، وهو الكامل لقصيدة الخليفة، على حين اختار بحرا مرحا خفيفا هو الرجز للقصيدة الثانية، مع التأكيد على القافية التي تناسب كل حالة يريد الشاعر ان يعبر عنها: فالميم المضمومة تليها الهاء والالف هي التي تناسب مقام الخليفة ومنزلته، لان الشاعر او القارىء مضطر على تفخيم النطق وعلل لفم بصوت الميم المضمومة، على حين جاءت الحاء الساكنة من القصيدة الثانية خير تعبير يوحى بالجو المرح المتحضر المترف الذي تعبر عنه القصيدة.

وقال ابن التعاويذي يمدح الناصر لدين الله .

يَا عَلُوْاْ أَغْرَيْتِ السُّهَادَ بِنَاطِرِي وَرَقَدْتَ عَنْ لَيْلِ الْمُحَبِّ السَّاهِرِ
مَاذَا يَضْرُكُ لَوْ سَمَحَتْ عَلَى النَّوَى بِمُرُورِ طَيْفٍ مِنْ خَيَالِكَ زَائِرٍ؟
كَمْ قَدْ رَكِبْتُ إِلَيْكَ أخطَارَ الْهَوَى أَفَمَا يَمُرُّ لَكَ الْوِصَالُ بِخَاطِرٍ؟
هَلْ أَنْتِ يَا لَمِيَاءَ ذَاكِرَةٌ عَلَى شَحْطِ النَّوَى عَهْدَ الْوَفَى. الذَّاكِرِ؟
أَضَلَلْتُ بَعْدَكُمْ الرُّقَادَ، فَمَا لِأَشْ جَانِي وَلَيْلِي بَعْدَكُمْ مِنْ آخِرِ
وَاطَلْتُمْ سَهْرِي، وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ مَرَّتْ بَوَضْلِكُمْ كَظْلًا^(٤) - الطَّائِرِ
حِجْرٌ^(٥) عَلَى الْأَجْفَانِ أَنْ تَرَدَّ الْكَرَى مِنْ بَعْدِ أَيَّامِ الْعَقِيْقِ وَحَاجِرِ
... الخ^(٦).

(١) مُطَلَّ: مهدر، لم يثار له أحد.

(٢) جبار: هدر، لم يؤخذ بثأره.

(٤) كظل الطائر: مبالغة في قصر الليلة.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٦ - ١٦٧، وانظر أيضا ص ٢٨٤.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٩

(٥) حجر على الأجفان: أي حرام عليها.

وهي قصيدة لا تكاد تختلف عن سابقتها، فالبحر هو الكامل نفسه، والاسماء البدوية التي يتعمدها الشاعر لتساعد على خلق الجو الصحراوي، لا زالت هي هي، فقد كانت في القصيدة السابقة «رامة»، فاستبدلها الشاعر في هذه القصيدة بـ «العقيق وحاجر»، مع المحافظة على الاسلوب الجزل المتين، واللغة البعيدة عن اللبونة والسهولة، باختيار الفاظ ذات حروف جرسها الموسيقي شديد صاحب: كالجيم: حجر، الاجفان، حاجز، والطاء: شحط، أطلتم، الطائر، اخطار، خاطر... .

وهكذا يبدو لي ان مذائح الخلفاء كانت تكتب بلغة واسلوب يختلف عن سواها، بسبب مكانة الخليفة وثقافته المحافظة من جهة، وكذلك بسبب حاشية الخليفة من علماء ونقاد كانوا يميلون الى القديم في العادة.

د - قال ابن رشيق في عمدته: «طبقات الشعراء اربع: جاهلي قديم، ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلام، واسلامي، ومحدث، ثم صار المحدثون طبقات: اولى وثانية على التدرج، وهكذا في الهبوط الى وقتنا هذا. فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر فيتصفح مقدار من قبله... فاذا رأى انه ساقاة الساقاة، تحفظ على نفسه، وعلم من اين يؤتى، ولم تغرره حلاوة لفظه ولا رشاقة معناه»^(١).

ان قول ابن رشيق هذا، كان الدستور الذي تصرف على اساسه شعراء العربية حتى اواخر العصر العباسي، بل وحتى عصر النهضة. لقد آمن الشعراء بان الاسلاف هم السابقون الى كل حسنة، ولن تستطيع الاجيال التالية ان تكسر احتكار القدماء للشعر الجيد.

وشعراء القرن السادس آمنوا بتلك الحقيقة ووعوها، ولذلك حاولوا ان يطوروا صناعتهم عن طريق العناية الشديدة باللفظ، والمبالغة في دور الالفاظ في العمل الفني، لان القدماء لم يحابوا الالفاظ على حساب المعاني، بل نظروا الى الشعر على انه معنى بالدرجة الاولى. ولعل مقامات الحريري وما نالته من شهرة كانت السبب في كثير من الالاعاب اللفظية التي حملت على الشعر في هذه الفترة^(٢).

ان القارئ منا يدهش حين يجد العماد الاصفهاني يكيل الثناء كيلا لقطعة أدبية، لمجرد انها خالية من النقط، فيقول عنها: سلمت من التكلف وخلصت من التعسف، لا يتفق لاحد مثلها في فنها وسلامتها وحسنها، وهي:

صارم^(١) مَلُولاً كَبِيراً وَدَّةً
وَأَعْطَى أَمْوَالَكَ سُؤَالَهَا
وَحَصَّلَ الْحَمْدَ أَلَا كُلُّ مَا
السُّؤُودُ الْمَالُ وَلَوْلَاهُ مَا
أَوْلَادُ حَوَاءَ وَهَذَا^(٢) وَلَوْ
مَا أَمْدَحُ الْمَرْءَ، وَلَمْ أَذِرْ مَا
مَا مَسَّ حَرَّ الْأَصْلِ عَارٌ وَلَوْ
كَمَا صَارِمٍ مَحْمَلُهُ^(٣) دَارِسُ^(٤)
كَمْ وَرِعٌ، حَسَرُ أَكْمَامُهُ
وَدُمٌ لِأَهْلِ الْوَدِّ مَا دَامُوا
وَلَوْ لَحَى الْحُسَادُ أَوْ لَامُوا
حُصِّلَ - أَلَا الْحَمْدُ - إِعْدَامُ^(٥)
رَامَ أُولُو الْأَحْوَالِ مَا رَامُوا
سَادُوا، وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَعْلَامُ^(٦)
أَسْرَارُهُ، وَاللَّهُ عِلَامُ
عِلَاةٍ أَسْمَالٍ وَأَهْدَامُ^(٧)
وَهُوَ حُسَامُ الْحَدِّ صَمُصَامُ
لِلْمَكْرِ، وَهُوَ الصَّادُ^(٨) وَاللَّامُ^(٩)

ولست ادري كيف يوصف شعر كهذا بأنه «سلم من التكلف، وخلص من التعسف»، ولكن القوم لهم احكامهم واذواقهم، وقد الفوا وآمنوا - على ما يبدو - بأن الشعر صار ضربا من الرياضة الذهنية، وامتحانا لقدرة الشاعر على رص الالفاظ ليس غير.

وليست الابيات الخالية من النقط، هي الرياضة الذهنية الوحيدة التي مارسها بعض المتشاعرين، وانما هناك نموذج ثان قال العماد ان ابياته في غاية اللطف والرقّة:

يَا صَاحِبِي اسْعِدَانِي عَلَى الْيَلِيلِ الطُّوَيْلِ
وَعَلَّلَانِي بِبَرْدِ مِنَ النَّسِيمِ الْعُلْيِ
وَيَا حُدَاةَ الْمَطَايَا^(١٠) رَفِيقًا عَلَيَّ قُلَيْلِ
فِي هَذِهِ الدَّارِ قَلْبِي زَهْنٌ بِحُبِّ غُزَيْلِ
أَسْأَلُ دَمْعِي وَأَلْوَى عَنِّي بِخَدِّ أُسَيْلِ

... الخ^(١١)

(١) صارم: ابتعد عن.

(٢) اعدام: أي لا خير فيه.

(٣) الأعلام: الجبال، واحداها غَلَمٌ.

(٤) محمله: ظاهره.

(٥) الصاد واللام: أي يَل، وهو جنس من الحيات خبيث جدا.

(٦) الخريدة ٢٩٩/٤، وانظر ٢٦٤/٢ - ٢٥

(٧) المطايا: الدواب التي تتركب.

(١١) الخريدة ٩/٤ - ١٠

وفي الخريدة نموذج ثالث، وهو قطعة نثرية لاحد القضاة، اذا عكست صارت شعرا^(١).

ومهما يكن فان اشهر الذين اولعوا بنظم قصائد أو اشعار الحروف هذه اثنان هما ابو المعالي سعد بن علي الحَظِيرِي، وابو السمع سعيد بن سَمرة الكاتب.

وقد نص العماد الكاتب على ان الثاني منهما «يحدو حدو الحريري في ترسله. وينسج على منواله. . . وانه نظم رسائل على حروف المعجم كل كلمة منها فيها الحرف الذي بنى الرسالة عليه، كرسالتي الحريري الشينية^(٢) والسينية^(٣). . .»^(٤)

وعلى الرغم من عدم اشارة احد الى ان الحظيري قد تأثر بالحريري واقتدى به، فقد لمح الصلاح الصفدي الى ذلك حين علق على ابيات اوردها للحظيري قائلا: واحسن منها قول الحريري في المقامة السادسة والاربعين:

أَعِدُّ لِحُسَادِكَ حَدَّ السَّلَاحِ وَأُورِدِ الْأَمِلَ وَرَدَّ السَّمَاحِ^(٥)

وقد بذل الحَظِيرِي جهودا في اختراع العباب لفظية لم ترد في مقامات الحريري مثل الابيات التي وصفها الصفدي بأنها: تخرج الضمير من حروف المعجم وذلك ان كل بيت له عدد يخصه: فللاول واحد، وللثاني اثنان، وللثالث اربعة، وللرابع ثمانية، وللخامس ستة عشر. . . والابيات المذكورة هي قوله:

قُلْ لِهَذَا الْغَزَالِ إِنْ ظَلَّ يَجْنَى	أَنَا أَضْنَى إِنْ خُتِنِي لِشِقَائِي
خَابَ صَبُّ أَغْرَاهِ عَتَبِكَ فِي الْحُبِّ	بِ، وَلَوْ ضَرَّةُ بَزُورٍ ^(٦) بُكَاءٍ
صِلْ خَلِيلِي حُثَّ السَّلَافِ ^(٧) إِلَى	كُلِّ شَقِيقِي قَضَى لِحَيْفٍ ^(٨) الْجَفَاءِ
وَأَدِمْ دَمَّ مَنْ يَضُدُّ وَمَنْ يُضُدُّ	مِرُّ زُهْدًا مِنْ سَايِرِ الْأَشْيَاءِ
وَأَمِطْ عَنْكَ ظُلْمَ كُلِّ غَنِيٍّ	عَنْكَ فِيهِ قَلِيٌّ ^(٩) لِأَهْلِ الْعَلَاءِ ^(١٠)

ومن مخترعات الحظيري ايضا: ابيات وصفت بأنها لا تنطبق فيها الشفتان:

(١) نفسه ٥٨٦/٤ - ٥٨٧

(٢) الرسالة الشينية كتبها إلى الشاعر طلحة النعماني، لما قصد البصرة، الخريدة ٦١٩/٤

(٣) الرسالة السينية كتبها على لسان بعض أصدقائه، يعاتب صديقه، أهل به في دعوة، دعا غيره إليها. . الخريدة ٦١٦/٤

(٤) الخريدة ٢٦٣/٢

(٥) الواقي بالوفيات ١٢٥/٨ مصوره.

(٦) الزور: الكذب.

(٨) لحيف: كذا بالاصل، ولم أعرف المراد منها.

(٩) السلاف: الخمر.

(١٠) الواقي بالوفيات ١٢٥/٨ مصوره.

(٩) القل: البغضاء.

ها أنا ذا عاري الجِلْدُ أَسْهَرَنِي الذي رَقَدَ
أَوْ لَعِينٍ نَظَرْتُ ألى غَزَالٍ ذِي غَيْدٍ^(١)
أَرَيْتَنِي يَا نَاطِرِي صَيْدَ الْغَزَالِ لِلْأَسَدِ
إِنَّ الطَّبِيَّ لَهُ جِرْهٌ يَا عَاذِلِي هَذَا^(٢) الْجَسَدِ
حَشَا حَشَايَ إِذْ نَأَى نَارَ الْغَضَا حِينَ شَرَدَ
... الخ^(٣).

ومن اختراعه أيضاً أبيات تقرأ على أربعة اقسام، وتقرأ عرضاً وطولاً وهي:

إِنَّ سُؤْلِي، بَدْرُ تَمٍّ، إِنَّ تَبَدُّأً، وَهُوَ حَسْبِي
يَا عَذُولِي، حِينَ وَلَى، وَتَجَنَّى، لَا لِيذَنْبِ
مَارَرْتِي إِذْ، رَامَ هَجْرِي، وَجَفَّانِي، بَعْدَ حُبِّ
... الخ^(٤).

وقد يكون الحظيري من الذين حدثتهم أنفسهم بالتفوق على نابغة البصرة^(٥)، ولذلك صنع طائفة من المقطوعات - وقد مرت نماذج منها - ليس لها مشابهاة في مقامات الحريري، ولكن عمل الحظيري هذا، على خلاف ما اراد، ينم على تأثره بالحريري، لان هذا الاخير هو صاحب الشهرة في هذا المجال، اصف الى ذلك ان بعض نماذج الحظيري في مقامات الحريري لها اشباه، كأبياته التي فيها حرف معجم وحرف غير معجم، وكذلك تلك التي في كل كلمة منها همزة:

بأبي أغَيْدُ أذَابَ فُؤَادِي إِذْ تَسَاءَى وَأَظْهَرَ الْإِعْرَاضَا
رَشَأُ يَأْلُفُ الْجَفَاءَ فَإِنْ أَقْدَ بَلْ أَبْدَى لِأَمْلِيهِ انْقِبَاضَا^(٦)

واما ابو السمع سعيد بن سمره الكاتب، فقد وصفه العماد بأنه: «سمع الخاطر، جواد القريحة، مجيب الروية، مصيب المعاني الرائقة، مجيد لنظم الكلم الفائقة^(٧)». وبعد هذه

(٢) هد: انحل وأهلك.

(١) الغيد: النعومة.

(٤) الواقي بالوفيات ١٢٤/٨ «مصور».

(٣) الواقي بالوفيات ١٢٤/٨

(٥) حاول القاضي الفاضل أيضا مصاولة الحريري، ولكنه أخفق. الغيث المسجم ٣٤٥/١

(٧) الخريدة ٢٦٤/٢

(٦) الواقي بالوفيات ١٢٥/٨

النعوت التي يتوقع الباحث ان يكون صاحبها عند حسن الظن ، اذا بالعماد يورد لابي السمع ، فيما اورد له ، قوله :

وَادِدُ دُوَادَا، وَرَاعِ ذَا وَرَعٍ وَدَارِ دَارَا إِنَّ زَاغَ أَوْ زَارَا
وُزَّرَ وَدُودَا، وَأَذِنَ ذَا أَدَبٍ وَذَرَّ ذَارَاهُ إِنَّ زَارَ أَوْ زَارَا

وقد نظمهما الشاعر لان بعض الصدور^(١) سامه ان يعمل شيئا على نحو هذا البيت :

زَارَ دَاوُدُ دَارَ أَرْوَى وَأَرْوَى ذَاتُ دَلٍّ إِذَا رَأَتْ دَاوُودَا^(٢)

وبعد : فان النماذج المتقدمة انما تدل على الدرك الذي هبط اليه بعض الناطمين في القرن السادس ، حتى صار شعرهم اشبه برقى العقارب ، كما قال ابن الاثير^(٣) ، اصف الى ذلك ان المرء لم يعد يدري اجاد صاحب الخريدة ام هازل في تلك الصفات والنعوت التي خلعتها - بلا حساب - على امثال ابي المعالي الحظيري وابي السمع الكاتب؟

٢ - الفارسية :

ان قرب العراق ومجاورته لايران جعل العلاقات بين الفرس والعراقيين تختلف اختلافا كبيرا عن العلاقات بين ايران واي قطر عربي آخر ، اصف الى ذلك ان الفرس شيعة منذ عهد بعيد^(٤) ، ومراقد أئمة الشيعة تملأ المدن والقصبات العراقية ، فصار الشيعة في العراق يشعرون بان الفرس اخوانهم في المذهب والعقيدة ، ومن هنا صار كثير من العراقيين ، ولا سيما سكان المناطق التي فيها مراقد الائمة ، يجيدون اللغة الفارسية .

وفي القرن الرابع كان العراق اقليما تابعا للدولة البويهية التي كان مركزها في ايران ، وقد طبع ملوك هذه الدولة على مسكوكاتهم كلمة «شاهنشاه» وهو لقب ملوك ايران قبل الاسلام^(٥) .

ولا بد ان الشعور القومي لدى الفرس ظل ضعيفا اذا ما قورن بالشعور الديني الاسلامي الذي يجمعهم مع العرب ، ولا سيما في فترات قوة السلطة العربية في بغداد قبل القرن السادس ، على الرغم من اشارات بعض المؤرخين الى ان «الهبات القومية منذ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وجهت الى اللغة العربية وادبها نقدا مريرا جائرا في اكثر الاحيان ، وكان ذلك حربا تشنها الشعوب الاسلامية غير العربية لاستعادة التقدير الذاتي

(١) الصدور : يريد بهم الاعيان أو الوجهاء .

(٣) المثل السائر ص ١١٦ (المط . البهية) .

(٥) نفسه ص ١٠٥

(٢) الخريدة ٢/٢٦٦
(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٩٨

لنفسها عن طريق القيم الأدبية التي اخذت تنتجها او تنكرها^(١).

ومن مظاهر الشعور القومي لدى الفرس، الفردوسي صاحب الشاهنامه ومساعيه لإعادة القومية الفارسية الى ما كانت عليه قبل الاسلام^(٢).

وقد اشار ابو الطيب المتنبي الى تعاظم نفوذ اللغة الفارسية في ايران حين قال من قصيدة:

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللِّسانِ^(٣)

بل ان المستشرق بارتولد يشير الى ازدهار الأدب الفارسي في القرن الرابع واوائل القرن الخامس في القسم الشرقي من ايران خاصة^(٤).

وبيدولي ان الامور تطورت الى ما هو ابعد مما تقدم في القرن السادس، حين سيطر الاعاجم على الكثير من مرافق الحياة في عاصمة الخلافة بغداد، بحيث قل دور العنصر العربي في الادب والثقافة بصفة عامة^(٥).

وليس من المستبعد أن يكون العرب، أو بعض المثقفين منهم، قد شعر بهذا السيل الأعجمي واحس بان الامور تسير من سيء الى اسوأ، فدعا الى ضرورة الوقوف بحزم في وجه هذا التيار الخطر عن طريق بذل جهود مضاعفة للعناية باللغة العربية، واحياء تراثها، وبيان فضائلها ومزاياها، وتحبيبها الى الجيل الجديد.

وقد يكون تأليف كتب مثل «أسرار العربية» لكمال الدين عبد الرحمن بن الانباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ^(٦)، و«المُعرب» لابني منصور موهوب بن احمد الجواليقي توفي سنة ٥٣٩ هـ^(٧)، الذي قال عنه ابن خلكان: «ولم يعمل في جنسه اكثر منه» اقول ربما كان صدور هذه الكتب من علماء العربية، يمثل مظهرا من مظاهر الاتجاه الذي اشير اليه.

وفي الشعر، وخاصة في مدح الخلفاء، نجد اشارات قد تدل على التعصب للغة العربية، وهي ابيات يزعم فيها اصحابها - وهم يمدحون الخلفاء - ان شعرهم بدوي اعرابي، على الرغم من حياتهم في الحضر، كقول ابن التعاويذي:

عُرْباً أنسابُها تَعْرِفُها مِنْ قَوافِها وَمِنْ أوزانِها

(١) دراسات في الأدب العربي ص ٤٦ - ٤٧

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٣، حول الادب في العصر السلجوقي ص ١١٤

(٣) ديوان المتنبي/ شرح العكبري ٢٥١/٤ (٤) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٨ - ١٠٩

(٥) الادب في العصر الايوبي ص ٥٢ (٦) وفیات الاعيان ٢/ ٣٢٠

(٧) نفسه ٤/ ٤٢٦

بَدَوِيَّاتٍ إِذَا حَاضَرَتْهَا فَاحَ عَرَفُ الشَّيْحِ^(١) مِنْ أَرْدَانِهَا^(٢)
وقوله:

بَدَوِيَّةٌ حَضَرِيَّةٌ، كَرُمْتُ مَنَا سِبْهَا - إِذَا اتَّسَبْتُ - عَنِ الْإِقْرَافِ^(٣)
وقوله:

بَدَوِيَّةٌ، حَضَرِيَّةٌ، فَاحُكُمُ لَهَا بِفَصَاحَةِ الْبَادِي وَلُطْفِ الْحَاضِرِ^(٤)
وقال الابله البغدادي:

شَعْرُ يَفُوحِ الشَّيْحِ مِنْ أَثْنَائِهِ عَبَقًا، وَمَا جَاوَزْتُهُ بَغْدَادًا^(٥)
وقال:

كُلُّ غَنَاءٍ الْقَوَافِي تَجْتَلَى فِي رِذَاءٍ مِنْ أَوْزَانِهَا
تَحْسَبُ الزُّرُورَاءُ^(٦) نَجْدًا كُلَّمَا فَاحَ عَرَفُ الشَّيْحِ مِنْ أَرْدَانِهَا^(٧)

ويغلب على الظن ان مدرسة الحيص بيص الشعرية، بكل ما عرفت به من ولع بالاساليب القديمة في الشعر، وشغفها بالمفردات التي لم يعد يعرفها الا خاصة العلماء في القرن السادس^(٨)، وكذلك لجاجة الحيص بيص نفسه في الفخر بانتسابه الى تميم في قسم كبير من ديوانه، مثل قوله:

فَلَا تَضَطَّلُوهَا إِنَّهَا دَارِمِيَّةٌ مَوَاقِدُهَا هَامُ الْمُلُوكِ الْأَغَالِبِ
سَاضِرُمُهَا حَمْرَاءُ، يَنْزُو^(٩) شَرَارُهَا عَلَى جَنَابِ الْقَاعِ نَزْوُ الْجَنَادِبِ
بِكُلِّ تَمِيمِيٍّ كَأَنَّ قَمِيصَهُ يُلَاثُ^(١٠) بَغْضَنِ الْبَانَةِ الْمُتَعَاقِبِ^(١١)
وقوله:

وَفَتَيَانِ صِدْقٍ مِنْ تَمِيمٍ تَنَائَلُوا^(١٢) دُرُوعَهُمُ وَاللَّيْلُ ضَافِي الْوَشَائِعِ^(١٣).

(١) الشَّيْحُ: نبات طيب الرائحة ترعاه الدواب.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٤٨

(٣) نفسه ص ٢٨٧، والاقراف: أن يكون الأب غير ع، في النسب، وهو عيب.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧١، وانظر ص ٣٣٠ البير ٩.

(٥) ديوان الابله و ٣٢.

(٦) ديوان الابله و ١٥٤.

(٧) ينزو: يثب.

(٨) انظر الفصل الثاني: شيوخ المحافظين ص ٦٩.

(٩) يُلَاثُ: يلف ويعصب.

(١٠) يُلَاثُ: يلف ويعصب.

(١١) الديوان ٧٢/١ - ٧٣، المتعاقب: المتمايل.

(١٢) الوشائع: لغائف القطن أو الغزل وقد استعملت هنا مجازاً.

وكنْتُ اذا ما ساوَرْتَنِي كَرِيهَةً
بَرَزْتُ لَهَا فِي جَحْفَلٍ مِنْ مُجَاشِعٍ^(١)
وقوله:

عَلِقَتْهُ وَالصَّبَا غَضُّ الْأَدِيمِ
يَحْسُنُ التَّاجَ عَلَى مَقَرِّهِ
يُنْهَلُ^(٣) وَالصُّعْدَةُ^(٤) مِنْ أَقْرَانِهِ
وَيُلْبِي طَارِقَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ^(٥)
مُهْمَلِ الْوَفْرَةِ^(٢) مِنْ آلِ تَمِيمٍ
نَاشِراً فِي يَوْمِ بُوْسٍ وَنَعِيمٍ

ان الفخر بالانتساب الى العرب، ونظم الشعر بلغة واسلوب لا يمت الى القرن السادس بصلة، هاتان الصفتان تبدوان غريبتين في عصر اكتسحت فيه العجمة والاعاجم كل شيء في الحياة العربية العباسية، ولذلك فمن المحتمل ان تكون مدرسة الحيص بيص - وافرادها لا يزيدون على اربعة كما سبق ان اشرت^(٦) - قد نشأت كرد فعل عربي للتيار الاعجمي الوافد.

وبعد هذا الذي قدمت، يبدو منطقياً أن تقل الالفاظ الفارسية في الشعر العربي العراقي، وقد مرت قصيدة ابن القطان وما فيها من الفاظ فارسية، مع الاشارة الى اسباب ذلك^(٧).

ومن الالفاظ الفارسية ايضا «بَسَى»^(٨) اي حسبي، في قول ابي الفتح^(٩) بن قِران:
بَسَى مِنَ الزُّهْدِ بَسَى قَامَتْ^(١٠) مِنَ الزُّهْدِ نَفْسِي^(١١)
ومنها كلمة «الدَّرْد»^(١٢) أي الغم، في قول العلاء بن علي الواسطي، من ابیات:
وَأَقْتَرَحُوا النَّارَ وَالْخُلُودَ بِهَا عَلَى النَّعِيمِ الْبَاقِي، مِنَ الدَّرْدِ^(١٣)
وكلمة «بِرْطِيل»^(١٤) اي رشوة في قول خال مهذب^(١٥) الدولة:

(١) ديوان الحيص بيص ٧٥/١

(٢) الوفرة: الشعر المنجم على الرأس، أو ما سأل على الاذنين منه

(٣) ينهل: من النهل وهو الشرب الأول.

(٤) الصعدرة: القناة المستوية.

(٥) ديوان الحيص بيص ٨٨/١، وانظر ٨٥/١، ٩٢، ٩٥، ٩٩، ١٠٢، ١٠٨، ١٣٥، ١٣٧

(٦) أنظر: الفصل الثاني - شيوخ المحافظين ص ٥٢

(٧) أنظر: الفصل الثالث: اهجاء ص ١٦٠، ١٦٢ - ١٦٣

(٨) شفاء الغليل ص ٤٥، الالفاظ الفارسية المعربة ص ٢٣

(٩) قال عنه العماد: «كان في أيام المقتفي شيخاً مطبوعاً، مربوعاً بحضب... الخريدة ٣٤٢/٢

(١٠) لعلها قاءت، كما قال محقق الخريدة (١١) الخريدة ٣٤٣/٢

(١٢) الالفاظ الفارسية ص ٦١ (١٣) الخريدة: ٣٨٤/٤

(١٤) شفاء الغليل ص ٥٠، الالفاظ الفارسية ص ٢٠

(١٥) أنظر: الفصل الأول ص ٥ هامش ٢

إِنَّ الَّذِي يَكْسِبُهُ زَوْجُهَا تُعْطِيهِ لِلنَّائِكَةِ بِرُطِيلًا^(١)

وكلمة «نكريش»^(٢) اي لحية جيدة في قول البديع الاسطرلابي :

قَالَ قَوْمٌ عَشِقْتُهُ أَمْرَدَ الْخَدِّ دَ، وَقَدْ قِيلَ، إِنَّهُ نَكْرِيشُ
قُلْتُ: فَارْخُ الطَّائِوُسِ احْسِنْ مَاكَ نَ إِذَا مَا عَلَا عَلَيْهِ الرَّيْشُ^(٣)

وكذلك من الالفاظ الفارسية كلمة «البُخْت»^(٤) اي الحظ في قول ابن التعاويذي :

فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهَا بَخْتَ الْقَبَاحِ^(٥)

٣ - اللغة :

ان الضعف الذي اصاب الدولة العربية العباسية في أواخر العصر العباسي ، حين تقلصت مساحتها وانكمش نفوذها وسيطر الاعاجم والاجانب على كثير من جوانب الحياة فيها ، حتى صار العنصر العربي كالغريب في دولة يفترض ان العرب هم المتغلبون فيها . ان تلك العوامل لا بد ان ترك اثرها على اللغة العربية ، فلم يعد الاهتمام بها وحرص الناس على تعلمها ودراسة علومها المختلفة كما كان ايام قوة العباسيين ، كذلك لم يعد التشبه بالاعراب مطمح المثقفين ، ولا الخوف من اللحن والخطأ الاعرابي يؤرق احدا ، وليس بين شعراء الفترة من يقارن بالمثني او البحتري او ابي تمام او سواهم ممن عرفوا بمتانة اللغة وسعة الاطلاع على اجود الاساليب وامتنها ، لقد تبدل المجتمع وتبدل اولئك الذين كانوا يعدون الخطأ اللغوي مساويا للكفر والاشراك بالله تعالى .

ان اللغة كائن حي ، تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره وهي تتطور بتطور هذا المجتمع ، فترقى برقيه ، وتنحط بانحطاطه^(٦) .

وحين لم يستطع الحريري صبرا في اواخر القرن الخامس فألف «درة الغواص في اوهام الخواص» مشيرا ومحذرا من الاخطاء اللغوية والانحرافات التي شاعت في لغة الطبقة الرفيعة ، ! بعد ان كثرت المؤلفات التي تعنى بالاختفاء اللغوية الجارية على السن الجماهير^(٧) ، اقول ان هذا العالم ، بسبب كتابه القيم السالف الذكر ، تعرض لحملة شعواء من علماء القرن السادس ، الذين «لم يعودوا يستطيعون ادراك الفروق الاساسية بين العربية

(١) الخريدة ٤/ ٥٤٤

(٢) شفاء الغليل ص ٢٢٤ ، الالفاظ الفارسية ص ١٥٤ (٣) وفيات الأعيان ١٠١/٥

(٤) شفاء الغليل ص ٤٢ ، الالفاظ الفارسية ص ١٧ (٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٢

(٦) لحن العامة ص ٣٠ ، وانظر أيضا : اللغة والمجتمع ص ٨٠٦

(٧) لحن العامة ص ٩٧ - ١٠٠

الفصيحة والعربية المولدة، فاتجهوا الى الاعتراف بالفاظ وقوالب وتعبيرات مولدة، بل شعبية دارجة احيانا، على انها صحيحة في العربية الفصيحة، مادام قد ثبت ورودها في كتابه القرون الثلاثة الاسلامية الاولى^(١).

أ - ركة التعابير :

ان ولع الشعراء بتبسيط لغتهم وجعلها في متناول ادراك اوساط الناس، الذين ضعفت لغتهم ومداركهم اللغوية الى حد بعيد، ارفعهم في مزالق اسلوبية ولغوية، جعلت طائفة من شعرهم تبدو بلا طعم ولا لون ولا رائحة.

وغني عن البيان ان ركة التعبير هذه تبدو اكثر وضوحا عند الشعراء الذين وصلتنا دواوينهم كابن التعاويذي والابله، اما الشعراء الذين اورد العماد الاصفهاني مختارات من شعرهم في خريدته، فان الركيك من تلك القصائد اسقطه العماد في كثير من الاحيان^(٢).

ومن حق الحيص بيص ان يفخر لانني لم استطع ان اقف على شعره يمكن ان يوصف بالركة، بالرغم من طول قصائده، وكثرة اشعاره التي وصلتنا.

ولعل تمكن الشاعر من لغة المضاد، وطول باعه في معرفة الاساليب المتينة القديمة، وكذلك ترفعه وعزة نفسه فلم يسف مثل معاصريه فيمدح كل من هب ودب،^(٣) اقول لعل هذه العوامل كانت من اسباب هذا التماسك الواضح في اشعار الحيص بيص.

فمن ركة التعابير قول ابن التعاويذي :

لَمْ يَزَلْ يُنْذِرُ بِالْخِصْبِ بَ رَبِّا الْحَزْنِ^(٤) الظُّمَاءُ^(٥)

وكان الصواب ان يقول «يُشَر» بدل «يُنذر»، لان الانذار لا بد فيه من شر، والخصب كله خير.

وقال :

وَأُثْقِلَ أَهْدُ بِهِنَّ ظَهْرِي لَقَدْ عَرَضْتُ نَفْسِي لِلْبَلَاءِ^(٦)

ان عجز البيت ليس من الشعر في شيء، بل من الكلام المعتاد الذي يردده الناس كل

(٢) الخريدة ٢/ ٢٣، ٢/ ٢٩٧، ٢/ ٣٢٢

(١) العربية ص ٢١٢، ٢٢٢

(٣) انظر: الفصل الثاني: شيوخ المحافظين ص ٥٨ - ٥٩، ص ٦٩

(٤) الحزن: ما غلظ من الارض، وقلما يكون إلا مرتفعا،

(٦) نفسه ص ١٤

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٩

يوم حين تنزل بهم الكوارث، او حين يخشون ان تنزل بهم.

ومثل البيت المتقدم قوله يهجو:

وجهُ يحيى ابنِ بَخْتِيَارٍ اذا فَكَّرَ كَرَّرَتْ فِيهِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْحَاءِ^(١)

ان قوله: «اذا فكرت فيه من سائر الانحاء» يشبه «لقد عرضت نفسي للبلاء» ما كنت احسب ان شاعرا كبيرا كابن التعاويذي، يقول مثلهما.

وقال:

وَجَدْتُ يَخْفِضُ الْحُسَادَ عَالٍ وَنَصِرُ يَقْهَرُ الْأَعْدَاءَ غَالِبٌ^(٢)

قوله «يخفض الحساد» من التعابير القلقة، لان يخفض في هذا المعنى تكاد تكون ذات دلالة نحوية، من الخفض اي الجر عند الكوفيين، وكان على الشاعر ان يستعمل بدلها «يغيظ». ولعل ابن التعاويذي اراد المطابقة بين «يخفض» و«عال» فخانه التعبير وخذلته الشعرية.

وقال:

يَا مَلِكاً ذَلَّلَ الْمُلُوكَ بِتَرْ غَيْبٍ يَدٍ تَارَةً وَتَرْهَيْبٍ^(٣)

وواضح ان «يد» زائدة على البيت، اجتلبت للوزن.

وقال الابله البغدادي:

شَأَى فِي رَأْيِهِ قَيْساً وَأَزْرَى بِمَنْطِقِهِ عَلَى قَسِّ الْأَيْدِي^(٤)

قوله «قس الايادي» الشائع المشهور «قس اياد» وتعبير الابله ثقیل.

وقال:

مُذْ قَدَحَ الْخُدَّ مِنْهُ فَلِلْغَرَامِ انْقِدَاحٌ^(٥)

فما معنى «انقذاح الغرام»؟ ان سعي الشاعر وراء الجناس بين قدح وانقذاح هو الذي اساء الى لغته.

ومن شعر ابن التعاويذي:.

(١) نفسه ص ١٤

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧

(٣) ديوان الابله و ١٨٣

(٤) نفسه ص ٢١

(٥) نفسه و ١٨٥

وَعَدَوْتُمْ ذَا قُدْرَةٍ فَفَتَكْتُمُ، وَاللَّهُ أَقْدَرُ^(١)

والصواب: ذوي قدرة، ولكن الوزن لم يسعف الشاعر.

وقال طلحة النعماني:

وَسَعَدُ الْقَوَافِي مِنْ عِلَاكَ قَبُولُهَا وَقَدْ رُبَّمَا يَأْتِي عَلَى الْعَمَلِ الْحَبْطُ^(٢)
قوله: «وقد ربما» من التعابير الركيكة جدا، لأن حرف ت قليل واحد يكفي.

وقال أيضا:

بِالْجُودِ طِينَةُ رَاحَتِهِ كِلَيْهِمَا وَالتَّاجُ مِنْهُ جَبِينُهُ وَالْمَفْرِقُ^(٣)
والصواب: كليهما.

وقال أبو نزار^(٤) عبد الله بن محمد الزيدي:

نَشَدْتُكَ يَا جَارَةَ الْجَامِعِ أَهْلٌ مِنْ قِرَى لِفَتَى الْقَانِعِ^(٥)؟
جمع بين الهمزة وهل من ادوات الاستفهام.

وقال الحسن^(٦) بن عبد الواحد الشهرباني:

قَبَّحَ اللَّهُ بَاخِلًا، لَيْسَ فِيهِ طَمَعٌ وَاقِعٌ لِمَنْ يَرْتَجِيهِ
سِفْلَةً، إِنْ قَصَّدْتَهُ يَتَلَقَّا كَ - عَلَى فَرَسَخٍ - بِكِبْرِيَّتِهِ
أَحْمَقُ، رَأْسُهُ إِذَا فُتِّشَوْهُ وَجَدَوْهُ بِضِدِّ اسْمِ أَبِيهِ^(٨)

أ - قوله: سفلة: خطأ، لأنه لا يطلق إلا على الجمع^(٩).

ب - قطع الشاعر همزة «اسم»، وهي همزة وصل.

(١) ديوان ابن المتمايزي ص ٢٣٢

(٢) الخريدة ٢/ ٢٤، وأنظر هامش المحقق رقم ١١، والحبط: ذهب العمل سدى.

(٣) الخريدة ٢/ ٣٩، وأنظر هامش المحقق رقم ٩

(٤) قال العماد عنه: «والشريف الجليل الكامل أبو نزار، عبد الله بن محمد، بن يحيى، بن عمر، الحسيني الكوفي...» الخريدة ٤/

(٥) الخريدة ٤/ ٢٦٥، وأنظر الهامش.

(٦) كل الذكر الذي ذكره العماد في التعريف به هو قوله عنه: «المعروف بابن عجاجة المعلم» الخريدة ٢/ ٣٢٥

(٧) نسبة إلى «شهرابان»، قال ياقوت إنها: «قرية كبيرة عظيمة، ذات نخل وبساتين، من نواحي الخالصة، في شرقي بغداد...»

(معجم البلدان... شهرابان).

(٨) أنظر اللسان والصالح (سفل).

(٩) الخريدة ٢/ ٣٢٥، وأنظر الهامش.

ولا شك ان الجانب الصرفي او الاشتقاقي من اللغة، له دور بارز في اظهار براعة الشاعر، اذا احسن الاستفادة من الصيغ المناسبة في المكان المناسب، كذلك قد يدل سوء اختيار بعض الصيغ على ان الشاعر قد خافه التوفيق فلم يحسن الاستفادة من كثرة المفردات التي تمده، بهالغة الضاد، وهكذا تبد وطائفة من المفردات قلقة نابية، عليها سيماء التكلف، فتطيح بشطر لا يستهان به من رونق الشعر وجماله.

فمثلا قال ابن التعاويذي:

فإليك رائقة المعاني جَزَلَةٌ الـ الفاظِ تُسهِّلُ في عِلاكِ وتُجَبِّلُ^(١)

ان اشتقاق آخر كلمة في البيت من الجبل، وهو جامد، اشتقاق غير معروف في اللغة العربية، ويسميه رجال اللغة «القياس الخاطيء»^(٢)، لان الشاعر قاس «يجبل» على «يسهل»، واشتقاق الفعل الثاني معروف متداول، بعكس يجبل.

وقال:

رَبُّ الْمَذَاكِي^(٣) الْجِيَادِ مُقَرَّبَةٌ^(٤) وَالنُّصْلُ عُرْيَانٌ غَيْرُ مَقْرُوبٍ^(٥)

لقد صاغ الشاعر اسم مفعول من القرب أي غمد السيف، فقال: مقروب وكان من حق اللغة على الشاعر في هذا الموضع ان يقول: والنصل عريان غير مغمد، ولكن الوزن والقافية، وكذلك الجناس بين مقربة ومقروب، هي العوامل التي دفعت الشاعر وشجعتة على ان يلجأ الى اسم مفعول كاد ينسى رغم وجوده في كتب اللغة. وقال:

وَهَلْ مَقَلْتُ قَبْلَهُ مُقَلَّتَاكَ أَدْنَى وَأَسْقَطَ مِنْ هِمَّتِهِ^(٦)

مقلت . . مقلتك، اي نظرت او ابصرت عينك، والمقلة: شحمة العين ولم يشع في العربية المألوفة الاستعمال مقل، بمعنى ابصر او نظر، على الرغم من وجود هذا الفعل في القواميس، لان الموعول عليه في الادب ليس الجائر من الناحية اللغوية، بل الحسن المختار^(٧)، وكان الشاعر يستطيع ان يقول: وهل نظرت قبله مقلتك . . ولكن الشاعر - على الارجح - اراد الجناس: مقلت مقلتك فسقط.

وقال:

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٠

(٣) المذاكي: الخيول.

(٢) لحن العامة ص ٤٢

(٤) مقربة: هي الخيول التي تقرب مرابطها ومعالفها لكرامتها.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٠

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٦٢

(٧) المثل السائر ص ١١٢ (الط. البهية).

أَوْدَى بِجَدَّتِهِ الْمَشِيبُ، فَاخْلَقَتْ أَثْوَابُهُ وَاسْتَرْجَعَتْ عَارَاتُهُ^(١)

ان «عارات» التي ختم بها الشاعر بيته، جمع عارة، وهي بمعنى العارية^(٢)، وجمع عارة على عارات غير مشهور، وانما المشهور عَوَارٍ وعَوَارِي، وكان يجب على الشاعر ان يختار من جموع الكلمة اقربها الى الشاعرية وأشهرها في التداول والاستعمال^(٣)، اذ ليس كل ما في كتب اللغة وقواميسها صالحا لنظم الشعر وحوك القصيد.

وفي شعر ابن التعاويذي نماذج اخرى من الاشتقاق غير المألوف او الصياغة التي كان على هذا الشاعر الكبير ان يتجنبها، وسأكتفي هنا بالاشارة اليها:

قال:

رَبُّ النَّدى وَكَاشِفُ الدِّغْمِ. اذا الهمَّ تَرَحَّ^(٤)

وقال:

له المَوْرِدُ العِدُّ الغَزِيرُ، وماؤُهُ على كَثَرَةِ الوَرَادِ لا يَتَضَخَّضُ^(٥)

وقال:

ذو شِيَمٍ قد فَخَرَ الذِّهْرُ بهنَّ وَبَجَحَ^(٦)

وقال:

شِعْرٌ ولكنْ اذا أَحَقَّقْتَهُ حِكْمٌ نَظْمٌ ولكنْ اذا أَقْوَمْتَهُ دُرُرُ^(٧)

فاذا كان ابن التعاويذي، وهو شيخ شعراء القرن السادس، تصادفنا في ديوانه امثال الهفوات والسقطات التي سبقت الاشارة اليها، فكيف حال دواوين الشعراء الآخرين، ممن لم يخطر ببال أحدهم ابدا أن يذكر في يوم من الايام مع ابن التعاويذي؟ ان ضياع بعض الدواوين، قد ساعد دون شك على اطلاق اسم الشاعر على قوم لا يستحقونه.

ب - العامية:

ان غزو العامية وتسللها الى اللغة العربية الفصحى يرجع الى زمن بعيد جدا عن القرن

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٦٣

(٢) انظر دعر، في كتب اللغة.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٠٠

(٤) نفسه ص ١٠٠

(٥) ال السائر ص ١١٢ - ١١٣ (المط. البهية).

(٦) نفسه ص ٨٠

(٧) نفسه ص ٢٠١

السادس، اذ نجد اول كتاب يؤلف في لحن العامة من تأليف العالم اللغوي المشهور علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ^(١).

وفي القرن الثالث، وبسبب سيطرة عوام الاتراك على مقاليد الامور في قصر الخليفة، «وصل الامر اخير الى ان صار الوزير نفسه يتكلم باللغة الدارجة»^(٢)، بل «ان النحويين انفسهم في ختام هذا القرن، لم يكونوا يستعملون اللغة الفصحى في مسامراتهم ومحاوراتهم»^(٣).

وفي القرن الرابع كان من المظاهر البارزة، انتشار العامية الى جانب الفصحى، حتى اصبح اكثر الناس يتكلمون العامية «واقلمهم الفصحى، وصار لكل بلد عاميته»^(٤)، اما في القرن الخامس، فقد اشار الدكتور علي جواد الطاهر الى ان من شعراء هذا القرن، «من ابتعد عن المؤلف الموروث في الشعر العربي، فلا يتقيد باختيار اللفظة، ولا يتقيد بفصاحتها، انما يعتمد - بقصد - الى المبتذل والعامي وحتى الدخيل . . واكثر ما ترد هذه المفردات في شعر السخف حيث يستعملها الشاعر قاصدا عامدا، وكأنه يضيف الى اثره قوة جديدة، ويوفر عليه شرطا من شروطه التي اذاعها ابن الحجاج ووطد اركانها»^(٥) . .

ويغلب على الظن ان العامية في القرن السادس، قد سيطرت على معظم النتاج الشعري، وخاصة في غرضي السخف والهجاء لهذه الفترة، وان يد الضياع لولم تمتد الى معظم ما انتجه الشعراء في هذين الغرضين^(٦)، لكان موقفنا قد تغير من شعر هذا القرن عامة، ولا طلعنا على الفاظ عامية، بغدادية، او عراقية، تفوق كثيرا ما وصل الينا فعلا .

وعندي ان مما يرجح الافتراض المتقدم، هو ان نجد العامية قد تسللت الى مدائح كبار شخصيات العصر، ومنهم الخلفاء وصلاح الدين الايوبي والقاضي الفاضل وهي مدائح يفترض ان الشاعر كان حريصا على ان يتجنب فيها كل ما يثير حاشية الممدوح من علماء ونقاد، اعتادوا على مهاجمة الشعراء بسهام النقد .

اما مدائح الخلفاء، فمنها ان ابن التعاويذي قال في مقدمة قصيدة مدح بها الناصر لدين

الله :

لِيَا لِيْ لِيْ عِنْدَ الْغَوَانِي مَكَانَةٌ فَالْحَاضِلُهَا تَرْنُو إِلَيَّ وَتَطْمَحُ^(٧)

(١) لحن العامة ص ١٠١

(٢) الغريبة ص ١٣٧

(٤) القاضي الجرجاني ص ٣٢

(٣) نفسه ص ١٤١

(٥) الشعر العربي ١٦٩/٢

(٦) انظر دراسة الهجاء ص ١٤٣، ودراسة السخف ص ٣٩٢

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٧٩

ان لفظة «مكانة» من العامي الذي لا يزال شائعاً حتى اليوم في العراق، وتعني: منزلة رفيعة سامية.

وقال من قصيدة اخرى مدح بها الناصر ايضا:

وَمُخْطَفٌ لُونِي اِذَا رَأَيْتُهُ يَنْخَطِفُ^(٢)

فلفظه «ينخطف» اي يصفر ويمتقع، من العامي الذي يتردد حتى اليوم على السنة العوام. واللفظ مستعمل في اغنية عراقية غرامية (ليش منشوف اهواي ينخطف لوني). ومعناها: لماذا حين اشاهد حبيبي يصفر وجهي؟

وقال من قصيدة في مدح صلاح الدين:

فَكَمْ جَمِيلٍ لَهُمْ وَصُنْعٍ يَدٍ عَلَى جِباهِ الْأَنَامِ مَكْتُوبٍ^(٤)

ان عجز البيت من تعابير العامة الشائعة حتى اليوم في العراق ومصر.

ومن التعابير العامة التي لج بها ابن التعاويذي، تعبير «كسّر الحاجات في الصدر» ومعناه: رجع خائباً لم يحصل على ما تمناه. ومن اغنية عراقية شائعة اليوم: وانا الحسرات كلها مكسرة بصدري:

قال يمدح القاضي الفاضل:

فَلَيْتَ شِعْرِي يَا زَمَانِي مَتَى أَخْرُجُ مِنْ دَائِرَةِ الشُّعْرِ؟
كُنْتُ تُدَايِنِي، فَمَا لِي أَرَى صَرْفَكَ قَدْ صَبَّحَ بِالشُّرِّ؟
فَرَدَّ آمَالِي مَقْبُوضَةً وَكَسَّرَ الْحَاجَاتِ فِي صَدْرِي^(٥)
وقال في قصيدة ثانية:

تُكْسَرُ الْإَيَّامُ حَاجَاتِي فِي صَدْرٍ بِأَدْوَاءِ الْخَطُوبِ وَاغِرٍ^(٦)
وقال في ثالثة:

وَأَنَّهُ كَذَبَ آمَالُهُ وَكَسَّرَ الْحَاجَاتِ فِي صَدْرِهِ^(٧)

(١) مخطف: ضامر، خفيف لحم الخنب.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧٨

(٣) أنظر مادة «خ ط ف» في اللسان والتاج.

(٥) نفسه ص ١٩١

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٠

(٦) نفسه ص ٢٠٧، وصدر واغر: مُتَبَدِّل من الغيظ.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٨٠

وفي ديوان ابن التعاويذي بيتان لا يمكن القطع حول معناهما: هل اخذه الشاعر من العامة، ام ان العوام هم الذين اخذوه من شعر ابن التعاويذي؟ فقد شاع ان شعراء العامة كثيرا ما يأخذون معانيهم من الاشعار الفصيحة، كما أن العكس هو الآخر معروف.

واشهر الامثلة على ما اقول بيت ابي العلاء المعري:

خَفَّفِ الوَطَةَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الدَّ
الأَرْضِ أَلَّا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ^(١)

اخذه المرحوم الشاعر الشعبي عبد الكريم العَلَّاف، فقال:

والارض كلها ارواخ خَفَّفَ مَشِيَتُكَ حَتَّى عَلَى المِيتِينَ عَمَّتْ أَذِيَتُكَ

وبيتا ابن التعاويذي هما قوله من قصيدة:

عَجَباً لَهُ يَشْتَاقُهُ قَلْبِي وَمَسْكَنُهُ الصَّمِيمُ^(٢)

وقال من قصيدة اخرى:

تَشْتَاقُ عَيْنِي أَنْ تَرَا كَ، وَأَنْتَ فِي سَوْدَائِهَا^(٣)

والبيتان قريبان جدا من قول شاعر العامة الذائع:

بِكَلْبِي وَكَوْلْ ابعِذْ، جَاوِزْ اضمك؟

والمعنى ان حبيبي في قلبي، وهو - مع ذلك - بعيد عني، فأين اخفيه ليكون اكثر قربا؟.

اما الغرضان اللذان تكاد العامة لا تفارقهما، وهما المجون والهجاء، فاحسب ان الشاعر في هذه الحالة يفقد شطرا كبيرا من قوة التأثير وبلاغة القول، اذا استعمل اللفظ القصيح، لان لكل مقام مقالا، وليس من المعقول ان يصيب الشاعر غرضه في المجون، بذكر العورات والسوءات، وهو يستعمل الالفاظ الفصيحة، كذلك لا يعقل ان يشتم الشاعر خصمه بالفصحى، لانه في هذه الحالة سيثير ضحك المهجو وتندرته. فالمعاني السخيفة، والصور الخليعة البذيئة، والافكار التي تأباها الاخلاق الكريمة، لا بد لها من لغة تناسبها، والفاظ تليق بمستواها، واسلوب يجسم غرض الشاعر، ويبرز ما يرمي اليه بوضوح ودقة.

فمن اهاجي ابن التعاويذي، قوله في بخيل:

(١) شرح التنوير على سقط الزند ص ٢٠٩

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٨٦

(٣) نفسه ص ٤٧٢

مُسْتَقْلُ الرُّوحِ لَهُ رَاحَةٌ إِلَى طَبِخِ الرِّبِّ مُحْتَاجُهُ
يَنْسِمِرُ الدِّينَارُ فِيهَا كَمَا يَنْسِمِرُ الْمِسْمَارُ فِي السَّاجَةِ^(١)
ان لفظة «ينسمر» اي يلتصق التصاقا شديدا، من العامي المستعمل حتى اليوم.
وقال يهجو ايضا:

مَا فِيهِ خَيْرٌ وَلَا حَيَاءٌ فَلَا يُغْدِي وَلَا يُعْشَى^(٢)
عجز البيت: لا زال حتى اليوم يستعمله العامة، حين ينعتون فردا بعدم الفائدة وقلة
المنفعة.

وقال خال مُهَذَّبِ الدولة:

لِي وَلَدٌ - وَلَا وَلَدَتْ أُمُّهُ - أَعَذُّهُ الدَّهْرَ فَمَا يَرْعَوِي
اللَّهُ قَدْ صَيَّرَهُ أَعْوَجَا يَا ذَنْبَ الْكَلْبِ أَمَا تَسْتَوِي^(٣)؟
ذنب الكلب، من تعابير العامة الشائعة حتى اليوم، للدلالة على الشيء الذي لا
سبيل الى ازالة اعوجاجه.

وقال الابله:

أَنْتَ مَا فَرَجْتَ كَرْبًا قَطُّ، يَا ثَوْرَ الْكَرَابِ^(٤)
ثور الكراب: اي ثور حرثة الارض، ولا زال الفلاحون حتى اليوم يضربون به
المثل في الغباء والبلادة.
وقال ايضا:

ثُمَّ دَعَا إِنْ وَسَطَتْكَ الْحَرَامِيَّةُ يَهْ طَرَقِ واسِطِ مَا احْتِيَالِي^(٥)
الحرامية: واحدها حرامي، اي اللص، من الفاظ العامة الشائعة جدا. وتوجد
نماذج اخرى من الفاظ العامة في غير الاغراض الشعرية المتقدمة.
ومن ذلك الفخر، في قول ابن القَطَّان:
شِعْرِي قَدْ بَطَّ جُيُوبُ الْوَرَى فَلَوْ أَرَدْتَ الْمَنْعَ لَمْ تَقْدِرِ^(٦)

(١) نفسه ص ٧٧

(٣) الخزينة ٤/٣٢٨

(٥) نفسه و ١٨٨

(٢) نفسه ص ٢٤٦

(٤) ديوان الابله و ١٨٨

(٦) الخزينة ٢/٢٧١

١ - بط: اي شق وفتح، من العامي الشائع اليوم في جنوب العراق، وخاصة في العمارة والبصرة.

٢ - جيب: واحد الجيوب، لم تعرفها العرب بهذا المعنى، لان الجيب عندهم هو فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس^(١).

ومن الغزل قول احد الشعراء:

أَذَاقَنِي حُمْرَةَ الْمَنَايَا لَمَّا اكْتَسَى خُضْرَةَ الْعِدَارِ
وَقَدْ تَبَدَّى السُّوَادُ فِيهِ وَكَارَتِي بَعْدُ فِي الْعِيَارِ^(٢)

قال ابن خلكان: «وكارتي»^(٣) بعد في العيار، من اصطلاح البغادة، ومعناها انه ناشب معه لم يتخلص منه».

ومن الغزل ايضا، قول ابن التعاويذي:

فَتَرْتُ إِذْ فَتَرْتُ أَلْ حَاطْهَا سَوْقُ الْمِلَاحِ^(٤)

جانس الشاعر بين فتور الالحاظ وفتور السوق، وهذا المعنى الثاني من العامي الشائع حتى اليوم بين الباعة والتجار في الاسواق، اذ يقولون: ان السوق فاترة يريدون ان البيع والشراء قليل، وهو ما يعبر عنه احيانا بالكساد الاقتصادي، وقد كرر الشاعر استعمال «فتر» فقال:

كَالطُّبِّي مَصْقُولِ التَّرَائِبِ فَاتِرِ الـ لَحَظَاتِ، مَا وَجَدِي عَلَيْهِ بِفَاتِرِ^(٥)
ومن العتاب قول ابن التعاويذي:

أَنْتَ وَلَيْتَنِيهِ مِنْكَ ابْتِدَاءُ غَيْرَ مُسْتَكْرَةٍ وَلَا مَجْبُورِ^(٦)

كلمة مجبور، اي مضطر، عامية، كثيرة الدوران على اللسان بين العامة في الوقت الحاضر.

ومن شعر احد عقلاء المجانين ببغداد، كما يقول العماد:

(١) انظر هامش الخريدة في الصفحة المشار إليها.
(٢) وفيات الأعيان ١٠١/٥
(٣) الكارة: الحزمة الكبيرة.
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٣
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٧، والنص: مصفود الترائب...
(٦) نفسه ص ٢١٤

لا يَغْرُنْكَ الَّلِبَاسُ ليسَ في الأثوابِ ناسُ
هُمُ - وإنْ نالوا الثُّرَيَّا - بُخْلَاءُ وَخِسَاسُ
كم فتى يُدعى رئيساً وهو في الخِصَّةِ راسُ
ويدُ تَصْلُحُ لَلْفَطِّ ع، تُغْدِي وتُبَاسُ^(١)

ان اسقاط الهمزة من كلمة «رأس» في البيت الثالث، من مظاهر العامية المعروفة^(٢)، ومثلها اسقاط همزة «انشأ» في بيت ابن المُعَلِّم:

مِنْ جَوْهَرِ العَلْيَاءِ أنْشَأَ الَّذِي خَلَقَ البَرِيَّةَ كُلَّهَا مِنْ طِينِ^(٣)
ومثلهما قول الابله:

وَمَنْحُوسٍ يُقَالُ لَهُ سَعِيدٌ لَهُ رَأْسٌ يَلِينُ لَهُ الْحَدِيدُ^(٤)
وقوله:

بَغَا القَفَا والعِرْسِ والكُوَّةُ رَخْوٌ، بَلَى فِي رَاسِهِ قُوَّةُ^(٥)
وفي ابيات الخريدة - السالفة الذكر - كلمة «باس» بمعنى قَبْلَ، وهي من العامي الذي اشار اليه صاحب شفاء الغليل^(٦).

والبيت الاخير من ابيات ذلك العاقل - المجنون، اخذه الشاعر العراقي المعاصر الدكتور احمد الوائلي، فقال من عينية معروفة:

وَيَدُ تُكْبَلُ، وَهِيَ مِمَّا يُغْتَدَى وَيَدُ تُقَبَّلُ، وَهِيَ مِمَّا يُقْطَعُ
٤ - وجوه البلاغة العربية:

ان دراسة اشهر النماذج من شعر القرن السادس، سواء تلك التي وصلتنا عن طريق دواوين الشعراء، ام التي اوردها صاحب الخريدة في كتابه، لا بد أن تقنع الباحث بحقيقتين تكمل احدهما الاخرى:

١ - ان مفهوم الشعر البليغ في اواخر الفترة العباسية، يختلف اختلافا بينا عما كانت عليه الحال في القرن الرابع والقرن الذي سبقته، فلم يعد المثل السائر والاستعارة

(٢) لح: العامة ص ٤٥، العربية ص ١٨٤

(٤) ديوان الابله و ١٨٨

(١) الخريدة ٣٢٤/٢، وانظر هامش المحقق.

(٣) ديوان ابن المعلم و ٥٩ (نسخة دار الكتب).

(٥) نفسه.

(٦) ص ٤٦

الرائعة والتشبيه الواقع^(١)، هي اهم ما يجب ان يشتمل عليه هذا اللون من الفن.

ان النماذج المتوفرة وآراء النقاد، واشهرهم العماد الاصفهاني، توحى بان أبلغ الشعر واجوده، في القرن السادس، هو الشعر الذي حرص صاحبه ان يجمع فيه اكبر قدر مستطاع من المحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس والطباق والترصيع، وكلما ازداد نصيب القصيدة او البيت من تلك المحسنات، ازداد اعجاب الناس بها، وهتاف النقاد وتصفيقهم لقائلها.

ويلاحظ في هذا الموضوع ان الجري وراء المحسنات البديعية، يكاد يكون الشغل الشاغل لجميع شعراء العصر، مع فارق واحد هو ان المحافظين من شعراء العصر وأشهرهم النخيص بيص، عرفوا كيف يخفون بديعهم، ويوارون تلك الالفاظ التي تعبوا في اصطياها وجمعها، حتى بدت قصائدهم وكأنها خالية من بدعة العصر.

أما رواد التجديد وعشاق التطور، ومواكبة احداث الصيحات في عالم الشعر، واشهرهم الابله البغدادي، فقد تكدست المحسنات في شعرهم، فغطت على الشعر نفسه، حتى بدا وكأن الشاعر يطلب البديع لذاته، او انه نظم شعره ليعرض على السامعين احداث ما توصل اليه في هذا الباب.

وسلك ابن التعاويذي مذهبا وسطا، فكان اذا مدح الخلفاء، مال الى الاسلوب القديم، وتجنب البديع الا ما جاء عفوا، ولكن شاعرنا اذا مدح رجلاً عرف بغرامه بالبديع كالقاضي الفاضل^(٢)، خيل لك انه من كبار البديعيين، كما يتضح - على سبيل المثال - في قصيدته الرائية^(٣)، وكذلك قصيدته اللامية^(٤).

ومن الادلة على ان البديع صار مقياس جودة الشعر عامة، قول ابن التعاويذي يصف شعره:

شعرٌ يُعلَّمُ نظمُ الشعرِ سامِعُهُ فيه طباقٌ وتجنيسٌ وترصيعٌ^(٥)
وقال يصف احدي قصائده:

جاءتْكَ حاليَّةٌ تراثبُها من التَّـ تجنيسٍ والتَّطْبِيقِ والترصيعِ^(٦)

(١) العمدة ١٢٢/١

(٢) دراسات في الشعر في ظل الابويين ص ٢٢١، ٢٠٢

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٠

(٥) نفسه ص ٣٣٣

(٦) نفسه ص ٢٧٦

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧٠

وواضح من هذين البيتين، ان الشاعر ينعت بالصفات التي اجمع معاصروه على انها مما يدل على بلاغة الشعر، وتمكن الشاعر من فنه.

وقال العماد الاصفهاني، يثني على ابيات فيها جناس: «انا استحلي هذا النوع من التجنيس واستعذ به، ويحسبه زلال الماء قلبي في الرقة والصفاء، فيشر به ويتشر به^(١)»، وقال عن قصيدة استولى الجناس على جميع الفاظها تقريبا: «هذه القصيدة من حقها أن تكتب بسويداء القلوب على بياض الاحداق، وقد احدثت بها حداثق من التجنيس والتطبيق والترصيع^(٢)»، وقال في الثناء على شاعر مغرم بالجناس مثل صاحب الخريدة: «كل شعر مجنس لا كشر غيره بالركة والعجمة مدنس...»^(٣) ومن هذا النص الاخير يبدو واضحا ان العماد يجعل تجنيس جميع ابيات القصيدة مما يبعدها عن الركة والعجمة.

ولعل مما يدل على اتساع موجة البديع هذه، ان الوعاظ وكبار العلماء اضطروا على مجارة الذوق العام، فحشروا نماذج منها في وعظهم وشعرهم، والف بعضهم كتبوا ليس فيها الا الشعر المجنس.

فأبو الفرج بن الجوزي، من علماء الحنابلة المشهورين بصناعة الوعظ، وكان مولعا بالتجنيس في لفظه والتأسيس وقد طرب اهل المجلس:- «فَهَمَّتُمْ، فَهَمَّتُمْ»^(٤)، وقال في قصة الذين عبدوا العجل: «لو أن الله خار لهم، ما خار لهم»^(٥). ولا يعقل ان يلجأ ابن الجوزي الى الجناس، لو لم يعلم ان الجمهور مفتون به.

وحين تأمر عُمارة^(٦) اليميني على صلاح الدين الايوبي، وكاتب المتآمرين اعداء الدين من الصليبيين في فلسطين، والنورمنديين في صقلية لغزو مصر، صلب عمارة بسبب ذلك، فلم يجد العالم المشهور، تاج الدين الكندي، المتوفى سنة ٦١٣ هـ، الا الجناس التام لقافية ابياته في عمارة:

(١) الخريدة ١٢٦/٨

(٢) نفسه ٢٣٣/٤

(٤) الخريدة/ نسخة ايران ١٢٨

(٣) نفسه ٢٢٨/٤

(٥) ذيل الروضتين ص ٢٢، فهمت: الأولى من الفهم، والثانية من الهيام.

(٦) ذيل الروضتين ص ٢٢، خار لهم: الأولى من الاختيار، والثانية من الخوار، وهو صوت العجل.

(٧) هو عمارة بن علي... أبو محمد، نجم الدين: مؤرخ ثقة، وشاعر فقيه أديب، من أهل اليمن، ولد في تهامة وقدم مصر برسالة من

أمير مكة إلى الفائز الفاطمي سنة ٥٥٠ هـ، فأحسن الفاطميون إليه وبالقوا في إكرامه، فأقام عندهم. صلب سنة ٥٦٩ هـ. وفيات الأعيان ١٠٧/٣، صبح الأعشى ٥٢٦/٣، السلوك ٥٣/١، «عمارة اليميني المصري» للدكتور ذو النون المصري.

وامسى شريك الشراك في بغض احمد
وكان خبيث الملتقى ان عجمته
سيلقى غدا ما كان يسعى لاجله
فاصبح في حب الصليب صليبا
تجد منه عوداً في النفاق صليبا
وسقى صديداً في لظى وصليبا^(١)

وقد الف ابو الحسن علي بن عنتر المعروف بشميم الحلي المتوفى سنة ٦٠١ هـ كتابه «انيس الجليس في التجنيس في مدح صلاح الدين»^(٢)، كذلك الف سعد بن علي الحظيري كتابا في التجنيس سماه «لمح الملح»، اثنى عليه العماد الاصفهاني، ونعته بـ «الكتاب النفيس»^(٣).

٢ - كان من نتائج الاتجاه الى البديع، وحسبانه قمة ما يطمح اليه الشاعر البليغ ان صار الشعر صناعة وتكلفا، ولم يعد وجدانا وعاطفة. ان الشاعر لم يعد يعبر عن مشاعر وأحاسيس وعواطف ملكت عليه نفسه ففاضت على قلمه شعرا لا تملك ازاءه الا الطرب والاهتزاز.

لقد صار الشعر في القرن السادس صناعة يحكمها العقل، ولا صلة لها - الا في النادر - بالعاطفة والاحساس. حبس الشعراء انفسهم داخل قوالب وقيد سموها البديع، ثم راحوا يصبون افكارهم في تلك القوالب الجاهزة، ولذلك يشعر القارئ ان شعرهم غدا عبدا للبديع وانواعه، فهزلت الافكار وضلحت ومطت القصائد وطالت، ففقدت اللغة التركيز وغزارة المعنى، وجاءت الاخيلة كسيحة باهتة، والصور مكررة بالية لا تحرك شعورا ولا تدل على شعور.

فاذا استطاع الشاعر ان يثور على البديع ويخرج على سلطانه - وهي حالات قليلة - قدر لنا حينئذ ان نستمع الى شعر جيد، ومنه بعض اهاجي ابن التعاويذي كقوله:

ألا مُنصِفٌ لي مِن ظالمٍ تملكني جوره واسترق؟
واصبحتُ مُرتزقا راحتيه وبش المعيشة والمرزق
قليل الصواب اذا ارتأى بذى اللسان اذا ما نطق
كثير التحيف في ظلمه اذا اخذ اللحم يوما عرق
يضمن على الناس من بخله بروح نسيم الصبا المتشقق

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٧، الصليب الأولي، النصارى، والثانية: بمعنى مصلوب. والثالثة من الصلاة.

والرابعة ذلك المظالم، وقيل هو الصديد.

(٢) معجم الأدباء ١٣١٠ ط. ماركليوث الثانية.

(٣) الخريدة ٤/ ٣٠

وَلَوْ كَانَ يَقْدِرُ مِنْ لَوْمِهِ حَمَى الطَّيْرَ أَنْ يَسْتَظِلَّ الْوَرَقُ
يُظَاهِرُ لِلنَّاسِ يَوْمَ السَّلَامِ لِبَاساً جَدِيداً وَعِرْضاً خَلَقَ
وَيَنْعَرُ فِي دَسْتِهِ مُجَلِباً فَتُقَسِّمُ أَنْ حِمَاراً نَهَقَ
... الخ^(١).

التشبيه :

سبق ان اشرت عند دراسة اغراض الشعر - ومنها المدح والهجاء والغزل الى ان معظم المعاني والافكار التي طرحها شعراء القرن السادس ، كانت مطروقة من قبل ، فلم يزد هؤلاء الشعراء على اعادة افكار سابقهم ولكن بالفاظ جديدة ، ولذلك فمن البديهي ان تجد معظم التشبيهات التي ترد مكررة معادة لا جديد فيها ، كتشبيه الكريم بالبحر في الجود ، وتشبيه الفارس الشجاع بالاسد ، ونعت الملك العظيم المكانة بالنجم في العلو والارتفاع ، او بالشمس :

مُلُوكُ الْبَرَايَا اَنْجَمٌ ، اَنْتَ شَمْسُهَا اِذَا الشَّمْسُ ذَرَّتْ غَابَتْ الْاَنْجَمُ الزَّهْرُ^(٢)
وهو قول النابغة الذبياني المشهور :

فَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَكَبُ
وظل الشعراء مثل اسلافهم يشبهون الوجه الجميل بالبدر :

وَأَزْهَرَ بِمِثْلِ الْبَدْرِ ، قَدْ طَافَ مَوْهِنًا^(٣) عَلَيَّ بِمِثْلِ الشَّمْسِ مِنْ قَرَقَفِ الْخَمْرِ^(٤)
كذلك بقيت العيون تشبه بالسيوف ، فاذا كان المتغزل به ذكرا قيل : انه شاهر سيفين ، اي سيفه وعينه :

شَاهِرَ سَيْفَيْنِ ، مُشْتَبِهٌ مِنْهُمَا ، سَاحٍ وَمَضْفُولُ
فَمَلَّوْهُ ، يُنَبِّأُهُمَا دَمُهُ فِي الْحَيِّ مَطْلُولُ^(٥)
لَمَحْظُهُ؟ أَمْ مَا تَقْلَدُهُ؟ فَكَيْلَا الْعَضْبَيْنِ مَسْلُولُ^(٦)

وقال الحظيري :

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٠٢ - ٣٠٣

(٣) الخريدة ١٤٦/٢

(٢) ذرت الشمس : بزغت وأشرقت .

(٥) الخريدة ١٦٢/٢

(٤) مَوْهِنًا : من الزهْن ، وهو نحو منتصف الليل .

(٦) دم مظلول : ذهب هدرا .

بَدَتْ قَمْرًا، وَرَنْتَ جُودْرًا وَمَالَتْ قَضِيًّا، وَوَلَّتْ كَثِيًّا^(١)

وهو قول المتنبي :

بَدَتْ قَمْرًا، وَمَالَتْ خُوطَ بَانٍ وَفَاحَتْ غَبْرًا، وَرَنْتَ غَزَالًا^(٢)

ومن الطبيعي ان يكون المومغلون في المحافظة، المفتونون بالقديم، وهم الجماعة التي يتزعمها الحيص بيص، هؤلاء من اكثر الشعراء اعادة وتكرار التشابه والصور القديمة، كقول الحيص بيص :

على حين ماؤدْتُ الصَّبَا عن صَبَابَةٍ ذِيَادَ المَطَايَا عن عِذابِ المَشَارِبِ^(٣)
وقوله :

فَسَطَاكَ مَوْتُ لِّلْأَعَادِي، قَاتِلُ وَنَدَاكَ لِلْعَافِينَ غَيْثُ صَيِّبٍ^(٤)

ومن التشابه القديمة التي لج بها الحيص بيص تشبيه الكريم بالسكران من فرط نشوة الكرم والاريجية، فقال :

نَشَوَانُ مِنْ ذِكْرِ الْعَلَاءِ كَأَنَّمَا فِي كُلِّ مَنَقَبَةٍ مُدَامَةٌ شَارِبٍ^(٥)
وقال ثانية :

نَشَوَانُ مِنْ رَجْعِ الْمَدِيحِ كَأَنَّمَا فِي كُلِّ قَافِيَةٍ حُمِيًّا رَاحٍ^(٦)
وقال في قصيدة ثالثة :

وَيَهْتَزُّ عِظْفَاهُ لِأَحْدَوْتِهِ^(٧) الْعُلَى كَمَا مَالَ لِلْكَأْسِ التَّزْيِفُ^(٨) الْمَرْنَحُ^(٩)

وبلاحظ ان شعراء القرن السادس، وهم يكررون ويعيدون تشابه اسلافهم من الشعراء المتقدمين، يختلفون في كيفية التصرف في تلك الصور المعادة كل بحسب شاعريته وقدرته، فمنهم من استطاع ان يعبر عن التشبيه القديم بلفظ فيه طرافة وحلاوة، فبدت الصورة القديمة بثوبها الجديد الانيق وكأنها بنت القرن السادس، ممتلئة شبابا وفتوة وجمالا، وهناك بعض التشابه القديمة زادت قدما وتضاعفت سنوات عمرها، بسبب اخفاق شعراء القرن السادس في اختيار الالفاظ او الثياب التي تلائمها.

(١) الخريدة ٤٠ / ٤

(٢) شرح ديوان المتنبي للمكبري ٢٢٤ / ٣

(٣) الخريدة ٢١٦ / ١

(٤) الخريدة ٢١٠ / ١

(٥) الخريدة ٢١٧ / ١

(٦) نفسه ٢٢٣ / ١

(٧) الأحدوت: الحديث.

(٨) التزييف: التمايل من فرط السكر.

(٩) الخريدة ٢٢٤ / ١

فعلى سبيل التمثيل، يقول ابن التعاويذي مادحا:

وَمَزَايَا مَآثِرٍ كَالْحَصَا يَنْدُ فَدُ مِنْ دُونِ عَدِّهَا الْإِحْصَاءُ^(١)
وهو من بيت الفرزدق:

لَنَا الْعِزَّةُ الْقَعْسَاءُ^(٢) وَالْعَدْدُ الَّذِي عَلَيْهِ إِذَا عُدَّ الْحَصَا يُتَحَلَّفُ^(٣)

وواضح ان كلمة «مزاياء» في اول بيت ابن التعاويذي، زائدة لا موجب لها سوى اقامة الوزن، والمبالغة في بيت الفرزدق طريفة مقبولة «يتحلف الحصى اذا عد بنا»، اي يعقد الحصى حلفاع غير ليستطيع مواجهة عددا. اما مبالغة ابن التعاويذي: «ينفذ الاحصاء من دون مآثر الممدوح»، فليس فيها فن ولا طرافة.

وقال الحيص بيص:

حُمَّ الْقَضَاءُ فَكَالَّذِي مُمَجَّدُ عِنْدَ الْمَمَاتِ، وَكَالْجَبَانِ مُصَمَّمُ^(٤)

وهو من بيت ابي الطيب المتنبي:

وَصَلْتُ إِلَيْكَ يَدُ سَوَاءٍ عِنْدَهَا الْبَاؤُ الْأَشْهُبُ وَالْغَرَابُ الْأَبْقَعُ^(٥)

ان صياغة المتنبي لا تدانيها لغة الحيص بيص، فان لفظة «دنيء» يجب ان توضع بازائها لفظة شريف مثلا، ولكن شاعر القرن السادس تكلف واشتط، فجاء بكلمة «ممجد». وكذلك في عجز البيت، فان الشجاع هو الذي يقابل الجبان، اما كلمة «مصمم» فهي لا تعوض عن الشجاع الا عند علماء اللغة من أمثال الحيص بيص.

اضف الى ذلك ان الاستعارة في بيت المتنبي «وصلت اليك يد» منحت البيت سحرا، عرف به شعر ابي الطيب.

ومن التشابيه الجيدة، قول الحيص بيص يمدح:

خَزَائِنُهُمْ أَيْدِي الْعُفَاةِ لِأَنَّهُمْ رَأَوْهَا عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ الْبَوَاقِيَا^(٦)

وهو قريب من معنى بيت ثان له، هو قوله:

فَكُنْ حَيْثُ الظُّنُونُ، فَكُلَّ كَسْبٍ سِوَى الذِّكْرِ الْجَمِيلِ إِلَى نَفَادٍ^(٧)

(١) العزة القعساء: الثابتة.

(٢) الخريدة ٣٤٧/٨

(٣) الخريدة ٣٣٤/٨

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣

(٥) شرح ديوان الفرزدق ص ٥٦٦

(٦) شرح ديوان المتنبي للمكبري ٢٧٤/٢

(٧) نفسه ٢٤١/١

ان المعنى قديم مشهور، ولكن تعبير الحيص بيص، هو الجديد الطريف «خزائهم ايدي العفاة»، اذ يقول الشاعر: ان هذا الرجل الجواد، لا يبدد امواله بتفريقها على المحتاجين، ولكنه يحفظها ويخزنها، وهو تعبير يحسد عليه الحيص بيص.

وتأمل قول الحيص بيص نفسه في الفخر:

فَاتَّقُوا وَثْبَةً لَيْسَ بِخَادِرٍ أَكَلَهُ الْمَوْتُ، إِذَا يُدْعَى نَزَالٌ^(١)
فالتشبيه البليغ اكله الموت، ليس بليغا، لان لفظة «أكل» لا تناسب الموت، وقد اراد الشاعر المبالغة في وصف شجاعته واقدامه.

ومن التشابيه المضحكة السخيفة، قول ابن التعاويذي:

يَمِيلُونَ مِنْ طَوْلِ السُّرَى فَكَأَنَّمَا عَلَى كُلِّ كُورٍ بَانَةٌ تَتَرَنَّحُ^(٢)
ان تشبيه المسافرين المتعبين، وهم يترنحون على ظهور الجمال، بشجر البان المتمايل، من التشابيه التي يدesh المرء ان تصدر عن امثال ابن التعاويذي ان مجرد تصور بانة ترنح على ظهر بعير، يثير الضحك حقا، لان البان اعتاد الشعراء ان يشبهوا به قدود النساء في اللين والاستواء. اما المسافرون المتعبون على ظهور الجمال، فقد شبههم ابو تمام بالاشباح:

وَرَكِبَ يُسَاقُونَ الرُّكَّابَ زُجَاجَةً مِنَ السَّيْرِ لَمْ تَقْصِدْ لَهَا كَفَّ قَاطِبٍ^(٣)
فقد أكلوا منها الغوارب^(٤) بالشُّرى فصارت لها أشباحهم كالغوارب^(٥)

اما الحيص بيص فقد شبه المسافرين هؤلاء بالنشأوى السكارى:

أَقُولُ لِرَكِبٍ مُدْلِجِينَ^(٦) تَذَارَعُوا بُرُودَ^(٧) الْفَيَافِي^(٨) بِالرُّسِيمِ^(٩) الْمُرْدِّ
نَشَاوَى مِنَ التَّهْوِيمِ^(١٠)، حَتَّى كَأَنَّمَا سَقَاهُمْ سُهَادُ اللَّيْلِ خَمْرَةً صَرَّخَدٍ^(١١)
إِذَا سَاوَرَ الْإِعْيَاءُ مِنْهُمْ غَرِيمَهُ نَفَاهُ مَقَالٌ مِنْ فَصِيحٍ مُغَرَّدٍ
وَقَدْ لَفَّظُوا عَنْ عَيْسِهِمْ كُلُّ مُثْقَلٍ مِنْ الرَّحْلِ حَتَّى بُلُغَةَ الْمُتَزَوِّدِ

(١) نفسه ٢٩٤/١

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٨١

(٣) الغوارب: أراد بها هنا اسمة الجمال.

(٤) مدلجين: من الادلاج، وهو السير ليلا.

(٥) الفياقي: انصماری.

(٦) التهويم: النوم القليل.

(٧) القاطب: الذي يمزج الشراب.

(٨) شرح الخطيب التبريزي لديوان أبي تمام ٢٠٩/١

(٩) البرود: واحدها بُرْد: ثوب مخطط.

(١٠) الرسيم: ضرب من السير.

(١١) صرخد: بلد بالشام ينسب إليها الخمر.

خُذُوا بِرِقَابِ الْعِيسِ إِنْ رَمَتِ الْغَنَى إِلَى ذِي الْأَيْدِي طُغْرُلِ بْنِ مُحَمَّدٍ^(١)

ان كلا من ابي تمام والحيص بيص، اجود تشبيها من ابن التعاويذي دون شك، لان الاصل في التشبيه وجود صفة أو أكثر تجمع بين المشبه والمشبّه به وتجعل عملية التشبيه ممكنة مقبولة، لانها تعقد بين شيئين متقاربين في الصفات^(٢)، وهو امر غير ملاحظ وغير معتاد بين المسافرين المتعب الذي يكاد يسقط من فوق ظهر الجمل، والبانة المستقيمة العود اللينة المترنحة في بيت ابن التعاويذي.

وعلى عكس التشبيه المتقدم، وردت بعض التشابيه الرائعة من حيث دقتها وتعبيرها، كقول ابن افلح يهجو:

أَبْوَابُهُ مُغْلَقَةٌ دَائِبًا^(٣) مِنْ دُونِ وَفَادٍ وَضِيفَانٍ
قَدْ أَيْسَ الطَّارِقُ مِنْ فَتْحِهَا كَأَنَّهَا أَجْفَانُ عُيَافٍ^(٤)
وقول ابن المعلم:

شَامَةُ الْبَيْدَاءِ رَكْبٌ سَائِرٌ حَبْدَا الْغَادُونَ إِنْ أَمَوَا الشَّامَا^(٥)
ويبدو ان هبوط المستوى الثقافي في القرن السادس، وميل الجمهور الى الشعر الواضح الذي لا تعقيد في الفاظه ومعانيه، اقول ان تلك الاسباب كانت وراء شيوع التشابيه التي لا تحتاج الى تفكير ولا اجهاد فكر لادراك العلاقة بين المشبه والمشبّه به.

ان الشائع الملاحظ في هذه الفترة، هو عقد المقارنات او اجراء عملية التشبيه بين الاطراف المادية المشاهدة التي لا يمكن ان يختلف حولها اثنان، أما التعبير عن افكار دقيقة او اختيار تشبيهات يكون المشبه فيها خافيا غامضا ويجيء المشبه به مشهور الصفة معروفها فيزيل بذلك غموض المشبه ويحدد صفته، فان هذا الضرب من التشبيهات قليل بصورة عامة، كما سيأتي.

فمن نماذج التشبيهات الشديدة الوضوح، قول سعد بن علي الخطيري يهجو:

قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ بِلُؤْمِي؟ فَلِمَ كَسَوْتَ عِرْضِي حُلَّالَ الْمَدْحِ؟
قُلْتُ: أُرِييكَ لَسِيفَ الْهَجَا كَمَا يُرَبِّي الْكَبْشَ لِلذَّبْحِ^(٦)

(١) الخريدة ١/ ٢٣٢

(٣) العمدة ١/ ٢٨٦

(٤) الخريدة ٢/ ٦٧ - ٦٨

(٦) الخريدة ٤/ ٤٩

(٢) كذا بالاصل، ولعل الصواب «دائبا».

(٥) ديوان ابن المعلم/ نسخة النجف و ٩٠

وقال في الهجاء ايضا:

هَجَوْتُكَ إِذْ قَطَعْتَ الْبِرَّ عَنِّي وَكُنْتُ أَحْوَكُ فَيْكَ الْمَدْحَ حَوْكًا
كَذَاكَ الْأَرْضُ: تَزْرَعُهَا فَتَزْكُو وَتَقْطَعُ زَرْعَهَا فَتَجِيءُ شَوْكًا^(١)

ان تربية الكباش وتسمينها حين يراد ذبحها من البديهيات التي يعرفها حتى الاطفال وكذلك الامر في ترك الاراضي واهمالها فان الاشواك لا بد ان تحتلها.

ومن المألوف الشائع حتى اليوم قول الناس عن الذي لا يرحم ولا يرق بأن قلبه من صخر أو من حجر صَوَان، ولذلك فان تشبيه ابن التعاويذي الاتي لا يحتاج الى شرح:

قَابَسَ كَأَنَّ قَلْبَهُ مِنْ صَخْرٍ فِي خَدِّهِ مَاءُ الشَّبَابِ يَجْرِي^(٢)

وقال يصف قصيدة:

تُشْرِقُ فِي سَالِفَةٍ وَنَحْرٍ يُضْحِي بِهَا عَرَضُ الْكَرِيمِ الْحُرِّ
ذَا أَرَجَ مِنْ طَيْبِهَا وَنَشِرٍ كَأَنَّهُ مُضْمَخٌ بِعِطْرِ^(٣)

ومن هذا الضرب قول الابله:

وَعَاوَدَنِي الْغَرَامُ، فَبِتْ صَبًّا كَأَنَّ بِمَضْجِعِي شَوْكَ الْقَتَادِ^(٤)

وهناك بعض التشبيهات التي تعتمد في وضوحها على العرف الاجتماعي كقول ابن التعاويذي يهجو:

وَأَنْتَ مِثْلُ الْيَهُودِ خُبْنًا خُلِقْتَ مِنْ رِيَّةٍ وَفُحْشٍ^(٥)

وقال يرثي طفلا:

كَأَنَّهُ الْوَرْدُ أَتَى زَائِرًا ثُمَّ انْقَضَتْ أَيَّامُهُ عَنْ كَثْبٍ^(٦)

ففي هذا البيت الثاني ما فتىء الناس يقولون للقصير العمر انه مات في عمر الزهور، وقد اخذ الشاعر تشبيهه من تلك الحقيقة التي يرددها الناس جميعا.

وقال ابن المعلم:

(١) الخريدة ٤/ ٥٠

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧٩

(٣) نفسه ص ٨١

(٤) ديوان الابله و ١٨٣، القتاد: شجر صلب له شوك كالابر.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٤٦

(٦) نفسه ص ٥٨

ما بال مالي مُستباح كأنني أخذ الخَوارج من بني حطّان^(١)

اما التشبيهات التي تحتاج الى شرح، فانها قليلة، من ناحية، وقد انفرد بكثرها شعر الحيص ببص من ناحية ثانية، وهي دون شك جزء من شاعرية هذا الرجل الذي اولع بالاساليب اللغوية الغريبة عن القرن السادس، ولعل شرح العماد الاصفهاني لطائفة من ابيات الحيص ببص في خريدته، مما يدل على ان صاحب الخريدة على علم بان هذا الضرب من الكلام لا يفهمه كل الناس.

ومن تلك التشابه قول الحيص ببص:

سَحَبْنَ فُضُولَ^(٢) الرِيطِ^(٣) صَوْنًا كَأَنَّمَا خِفَافُ الْمَطَايَا مِنْ شُعُورِ الْمَغَارِقِ^(٤)
قال العماد معلقا وشارحا: «يعني اصفين الملابس حتى سوين - من الصون - بين اخفاف ابلهن وبين شعور مفارقهن»:

وقال:

كَأَنَّ نَعَامًا صَيَحَ فِي أُخْرِيَاتِهِ حَوَافِلُهَا^(٥) لَمَّا مَرَرْنَ هَوَافِيَا^(٦)
قال العماد: «المراد بالصياح ها هنا الطرد والغارة، فإنه لما كان من ابين الطرد عبر عنه بالصياح».

وقال:

وَأَثِيرُ النُّقَعِ^(٧) مِنْ أُنْدِيَةِ يَغْبُقُ الْمُنْدَلُ^(٨) فِيهَا بِالنَّسِيمِ^(٩)
قال العماد: «من فرط طيبها، لنعم اهلها، يستفيد العود منها طيبا. ووجه آخر، وهو ان النسيم يعبق بالمندل، فذكر المعنى مقلوبا، وهي عادة عربية».

ولعل من اطرف ما صنعه شعراء القرن السادس، انهم استفادوا من آيات القرآن الكريم حيناً، او من المعاني الدينية عامة حيناً آخر، في ايجاد مجموعة نادرة من التشبيهات، لا يشك احد انها لولا الدين لما قدر لها ان تبدو بالشكل الذي بدت فيه، وهذا الصنيع يدل على ان هؤلاء الشعراء ادركوا ما في القرآن الكريم من كنوز وذخائر لم يحاول الاسلاف الاستفادة منها كما يجب.

(١) ديوان ابن المعلم/ نسخة دار الكتب و ٦٧

(٢) فضول: الواحد فضل، وهو الزيادة.

(٣) الريط: الواحدة رَيْطَة، وهي الملاء إذا كانت قطعة واحدة.

(٤) الخريدة ٢٨٠/٨ (٥) الجوافل: الابل الشوارد.

(٦) الخريدة ٣٣٠/٨، الهوافي: الابل الضالة، الواحدة هافية.

(٧) النقع: الغبار المتصاعد.

(٨) المندل: الغبار المتصاعد.

(٩) الخريدة ٣٠٧/٨

كذلك لا يستبعد ان شعراء هذا القرن ربما استفادوا في هذه الناحية من الدراسات المتطورة لأساليب القرآن الكريم، والتي نهض بها معتنقو المذاهب الاسلامية المختلفة كالمعتزلة ومنهم جار الله الزمخشري في كتابه المشهور «الكشاف» في التفسير، وقبله عرف الباقلاني ابو بكر محمد بن الطيب توفي سنة ٤٠٣ هـ، في كتابه «إعجاز القرآن». ومهما يكن فان الاثر الديني، وخاصة اثر القرآن الكريم، واضح جدا في الناحية البلاغية من شعر القرن السادس، ومن الطبيعي ان يكون التشبيه له المقام الاول في هذا الموضوع. ان دراسة التشبيهات المختلفة من الناحية الدينية، تثبت وجود نوعين من الاثر الديني فيها، وهما:

١- ان الشاعر قد يستفيد من النص القرآني بتمامه في صوغ او ايجاد التشبيه المطلوب. وهذا النوع يشبه الاقتباس من القرآن الكريم والذي فشا في العصور المتأخرة، ولكنه قليل في تشبيهات القرن السادس بصورة عامة. ومن الامثلة على هذا النوع من التشبيهات قول ابن التعاويذي يصف كتابة القاضي الفاضل، من قصيدة:

يَسِيرُ فِي الْأَفَاقِ أَنْبَاؤُهَا كَأَنَّهَا اللَّيْلُ إِذَا يَسْرِي^(١)
فقد استفاد من قوله تعالى: «وَاللَّيْلُ إِذَا يَسْرِي»، في مكان المشبه به.
وقال ايضا:

لَوْ مَكَ لِلصَّبِّ فِي مُعَذِّبِهِ سَوَوطُ عَذَابٍ عَلَيْهِ مَضْبُوب^(٢)
والمشبه به «سوط عذاب» من قوله تعالى^(٤): «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوَوطَ عَذَابٍ». وقال الابله البغدادي، يهجو:

خُشْبُ مُسْنَدَةٍ، وَإِنْ رَاقَتْ لَهُمْ يَوْمَ السَّلَامِ مَسَانِدُ وَمَطَارِحُ^(٥)
واول البيت من قوله تعالى^(٦): «وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبُ مُسْنَدَةٍ». وقال ايضا:

(٢) الآية الرابعة من سورة الفجر .
(٤) الآية ١٣ من سورة الفجر .
(٦) الآية الرابعة من سورة المنافقين .

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٤
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨ .
(٥) ديوان الابله و ٩٨

وَفُضِّلَ مُحْكَمَةُ الْقَتِيرِ^(١) كَأَنَّهَا صَرَخَ عَلَى مَتْنِ الْكَمِيِّ مُمَرَّدُ^(٢)

قوله: صرح ممرد (وهو المشبه به)، من قوله تعالى^(٣): «أَنَّهُ صَرَخَ مُمَرَّدٌ».

٢- ان الشاعر قد يستفيد من المعنى او الفكرة الدينية او القرآنية في صياغة التشبيه الذي يريد، دون ان يتقيد بالنص القرآني. وهذا الضرب من التشبيهات هو الذي يلفت النظر لكثرتة، وخاصة عند ابن التعاويذي والابله وابن المعلم.

قال ابن التعاويذي:

كَأَنِّي يَعْقُوبُ فِي الْحُزَنِ بَلْ إِيُوبُ فِي الْبِأَسَاءِ وَالضَّرِّ^(٤)

وهو من قصص القرآن الكريم عن حزن يعقوب على ابنه يوسف، وكذلك عن صبر النبي ايوب، حتى ضرب به المثل.

وقد تكررت الاشارة الى قصة يوسف ويعقوب في قول ابن المعلم:

فابن يعقوب كابن يعقوب في العَدِّ ل، وما مَوْصِلُ الشَّامِ كَمَضْرُ
ذَاكَ أَوْفَى كَيْلًا لِمَنْ مَسَّهُ الضَّرُّ ر، وهذا ما زالَ كاشِفُ ضُرِّ^(٥)

وقال ابن التعاويذي:

وَحَلَلْتُ زُورَاءَ^(٦) الْعِرَاقِ كَمَا حَلَّ الْغَمَامُ بِمَا حَلَّ الْقَفَرِ
فَكَأَنَّ طَلْعَتَكَ الْهِلَالَ تَرَا ءَتُهُ النَّوَاطِرُ لَيْلَةَ الْفِطْرِ^(٧)

فهذا البيت الثاني، اخذه الشاعر من تطلع الصائمين وشوقهم الى رؤية هلال شوال الذي يدل على انتهاء شهر رمضان. وقد سبق ابونواس الى ما يقارب بيت ابن التعاويذي، حين قال يهجو قوما بالبلخ:

فَإِذَا هُمْ رَأَوْا الرِّغِيْفَ تَطَرَّبُوا طَرَبَ الصَّيَامِ إِلَى أَذَانِ الْمَغْرِبِ^(٨)

وقال ابن التعاويذي من الشكوى:

كَأَنِّي أَنْقَلُّ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ مَلَكِ الْمَوْتِ إِلَى مُنْكَرٍ^(٩)

(٢) الديوان و ١١٤، عمرد: أملس.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٢

(٦) زوراء العراق: بغداد.

(٨) ديوان أبي نواس (أصاف) ص ١٩٠

(١) القتير: الدرع، أو رؤوس المسامير فيها.

(٣) الآية ٤٤ من سورة النمل.

(٥) ديوان ابن المعلم/ نسخة دار الكتب و ٦٢

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٦

(٩) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٤

وقال يرثي ام الخليفة الناصر:

فَيَا لَكَ مِنْ قَبْرِ بَرُدَتْ مَصَاجِعُ وَقَلَبَتْ أَبْنَاءَ الْقُلُوبِ عَلَى الْجَمْرِ
نَمُرُّ عَلَيْهِ خَاشِعِينَ كَأَنَّا مَرَزْنَا عَلَى الرُّكْنِ الْمُقْبِلِ وَالْحِجْرِ^(١)

اما الابله البغدادي فقد صاغ بعض تشبيهاته من افكار ومعان دينية غير تلك التي مرت عند ابن التعاويذي . ويلاحظ ان بعض الافكار الدينية ربما تكررت في اكثر من بيت عند هذا الشاعر، مما يدل على اعجابه بها واعتداده لها من النفائس التي لا بد من تكرارها، مع بعض الاضافات هنا وهناك . وظاهرة التكرار هذه لم اجدها عند ابن التعاويذي .

قال الأبله مادحا:

يَا ابْنَ أَبِي نَصْرِ، وَمَنْ قَوْمُهُ لَدِينِنَا أَوْسُ وَأَنْصَارُ^(٢)
وقد كرر «الاولس والانصار» فقال:

مَا أَرْتَجَى أَوْسًا سِوَاكَ عَلَى ذَهْرِي، وَلَا لِي خَزْرَجٌ أُخْرُ^(٣)
وقال متغزلا:

فَخَصَرَهُ مِثْلُ دِينِي وَرِدْفُهُ أَوْزَارِي^(٤)

اي أن دين الشاعر دقيق مثل خصر حبيبه، اما اوزاره وذنوبه فهي كبيرة لا تطاق مثل ردف الحبيب . والابله في بيته هذا يقلد بيت ابي نواس في نعت خمرته:

عَتَقْتُ فِي الدَّنِّ حَتَّى هِيَ فِي رِقَّةٍ دِينِي^(٥)

فَفِدَاءُ الْوَزِيرِ كُلِّ بَخِيلٍ كَاذِبُ الْوَعْدِ رُبُّهُ دِينَارُهُ^(٦)
وقد كرره فقال:

هَذَا وَرُبَّ قَصَائِدٍ اعْتَقَتْهَا عَنْ قَصْدٍ مُثْرِ رُبُّهُ الدِّينَارُ^(٧)

(١) نفسه ص ٢٢٤

(٢) ديوان الأبله و ١٠

(٣) ديوان الأبله و ٤٢

(٤) ديوان الأبله و ٣٤

(٥) نفسه و ٥٠

(٦) ديوان أبي نواس (أصاف) ص ٣٣٩

(٧) نفسه و ١٣

وقريب من هذا المعنى قوله:

مَنْ يُرَى مِنْ حُبِّ دِزْهِمِهِ عَاكِفًا مِنْهُ عَلَى وَثْنٍ^(١)

ومن المعاني الاسلامية ان جنة الخلد هي المكان الذي يطمح المسلمون في سكناه، ولا يوجد ما يشبه الجنة او يقاربها في الطيب والحسن عند المسلمين، اما جهنم فهي اخوف ما يخافونه، وليس في ذهن المسلم ما هو اشد حرارة من نار جهنم، ولذلك قال الأبله: جَنَّةٌ لِلْعَفَاةِ، وهو على الأعـ داءِ يَوْمَ الْهِيَاجِ نَارُ سَعِيرٍ^(٢) وكرره فقال:

هي في حُسْنِهَا كَجَنَّةِ خُلْدٍ لَكَ فِيهَا الْبَقَاءُ وَالتَّخْلِيدُ^(٣) وقال ابن المعلم:

لِيَمْنَعَنِي وَضَلَ الْحِمَى، وهو جَنَّةٌ وَيَأْمُرُنِي بِالصَّدِّ، وهو جَهَنَّمُ^(٤) وكرره فقال بمدح:

كَانَ الْعِرَاقُ مِثْلَ هَجَرَتْ جَوْهٌ لَطَى، وَقَدْ صَارَ جَنَانُ الْخُلْدِ^(٥) الاستعارة:

وهي ضرب من التشبيه عند صاحب المثل السائر، كما يفهم من قوله: «والتشبيه ضربان، تشبيه تام، وتشبيه محذوف، فالتشبيه التام ان يذكر المشبه والمشبّه به، والتشبيه المحذوف ان يذكر المشبه دون المشبه به ويسمى استعارة وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام، والا فكلاهما يجوز ان يطلق عليه اسم التشبيه، ويجوز ان يطلق عليه اسم الاستعارة لاشتراكهما في المعنى»^(٦). وبسبب هذه العلاقة الوثيقة بين التشبيه والاستعارة، فان جميع ما ذكرته عن التشبيه في الصفحات السابقة يصدق على الاستعارة ايضا، مع ملاحظة ان الاستعارة اصعب من التشبيه عموما وأدل على الشاعرية ورسوخ القدم في دنيا الفن والشعر، وخاصة النوع الجيد النادر من الاستعارات، ولذلك يقل هذا الضرب من القول حتى عند كبار الشعراء.

ان الشعر الجيد ضرب من التصوير، اي بعبارة اخرى ان الشعر الجيد يكاد يلزم

(٢) نفسه و ١٦٠

(٤) ديوان ابن المعلم/ نسخة دار الكتب و ١٤

(٦) المثل السائر ص ٢١٤ (بولاق).

(١) نفسه و ١٣٧

(٣) نفسه و ٢٣

(٥) نفسه و ٣٧

الاستعارات الجيدة، فهي دليل الشاعرية الذي لا يخطئ.

ومن هنا قلت الاستعارات وندرت في شعر القرن السادس، ولم نعد نعثر على الجيد منها الا في طائفة من شعر ابن التعاويذي، ونادرا ما يجيدها الحيص بيص، وهذان هما اكبر شعراء الفترة.

ومن الطبيعي ان كمية الشعر الهائلة التي خلفها لنا شعراء القرن السادس فيها كثير من الاستعارات، ولكنها استعارات لا تحرك مشاعر ولا توقظ احساس ولا تدل على شاعرية، على الرغم من الالقاب والنعوت التي اسبغها العماد الكاتب على اصحابها، وتلك الجناسات والسجعات التي رصها لهم رصا.

ان استعراض نماذج من استعارات الابله البغدادي، وهو شاعر من المشهورين بشهادة صاحب وفيات الاعيان^(١)، يكفي لاعطاء فكرة او صورة من استعارات سواه من شعراء الفترة.

فمن استعارات الابله قوله متغزلا:

رَاحَ يَهْتَزُّ كُفْصَن رَنَحَتْ عِطْفِيهِ رِيحُ
تَجْرَحُ الْأَحَاظُ خَدِيَّ هُ فِلِمَ قَلْبِي الْجَرِيحُ؟
مُسْتَبِيحًا قَتَلَ مَنْ يَهْ وَاهُ، عَاشَ الْمُسْتَبِيحُ^(٢)

ففي البيتين الثاني والثالث استعارتان، فقد استعار الشاعر «الجرح» للتعبير عن الاثر الذي تركه العيون في خد الحبيب في البيت الثاني، واستعار «القتل» للتعبير عن آلام الهوى والحب عند العشاق. ومن شروط الاستعارة ان يكون بين المشبه والمشبّه به، او المستعار والمستعار له مناسبة «لان الاصل في الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي ان يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الاشياء، ولا يقع ذلك الا من شخصين بينها سبب معرفة بوجه من الوجوه...»^(٣)

واستنادا الى قول ابن الاثير هذا: هل نجح الابله في استعارتيه المتقدمتين؟ ان مقياس النجاح هو مقدار الاهتزاز والاعجاب الذي يثيره الشعر فينا، وما اظن احدا يعجب بتشبيه احمرار الخدود بالجراح، لان منظر الخد الاحمر المتورد يختلف تماما عن منظر الجرح، والاحساس النفسي في الحالتين متباين.

(١) وفيات الاعيان ٨٧/٤

(٢) ديوان الابله و ١٨٦

(٣) المثل السائر ص ٢١٨ (بولاق).

وكذلك الامر في الاستعارة الثانية، لان صدد الحبيب ودلاله غير قريبين ابدا من القتل او الموت وما يتصل بهما من معان، ليس بينهما وبين الحب والعواطف اية صلة.
وقال الابله يمدح:

وَفِي بِحَارِ مَسَاعِيْ كَ، تَغْرُقُ السُّبَّاحُ^(١)

١ - شبه مساعي الممدوح بالبحار في الكبر والسعة، لان تقدير الكلام في البيت: وفي مساعيك التي تشبه البحار تغرق السباح.

٢ - السباح: جمع سابع، والمشهور في جمع هذه الكلمة «سباحون»، ولعل الابله هو الشاعر الوحيد في اللغة العربية الذي يجمع سابع على سباح.

٣ - السباح هؤلاء استعارهم الشاعر للتعبير عن الذين يحاولون اللحاق بالممدوح أو يتشبهون به في علو المنزلة ورفعة المقام.

والاستعارة ليست سوى ترديد لمعنى عامي لا يزال على السنة العامة حتى اليوم، اذا ارادوا الاستخفاف والسخرية ممن يحاول القيام بعمل كبير وهو ذو امكانية متواضعة اذ يقولون له: لا تغرق.

ومن استعارات الابله قوله متغزلا:

وَعَاوَدَنِي الْغَرَامُ، فَبِتْ صَبًّا كَأَنَّ بِمَضْجِعِي شَوْكَ الْقَتَادِ^(٢)

ان «عاود» هذه تطلق عادة على نوبات الحمى او المرض، وفي استعارتها للغرام بعد واضح. وهذه الاستعارة تذكرني بأخت لها في شعر طلحة بن محمد النعماني، وهي قوله:

وَتَرَى غُرَابَ الْجُودِ فِي أَمْوَالِهِ بِسَمَاحِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَنْعَقُ^(٣)

فالمشهور ان صوت الغراب اقترن بالخراب والموت، اما اضافته الى الجود «غراب الجود» فهو اشنع استعارة سمعت، كما قال محقق الخريدة منصفا.

وعندي ان شاعر القرن السادس حاول تقليد شاعر متقدم في بيته:

مَالٌ كَأَنَّ غُرَابَ الْجُودِ يَرِصُّدُهُ فَكَلَّمَا قِيلَ هَذَا مُجْتَدٍ نَعْبَا

(١) ديوان الابله و ١٨٦

(٢) نفسه و ١٨٣

(٣) الخريدة ٢/ ٣٩

وهذا البيت فيه طرافة سببها «كأن» على ما اظن، اما بيت النعماني فتقيل الدم بسبب «ينق» قاتلها الله .

ولست ارى فائدة في الاستمرار على عرض الاستعارات الرديئة لأنها بينة جدا في اكثرية قصائد الابله، وهي جميعا تدل على ان بعض شعراء القرن السادس «المعروفين» لم يعد يهتمهم الا ان ينظموا شيئا . . أي شيء .

وبعد هذه الأمثلة «من الاستعارات الرديئة»، اظن ان من حق شعراء القرن السادس، او بعضهم على الاقل، ان نورد امثلة من استعاراتهم التي تدل على شاعرية فذة .
لقد كان لابن التعاويذي في هذا الميدان صولات وجولات، وكذلك الحيص بيص، ولكنه لا يقارن بابن التعاويذي في هذا المجال .

وقد وجدت ان نصيب الحيص بيص من الاستعارات الرديئة اقل بكثير من نصيب زميله ابن التعاويذي^(١)، وهي ظاهرة اكتفي بالاشارة اليها، ولا اعرف لها سببا مقبولا .
ومهما يكن فان شاعرية ابن التعاويذي تبلغ الذروة حين يغضب فيهجو او يشكو، فتسمع منه حينئذ شعرا يذكرنا بفحول شعراء العربية كالمثني، وفي شعره هذا تنثال الاستعارات والصور انثيالا، فمثلا قصيدته التي مطلعها:

١ - أَتَرْضَوْنَ يَا أَهْلَ بَغْدَادَ لِي وَعَنْكُمْ حَدِيثُ النَّدَى يُسْنَدُ^(١)
ومن قوله فيها:

- | | |
|---|--|
| ٢ - أَرَى الْبَحْرَ مُعْتَرِضاً دُونَكُمْ | ومالي على سيفه ^(٢) مَوْرِدُ |
| ٣ - وَيَبْعُدُ خَيْرُكُمْ إِنْ ذَنُوتُ | عَنِّي، وَالشَّرُّ لَا يَبْعُدُ |
| ٤ - وَأَشْهَدُ فِي الرَّوْعِ ^(٣) يَوْمَ الْلِقَاءِ | وإِنْ قُسِمَ الْفَيْءُ ^(٤) لَا أَشْهَدُ |
| ٥ - وَأَغْرُسُ مَدْجِي، فَلَا أَجْتَنِي | وَأَزْرَعُ شُكْرِي، وَلَا أَحْصُدُ |
| ٦ - أَبِيعُ ثَنَائِي وَكُتْبِي، وَلَا | يَمُدُّ إِلَيَّ بِرَفْدٍ يَدُ |
| ٧ - وَيُوسِعُنِي الدَّهْرُ ظِلْمًا وَلَا | أَعَانُ عَلَيْهِ وَلَا أَنْجِدُ |
- الى ان يقول:

(١) انظر ديوان ابن التعاويذي ص ٢٠ : اوجه يسجد الجمال لها، ص ٧١ : تغريد الدجاج .

(٢) سيف البحر . ساحله .

(٣) الروع : الفرع، الحرب .

(٤) الفياء : الغنيمة .

- ٨ - لَحَى اللهُ بَغْدَادَ مِنْ مَوْطِنٍ بِهَ كُلِّ مَكْرُمَةٍ تَفَقَّدُ
 ٩- هِيَ الدَّارُ لَا ظِلُّ غَيْشِي بِهَا ظَلِيلٌ وَلَا زَمْنِي أُغْيَدُ
 ١٠- نَسِيمُ الْهَوِيِّ بِهَا بَارِدٌ وَسَوْقُ الْقَرِيضِ بِهَا أَبْرَدُ
 ١١- وَأَخْلَاقُ سُكَّانِهَا كَالزُّلَالِ وَلَكِنْ أَيْدِيَهُمْ جَمْلَدُ
 ١٢- فَكَفَّ الْعَوَارِفُ^(١) مَقْبُوضَةً إِلَيْنَا وَوَجْهُ النَّدَى أَرْبَدُ
 ١٣- وَسُحِبُ الْمَكَارِمِ لَا تَسْتَهْلُ^(٢) وَنَارُ الْمَظَالِمِ لَا تَحْمُدُ
 ... الخ^(٣).

ومن الواضح ان الابيات لا يكاد يخلو بيت منها من استعارة ترويع وتدهش، وصورة قد بلغت حد الكمال من حيث دقة التعبير وبلاغته .

ففي البيت الثاني استعار البحر للتعبير عن كثرة الخيرات ببغداد، وهي استعارة معبرة تماما عما يريده الشاعر من الكثرة الزائدة عن الحاجة، لان كلمة «بحر» في العربية توحى بذلك وتدل عليه . فلما اراد الشاعر ان يعبر عما يصيبه او يصل اليه - وهو نزر ضئيل - من هذا البحر، استعار «المورد» على شاطئ البحر مسبقا بقوله «مالي» اي حتى هذا المورد لا يحصل عليه، وهي صورة تدل على ان الشاعر مظلوم، فليس من الانصاف ان ييخل اهل بغداد - وعندهم البحر - على شاعرهم بـ «مورد» على ضفافه .

وفي البيتين الثالث والرابع يقول الشاعر انه لم يحصل من اهل بغداد الا على الكوارث والشرو، اما نصيبه من الربح والخيرات فلا يصل اليه، فكأنه من اهل بغداد حين يحل بهم أذى فحسب، أما في اوقات الخير والسعادة او كما قال «الفيء» فهو ليس ببغداديا . وقد استعار «الروع» للتعبير عن ايام الشدائد، والفيء اي الغنائم للتعبير ان ايام السرور والفرح، وهما استعارتان ناجحتان دون شك، وقد اخذ الشاعر بيته هذا من بيت الشاعر القديم:

وَإِذَا تَكُونُ شَدِيدَةً، أَدْعَى لَهَا وَإِذَا يُحَاسُ^(٤) الْحَيْسُ يُدْعَى جُنْدُبُ^(٥)
 وعلى هذا المنوال يستمر الشاعر الغاضب يعاتب اهل بغداد على اعراضهم وصدهم

(١) العوارف: الواحدة عارفة، وهي الاحسان.

(٢) تستهل: تمطر.

(٣) ديوان ابن النعائذي ص ١٤٠

(٤) يحاس الحيس: يعمل ويعد، والحيس: طعام مركب من تمر وسمن وسويق.

(٥) بخلاء الجاحظ ص ٢٥٤

عنه، وتتوالى استعاراته المعبرة المصيبة، فهو «يغرس» مدحه و«يزرع» شكره، ولكن لا يحصل على ما ينتظره الفلاح حين يشقى ويكدح من «حصاد» في آخر الموسم، بل ان الشاعر يضطر على بيع كتبه ليعيش، وهي نكبة ما بعدها من نكبة.

وفي البيت العاشر يلاحظ قول ابن التعاويذي: وسوق الفريض بها ابرد استعار السوق للتعبير عن عدم تقدير البغداديين لاهل الادب والشعر.

ويبدو ان ابن التعاويذي مفتون بالبيع والشراء وما يدور في الاسواق، ولذلك يكثر من ترديد لفظة سوق في شعره، ففي القصيدة التي ادرسها ذكر الشاعر السوق مرتين، في البيت العاشر، كما مر، وفي بيت آخر هو قوله:

وَإِنْ كَسَدْتُ سَوْقَ مَدْحِي لَكُمْ فَسَوْقُ الدُّفَاتِرِ لَا تَكْسُدُ
وقال بمدح من قصيدة:

بِكَ قَامَتْ سَوْقُ الْمَدِيحِ وَلَوْلَا كُ غَدْتُ وَهِيَ أَكْسَدُ الْأَسْوَاقِ^(١)
وقال متغزلاً:

فَتَرْتُ - إِذْ فَتَرْتُ أَلْ حَاطْهَا - سَوْقُ الْمِلَاحِ^(٢)
وقال:

وَيُنْصِفُ جَائِرُ دَهْرٍ يُبَا عُ فِي سَوْقِهِ الدُّرُّ بِالْمُخْشَلْبِ^(٣)

اما الحيص بيص فان صورته الشعرية او استعاراته موزعة مبعثرة بين قصائده المختلفة، ولم اجد له مقطوعة او قصيدة تزدهم او تضج بالاستعارات كما في ديوان ابن التعاويذي واذا كانت صور هذا الاخير تكثر وتغزير حين يهجو او يشكو - في معظم الاحيان - فان شاعرية الحيص بيص تتدفق وتبدو على اشدها وفي ذروة عنفوانها حين يفتخر ويذكر مآثر قومه ومفاخرهم، ولذلك ما ان يبدأ الشاعر قصيدته - وهو يبدو ها بالفخر في كثير من الاحيان - حتى تبدأ شاعريته بالظهور، وتطل علينا استعاراته من خلال ذكره لتمييم قبيلته.

فمن استعارات الحيص بيص قوله مفتخراً:

فَكَيْفَ التَّسْلَى بَعْدَ عَشْرِ وَأَرْبَعٍ؟ أَيْ لِي وَفَاءُ لَا تُدْبُ جَحَافِلُهُ^(٤)

(٢) نفسه ص ٨٣

(٤) الخريدة ٢٩٦/١

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٨٨

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧

والاستعارة في عجز البيت «لا تذب جحافل الوفاء»، فقد استعار «الجحافل» للتعبير عن وفائه الشديد الذي لا سبيل الى نسيانه او نكرانه، وهي استعارة جيدة وتصوير بارع لهذا الوفاء.

وقال:

فَعَلَى الدُّرُوعِ غَلَائِلُ مِنْ عَثِيرٍ^(١) وَعَلَى مِجَنٍّ^(٢) الشَّمْسِ فَضْلُ نِقَابٍ^(٣)
لقد استعار «الغلائل» للتعبير عن الغبار المتراكم على الدروع، كذلك قال «فضل نِقَاب»، واراد ما يغطي ضوء الشمس من غبار المعارك المتصاعد.
فَإِنَّ الْقُرَى وَالْمُدْنَ حَيَزَتْ لِأَعْبِدٍ وَمَا سَلِمَتْ أَفْحُوصَةٌ^(٤) لِفَتَى حُرٍّ^(٥)
لقد استعار الشاعر «افحوصة» للدلالة على ضيق وصغر ما خلفه العبيد للاحرار في القرن السادس، وهي استعارة رائعة وتعبير مبتكر حقا.

وقال يصف موقعة:

أَعْمَى الْقَتَامُ^(٦) بِهِ الْكُمَاءَ فَخِيلُهُ لَوْلَا بَرِيقُ حَدِيدِهِ لَمْ تَنْظُرِ^(٧)
وهي صورة تدل على خبرة الشاعر في سوح القتال، فالابطال يهتدون - لفرط الغبار المتصاعد - ببريق الحديد حتى كأنهم عميان.
ومن استعاراته في الرثاء قوله يرثي دُبَيْسًا:

صُرِعَتْ لِمَصْرَعِهِ الْمَقَاصِدُ وَالْمُنَى فَالْنَّاسُ كُلُّهُمْ بِغَيْرِ رَجَاءٍ^(٨)
وقال يصف الموتى:

رَقَدُوا - عَلَى غَيْرِ الْكَرَى - وَتَوَسَّدُوا بَعْدَ الرِّحَالِ نِمَارِقٌ^(٩) الدَّهْنَاءُ^(١٠)
ألوان من البديع:

اشرت قبل صفحات الى ان القرن السادس فتن بالبديع، حتى صار مقياسا يعول عليه

(١) العَثِيرُ: الغبار.

(٢) المِجَنُّ: التُّرْس.

(٣) النِقَاب: الخيول التي تفحص القطاة التراب عنه لتبيض فيه.

(٤) الأفحوصة: الخيول التي تفحص القطاة التراب عنه لتبيض فيه.

(٥) القَتَامُ: غبار الحرب.

(٦) الخريدة ٢٤٦/١

(٧) الخريدة ٢٥٠/١

(٨) الخريدة ٣٣٧/١

(٩) النمارق: الواحدة غمرقة، وهي الوسادة.

(١٠) الدهناء: الصحراء.

في تحديد بلاغة الكتاب والشعراء .

ويعد الجناس اكبر الوان البديع حظوة عند شعراء الفترة ، وخاصة الابله البغدادي ، فقد اكثر منه اكتارا جعل طائفة من شعره تبدو وكأنها معارض لصنوف من الجناس يغلب عليها التكلف ومجرد الجمع دون ان يستطيع الشاعر التحكم فيها ، فبدت فجة ليس بينها وبين البلاغة والفصاحة اية صلة .

ان القسم الاكبر من جناس الابله هو جناس ناقص مثل قوله :

تَبْدَى يَمْلَأُ النَّاطِرُ	بِمَثَلِ الْغُصْنِ النَّاضِرِ
بَشْعِرٍ فَاحِمٍ اللَّوْنِ	أَثِيثٍ يُفَجِّمُ الشَّاعِرُ
يَضْوَعُ الْعَنْبَرُ الْوَرْدُ	إِذَا مَرَّ بِنَا عَابِرُ
بِنَفْسِي قَمَرًا رَاحَ	لِلْبُيِّ فِي الْهَوَى قَامِرُ
وَمَذْ أَخَّرَ عَنِّي الْوَصْدَ	لَّ لِي لَيْلٌ بَلَا آخِرُ
عَلَى لَامِي عِذَارِيهِ	غَدَا اللَّائِمُ لِي عَاذِرُ
أَلَا يَا طَرْفَهُ السَّاحِرُ	نَاصِفُ طَرْفِي السَّاهِرُ

... الخ^(١).

ان الابيات المتقدمة ملئت جميعها بالجناس الناقص ، دون مراعاة لأية اعتبارات معنوية او بلاغية ، ودون ان يقنعنا الشاعر بفائدة هذا الحشد من الجناس : الناظر والناضر . شعر وشاعر . فاحم ويفحم . العنبر وعابر . قمر وقامر . آخر وآخر . عذار وعاذر . الساحر والساهر .

وقال في قصيدة ثانية يمدح :

ذُو النَّائِلِ الْمُعَا	دِ الْعِدِّ وَالرُّقْدِ الْمُكَرَّرِ
دَمْتُ الْخِلَالِ ، وَمَا انْتَشَى	عَطَّرَ الْجَمَالَ ، وَمَا تَعَطَّرُ
يَا مَنْ رَأَيْنَا أَمْرَهُ	أَمْضَى مِنَ الْقَدْرِ الْمَقْدَّرِ
يَا فَاعِلَ الْفِعْلِ الْجَمِيِّ	لِ وَقَائِلِ الْقَوْلِ الْمُحَرَّرِ
يَا مَنْ نَصِيبُ عُفَاتِهِ	مِنْ وَفَرِهِ أَبَدًا مُوقَرِ

(١) ديوان الابله و ١٨١

يا مَنْ اذا اسْتَوَلَى نَدا هُ على أَخِي عُدْمٍ وَأَمْطَرَ
صَاحَ الْغَرِيقُ وَلَوْ غَدا في أَلْفِ لُبَادٍ وَمِمْطَرَ^(١)
لا زِلْتَ تُلْقَى ظَافِراً أبداً، وَتَعْفُو حِينَ نَظْفَرَ^(٢)

فأية شاعرية في هذه الالفاظ المرصوفة : عطر وتعطر . القدر المقدر . فاعل الفعل .
قائل القول . وفر وموفر . ظافر وتظفر . ؟

ومن البديهي ان الجنس الناقص عند اكثرية شعراء القرن السادس يختلف اختلافا بينا
عن جناس الابله البغدادي .

فمثلا يقول الطبيب امين الدولة ابن التلميذ يشكو ابنه :
أشكو الى الله صاحباً شَكِياً تُسَعِفُهُ النَّفْسُ، وهو يَعِيفُهَا
فَنَحْنُ كَالشَّمْسِ وَالهِلالِ مَعاً تُكْسِبُهُ النُّورَ، وهو يَكْسِفُهَا^(٣)
ففي قوله : تسعفه ويعسفها وتكسبه ويكسفها ، جناسان ناقصان ، وهما غير متكلفين ،
او على الاقل للمعنى اثر في هذا الجنس ، حتى بدا وكأنه غير متكلف .

ومن شعر ابن شُعَيْبان^(٤) :

وَعَلَيَّ أَيْمَانُ مُغَلِّدٍ لَظَّةُ أُجْلُكَ أَنْ تَمِينَا^(٥)
أَنْ لَا أَعُدَّ سِوَى مَعِي نِ^(٦) الدَّمْعِ بَعْدَكَ لِي مُعِينَا^(٧)

ففي البيت الثاني جناس ناقص بين معين (بفتح الميم) ، ومُعِين (بضم الميم) وهو
جناس استدعاه المعنى ، فبدا وكأنه غير مجتلب .

ومن شعر ابن التعاويذي :

وليلةً باتَ سَمِيرِي بها بَيضاء تُحْمَى بِالْقَنَا السُّمْرِ
وأهاً لها مِنْ خَضِرٍ^(٨) ريقُها واهية المِثاقِ والخَضِرِ
مالَ بها سُكْرُ الهوى والصَّبَا^(٩) مِيلُ الصَّبَا^(١٠) بالغُصْنِ النَّضْرِ

(١) المطر : الواقي من المطر .

(٢) عيون الأنبياء ٢/ ٢٧٤

(٣) تمين : تكذب .

(٤) الخريدة ٢/ ٢٢٥

(٥) الصبا : الصفر .

(٦) ديوان الابله و ١٨٣

(٧) أنظر : الفصل الخامس ص ٣٥٤ هامش ٣

(٨) المعين (بفتح الميم) : الماء الجاري .

(٩) ريق خضر : بارد .

(١٠) الصبا : ريح باردة تهب من الشرق .

بَاتَتْ تُعَاطِينِي جَنَارِيْقَةً رَقَّتْ فَأَغْنَتْني عَنِ الْخَمْرِ
... الخ (١)

ففي كل بيت من هذه الابيات جناس ناقص، حرص الشاعر على الاتيان به لان القصيدة في مدح القاضي الفاضل، وهو صاحب مدرسة في الكتابة تقوم على البديع وضروبه، ولذلك لا بد ان يراعي الشاعر هذه الناحية فيقدم الى ممدوحه ما يحب (٢).

اما الجناس التام فان احتفال الشعراء به قليل، ونماذجه الجيدة نادرة في شعر الفترة، منها قول ابن شُعَيْبَانَ متغزلاً:

مِنْ كُلِّ ذَاتٍ رَوَادِفٍ كَالرَّمْلِ رَجْرَجَةً وَلِينَا
مَنْطَقُنَ بِالنُّحْفِ الْخُصُو رَ وَصُنَ بِالتَّرْفِ الْبُطُونَا
وَأَقْمَنَ مِنْ تِلْكَ الْعُيُو نِ عَلَى خَوَاطِرِنَا عُيُونَا (٣)

ففي البيت الاخير جناس تام بين العيون التي يبصر بها، والعيون جمع عين بمعنى الرقيب او الجاسوس.

قَدْ كُنْتُ فِي أَرْغَدٍ مَا عَيْشَةٍ بِمَغْزِلٍ عَنْ كُلِّ بَلْبَالٍ
تَيَّمَنِي خَالٌ عَلَى خَدِّهِ الْوَيْلُ لِلْخَالِي مِنَ الْخَالِ (٤)

في البيت الثاني جناس تام بين الخالي، اي الذي لا يشغله شغل، والخال وهي الشامة:

ومن ابيات لابن المعلم الواسطي:

سَقَاهُ الْحَيَا قَبْلِي وَجِئْتُ مَتَمَّأً فَلَوْ مَالِكٌ فِيهِ، دُعِيْتُ مَتَمَّأً (٥)

جناس جناساً تاماً بين متمم اي الذي يلي السابق، ومتمم شقيق مالك بن نويرة الشاعر الاسلامي المعروف.

ومن الجناس التام غير الجيد قول محمود بن محمد الشروطي البغدادي:

أَعِنِ الْعَقِيقِ سَأَلَتْ بَرْقاً أَوْ مَضَا؟ أَقَامَ حَادٍ بِالرَّكَائِبِ أَوْ مَضَى؟
إِنْ جَاوَزَ الْعَلَمَيْنِ مِنْ سِقْطِ اللَّوَى بِالْعَيْسِ لَا أَفْضَى إِلَى ذَاكَ الْقَضَا (٦)

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣١٦

(٤) الحريدة ٢/٢٢٤

(٦) الحريدة ٢/٢٩٧

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٠

(٣) نفسه ٢/٢٣١، وأنظر أيضاً ٢/٢٣٩، ٢٤٦

(٥) وفيات الأعيان ٥/٧٣

ومثلهما ابيات محمد^(١) بن سعد الله ابن الدجاجي :

تَقُولُ عَيْسَى حِينَ أَدْمَيْتُهَا بِالسَّيْرِ: رِفْقاً بِي يَا هَاشِمِي
إِنْ شِئْتَ أَنْ تَلْقَى الْغِنَى وَالْمُنَى عَجْ بِإِمَامٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ
فَقُلْتُ - إِذْ لَاحَ سَنَى قَضْرِهِ - : يَا نَوْقُ هَذَا نَوْرُهُ، هَاشِمِي^(٢) .

وهكذا يبدو واضحاً من النصوص المتقدمة، ان شغف بعض الشعراء الشديد بالجناس وحرصهم على الاتيان به وتكديسه، على حساب المعنى وجودة النص، لم يمنع الشعراء الآخرين من السير في الطريق المضاد، فكان الجناس عندهم تابعا للمعنى وخادما له . وفي احيان اخرى كان الشاعر يقدم للممدوح ما يحب من شعر مجنس او غير مجنس، فقد صار الشعر بضاعة، لا بد فيها من مراعاة ذوق من تقدم اليه .

ويأتي الطباق أو المطابقة في المرتبة الثانية بعد الجناس .

ان هذا الفن يكاد يلزم الجناس، اذ ينذر ان يستطيع الشاعر التفريق بينهما . فالقصائد التي يكثر فيها الجناس، لا بد أن تضم مقدارا كبيرا من الطباق كذلك، وهذه الظاهرة شديدة الوضوح في قصائد الابله البغدادي وابن التعاويذي بصورة خاصة .

يقول الابله :

مُذْ قَدَحَ الْخَدُّ مِنْهُ	فَلِلْغَرَامِ	انْقِدَاحُ
نَأَى فَلِلْوَجْدِ قُرْبُ	وَلِلْسَلْوِ	انْتِزَاحُ
وَبِالْأَلْوِ مِنْ رُمَاحِ	ظَبْيِ حَمْتِهِ الرَّمَا حُ	
مِنْ دُونِ صَفْحَةِ خَدِّ	هِ مُرْهَفَاتُ صِفَاحِ	
وَإِ تَشْوَقُ فُؤَادِي	تِلَاعُهُ	وَالْبَطَاحُ
يَرَوْقُنِي مِنْهُ خُلُقُ	سَبْطُ ^(٣) وَخُلُقُ رَدَاحُ ^(٤)	
الْفَرْعُ مِنْهُ مَسَاءُ	وَالْوَجْهُ مِنْهُ صَبَاحُ	

... الخ^(٥) .

(١) تقدم ذكر والده في الفصل الأول ص ١٧ هامش ٧، وقد توفي عمده سنة ٦٠١ هـ . تاريخ ابن الديبهي (المطبوع) ٢٨٥/١

(٢) ابن الديبهي (المطبوع) ٢٨٧/١، هاشمي: الأولى بمعنى عطشى، والثالثة ها للاشارة وشيبي بمعنى أنظري .

(٣) خلق سبط: معتدل الفؤام، حسن القد .

(٤) جارية رداح: ضخمة العجيزة . (٥) ديوان الابله و ١٨٥

ففي هذه الابيات كثر الجناس والطباق معا حتى غدت المقطوعة وقفا عليهما:
 قَدْحَ وانقداح. رُمَاح ورماح. صفحة خديه ومرهفات صفاح. خُلُقَ وخُلُقَ: هذه كلها من
 الجناس. أما الطباق فبين: وَجَدَ وسلَوُ. قرب وانتزاح. التلاع والبطاح سبط ورداح.
 مساء وصباح.

اما في شعر ابن التعاويذي فان ظاهرة اختلاط الجناس بالطباق يمكن ملاحظتها في
 قصائد الشاعر التي مدح بها القاضي الفاضل^(١).

وعلى الرغم من عدم ظهور البديع - ومنه الطباق - كظاهرة بارزة في شعر الحيص
 بيص^(٢)، فان دراسة شعره وقراءة ما بين ابياته تثبت ان البديع قد تسلسل الى ابياته. وربما قام
 الشاعر بجهد شخصي في هذا المجال، ولكنه عرف كيف يتصرف بحذر وحكمة في هذا
 السبيل، حتى بدت مظاهر البديع في شعره وكأنها طبيعية غير متكلفة اقتضتها المعاني.

فمن طباق الحيص بيص قوله:

وإن ضاقَ قلبٌ بالصَّغِيرَةِ لامرئٍ فقلبَ عَلَيَّ بِالْكَبِيرَةِ أَسْمَحُ^(٣)

طابق بين الصغيرة والكبيرة، وهو طباق لا يشك احدانه غير متكلف، وقد وقع في محله
 تماما.

وقال مفتخرا:

ما لِفَضْلِي يُذَالُ بَيْنَ أناسٍ جُودُهُمْ مَوْعِدٌ وَشِعْرِي نَقْدُ^(٤)؟

الطباق بين موعد ونقد، وهو مثل الاول في الجودة وعدم الاجتلاب.

وقال يمدح:

لَهُ دُونَ المَعَابِ وَقُوفٌ وَإِنْ فِي طَلَبِ العُلَى عَنَقُ^(٥) حَثِيثُ^(٦)

الطباق بين وقوف وعنق، وكذلك بين وإن وحثيث، وبين المعاب والعلی، ولذلك
 يكون البيت من المقابلة، لوجود اكثر من طباق^(٧).

وفي الخريدة طباقات اخرى أكتفي بالإشارة الى مواضعها^(٨).

(١) أنظر الفصل الرابع ص ٢٠٠ - ٢٢٢

(٢) أنظر الفصل الثاني: شيوخ المحافظين ص ٦٩ - ٧٠

(٣) الخريدة ٢٢٤/١

(٤) نفسه ٢٣٤/١

(٦) الخريدة ٢٢١/١

(٥) العنق: ضرب من السير سريع.

(٨) الخريدة ٢٣٥/١، ٢٤٣، ٢٤١، ٢١٩

(٧) العمدة ١٥/٢

ومن ألوان البديع الأخرى: الترصيع.
قال ابن الأثير: «وهو مأخوذ من ترصيع العقد وذاك ان يكون في احد جانبي العقد من اللآلى مثل ما في الجانب الآخر^(١)...».

فمن الترصيع قول الحيفص بيص:
عقائل عَزَمَ لا تُباح لِضارِعٍ وأسرار حَزَمَ لا تُذاع لِلأعِبِ^(٢)
والترصيع بين: عزم وحزم، لا تباع ولا تذاع، لضرارع، للاعب، لان كل كلمتين على وزن واحد.

وقال:

سَلِيمٌ مِنَ الْأَشْوَاقِ شَيْبٌ بكَاذِبٍ وَأَمْنٌ مِنَ الْإِلْمَامِ رِيحٌ بِهَاجِرٍ^(٣)
الترصيع بين: شيب وريع، كاذب وهاجر.

وقال:

بَمَيَّامِينَ صَبَاحٍ كَشْمُوسٍ وَخَنَازِيدَ^(٤) جِيَادٍ كَنُجُومٍ^(٥)

والترصيع بين: ميامين وخناذيد، وكذلك بين صباح وجياد.
ومن شعر ابن التعاويذي:

فَظَنُّوا خُشُوعِي لَهُمْ ذِلَّةٌ وَتَحَتَّ سُكُوتِي صِلٌ يَثْبُ
.. هو الغيث، إن عمَّ جَذَبُ أَثَابٍ وَاللَّيْثُ، إِنَّ عَنْ خَطْبٍ وَثْبُ
.. إذا قال ابدعَ فيما يَقُولُ وَإِنْ جَادَ أَجْزَلُ فِيمَا يَهْبُ
.. فَيَا نَجْمَ سَعْدِي الَّذِي لَا يَغِيبُ وَيَا غَيْثَ أَرْضِي الَّذِي لَا يَغِيبُ
.. فَأُضَحَّتْ بِهِنَّ صُدُورُ الرُّوَاةِ مَمْلُوءَةٌ، وَبُطُونُ الْكُتُبِ^(٦)

ومن ضروب البديع التضمين.

وهو قليل جدا في شعر الفترة، على الرغم من كثرته في القرن الخامس اذ ينص الدكتور علي جواد الطاهر على ان في ديوان الطغرائي وحده كثيرا من التضمين «حتى ليخشى على صاحبه ان يتهم بالسرق - بقصد او بغير قصد - من المتنبي او من غيره»^(٧).

(١) المثل السائر ص ١٦١ (بولاق).

(٣) نفسه ٢٤٣/١

(٥) الخريدة ٣٠٨/١

(٧) الشعر العربي ١٨٥/٢ - ١٨٧

(٢) الخريدة ٢١٠/١

(٤) خناذيد: الواحد خنْذِيد وهو الطويل الصلب.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧ - ٣٠

وكثرة التضمنين معروفة ايضا في القرون التي تلت القرن السادس، حتى قال احد الشعراء:

أَضْمَنْ كُلَّ بَيْتٍ فِيهِ مَعْنَى فَشِعْرِي نِصْفُهُ مِنْ شَعْرِ غَيْرِي

ومن تضمنين القرن السادس قول الحظيري:

قِيلَ لِي: قَدْ صَارَ مُبْتَذَلًا مِنْ حَمَاهُ الصُّونُ فِي صِغَرِهِ
كُفِّ عَنْهُ النَّاسُ. قُلْتُ لَهُمْ قَوْلَ مَنْ يَجْرِي عَلَى أَثَرِهِ
(لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمَرَّ مِنْ ثَمَرِهِ)^(١)

وهذا البيت الاخير المضمن لأبي نواس^(٢).

وقال طلحة بن محمد النعماني:

لَوْلَاكَ لَمْ أُزَجِّ الرِّكَابَ عَلَى الْوَجَى^(٣) (وَالرُّكْبُ يَطْفُو فِي السَّرَابِ وَيَغْرَقُ)^(٤)

وعجز البيت للشريف الرضي، من مطلع قصيدة له مشهورة^(٥).

وقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة^(٦) الى هجاء الحيص بيص في تضمنين اعجب به ابن خلكان.

ومن ضروب البديع التورية.

ومنها قول مؤيد الدين التكريتي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ من أبيات سبق^(٧) ايرادها:

وعِمَّا قَلِيلٍ اَنْتَ لَا شَكَّ صَائِرُ إِلَى «مَالِكٍ» فَافْهَمُ لِمَا أَنَا قَائِلُ^(٨)

التورية في قوله «مالك»، لان الكلمة تحتل معنيين: احدهما الامام مالك، وهو غير مراد، والآخر مالك خازن النار، وهو المراد.

ومن التورية ايضا قول ابن حَكِينَا، يخاطب ابن التلميذ الطبيب، واراد ان يصلحه بعد خصومة، من ابيات:

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تُصَالِحَ بَشًا رَ بِنَ بُرْدٍ، فَاطْرَحْ عَلَيْهِ أَبَاهُ^(٩)

(١) الخريدة ٤٢/٤ ديوان أبي نواس (أصاف) ص ٦٦

(٢) الوجي: رقة القدم.

(٣) ديوان الشريف الرضي ٥٤١/٢

(٤) ابن الديلمي (الطبوع) ١٣٧/١، الوافي بالوفيات

١١٥/٢

(٥) الخريدة ٤٢/٤

(٦) أزجي: أسوق.

(٧) الخريدة ٤١/٢

(٨) أنظر: نفصّل الثالث، الهجاء ص ١٥٩

(٩) أنظر: الفصل الأول ص ٤٠

(١٠) الخريدة ٢٣٥/٢، وفیات الاعیان ١٢٢/٥

والتورية في عجز البيت «فاطرح عليه اياه»، لان عادة اهل بغداد اذا اراد الانسان ان يصلح خصمه، والخصم ممتنع، ان يقال له: ا طرح عليه فلانا، اي ادخل عليه به، فكلمة «اي» لها معنيان، الاول والد الشاعر المعروف، وهو غير مراد، والثاني «البُرد» الذي اراده الشاعر. قال صاحب الخريدة: «فما الطف طلبه منه بردا بهذا البيت المطبوع».

ومن البديع حسن التعليل.

كقول ابي منصور المبارك^(١) بن سلامة:

بأناملٍ أَصَمَّتْ^(٢) مَقَاتِلَنَا فَرَوْوُسُهَا بِدُمَائِنَا حُمْرُ^(٣)

لقد زعم الشاعر ان اطراف انامل النباء ليست مخضوبة بالحناء، وانما تلك الحمرة سببها دماء الرجال الذين فتكت بهم حواء.

ومن حسن التعليل ايضا قول الحظيري:

يَقُولُ لِي حِينَ وَافَى قَدْ نِلْتُ مَا تَرْتَجِيهِ
فَمَا لِقَلْبِكَ أَضْحَى بِخَفَقَةٍ تَغْتَرِيهِ؟
فَقُلْتُ: وَضَلُّكَ عُرْسُ وَالْقَلْبُ يَرْقُصُ فِيهِ^(٤)

ومن البديع حسن التخلص.

قال ابن الاثير: «وهو ان يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فيبينما هوفيه اذ اخذ في معنى آخر غيره، وجعل الاول سببا اليه، فيكون بعضه اخذا براقاب بعض من غير ان يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر، بل يكون جميع كلامه كانما افرغ افراغا، وذلك ما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه من اجل ان نطق الكلام بضيق عليه ويكون متبعاً للوزن والقافية فلا تواتيه الالفاظ على حسب ارادته^(٥)».

ومن المعروفين بحسن التخلص في القرن السادس: الابله البغدادي، قال ابن خلكان: «ومخالصه من الغزل الى المدح في نهاية الحسن وقل من يلحقه فيها: فمن ذلك قوله من قصيدة اولها:

(١) قال العماد عنه: «علم الفضل أبو منصور المبارك بن سلامة المَخْلُطِي البغدادي، من أهل الجانب الغربي، من مادحي الوزير

جلال الدين بن صدقة». الخريدة ٢/ ٢٨٩

(٢) اصمت: أصابت مقتلا.

(٣) الخريدة ٢/ ٢٩١.

(٤) الخريدة ٤/ ٤١، الغيث المسجم ١/ ٣٧٦، نصره الشاعر ص ٢٢٠

(٥) المثل السائر ص ٤١٨ (ط. بولاق).

جَنَيْتُ جَنِيًّا. الرِّوْدِ مِنْ ذَلِكَ الْخَدُّ
وعَانَقْتُ غُصْنَ الْبَابِ مِنْ ذَلِكَ الْقَدُّ
فلما انتهى الى مخلصها قال:

لَثْنٌ وَقَرْتُ يَوْمًا بِسَمْعِي مَلَامَةً
لِهِنْدٍ، فَلَا عِفْتُ الْمَلَامَةِ فِي هِنْدٍ
وَلَا وَجَدْتُ عَيْنِي السَّبِيلَ إِلَى الْبُكْيِ
وَبُحْتُ بِمَا أَلْقَى وَرَحْتُ مُقَابِلًا
وقوله من قصيدة اخرى:

فَلَا وَجَدْتُ سِوَى وَجْدِي بِلَيْلَى
وَلَا مَجْدٌ كَمَجْدِ ابْنِ الدَّوَامِي
وقوله في قصيدة اخرى:

فَأُقْسِمُ أَنِّي فِي الصَّبَابَةِ وَاحِدٌ
وَأَنَّ كَمَالَ الدِّينِ فِي الْجُودِ وَاحِدٌ^(١)

(١) وفيات الأعيان ٨٨/٤ - ٨٩

الخاتمة

يمثل القرن السادس الهجري مرحلة وسطا بين عصور ازدهار الشعر العربي وعصور الانحطاط والضعف، ولعل اكثرية شعر العصر اميل الى الضعف منها الى القوة والتماسك، ولكن بعض القصائد التي تصادف الباحث بين هذا الركام الشعري الهائل، وخاصة عند ابن التعاويذي والحيص بيص، تشير الى ان الشعر المتين لما نزل منه بقايا تتردد في القرن السادس.

لقد حاولت في فصول رسالتي هذه، وبالقدر الذي تسمح به المصادر التي اطلعت عليها، ان اجمع واحقق وادرس كمية كبيرة من شعر القرن السادس لاول مرة، كذلك بذلت جهودا من اجل كشف وايضاح ودراسة فترة من تاريخنا الادبي يعز على المخلصين ان تظل مجهولة مدة طويلة.

ان اهم النتائج التي كشفت عنها فصول الرسالة يمكن ان تكون:

١ - اللقاء الاضواء على حياة الشعر في العراق خلال القرن السادس عن طريق دراسة اهم الاتجاهات الشعرية والاشارة الى مجموعة كبيرة من الشعراء مع ذكر جوانب من حياتهم ونماذج من اشعارهم.

٢ - اثبات تحيز مستشرق كبير هو ماكليوث والتدليل على ان بعض اعماله لم يقيم بها لوجه العلم، كذلك برهنت على ان جمعه وتحقيقه لديوان ابن التعاويذي ليس دقيقا وعليه مآخذ كثيرة ارجو ان تنال لي الفرصة لدراستها ونشرها بالتفصيل.

٣ - اظهرت الرسالة - الفصل الرابع - ان عقائد الفاطميين التي حاربهم من اجلها العباسيون قد تسربت الى شعر ابن التعاويذي شاعر البلاط العباسي، وهو جديد لم يقله احد قبل هذه الدراسة.

٤ - كشفت فصول الرسالة عمق واتساع الاثر الديني في شعر القرن السادس وهو شيء جديد

يساعد على ازالة الغموض الذي يحيط بنشأة المدائح النبوية وكثرتها في القرن السابع وما بعده .

٥- يوضح الفصل الخامس من هذه الدراسة ان فنا شعريا عريقا ، وهو شعر الخمر ، قد ضعف وانكمش على الرغم مما يشاع بأن فترات الحروب والأزمات تدفع الناس إلى المواخير دفعا .

٦- ان التغزل بالعذار وغرام ابن التعاويذي بوصف جمال الجند الاثراك الذي اشرت اليه في الفصل الخامس يساعد على معرفة الاصول التي استقى منها شعراء العصور التالية كعصر المماليك حين تغزلوا بالجنود وفتنوا بضيق عيون النسوة خلافا للذوق العربي في هذا الموضوع .

٧ - نبهت الرسالة الى خطورة الاعتماد المطلق على ما يقوله المؤرخون القدامى عن معاصريهم او سابقيهم من الشعراء ، لان البعض من هؤلاء المؤرخين ليس محايدا في آرائه واحكامه ، كما ان البعض الآخر ينقل المعلومات او يتلفها عن سبقوه دون نقد أو تمحيص .

وبعد : فقد بذلت ما استطيع ولم ادخرو سعا في التدقيق والبحث والتنقيب ومع ذلك فانا واثق انه قد فاتني الكثير ، ومعترف بأنه فوق كل ذي علم عليم ، وما أنا الا طالب علم ، أسأل المولى القدير أن يأخذ بيدي انه نعم المولى ونعم النصير .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أ - المصادر المخطوطة :

الأبلة البغدادي : محمد بن بختيار (المتوفى ٥٧٩)

١ - ديوان الأبلة البغدادي

مصورة الاستاذ عبد الكريم الدجيلي عن الاصل المخطوط في مكتبة ناصر شاه بـ إيران .

ابن جماعة : عز الدين عبد العزيز بن محمد

٢ - تعلية الشعراء والادباء

مصورة الاستاذ عبد الكريم توفيق عن الاصل المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس .

الحظيري : سعد بن علي (المتوفى ٥٦٨)

٣ - الاعجاز في الالغاز

مخطوطة الدكتور حسين علي محفوظ .

الحيص بيص : سعد بن محمد (المتوفى ٥٧٤)

٤ - جزء من ديوانه

مصورة معهد المخطوطات العربية برقم ٣٠٤٦ ، ومنها نسخة في خزانة المجمع

العلمي العراقي ببغداد .

ابن الدبيثي : محمد بن سعيد (المتوفى ٦٣٧) .

٥ - ذيل تاريخ مدينة السلام ببغداد

مصورة مكتبة الدراسات العليا بكلية آداب بغداد رقم ٥٧٤ م عن الاصل المخطوط في

المكتبة الوطنية بباريس رقم ٥٩٢١ عربي ، ونسخة ثانية رقمها ١٢٤٠ في مكتبة الدراسات

العليا ببغداد ايضا .

الدمياطي : احمد بن أبيك الحسامي (المتوفى ٧٤٩)

- ٦ - المستفاد من ذيل تاريخ بغداد
مصورة المكتبة المركزية لجامعة بغداد رقم ٢٥ م عن نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٩٦.
- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفى ٧٦٤)
٧ - اجزاء من كتابه «الوافي بالوفيات»
مصورة المكتبة المركزية لجامعة بغداد.
- ابن عذبية: احمد بن محمد المقدسي (المتوفى ٨٥٦)
٨ - انسان العيون في مشاهير سادس القرون
النسخة المصورة في مكتبة المتحف العراقي ببغداد رقم ٢٩٥
- العماد الاصفهاني: محمد بن محمد (المتوفى ٥٩٧)
٩ - خريدة القصر وجريدة العصر - القسم العراقي
نسخة ايران المصورة في خزانة المجمع العلمي العراقي ببغداد رقم ٩٣ / م
- ١٠ - نصرة الفترة - عصرة القطرة
مصورة الدكتور علي جواد الطاهر عن الاصل المخطوط في المكتبة الوطنية. بباريس رقم ٢١٤٦
- ابن المعلم الواسطي: محمد بن علي (المتوفى ٥٩٢)
١١ - ديوان ابن المعلم
نسختان: نسخة النجف (مكتبة الامام الحكيم)، ومنها نسخة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد. ونسخة دار الكتب المصرية رقم ٩٦٠٣ أدب، ومنها نسخة في معهد المخطوطات العربية رقم ٢٦٥ أدب.
- ب - المصادر المطبوعة:
- ابن الاثير: ضياء الدين نصر الله بن محمد (المتوفى ٦٣٧)
١٢ - المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر
عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.
- ابن الاثير: عز الدين علي بن محمد (المتوفى ٦٣٠)
١٣ - الكامل في التاريخ
طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ اعتمدت في الفصول: الاول والثاني والثالث، وطبعة الاستقامة في الفصل الرابع.

الامام احمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١)

١٤ - مسند احمد بن حنبل

ط . دار المعارف ١٩٤٧

ابن ابي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله . . المدائني (المتوفى ٦٥٥)

١٥ - شرح نهج البلاغة

ط . البابي الحلبي .

اخوان الصفاء وخلان الوفاء: جمعية سرية

١٦ - رسائل اخوان الصفاء

ط . دار صادر - دار بيروت ١٩٥٧

ابن ابي اصيبعة: احمد بن القاسم الخزرجي (المتوفى ٦٦٨)

١٧ - عيون الانباء في طبقات الاطباء

ط . دار الفكر، بيروت .

ابن الانباري: عبد الرحمن بن محمد (المتوفى ٥٧٧)

١٨ - نزهة الالباء في طبقات الادباء

ط . دار نهضة مصر .

الايوبي: محمد بن تقي الدين . . صاحب حماء (المتوفى ٦١٧)

١٩ - مضممار الحقائق وسر الخلائق

تحقيق الدكتور حسن حبشي، ط . عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨ .

ابن تغري بردي: جمال الدين ابو المحاسن يوسف (المتوفى ٨٧٤)

٢٠ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٦ .

تميم بن المعز: ابو علي بن المعز . . العبيدي (المتوفى ٣٧٤)

٢١ - ديوانه

تحقيق محمد حسن الاعظمي، ط . دار الثقافة، بيروت ١٩٧٠

الثعالبي: ابو منصور عبد الملك بن محمد (المتوفى ٤٢٩)

٢٢ - بئمة الدهر

عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة .

- الجاحظ: ابو عثمان عمرو بن بحر (المتوفى ٢٥٥)
- ٢٣ - البخلاء
- باعتناء فان فلوتن، ط . ليدن سنة ١٩٠٠
- ابن جبير: ابو الحسين محمد بن احمد (المتوفى ٦١٤)
- ٢٤ - الرحلة
- عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.
- الجرجاني: القاضي علي بن عبد العزيز (المتوفى ٣٦٦)
- ٢٥ - الوساطة بين المتنبى وخصومه
- ط . البابي الحلبي الرابعة ١٩٦٦
- ابن الجزري: شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد (المتوفى ٨٣٣)
- ٢٦ - غاية النهاية في طبقات القراء
- نشر ج . برجستراسر ١٩٣٢ - ١٩٣٥ .
- ابو الجوزي: ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (المتوفى ٥٩٧)
- ٢٧ - المنتظم في تاريخ الملوك والامم
- ط . حيدر آباد ١٣٥٧ - ١٣٥٩ هـ.
- ٢٨ - تلبس ابليس
- مطبعة النهضة، مصر ١٩٢٨
- الجوهري: اسماعيل بن حماد (المتوفى ٣٩٣)
- ٢٩ - تاج اللغة وصحاح العربية
- تحقيق احمد عبد الغفور، القاهرة ١٩٥٦ .
- ابن حجر: احمد بن علي العسقلاني (المتوفى ٨٥٢)
- ٣٠ - الاصابة في تمييز الصحابة
- المطبعة الشرقية ١٩٠٧
- ٣١ - الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة
- ط . حيدر آباد سنة ١٣٥٠ هـ.
- الحريري: ابو محمد القاسم بن علي البصري (المتوفى ٥١٥)
- ٣٢ - مقامات الحريري

ط . دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة ١٣٦٢ هـ .

الحسيني: صدر الدين ابو الحسن علي بن ناصر (القرن السابع الهجري)

٣٣ - اخبار الدولة السلجوقية

نشر محمد اقبال، لاهور ١٩٣٣ .

الحيص بيص: سعد بن محمد (المتوفى ٥٧٤)

٣٤ - ديوان حيص بيص

جزءان (صدرا حتى الان) سلسلة كتب التراث سنة ١٩٧٤، بتحقيق مكي السيد جاسم

وشاكر هادي شكر، من مطبوعات وزارة الاعلام العراقية .

الخطيب البغدادي: ابو بكر احمد بن علي (المتوفى ٤٦٣)

٣٥ - تاريخ بغداد

مطبعة السعادة، مصر ١٩٣١

الخطيب التبريزي: ابو زكريا يحيى بن علي (المتوفى ٥٠٢)

٣٦ - شرح ديوان ابي تمام

تحقيق محمد عبده عزام، ط . دار المعارف .

٣٧ - شرح القصائد العشر

مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٢

الخفاجي: شهاب الدين احمد بن محمد (المتوفى ١٠٦٩)

٣٨ - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل

المطبعة الوهية ١٢٨٢ هـ .

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (المتوفى ٨٠٨)

٣٩ - تاريخ ابن خلدون

ط . دار الكتاب اللبناني، بيروت .

ابن خلكان: ابو العباس احمد بن محمد (المتوفى ٦٨١)

٤٠ - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان

مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ م .

داعي الدعاة: هبة الله بن موسى: الشيرازي (المتوفى ٤٧٠)

٤١ - ديوان داعي الدعاة

تحقيق الدكتور محمد كامل حسين، ط . دار الكاتب العربي ١٩٤٩ .

ابن الدبيثي: ابو عبد الله محمد بن سعيد (المتوفى ٦٣٧)

٤٢ - ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد

الجزء الاول، تحقيق بشار عواد معروف، منشورات وزارة الاعلام العراقية، سلسلة كتب التراث (٣٦) سنة ١٩٧٤.

الذهبي: ابو عبد الله محمد بن احمد (المتوفى ٧٤٨)

٤٣ - تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعلام

مطبعة السعادة، مصر ١٣٦٨ هـ.

٤٤ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال

• ط . السعادة الاولى ١٣٢٥ هـ.

٤٥ - المختصر المحتاج اليه

جزءان، تحقيق الدكتور مصطفى جواد، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥١.

ابن رجب: ابو الفرج عبد الرحمن بن شهاب (المتوفى ٧٩٥)

٤٦ - الذيل على طبقات الحنابلة

مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ م.

ابن رشيقي: ابو علي الحسن بن رشيقي القيرواني (المتوفى ٤٥٦)

٤٧ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده

ط . السعادة الثالثة، مصر ١٩٦٤

الزبيدي: السيد محمد مرتضى (المتوفى ١٢٠٥)

٤٨ - تاج العروس من شرح جواهر القاموس

الطبعة الاولى، مصر ١٣٠٦ هـ.

الزنجشيري: جابر الله محمود بن عمر (المتوفى ٥٣٨)

٤٩ - الكشف

ط . بولاق ١٣٨١ هـ.

ابن الساعي: تاج الدين ابو طالب علي بن انجب (المتوفى ٦٧٤)

٥٠ - الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير

تحقيق الدكتور مصطفى جواد، المطبعة السريانية، بغداد ١٩٣٤.

٥١ - نساء الخلفاء (المسمى بجهات الائمة الخلفاء من الخرائر والاماء)

- تحقيق الدكتور مصطفى جواد، ط . دار المعارف بمصر .
- سبط ابن التعاويذي : ابو الفتح محمد بن عبيد الله (المتوفى ٥٨٣)
- ٥٢ - ديوانه
- تحقيق د . س . ماركليوث، مطبعة المقتطف، القاهرة ١٩٠٣ .
- سبط ابن الجوزي : شمس الدين ابو المظفر يوسف (المتوفى ٦٥٤)
- ٥٣ - مرآة الزمان في تاريخ الاعيان
- مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٥١ - ١٩٥٢ .
- السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي (المتوفى ٧٧١)
- ٥٤ - طبقات الشافعية الكبرى
- المطبعة الحسينية، القاهرة
- ابن سعد : محمد كاتب الواقدي (المتوفى ٢٣٠)
- ٥٥ - الطبقات الكبير
- ط . دار صادر - دار بيروت ١٩٥٨
- السمرقندي : النظامي العروضي (كان حيا سنة ٥٥٢)
- ٥٦ - جهاز مقالة
- نقله الى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور يحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ .
- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (المتوفى ٩١١)
- ٥٧ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
- ط . السعادة الاولى .
- ٥٨ - نزهة الجلساء في اشعار النساء
- تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ط . دار المكشوف، بيروت ١٩٥٨ .
- الشابشتي : ابو الحسن علي بن محمد (المتوفى ٣٨٨)
- ٥٩ - الديارات
- تحقيق كوركيس عواد، الطبعة الثانية . مطبعة المعارف . بغداد ١٩٦٦ م .
- ابن شاعر : محمد بن شاعر بن احمد (المتوفى ٧٦٤)
- ٦٠ - فوات الوفيات
- تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط . السعادة، مصر ١٩٥١ م .

ابو شامة: عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (المتوفى ٦٦٥)

٦١ - الروضتين في اخبار الدولتين

مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٨ هـ.

٦٢ - ذيل الروضتين

نشر عزة العطار ١٩٤٧ م.

الشريف الرضي: ابو الحسين محمد (المتوفى ٤٠٦)

٦٢ - ديوان الشريف الرضي

المطبعة الادبية، بيروت ١٣٠٧ هـ.

ابن شهر اشوب: محمد بن علي (المتوفى ٥٨٨)

٦٤ - مناقب آل أبي طالب

المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٦.

ابو الصابوني: جمال الدين ابو حامد بن علي المحمودي (المتوفى ٦٨٠)

٦٥ - تكملة اكمال الاكمال في الانساب والاسماء والالقاب

تحقيق الدكتور مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٧.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفى ٧٦٤)

٦٦ - الوافي بالوفيات

صدرت منه ثمانية أجزاء طبعت في فيسبادن واستانبول ودمشق بتحقيق جماعة من

الفضلاء.

٦٧ - نكت المهيان في نكت العميان

تحقيق احمد زكي، المطبعة الجمالية، مصر ١٩١١ م.

٦٨ - الغيث المسجم في شرح لامية العجم

المطبعة الوطنية، الاسكندرية ١٢٩٠ هـ.

٦٠ - نصره الثائر على المثل السائر

ط . المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٧٢، تحقيق محمد علي سلطاني.

٧٠ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون

مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٩.

ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا (المتوفى ٧٠٩)

٧١- الفخري في الاداب السلطانية والدولة الاسلامية عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة .

ابن عساكر: ابو القاسم علي بن الحسن (المتوفى ٥٧١هـ)

٧٢ - تاريخ دمشق

تهذيب وترتيب عبد القادر بن احمد بن بدران
مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ .

العكبري: ابو البقاء عبد الله بن الحسين (المتوفى ٦١٦هـ)

٧٣ - شرح ديوان المتنبي (ينسب له)

ط . البابي الحلبي الثانية ١٩٥٦ .

ابن العماد: ابو الفلاح عبد الحي الحنبلي (المتوفى ١٠٨٩هـ)

٧٤ - شذرات الذهب في اخبار من ذهب

ط . مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .

العماد الاصفهاني: ابو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى ٥٩٧هـ)

٧٥ - خريدة القصر وجريدة العصر - القسم العراقي

الجزء الاول والثاني، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥ - ١٩٦٤ ، الجزء

الرابع (في مجلدين) مطبوعات وزارة الاعلام العراقية ، بغداد ١٩٧٣ ، تحقيق
محمد بهجة الاثري .

٧٦ - خريدة القصر وجريدة العصر - قسم بلاد الشام .

تحقيق الدكتور شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٥٩ .

عمر بن ابي ربيعة (المتوفى ٩٣هـ)

٧٧ - ديوانه

ط . دار صادر - دار بيروت ١٩٦١

ابو الفرج الاصفهاني: علي بن الحسين (المتوفى ٣٥٦هـ)

٧٨ - الاغاني

عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة .

الفرزدق: همام بن غالب (المتوفى ١١٠هـ)

٧٩ - شرح ديوانه

مطبعة الصاوي ١٩٣٦ .

ابن الفوطي: كمال الدين عبد الرزاق بن احمد (المتوفى ٧٢٣)

٨٠ - تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقباب

الجزء الرابع: ق ١، ٢، ٣، ٤ تحقيق الدكتور مصطفى جواد، المطبعة الهاشمية.
دمشق ١٩٦٢ - ١٩٦٧.

الجزء الخامس ط . لاهور ١٩٤٠ باعتناء الحافظ محمد عبد القدوس القاسمي

ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري (المتوفى ٢٧٦)

٨١ - الشعر والشعراء

عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

القرشي: محمى الدين ابو محمد عبد القادر (المتوفى ٧٧٥)

٨٢ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية

مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٧٢ هـ.

القشيري: ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن (المتوفى ٤٦٥)

٨٣ - الرسالة القشيرية

ط . بولاق ١٢٨٤ هـ.

القفطي: جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف (المتوفى ٦٤٦)

٨٤ - انباه الرواة على أنباء النحاة

ط . دار الكتب المصرية ١٩٥٠

٨٥ - المحمدون من الشعراء واشعارهم

منشورات دار اليمامة، الرياض ١٩٧٠.

٨٦ - تاريخ الحكماء

ط . السعادة، القاهرة ١٣٢٦ هـ.

القلقشندي: ابو العباس احمد (المتوفى ٨٢١)

٨٧ - صبح الاعشى في صناعة الانشا

ط . دار الكتب المصرية.

ابن كثير: عماد الدين ابو الفداء اسماعيل (المتوفى ٧٧٤)

٨٨ - البداية والنهاية

مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٥٨ هـ.

المرزباني: ابو عبيد الله محمد (المتوفى ٣٨٤)

٨٩ - الموشع في مآخذ العلماء على الشعراء

المطبعة السلفية، مصر ١٣٤٣ هـ.

المرزوقي: ابو علي احمد بن محمد (المتوفى ٤٢١)

٩٠ - شرح ديوان الحماسة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١.

السعودي: ابو الحسن علي (المتوفى ٣٤٦)

٩١ - مروج الذهب

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط . السعادة الثانية ١٩٤٨.

ابن المعتز: ابو العباس عبد الله (المتوفى ٢٩٦)

٩٢ - طبقات الشعراء المحدثين

ط . دار المعارف ١٩٥٦.

ابن معد يكرب: عمرو الزبيدي (المتوفى ٢٢١)

٩٣ - ديوانه

تحقيق هاشم الطعان، مطبوعات وزارة الاعلام العراقية، سلسلة كتب التراث

(١٤).

المعري: ابو العلاء احمد بن عبد الله (المتوفى ٤٤٩)

٩٤ - شرح التنوير على سقط الزند

ط . بولاق، ١٢٨٦ هـ.

المقريزي: تقي الدين احمد بن علي (المتوفى ٨٤٥)

٩٥ - السلوك لمعرفة دول الملوك

ط . دار الكتب ١٩٣٤.

ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (المتوفى ٧١١)

٩٦ - لسان العرب

ط . دار صادر - دار بيروت ١٩٥٥.

مهيّار: ابو الحسن مهيّار بن مرزويه (المتوفى ٤٢٨)

٩٧ - ديوانه

ط . دار الكتب ١٩٣٠.

الميداني: احمد بن محمد (المتوفى ٥١٨)

٩٨ - مجمع الامثال

المطبعة الخيرية ١٣١٥ هـ.

ابن النبيه: كمال الدين علي بن محمد (المتوفى ٦١٩)

٩٩ - ديوانه

المطبعة العلمية، القاهرة ١٣١٣ هـ.

ابن النديم: محمد بن اسحاق (المتوفى ٣٨٥)

١٠٠ - الفهرست

عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

النواجي: شمس الدين محمد (المتوفى ٨٥٩)

١٠١ - حلبة الكميت

ط . المكتبة الاعلامية ١٩٣٨.

ابو نواس: الحسن بن هاني (المتوفى ١٩٩)

١٠٢ - ديوانه

الطبعة المعتمدة هي طبعة اسكندر آصاف الامة واحدة في الفصل الخامس،

وقد اشترت الى الطبعة الاخرى في الهامش.

التويري: شهاب الدين احمد (المتوفى ٧٣٣)

١٠٣ - نهاية الارب في فنون الادب

ط . دار الكتب المصرية.

ابن هاني: محمد بن هاني الاندلسي (المتوفى ٣٦٢)

١٠٤ - شرح ديوانه

تحقيق الدكتور زاهد علي، مطبعة المعارف، مصر ١٣٥٢ هـ.

ياقوت الحموي: ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله (المتوفى ٦٢٦)

١٠٥ - معجم الادباء

عدة طبعات اشير اليها في الهوامش.

١٠٦ - معجم البلدان .

ط . السعادة، القاهرة ١٩٠٦.

ج - المراجع الحديثة:

ابراهيم انيس:

١٠٧ - دلالة الالفاظ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣.

ادي شير:

١٠٨ - الالفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٨.

الآلوسي: السيد محمود شكري

١٠٩ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط . بولاق ١٣٠١ هـ.

امين: الدكتور حسين

١١٠ - تاريخ العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الارشاد، بغداد

١٩٦٥

باشا: الدكتور عمر موسى

١١١ - الادب في بلاد الشام

الطبعة الثانية، دمشق ١٩٧٢.

بدري محمد فهد: الدكتور

١١٢ - العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٦٧.

١١٣ - تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٧٣.

بكار: يوسف حسين

١١٤ - اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ط . دار المعارف، مصر ١٩٧١.

التونجي: الدكتور محمد

١١٥ - حول الادب في العصر السلجوقي، ط . مكتبة قورينا، بنغازي ١٩٧٤.

جب: سير هاملتون

١١٧ - المدخل في الادب العربي، ترجمة كاظم سعد الدين، مطبعة دار الجاحظ، بغداد

١٩٦٩.

جميل سعيد: الدكتور

١١٧ - تطور الخمریات في الشعر العربي، مطبعة الاعتماد، مصر ١٩٤٥.

جواد: الدكتور مصطفى بالاشتراك مع الدكتور احمد سوسة

١١٨ - دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٨.

حسين: الدكتور محمد كامل

١١٩ - دراسات في الشعر في عصر الايوبيين، ط . دار الفكر العربي، مصر.

١٢٠ - في ادب مصر الفاطمية، سلسلة الالف كتاب ١٩٦٣.

حقى : الدكتور ممدوح

١٢١ - الابدردى؁ دار الیقظة العربیة للتألیف والترجمة والنشر بسوریة؁ سلسلة عیون التراث العربی (٢) .

همزة : الدكتور عبد اللطیف

١٢٢ - ادب الحروب الصلیبیة؁ مطبعة الاعتماد؁ مصر ١٩٤٨ .

خلوصی : الدكتور صفاء

١٢٣ - فن التقطیع الشعری والقافیة؁ الثالثة؁ بیروت ١٩٦٦

خلیف : الدكتور یوسف

١٢٤ - حیاة الشعر فی الکوفة؁ ط . دار الکتب العربی؁ ١٩٦٨ .

الزركلی : خیر الدین

١٢٥ - الاعلام الطبعة الثانية .

الزهیری : الدكتور محمود غناوی

١٢٦ - الادب فی ظل بنی بویه؁ مطبعة الامانة؁ القاهرة ١٩٤٩ .

سرور : الدكتور محمد جمال الدین

١٢٧ - النفوذ الفاطمی فی بلاد الشام والعراق؁ الطبعة الثالثة؁ دار الفکر العربی ١٩٦٤

سلام : الدكتور محمد زغلول

١٢٨ - الادب فی العصر الایوبی؁ ط . دار المعارف ١٩٦٨ .

السمره : الدكتور محمود

١٢٩ - القاضی الجرجانی؁ المکتب التجاری للطباعة والنشر والتوزیع؁ بیروت

. ١٩٦٦

السودانی : مزهر عبد

١٣٠ - لحظة البرمکی الادیب الشاعر؁ رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بغداد؁

مکتوبة علی الآلة الکتابة ١٩٦٨ .

شلش : محمد جمیل

١٣١ - الحماسة فی شعر الشریف الرضی؁ منشورات وزارة الاعلام العراقیة؁ سلسلة

الکتب الحدیثة ١٩٧٤ .

الشیبی : الدكتور کامل

- ١٣٢ - درّان الدوييت في الشعر العربي، ط . دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢ .
- ١٣٣ - الفكر الشيعي والنزعات الصوفية، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٦ .
- صلاح الدين محمد الهادي : الدكتور
- ١٣٤ - اثر الصراع المذهبي بين العباسيين والفاطميين على الادب، رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية دار العلوم، مكتوبة على الآلة الكاتبة، مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٦ رسائل جامعية .
- ضيف : الدكتور شوقي
- ١٣٥ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، الطبعة السابعة ١٩٦٩ .
- ١٣٦ - العصر العباسي الاول، ط . دار المعارف .
- الطاهر : الدكتور علي جواد
- ١٣٧ - الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي، جزءان : الجزء الاول، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٨ . الجزء الثاني : مطبعة العاني، بغداد ١٩٦١ .
- طه ابراهيم :
- ١٣٨ - تاريخ النقد الادبي عند العرب، منشورات دار الحكمة، بيروت .
- العامي : السيد محسن الامين
- ١٣٩ - اعيان الشيعة، ج ٣٤، مطبعة الانصاف، بيروت ١٩٥٠ .
- عبد الباقي : محمد فؤاد
- ١٤٠ - المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم، مطابع الشعب، القاهرة ١٩٥٨ .
- عبد التواب : الدكتور رمضان
- ١٤١ - لحن العامة، الطبعة الاولى ١٩٦٧ .
- العقاد : عباس محمود
- ١٤٢ - ابن الرّومي حياته من شعره، الطبعة الخامسة ١٩٦٣ .
- ١٤٣ - غرونيباوم : دراسات في الادب العربي، ترجمة احسان عباس وآخرين .
- بيروت ١٩٥٩، منشورات دار مكتبة الحياة .
- غويستان فون غياض : الدكتور محسن
- ١٤٤ - التشيع واثره في شعر العصر العباسي الاول، مطبعة النعمان، النجف ١٩٧٣ .

فارمر: هنري جورج

١٤٥ - تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة الدكتور حسين نصار، سلسلة الالف كتاب (٧).

ف بارتولد:

١٤٦ - تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط . دار المعارف ١٩٦٦، الطبعة الرابعة.

فك : يوهان

١٤٧ - العربية، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مصر ١٩٥١.

كحالة: عمر رضا

١٤٨ - معجم قبائل العرب، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٤٩.

١٤٩ - معجم المؤلفين، مطبعة الترقى، دمشق ١٩٥٧.

مبارك: الدكتور زكي

١٥٠ - المدائح النبوية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧.

مجمع اللغة العربية

١٥١ - معجم الفاظ القرآن الكريم، الطبعة الثانية، ١٩٧٠.

المصري: الدكتور ذو النون

١٥٢ - عمارة اليميني المصري، ط . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦.

معروف: الدكتور ناجي

١٥٣ - نشأة المدارس المستقلة في الاسلام، مطبعة الازهر، بغداد ١٩٦٦.

١٥٤ - مدارس واسط، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٦٦.

النشار: الدكتور علي سامي

١٥٥ - نشأة التشيع وتطوره، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٦٩.

وافى : الدكتور علي عبد الواحد

١٥٦ - اللغة والمجتمع، ط . عيسى البابي الحلبي ١٩٤٥.

هدارة: الدكتور محمد مصطفى

١٥٧ - اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري

ط . دار المعارف ١٩٦٣.

سومر (تصدرها مديرية الآثار العامة ببغداد)، العدد ٩٠ سنة ١٩٥٤، مقال للدكتور مصطفى جواد عن الربط البغدادية .
العربي (كانت تصدر في النجف)، السنة السابعة، مقالات الدكتور مصطفى جواد عن أدب القرن الخامس - السادس .
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد ٤٣، مقالات الاستاذ عبد الله كنون عن ادب الفقهاء .

(الفهرست)

الموضوع

الصفحة

المقدمة	٥
الفصل الاول- دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العراق في القرن السادس	٩
الحياة السياسية	١١
الحياة الاجتماعية	١٨
١- اثر السلاجقة	١٨
٢- العيارون	٢٠
٣- القبائل العراقية	٢٢
أ- المزيديون	٢٢
ب- المنتفق	٢٤
ج- خفاجة	٢٥
٤- فساد الجهاز الاداري	٢٧
الحياة الثقافية	٢٩
حركة التأليف	٣١
المدارس	٣٥
المساجد والجوامع	٣٧
الربط	٣٩
الفصل الثاني- شعراء محافظون	٣٩
الاتجاه المحافظ	٤٥
شعراء محافظون	٤٦
أ- شيوخ المحافظين	٤٧
ج- شعر الطبقة الحاكمة	٧٤

٥٩	ب- محافظون مجددون
٧٦	١- الفراغ
٧٧	٢- السجن والاعتقال
٧٨	٣- التغرب والحنين الى الوطن
٧٩	د- شعر العلماء
٨٢	١- نقد الحكام وتعريتهم
٨٣	٢- كثرة التعليل
٨٣	٣- استعمال الالفاظ والاصطلاحات العلمية
٨٤	٤- الغربة والحنين الى الوطن
٨٥	٥- الاحاجي والغاز والمعارضات
٨٧	الفصل الثالث- الشعر المحافظ .. اشهر اغراضه
٨٩	١- المدح
٩٠	عوامل أثرت في المدح
٩٥	المدح بين التطور والجمود
١٠٣	عيوب المدح
١٠٩	الهجاء
١١١	ضروب المهجوين
١١١	١- كبار موظفي الدولة
١١٥	٢- هجاء اصحاب الحرف
١١٦	٣ - هجاء المدن
١١٨	الهجاء بين اللفظ والمعنى
١٢٤	٣- الغزل والنسيب
١٢٧	١- الغزل المغنى
١٢٩	٢- امشاج من الغزل
١٣١	خصائص الغزل
١٣١	١- غلبة التقليد عليه
١٣٧	٢- قلة التجديد
١٤٥	٤- الرثاء
١٤٧	ضربا الرثاء
١٤٧	١- رثاء الاهل والاقارب

١٤٨	٢- رثاء الاباعد
١٥٧	الفصل الرابع : الاتجاه الديني
١٦٠	١- الدين والسياسة
١٦١	أ- بين المسلمين والصلبيين
١٦٩	ب- بين العباسيين والفاطميين
١٧٧	مدح العباسيين بعقائد الفاطميين
١٨٨	ج- بين العباسيين والسلاجقة
١٩٣	٢- بين الفكر والدين
٢٠٢	شعر العقائد
٢٠٧	٣- الدين الصرف
٢١٢	مدح الرسول ﷺ
٢١٦	التصوف
٢٢٣	الفصل الخامس : الخمر والغزل بالمذكر والمجون
٢٢٥	١ - شعر الخمر
٢٣٤	هل من جديد في شعر الخمر؟
٢٤٨	ضربا الشعر الخمري
٢٤٩	١ - مقدمات المدائح
٢٥٢	٢ - الخمریات المستقلة
٢٥٧	٢ - الغزل بالمذكر
٢٦٢	ضربان من الغزل بالمذكر
٢٦٣	مقدمات المدائح
٢٦٧	غزل مستقل
٢٦٨	اسباب تورط بعض العلماء في الغزل بالمذكر
٢٧١	اتجاهان في الغزل بالمذكر
٢٧١	١ - التغزل بالسقاة
٢٧٣	٢ - التغزل بالعذار
٢٧٧	المجون والسخف
٢٨٣	الفصل السادس : الدراسة الفنية
٢٨٥	١- اللفظ والمعنى
٢٩٣	٢- الفارسية

٢٩٧	٣- اللغة
٢٩٨	أ- ركة التعابير
٣٠٢	ب- العامية
٣٠٨	٤- وجوه البلاغة العربية
٣١٢	التشبيه
٣٢٢	الاستعارة
٣٣٠	- الوان من البديع :
٣٣١	الجناس
٣٣٢	الطباق
٣٣٤	الترصيع
٣٣٤	التضمين
٣٣٥	التورية
٣٣٦	حسن التعليل
٣٣٦	حسن التخلص
٣٣٩	الخاتمة
٣٤٣	المراجع والمصادر

رقم الايداع في المكتبة الوطنية – بغداد
« ١١٤٦ لسنة ١٩٨٠ »

تصميم الغلاف : سلسبيل ناجي

دَارُ الطَّلِيعَةِ للطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ
بِـيَـرُوتَـ

الجمهورية العراقية

وزارة الثقافة والاعلام

دار الرشيد للنشر

١٩٨٠

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والإعلان

دار الطليعة للطباعة والنشر
ببيروت

العر: ٤٥٠ فلسًا